فتاوى
الإمام عبد الحليم محمود

الجزء الأول



دار المعارف

فتاوى
الإمام عبد الحليم محمود

فتاوى
الإمام عبد الحليم محمود

الجزء الأول

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

وهَيِّئْ لنا مِنْ أمْرِنَا رَشَداً

جهد المقل

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد سيد الخلق أجمعين ، وبعد .

فلما كان تراث مولانا الإمام عبد الحليم محمود رضى الله عنه مما يحرص المسلمون جميعًا على الاستفادة منه والانتفاع بما قدم فيه من كنوز وذخائر ، وكانت فتاواه تغطى كثيرًا من المسائل التى تهم المؤمن فى حياته وسلوكه من عقائد وأحكام وآداب ، فقد وجدنا لزامًا علينا أن نجمعها فى هذا السفر .

وقد حرصنا على جمع كل مايمكن جمعه من هذه الفتاوى التى نُشرت أو أذيعت أو ألقيت أو أُرسلت إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، حتى اجتمع لنا هذا العدد المبارك إن شاء الله منها ، فتوفرنا على إعدادها وتصنيفها وتبويبها محاولين الرجوع دائمًا إلى الأصل المكتوب بخط الإمام رضى الله عنه .

وبدأنا بما يتعلق بالعقائد ، إلهية ونبوية وغيرها ، باعتبارها الأساس الذى تنبنى عليه المسائل ، ثم ألحقناها بما توفر فى علوم القرآن والسنّة ، وثنينا بمسائل عامة فى الفقه ، تقوم مقام الأصول فيه ، فالمسائل التى تتحدث فى جزئياته وفروعه ، ثم المسائل العامة التى تتعلق بالحلال والحرام والعلم فى الإسلام والتصوف الإسلامى ، وختمنا بمسائل عن الدين والحياة .

وهذا جهد المقل ، فقد كان مولانا الإمام عبد الحليم محمود رضى الله عنه قطب العصر وخاتمة العلماء المحققين ، وليس لمثلى أن يملك أكثر مما فعل ، والله هو الهادى إلى سواء السبيل .

الزيتون — السلام

مولد الإمام عبد الحليم محمود (رضى الله عنه)

١٩٧٩/٥/١٠

د. منيع عبد الحليم محمود

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

بالأزهر الشريف

سُئِلَ رضى الله عنه فى العقيدة

فى العقيدة الإسلامية

إن رجال الأمم الإسلامية ترتفع أصواتهم فى كل مكان فى الآونة الحاضرة منادية بالإصلاح ، وعاملة على الأخذ فى سبيله ، من أجل مايتمناه الجميع من نهضة نرجو الله أن تأخذ طريقها السليم .

ولاريب فى أن مشكلة الإصلاح الإسلامى لاتزال فى حاجة إلى معالجتها فى إجمالها وعمومها .

ماهو الأساس ، وماهى العناصر التى يقوم عليها الإصلاح الإسلامى فى الأسرة ، فى المدرسة ، فى الجامعات ، فى المجتمع الكبير ، مجتمع الأمة الإسلامية ؟ .

وإن أمل المسلمين الغيورين أن يوفق الله المصلحين والباحثين وحملة الأقلام إلى أن يصدروا فى توجيهاتهم وفى إصلاحهم عن الإسلام . يتخذونه أساسًا يستنيرون بمبادئه وأهدافه .

وبعض الناس حينما يثار موضوع الإصلاح يتجهون عادة إلى أوربا وأمريكا ، أى إلى الحضارة الحديثة ، يستلهمونها التوجيه فى المنهج والموضوع ، إنهم يستلهمون أوربا فى منهج الإصلاح وموضوع الإصلاح الذى يرون تطبيقه فى الأمم الشرقية الإسلامية . غير مراعين فى ذلك اختلاف البيئة ، واختلاف الدين ، واختلاف العرف والتقاليد ، واختلاف الماضى الحضارى .

ومن أجل ذلك يتساءل كثير من الناس .

ماموقف المسلم من الحضارة الحديثة ؟ .

وما موقف علماء الإسلام منها ؟ .

والواقع أن هذا الموضوع أثار كثيرًا من الجدل والنقاش فى مختلف الأقطار الإسلامية والشرقية ، ولم ينته الحديث فيه بعد ، فلا يزال الجدل للآن فيه مستمرا ، ولاتزال الندوات تعقد هنا أو هناك ، والمقالات تحبر فى هذه المجلة أو تلك . . يرى قوم أن سبيل الإصلاح هو أن نأخذ الحضارة الحديثة ككل ، نأخذها بمالها وماعليها ، نأخذها بدون تمييز ولاتخير .

ومنذ عهد ليس ببعيد وقف أحد كبار الشرقيين فى ندوة جمعت بين كبار رجال الفكر وكبار علماء الدين وأعلن .

لِمَ نتنكر للحضارة الحديثة ؟

هذه الطائرات التى نستخدمها ، هذه الأدوية التى نستعملها ، مستحضرات التجميل هذه

التى نسعد بها ، أليست ثمار الحضارة الحديثة ، إنه يجب علينا عرفانًا بالجميل أن نأخذ الحضارة الحديثة ككل ، نأخذها وحدة لاتنفصم وليس هذا رأى هذا المفكر وحده ، وإنما هو رأى طائفة كبيرة فى الشرق تدعو إلى أخذ الحضارة الحديثة ككل دون استثناء شىء منها .

١ – إن الحضارة الحديثة فى رأيهم حضارة متكاملة مادة ، ومعنى ، شكلا وجوهرًا فلنأخذها ككل .

٢ – ويعارض هؤلاء كثيرون . يرفضون الحضارة الحديثة جملة وهذا الرفض قد يكون كثيرًا فى الأفراد. بيد أن بعض الدول تبنته أيضًا ، حاولت بعض الدول فى الماضى أن ترفض الحضارة الحديثة كلية وأن تغلق فى وجهها الأبواب ، ولم توفق الدول ولم يوفق الأفراد أيضًا فيما يتعلق بهذه المحاولة .

٣ – والرأى الثالث يرى أنه علينا أن نأخذ الحضارة المادية ، أما الحضارة النظرية فإننا نأخذ منها الصالح ونترك منها غير الصالح .

وهذا الرأى يبدو أنه رأى الأغلبية .

هذه هى مجموعة الآراء فيما يتعلق بالموضوع ، بل هى تقريبًا مجموعة الاحتمالات العقلية فى ذلك ، ومع هذا فإننى شخصيًّا لم أرتض منها رأيًا .

أما فيما يتعلق بأخذ الحضارة كُلاًّ لا يتجزأ فأظن أن المسألة فى الجو الإيمانى وفى الجو الإسلامى السليم لاتحتاج إلى مناقشة كثيرة .

هذه الحضارة الأوربية فيها الكثير مما يخالف المبادئ الإيمانية والمبادئ الإسلامية ، فلا يتأتى أن يسود رأى كهذا فى الجو الإسلامى .

أما فيما يتعلق برفضها كلية فإن هذا – واقعيًّا – لم يتحقق لافى الأفراد ولافى الجماعات ، ولافى الدول ولافى الأقطار أيًّا كانت .

ليس هناك قطر لم يستفد من الحضارة الحديثة ، وليس هناك إنسان لم يستفد من الحضارة الحديثة .

الإنسان والأقاليم والأقطار ، بل بنو آدم كلهم ، قد استفادوا من هذه الحضارة الحديثة ، وهذه الفكرة لم تتحقق فى الواقع .

ويأتى الرأى الوسط الذى ساد ويسود فى كثير من الأوساط ، والذى يبدو لكثير من الناس أنه الرأى السليم الصحيح ، نأخذ من الحضارة الحديثة ، ونترك من الحضارة الحديثة الضار والفاسد .

وبتأمل بسيط يمكننا أن نرى أن هذا الرأى فاسد أيضًا ، إذ يعتمد على الاختيار العقلى وعلى

الميول البشرية للإنسان دون ملاحظة للدين . إذا قلنا بأخذ الصالح فما هو الصالح ؟ وفى رأى من ؟

إن الصالح يختلف من إنسان إلى آخر .

إذا قلت مثلا ٦٪ فائدة البنـوك ثم تساءلت : أهذا صالح أم غير صالح ؟ يقول لك كثير من الناس بحسب عقولهم وأفكارهم وآرائهم ، يقولون لك إنه لابأس بذلك ، لابأس بستة فى المائة فى البنوك ، ويرفض ذلك آخرون .

فهل ٦٪ فى البنوك صالح أخذها أو ليس بصالح ؟ يختلف الناس .

ونأتى إلى مسائل أخرى متحدثين بأسلوب الدين ونقول : شرب قليل من الخمر هل هو صالح أو ليس بصالح ؟

وستجد لامحالة من يقول لك ، إنه لابأس بشرب قليل من الخمر ؟ والاستحمام المختلط على الشواطئ جماعات رجالا ونساء ، هل هو صالح أو ليس بصالح ؟ .

هل نأخذه من الحضارة الغربية أوْلا نأخذه من الحضارة الغربية ؟ : ستجد أيضًا أصحاب الأهواء الشيطانية ، وأصحاب الآراء الجنسية ، يقولون لك : إن هذا صالح . الجسم صحته تتوافر فى ضوء الشمس ، ويستفيد من الفيتامينات التى فى إشعاع ضوئها ، و . . .

هذه القضايا – وكثير غيرها مما لايقرها الدين – سنجد لها أتباعًا يقرونها من هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم ، وسنجد من يقول : إن ذلك صالح .

إذا قلنا بأخذ الناحية الصالحة فى الحضارة الحديثة ورفض الناحية غير الصالحة فإن الرأى لايستقيم ، لأن الناس يختلفون فيه اختلافًا كبيرًا ، ولايتأتى التحديد : تحديد الصالح وتحديد غير الصالح ، لايتأتى الاتفاق على التحديد مادمنا فى مجال العقل فحسب ، ومادامت المسألة آخذة وضعها العقلى الفكرى فقط .

ماالمخرج – إذن – من هذا ؟ .

ماهو – إذن – موقفنا من الحضارة الحديثة إذا كنا لانقبلها ولانرفضها ولانقبل التوسط فيها ؟ .

وأريد أن آخذ الآن فى إبداء رأينا الشخصى فيما يتعلق بالموضوع ونحن فيما يتعلق بمجال الحضارة الحديثة نرى – كما يرى غيرنا – والآراء فيما سنذكره لاتختلف تقريبًا – أن الحضارة الحديثة تنقسم إلى قسمين :

القسم المادى : قسم المعامل والمصانع ، قسم الطب ، قسم الكيمياء ، قسم الطبيعة هذه

الناحية المادية البحتة من الحضارة الحديثة لايتأتى لنا قط أن نقول إن أوربا ابتدعتها ابتداعًا أو اخترعتها اختراعًا .

وهذه الناحية نفسها – الناحية المادية – لها جانبان .

جانب المنهج – وجانب الموضوع : أما فيما يتعلق بجانب المنهج فإنه منهج الاستقراء ، وهو منهج تتبع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية .

هذا المنهج الاستقرائى ، أو المنهج العلمى ، أو منهج السمع والبصر أى منهج الملاحظة -- منهج إسلامى .

لقد سار عليه الإسلام وسار عليه المسلمون قبل أن تنشأ الحضارة الأوربية . (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) .

والسمع والبصر أساس الملاحظة والتجربة ، أو عنهما تنشأ الملاحظة والتجربة . إن عدم اتباع الظن والسير وراء الملاحظة ووراء التجربة . هذا منهج الإسلام اتخذه المسلمون منذ زمن بعيد ، وقد اعترف الغربيون أنفسهم بأن الإسلام هو الذى بدأ بوضع المنهج التجريبى ، واعترفوا بأن « روجيه باكون » الذى يعتبر فى أوربا المؤسس الأول للمنهج التجريبى أخذه عن العرب ، وبأنه لم يكن إلا تلميذًا من تلاميذ العرب . . لم يكن إلا طالبًا فى مدرسة العرب . اعترفوا بهذا صراحة ، يقول أحد كتابهم فيما يتعلق بالمنهج الخاص بالتجربة والملاحظة أى منهج الاستقراء الذى بنيت عليه الحضارة المادية الحديثة – وهو الأستاذ « بريفولت » فى كتابه (بناء الإنسانية) يقول :

ليس « لروجيه باكون ولا لفرانسيس باكون » الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن « روجية باكون » إلا رسولا من رسل العلم ، والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو نفسه لم يمل قط من التصريح بأن تعلّم معاصريه فى أوربا اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

ويقول فى مكان آخر من كتابه :

ولقد كان العلم أهم ماجادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ويقول أيضا : لم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثرات كثيرة من الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية .

ويستفيض المؤلف فيما يتعلق بما للعرب وبما للمنهج العربى من أثر فيما يتعلق بالحضارة الحديثة .

لا أريد أن أطيل فى سرد نصوصه -- وهى كثيرة -- كلها تثبت أن هذا المنهج التجريبى إنما هو المنهج الذى قامت عليه الحضارة العربية ، وأن أوربا إنما أخذته من العرب ولم تبتدعه ابتداعًا ولم

تكتشفه اكتشافاً . هذا فيما يتعلق بالمنهج .

أما فيما يتعلق بالموضوع فإن المؤلف نفسه الذى ألف هذا الكتاب الذى تحدثنا عن بعض آرائه ، يقول فى صراحة لالبس فيها . إن العلم الأوربى مدين للعلم الإسلامى العربى فى كثير من موضوعاته ، إنه ليس مديناً فى المنهج فحسب وإنما فى الموضوعات أيضاً .

ومما هو معروف أنه كان فى الحضارة الإسلامية أفذاذ فيما يتعلق بالعلم الطبيعى ، كان هناك ابن الهيثم فى البصريات وفى الأضواء .

ويرى كثير من المؤرخين للحضارة الأوربية أن كتاب « باكون » نفسه فى الحرارة والضوء ماهو إلا نسخة من كتاب ، ابن الهيثم « فى البصريات » .

كان عندنا ابن الهيثم فى الطبيعة .

وكان عندنا الرازى وابن سينا فى الطب .

وكان عندنا جابر بن حيان فيما يتعلق بالكيمياء .

وكان عندنا الكندى فيما يتعلق بالرياضيات .

كان عندنا كل هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين تعترف أوربا بأنها مدينة لهم إلى الآن فيما يتعلق بمنهجهم التجريبى المبنى على الملاحظة وعلى التجربة .

وفيما يتعلق بالموضوعات التى تطرقوا إليها واستنتجوا منها النتائج التى لاتزال لها قيمتها الآن .

هذا الموضوع – موضوع الطبيعة – إذا أردنا التعبير الإسلامى عنه هو على حد الكلمة التى أطلقها الشيخ (محمد عبده) وهى الكلمة التى تعبر التعبير الصحيح الإسلامى .(سنن الله الكونية) .

فالطبيعة وقوانينها واكتشافاتها وموضوعاتها والبحث فيها إنما هو البحث فى سنن الله الكونية « واكتشاف قوانينها إنما هو اكتشاف لسنن الله الكونية » .

إن الله سبحانه وتعالى يمن علينا فى القرآن الكريم بأن سخر لنا البحار والأنهار ، وسخر لنا الأرض وسخر لنا السماء ، وسخر لنا الكواكب وسخر لنا القمر ، وسخر لنا الشمس ، وسخر لنا الكون كله ، لقد سخره للإنسان ، وهو بهذا الامتنان يطلب من الإنسان أن يجوب الفضاء وأن يغوص فى الماء ، وأن يخترق كل المعميات فى هذا الكون حتى يزداد إيماناً على إيمان وإقراراً ، فيزداد فى خضوعه وفى خشوعه لعظمة الله العظيمة ، ولهيمنته هذه التى لايندّ عنها شىء فى هذا العالم المسخر .

تتبع آيات الله فى الأنفس وفى الآفاق ، كل هذا دعوة إسلامية ، وتتبع آيات الله والتسخير

لايتأتى إلا عن طريق الملاحظة وعن طريق التجربة المنهج التجريبى المنهج الحديث : هذا هو منهج الإسلام .

ويدعونا الإسلام أيضًا – إلى أن نكون فى هذا الجانب المادى أقوى مانكون .

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)

والاستطاعة لاتكاد تحد ، وكلما وصل الإنسان إلى حد من الاستطاعة تفتحت أمامه آفاق استطاعات جديدة يجب عليه أن يلجها ، فهو فى كل آونة مترق فى عالم الطبيعة ، وهو فى كل آونة متتبع لهذه القوانين مترق فيها حتى يظل دائمًا فى القمة ، فيكون مركزه دائمًا وباستمرار القمة من القوة المادية . .

وإذا كان المسلمون قد تأخروا فى هذا الجانب فليس ذلك ذنب القرآن الكريم ولاذنب الإسلام وإنما ذنب تكاسلهم وخمولهم .

وهم بهذا التأخر آثمون إسلاميًّا ، إنهم آثمون فى نظر الإسلام وفى نظر القرآن الكريم . . فهم أصحاب دعوة ، والقرآن أعدهم من قديم لهذه الدعوة . وهم أصحاب رسالة ، وأصحاب الرسالات إن لم يكن عندهم القوة القوية ، وإن لم يكن عندهم السلطان المسيطر ، إن لم تكن عندهم السيطرة المتحكمة من أجل الخير ومن أجل العدل ومن أجل الحق ، إن لم يكن عندهم هذا فإن رسالتهم تستمر حبرًا على ورق ، ولم يرد الإسلام أن تكون الرسالة الإسلامية – أو أن تستمر الرسالة الإسلامية – حبرًا على ورق .

فالإسلام يدعو المسلمين إلى أن يكونوا أقوى دولة فى العالم ، فإذا ما ضعفوا كانوا آثمين فى نظر الإسلام ، كانوا آثمين وكانوا مقصرين فى حق رسالتهم التى كلفهم الله سبحانه وتعالى بها .

إنها آخر الرسالات ، إنها الرسالة الأبدية ، إنها الرسالة الدائمة ، ولابدمن قوة دائمة فى هذا العالم تسندها ، فإذا لم تكن هذه القوة فإن هذه الرسالة لايكون لها من التأثير ومن النفوذ ما يريده الإسلام منها ومن أصحابها .

الجانب المادى – إذن جانب إسلامى ، وماعلينا إلا متابعة الإسلام فى هذا الطريق بكل وسيلة ممكنة ، وبكل طريقة تتيسر .

ولايقال إذن – حينما نسير فى الحضارة المادية مكتشفين ومخترعين ومتبنين الاكتشافات والاختراعات إننا أخذنا الحضارة الأوربية ، وإنما يقال : إننا تابعنا الخطوات التى تابعها وسار فيها أسلافنا ، وإذا كنا فى هذا المجال نستعين بهذا أو ذاك فإن الاستعانة ليس معناها أخذ من الحضارة لأن هذا الجانب لالون له ، أى أن الرقى المادى لالون له ، لايقال هذه الكيمياء ألمانية أو فرنسية

أو إنجليزية وإنما هى الكيمياء أينما كانت وأينما وجدت لاتتسم بلون ، فإذا استعنا بهذا أو ذاك فى سبيل متابعة أسلافنا فيما يتعلق بهذا المجال فلسنا متابعين وإنما نحن نواصل هذه المجهودات التى بدأها أسلافنا وانقطعنا عنها فترة ونريد أن نعود إليها من جديد .

ويأتى بعد ذلك القسم الآخر من أقسام الحضارة الأوربية وهو القسم الثقافى . وهذا القسم الثقافى نبتدئ فيه بشىء من تاريخ الإسلام نفسه أو بعض الحوادث التى حدثت فى ربوع الإسلام .

لقد حلّ رسول الله ﷺ بالمدينة التى نورت به ، وأخذ يعمل جاهدًا على نشر الدعوة الإسلامية متخذًا كل وسيلة لبيانها وإيضاحها .

وفى يوم من الأيام – كما يروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن جابر رضى الله عنه – أتى عمر ابن الخطاب النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى ﷺ قال : فغضب وقال : « أمتهوكون »[1] فيها يا ابن الخطاب ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لاتسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبونه ، أو بباطل فتصدقونه ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيًّا ماوسعه إلا أن يتبعنى .

هذا الحادث رواه الإمام أحمد بوجه آخر عن سيدنا عمر رضى الله عنه ، وفيه يقول رسول الله ﷺ :

« والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم إنكم حظّى من الأمم وأنا حظكم من النبيين » .

ولم يكتف رسول الله ﷺ – بذلك بل قام خطيبًا ، وكان مما قال « ياأيها الناس إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى اختصارًا وقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ولايغرنكم المتهوكون » .

ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفًا حرفًا .

ويبدو أن هذه الحادثة تكررت بصورة أخرى « فقد روى ابن جرير وغيره قال : جاء أناس من المسلمين بكتب كتبوا فيها ماسمعوه من اليهود فقال النبى ﷺ كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره .

وتكررت المسألة مرة ثالثة ، فقد أخرج عبد الرازق فى المصنف والبيهقى فى شعب الإيمان عن

---

(١) أى تشككون فى شريعتكم .

الزهرى أن حفصة جاءت إلى النبى ﷺ بكتاب من قصص يوسف فى كتف فجعلت تقرؤه عليه والنبى عليه الصلاة والسلام يتلون وجهه ، ثم أعاد عليها ماسبق أن قال للآخرين وهو :

والذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف وأنا نبيكم فاتبعتموه وتركتمونى ضللتم : أنا حظكم من النبيين وأنتم حظى من الأمم .

وفى مرة رابعة قال رسول الله ﷺ هذه الكلمة التى تبين مدى مايجب على المسلمين نحو تعاليم نبيهم .

لقد قال ﷺ :

« والله لوكان موسى حيًّا ماحل له إلا اتباعى » .

ولقد أحب رسول الله ﷺ أن تكون المسألة فيما يتعلق بأخذ المسلمين عن غيرهم حاسمة باتّة ، فلقد مر الصحابة فى يوم من الأيام على اليهود وهم يتلون التوراة فتخشع المسلمون فعاتبهم رسول الله ﷺ قائلا الآية الكريمة .

(أوَلَم يكْفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم إنَّ فى ذلك لرحمة وذكرىَ لقوم يؤمنون)

وتمضى السنون وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ويتبع الصحابة هديه فى ألاّ يكون كتابهم وهدْى نبيهم ﷺ مجال توجيههم .

وفى يوم من الأيام بينما كانت السيدة عائشة رضى الله عنها فى بيتها إذا بها تتلقى هدية ، فظنت أنها أُهديت لها من عبد الله بن عمرو فردتها وذكرت السبب فى ردها قائلة عن عبد الله بن عمرو : إنه يتبع الكتب ، وقد قال الله تعالى .

(أَوَلم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)

فقال لها حامل الهدية ، إنها ليست من عبد الله بن عمرو ولكنها من عبد الله بن عامر فتقبلتها .

ويمضى الزمن والمسلمون يضعون أمام أعينهم قوله تعالى (وقد آتيناك من لدنَّا ذكرًا . من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً . خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حِمْلا) .

يقول الإمام ابن كثير :

يعنى من أعرض عن هذا القرآن فاتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد ، كما قال فى الحديث المروى فى المسند والترمذى عن أمير المؤمنين على مرفوعًا وموقوفًا .

« من ابتغى الهدى فى غيره أضَله الله » .

ولما تولى سيدنا عمر بن عبد العزيز الخلافة رأى أن المسلمين فى حاجة إلى معرفة أوسع بعالم

الطب ووسائل العلاج ، وفكر فى تيسير الاستعانة لأطباء المسلمين بثقافات الأمم الأخرى فى هذا المجال ، ففكر فى ترجمة كتاب أوكتب فى هذا الموضوع ، ولكنه قبل أن يقدم على الأمر سأل نفسه : إن هذا العمل عمل لم يفعل مثله رسول الله ﷺ ، ولم يفعل مثله أحد الخلفاء الراشدين ، فهل يجوز له أن يقوم بذلك ؟

وتردّد فى الأمر ثم استخار الله فترة طويلة من الزمن حتى شرح الله صدره لتنفيذ الترجمة فأمر بها ، وكان الكتاب بين أيدي المسلمين ، ولم يذكر أحد من المسلمين لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه نهيًا ، ولم يرفع أحد منهم صوتًا بالإنكار عليه ، لا لأنه الخليفة ولكن لأنهم لم يروا فى العمل من بأس .

وقد يتساءل إنسان عن السر فى موقف الرسول ﷺ وموقف عائشة رضوان الله عليها من الإنكار على الذين يتبعون الكتب وهو موقف يختلف عن موقف المسلمين من عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : حيث كانت موافقتهم له عامة كاملة .

وهنا قبل أن نمضى فى البحث نسارع بالعودة بالقارئ إلى ما سبق أن ذكرناه من التفرقة بين مجالين .

أولهما : المجال المادى ، مجال الطبيعة ، مجال المادة ، مجال الأرض والسماء ومابين الأرض والسماء . وهذا المجال لايطبع ذاتية الأمة بطابع خاص ، ولايعطيها لونًا معينًا لأن القوانين المادية والمبادئ الحسية لاتختلف من قطر إلى قطر ولامن بيئة إلى بيئة .

وإذا سايرت أمّة أمة أخرى فى هذا المجال فإنها لاتكون بذلك قد فعلت مايضر بذاتها أو يقلل من شأن شخصيتها . والمسلمون فى عصورهم الزاهرة اندفعوا إلى كشف المساتير فى المجال المادى ، فكونوا حضارة مادية خصبة ، وأفادوا الإنسانية فى الطبيعة وفى الكيمياء ، وفى الطب ، وفى الصيدلة وفى غير ذلك من ميادين الحس من جوانب المادة ، وهم وإن بلغوا حينئذ مرتبة القيادة والزعامة فإنهم لم يكونوا يتحرجون من الاستفادة فى هذا المجال بكل ما أنتجته الإنسانية من مكتشفات . .

والمجال الثانى : هو المجال الروحى ، وهو مجال يتضمن فى خطوطه العامة : العقيدة والأخلاق والتشريع وهذا المجال هو الذى يكون ذاتية الأمة ، ويطبعها بطابع معين ، ويعطيها لونًا خاصًا . لقد استخار الله سيدنا عمر بن عبد العزيز أربعين يومًا فى ترجمة كتاب فى الطب ثم شرح الله صدره كما سبق أن بينا ، وكتاب الطب كتاب من كتب الحضارة فى جوها المادى إنه كتاب من الكتب ذات الطابع المادى ، ولابأس أن يترجم كتاب من هذا النسق أو أن يتابع أو أن يقتبس

منه ، أو أن يؤخذ فى الجو الإسلامى من مبادئه . وتسير الحياة بالمسلمين هادئة فى جوانبها الحضارية [٢] إلى أن يأتى العصر العباسى ، وتبدأ الترجمة : والترجمة لم يعترض عليها معترض فيما يتعلق بجانب الطب أو بجانب الطبيعة أو بجانب الكيمياء [٣] ، ولكن المسلمين فى أول العهد العباسى كانوا نافرين كل النفور من أن نترجم ماوراء الطبيعة اليونانية .

إن ماوراء الطبيعة يعنى بالأبحاث التى تتصل بالعقيدة ، وأجمع المسلمون على أنه إذا كانت عقيدة اليونان حقًّا فعندنا ماهو أحق منها وهو القرآن الكريم فى الأسلوب الإلهى :

وإذا كانت باطلا فإننا فى غنى عنها .

---

(٢) لقد كتبنا فى هذا الموضوع عدة مرات فى الكتب والجرائد والمجلات ومما كتبناه فى ذلك مايلى : إن الحقيقة التى لايختلف فيها الدارسون للدين الإسلامى هى أن الإسلام منذ نشأته يناصر العلم ويحث عليه ويوجبه : إنه يوجب العلم فى جميع الميادين وفى شتى النواحى إنه يوجب العلم بمعناه الحديث : العلم بالطبيعة وبالكيمياء ، وبالطب . . إنه يوجبه على صورة بحيث تصبح الأمة الإسلامية كلها آثمة إذا لم تصل فى هذا الميدان إلى أرقى مايمكن أن يصل إليه الإنسان .

والله سبحانه يمن علينا بأن سخر لنا البحار والأنهار ، ويسخر لنا الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، وسخر لنا الأرض ، وسخر لنا السماء وسخر لنا مابين الأرض والسماء .

وبعبارة مختصرة : يمن الله علينا بأن سخر لنا هذا الكون بأكمله ، وأنه من شكر الله تعالى على نعائه أن نستجيب إليه سبحانه فنسخر ماسخر لنا ، نسخره بالعلم ونتسلط عليه بالمعرفة ونمتلكه بالبحث ، ونتابع كل ذلك فى تطور مستمر وفى تحديد متتابع ، ومما لاشك فيه أنه لايتحدث أحد من المستنيرين والغيورين على الإسلام عن الغزو الفكرى فى هذا المجال – هو الوحيد الآن الذى يعبر عنه فى الحضارة الغربية الحديثة بالمجال العلمى – سواء فى ذلك روسيا وأمريكا وأوربا وهو المجال الذى يعبر فى العصر الحاضر عن التقدم والتأخر بسبب رقيه فى أمة أو ضعفه فيها .

(٣) ولكن الإسلام مع اعترافه بالجانب العلمى المادى ومع إيجابه له لايعترف به كمقياس لتقدم الأمة أو تأخرها ، ولكن تقدم الأمة وتأخرها بحسب المقياس الإسلامى إنما هو بتحقيقها أو عدم تحقيقها المثل العليا فى الأخلاق التى أتى بها الإسلام ، وهنا تصل إلى الجانب الآخر من جوانب الحضارة الغربية ، أو تصل إلى القضية الثانية من القضايا التى نريد أن نحدد موقف الإسلام منها ، وهى قضية الثقافة . والناس حينما يتحدثون عن الحضارة الحديثة يتحدثون عن جانبين يتكون منهما الجانب العلمى المادى ، وقد شرحنا موقف الإسلام منه ، والجانب الثقافى النظرى وهو مانريد أن نتحدث عنه الآن ، وفى هذا المجال نبدأ بذكر حقيقتين .

أما الأولى : فهى أن النتاج البشرى كله فى الجانب الثقافى النظرى هو نتاج ظنى ولايتسم باليقين فى قليل ولافى كثير ، وهو لأنه ظنى – متعارض ومتغير ومتطور وكل شخص يقول : إن هذه القضية أوتلك – فى الجانب النظرى – هى قضية يقينية ، إنما هو شخص مخطئ عرف ذلك أم لم يعرفه .

أما الحقيقة الثانية : فهى أن الإسلام له نظام أصيل مستقل ، إنه نظام إلهى ، إنه وحى السماء معصوم ، وهو دين ، وهو عقيدة .

ومن القصص ذات المغزى العميق أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه رأى صحيفة بيد أحد الصحابة يقرأ فيها فسأله عنها فقال : إنها قطعة من التوراة ، فظهر الغضب على وجه الرسول صلوات الله عليه ونهاه من الاستمرار فى القراءة وقال له : لو كان موسى حيًّا ماوسعه إلا اتباعى . وهنا نلحظ فى وضوح تفرقة فى موقف الإسلام من الجانب العلمى المادى ، وموقفه من الجانب الثقافى النظرى . فهو فى الجانب العلمى المادى موجب وفارض ومشجع وحاث .

أما فى الجانب الثقافى النظرى المتغير المتطور الظنى القابل للخطأ والصواب فإن كل دعوة للأخذ به واعتناقه والإيمان به إنما هى دعوة عابثة ، وهى دعوة آثمة إذا ماطغت على الجو الفكرى الإسلامى ، وهى دعوة منكرة إذا ماأراد إنسان إحلالها محل المبادئ الإسلامية .

وكذلك شأنهم وموقفهم فيما يتعلق بالأخلاق ، كانوا يعتزون بأخلاقهم ، ويعتزون بعصبيتهم لعقيدتهم وأخلاقهم المنزلة الموحاة ، لقد كانوا يعتزون بذلك لدرجة أنهم لايرون أن يكون هناك أى كتاب أو رأى يقوم بجوار هذه المبادئ الإلهية الإسلامية سواء أكانت عقيدة أم أخلاقًا . ولم يترجموا كتب الأخلاق إلى أن جاء المأمون . والمأمون بتربيته الفارسية كان عنده من التهاون القليل أو الكثير ، ولم يكن عنده من التحرج ماكان عند غيره ، فأمر بترجمة الكتب التى تتصل بما وراء الطبيعة والكتب التى تتصل بالأخلاق .

لقد قام بترجمة هذا على الرغم من النفور العام بين المسلمين المؤمنين المتدينين .

لقد ترجم كتب ماوراء الطبيعة ، ترجم كتب الأخلاق على نفور من هؤلاء الذين يرون أن العقيدة الإسلامية يجب ألاّ يكون بجوارها أى شىء آخر ، وأن الأخلاق الإسلامية يجب أن تكون مستقلة لايكون بجوارها شىء ولاتدنس ولاتتلوث بما يتوهم أنه حق بجانب الحق .

لكن الترجمة - ترجمة ماوراء الطبيعة - أخذت شيئًا فشيئًا مجالها ، وترجمة الأخلاق أخذت شيئًا فشيئًا مجالها - بل أصبحت مألوفة فى البيئة الإسلامية ، وأصبحت وكأنها شىء عادى ، وليست ترجمة ماوراء الطبيعة أقل شأنًا - فيما يتعلق بالجو الإسلامى الصحيح من الورقة التى كانت بيد سيدنا عمر .

إن العقيدة الإسلامية والأخلاق الإسلامية هما اللتان تكوّنان ذاتية المسلم ، أى أن ذاتية الأمة الإسلامية لاتتكون بكيمياء أمريكية لأن الكيمياء كما قلنا لالون لها ، ولاتتكون بطبيعة روسية لأن الطبيعة لالون لها .

حقيقة أنه لابد من الكيمياء ولابد من الطبيعة كما قلنا للقوة وللغلبة وللسلطان ولتأدية الرسالة من أجل الحق والخير .

إن الذى يكوّن ذاتية الأمة هو اللون الثقافى فيها ، وقد رأينا موقف الرسول ﷺ وموقف المسلمين الأول منه .

وعلى أى وضع إذا نظرنا إلى هذه الثقافة فى نفسها : الثقافة النظرية ، وهذا هو الجانب الذى أهتم به كثيرًا ، وأريد أن أنبه الأذهان من جديد إلى أنى أتحدث عن ثقافة لاتتصل بالملاحظة ولابالتجربة ، أى أنها ثقافة ليست بحسيّة .

أتحدث - إذن - عن الثقافة النظرية البحتة ، عن الفلسفة ، عن الأخلاق ، عن هذا الجانب فى علم الاجتماع الذى لايتصل بالملاحظة والتجربة ، عن الجانب فى علم النفس الذى لايتصل بالملاحظة والتجربة عن هذه الجوانب فى أى علم وفى أى موضوع لايتصل بالاستقراء .

إن التجربة تتحكم فتكون فيصلا فيما يتعلق بالحق والخطأ ، لكن المجالات النظرية البحتة ليس لها هذا الفيصل الذى يفرق بين الحق والباطل .

ماوراء الطبيعة مجال نظرى بحت ، وهو يختلف من فرد إلى آخر ويتعدد بتعدد اختلاف الأفراد .

إذا جئنا للجو اليونانى فإنّا نجد أن « أفلاطون » فيما يتعلق بتصور « الآلهة » يختلف عن « أرسطو » وتصور أرسطو يختلف عن تصور (الرواقيين) وتصور (الرواقيين) يختلف عن تصور (أبيقور) أو الأبيقوريين .

يصور أفلاطون الإله على أنه مثال للخير على رأس المثل ، أو مثال للجمال على رأس المثل ، ومع أن أرسطو من مدرسته فإنه يصور الله سبحانه وتعالى بصورة أخرى ، ويرى أنه المحرك الأول ، وهذا المحرك الأول ليس هو الذى يحرك العالم بإرادته ، وليس هو الذى خلق العالم ، وليس هو الذى صور العالم وكونه ، بل إنه لايعلم عن العالم شيئًا مطلقًا ، إنه لا يعلم عن العالم شيئًا : يستوى فى ذلك التافه من أمره والعظيم منه إنه لايعلم حتى مجرد وجود العالم .

وتأتى الرواقية فترى الله سبحانه وتعالى يمتزج بالكون امتزاجًا كاملا : فهو سره وهو فى كل ذرة من ذراته ، وفى كل خلية من خلاياه ويأتى أبيقور ويقول : ليس هناك شىء اسمه الله ، وليس هناك إله ، وتختلف هذه المدارس باختلاف أفرادها ، وباختلاف رؤسائها . وقبل أن نستمر فى شرح موضوع هذه الثقافة النظرية البحتة ، قبل أن أستمر فيها طويلا أريد أن أتحدث عن قصة لها مغزاها العميق كى تكون أمام أنظارنا حينما نضرب الأمثال فيما بعد :

اجتمع سقراط باثنين من الفيثاغوريين من كبار فلاسفة الفيثاغورية أحدهم اسمه سيمياس ، وكان من كبار الفلاسفة ، اجتمعوا يناقشون فيما يتعلق بخلود الروح : هل هى باقية بعد الموت ؟ هل هى مستمرة أو أنها فانية ؟

هل الإنسان حينما يموت يموت مادة وروحًا ، أو إنه يموت مادة فقط وتبقى الروح ! وهل الروح خالدة ؟

كانوا يتحدثون فى هذا الموضوع ، ويحاولون مااستطاعوا أن يقيموا الأدلة على خلود الروح ، على أنها باقية بعد الموت ، ثم تنتهى بهم الأدلة وينقطع بهم البرهان .

يقول سيمياس لسقراط : إن الموضوع مازال فى حاجة إلى بحث أكثر ، ويوافق سقراط ثم يقول متأسفًا .

إن العقل فى مجال ماوراء الطبيعة مثله مثل لوح من خشب يريد الإنسان أن يقطع به البحر فى

يوم عاصف ، أما مثل الدين بالنسبة لما وراء الطبيعة فإنه المركب ، إنه السفينة الأمينة لقطع البحر ، ويسألون جميعًا على أنه لوكان قد نزل دين يحدد هذا الأمر فإنهم كانوا يستجيبون إليه ، ويؤمنون به ويستسلمون وتهدأ نفوسهم فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولاجدال فى أن العقل فى محيط ماوراء الطبيعة لوح من خشب لقطع البحر ولكنه فى حقيقة الأمر لوح من خشب فى كل علم نظرى لامجال للتجربة ولا للملاحظة فيه .

وخذ أى مادة من المواد النظرية ، خذ ماوراء الطبيعة وخذ الأخلاق وخذ التشريع ، خذ هذه النواحى الكثيرة المتعددة التى سميت بأسماء علوم مختلفة وهى كلها نظرية — فإنك ستجد العقل دائمًا هو لوح الخشب الذى لايتلَّق أن يقطع به الإنسان البحر مهما احترس ومهما كان يحاول أن ينجو بهذا اللوح ، والفلسفة فيما يتعلق بالعالم الحديث وكل فلاسفة العصر الحديث مختلفون على أنفسهم ، ليس بينهم فيلسوف واحد يتفق مع الآخر ، وإلا لما كان فى حاجة أن ينشىء فلسفة جديدة لو اتفق مع زميله .

ومعنى الفلسفة : أنها ابتداع دين بجوار الدين ، أو عقيدة بجوار عقيدة كذلك الأمر فيما يتعلق بالأخلاق ، إنها على هذا النسق . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالتشريع ، إنه على هذا النسق .

وإذا ترك التشريع للعقل فسيكون هناك الاختلاف ، وإذا ترك ماوراء الطبيعة للعقل فسيكون هناك الاختلاف أيضًا . والمخرج أن نصدر فى كل هذه الأمور عن الدين ، ولا مجال لرأى آخر . إذا أخلصنا لابد من أن نعتمد فى المجالات الثلاث :

مجال ماوراء الطبيعة :

مجال الأخلاق :

مجال التشريع على الدين :

هذه المجالات ثابتة فى الدين ، مستمرة لاتقبل التطور

مجال العقيدة لايقبل التطور العقيدة هى هى ، لاتختلف العقيدة الدينية الإسلامية من بيئة إلى أخرى ، ولامن قطر إلى آخر ، ولامن زمن لزمن ، ولا من مكان لمكان .

ولاتختلف الأخلاق الإسلامية أيضًا من بيئة إلى أخرى ، ولامن مكان لمكان ، ولامن زمن لزمن ، فهى هى :

أما فيما يتعلق بالتشريع فإن كثيرًا من الناس يعتقدون أن التشريع الإسلامى متطور ولكن التشريع مبادئ ووسائل ، قد يترك الإسلام بعض الوسائل غير محددة ، ويتركها للزمن ولكن المبادئ أو الغايات هى هى :

مثلا : مبدأ الشورى : لم يحدد وسيلته الإسلام ، أى أن الشورى نفسها مبدأ إسلامى ثابت ، ووسيلة الشورى لم يحددها الإسلام ، وتركها للبيئات وتركها للأزمان ، يحددونها عن طريق البرلمان ، عن طريقة أخرى ، يحددونها كيفما شاءوا .

لكن الغايات ، النهايات ، المبادئ ، القواعد ، إنها ثابتة ، ويتساءل كثير من الناس وما شأن الاجتهاد إذن ؟

إن المجتهدين فى الإسلام كثيرون ، فما شأن الأجتهاد فى الدين إذن ؟ والواقع أن هذا الجانب يضلّ فيه كثير من الناس ، أو يزلّ فيه كثير من الناس .

الاجتهاد فى الإسلام معناه : أن يحاول المجتهد ما استطاع ، وأن يحاول ماأمكنه ، أن يربط بين حادثة حدثت جديدة وبين قاعدة إسلامية موجودة ، أو أن يدخل فى نطاق قاعدة إسلامية عامة حادثة من الحوادث التى حدثت جديدة ، فليس الاجتهاد إذن ابتداعًا أو اختراعًا أو تطورًا ، وليس فيه شىء من هذا القبيل ، وإنما هو محاولة جديدة كادحة دائبة مستمرة ، للوصول إلى ماكان عليه الرسول ﷺ ، لو كان الرسول موجودًا .

وإذا صح الحديث فهو مذهبى ، قاعدة تنقض كل شبهة من الشبهات التى ترمى إلى أن الاجتهاد ، إنما هو ابتداع ، أو هو اختراع ، أوهو شىء من هذا القبيل . ليس إذن فى الجانب الإسلامى تطور ، أقول هذا ، لأنه من أخطر الأمور على العقيدة الإسلامية ، وعلى الجو الإسلامى ، الفكرة التى تسود فى كثير من الأوساط وهى سائدة فى الثقافة الأوربية الآن ، أعنى فكرة التطور ، وفكرة التطور تتناسب مع الثقافة فى أوربا .

والثقافة فى أوربا — الثقافة النظرية — التى لاتتصل بالتجربة أو بالملاحظة ، الثقافة النظرية فى أوربا متطورة ، وهذا حقيق ، متطورة لأنها بشرية ، وكل ماهو بشرى من نتاج العقل البشرى فإنما هو نسبى ، وهو إذن متطور ، وقد يكون هذا التطور تطورًا إلى القديم لاتطورًا إلى شىء جديد ، يعنى مثلا مذهب الوجودية الحالى ، الذى يقال إنه مذهب جديد كل الجدة إنما هو مذهب السفسطائية القديم ، لا أكثر ولا أقل — إنه المذهب الذى يرى أنه ليس هناك حقيقة مطلقة ، وإنما الإنسان يكيف نفسه ، ويكون نفسه ويوجه نفسه .

وهو ليس فى هذا إلا فردًا من الأفراد ، له رأيه الخاص ، لذلك لايسرى رأيه على الآخرين ، لأنه ليست هناك حقائق مطلقة ، فهو عودة إلى المذهب القديم — مذهب السفسطائية القديم — المذهب الذى لفظته كل الهيئات السليمة ، إنه عودة إلى مذهب تلفظه كل البيئات السليمة .

ومذهب الوجودية فى الحقيقة والواقع لايسود إلا فى البيئات المريضة التى لاترى وزنًا للقيم

الأخلاقية ، ولا للدين ، ولاللحقائق المطلقة ، وترى أن الإنسان يكوّن نفسه من الألف إلى الياء ، مستقلا عن التقاليد ، وعن الدين ، وعن كل شيء فى المجتمع ونعود إلى فكرة التطور .

لقد نشأت مع (دارون) وكانت لها شهرة قوية فى أوساط أوربا ، وفى أوساط الشرق ، ولكن هذه الفكرة نفسها – باعتراف كل العلماء – فيها الفجوات التى تجعلها ظنية لايقينية إنها فكرة ظنية لم تصبح يقينًا ، وكثير من العلماء هاجمها وعارضها ، وأقام الأدلة على انهيارها ، ولكنها مع ذلك سارت فى بعض الأوساط الشرقية ، وأصبحنا الآن – وهذا هو الخطر الذى نحذر منه – أصبحنا الآن نرى كتبًا بأقلام المسلمين وبأقلام المفكرين الكبار ، تقول بفكرة التطور ، وكأنها حقيقة موجودة .

ومامن شك فى أن هناك التطور المادى ، لاينكر ذلك أحد ، هناك تطور من الفحم إلى وابور الغاز ، إلى البوتاجاز ، وهناك التطور من السيارة إلى الطائرة .

هناك التطور المادى لاينكر ذلك أحد إطلاقًا ، ولكن هذا التطور لادخل له مطلقًا ، ولاشأن له مطلقًا بتطور العقل ، من حيث هو عقل الإنسان .

إن الإنسان من حيث هو الإنسان لم يتطور عقله من حيث هو عقل ، لم يكن مثلا عشر درجات ، ثم أصبح خمسين درجة أو ما شاكل ذلك .

الإنسان لم يتطور إلى كائن آخر ، إنه لايزال هو الإنسان الذى وجد من عهد آدم إلى الآن ، ولكن من المؤسف أن بعض المفكرين فى الشرق يسيرون فى الأمر وكأن التطور حقيقة واقعة . وكأن التطور العقلى واقعة ، وكأنه يقين مطلق ، وفى هذا خطورة كبيرة .

أضرب مثلا للخطورة حينما تدخل فكرة التطور فى مسائل الدين « إن أحد كبار المفكرين الإسلاميين وله شهرة ذائعة فى الجو الإسلامى ، حينما أراد أن يفسر القرآن ، وحين أراد أن يفسر قصة سيدنا آدم وخلق سيدنا آدم ، وأمر الله سبحانه وتعالى بالسجود ، وكان فى ذهنه فكرة التطور ، وأن الانسانية بدأت بكذا وكذا ، وأن آدم ليس هو أول الإنسانية مباشرة ، يعنى أن الإنسانية لم تبدأ بآدم مباشرة كان فى ذهنه كل ذلك ، فلما جاء يفسر القرآن ويفسر قصة آدم ، فسرها على أنها تصوير ، مجرد تصوير ، مجرد تمثيل ، مجرد قصة » .

مجرد قصة لماذا ؟

مجرد تمثيل ، لماذا !

مجرد تصوير ، لماذا ؟ .

ليخرج من فكرة التطور ، وحتى لايلتزم قضية أن آدم هو أول البشرية حقًا ، أول البشرية

خلق خلقًا جديدًا ، أنشأه الله سبحانه وتعالى ، سواه بيديه ، ونفخ فيه من روحه .

وإذا كانت قصة آدم تمثيلا ، وإذا كانت تصويرًا ، فلا يبقى شيء فى القرآن لايمكن أن يؤوّل ، إذا أولنا قصة آدم ، إذا أوّلنا قصة سجود الملائكة ، إذا أوّلنا كل ذلك . . .

وقد ذكرت فى القرآن عدة مرات ، إذا أولناها لايبقى فى القرآن أو فى الإسلام شيء لايمكن أن يؤوّل ، وفى تأويل كل شيء القضاء على الإسلام .

وعلى هذا ففكرة التطور يجب ألاّ تدخل فى المحيط الفكرى الدينى للمسلمين ، وكل من أدخلها فى المحيط الفكرى الدينى الإسلامى إنما يضر الإسلام ويكون خطرًا على الإسلام أكثر من العدو القاتل .

هذا الصديق الجاهل يكون خطرًا على الإسلام ، أكثر من العدو العاقل .

وهذا مثل ، مجرد مثل من الأمثلة الكثيرة . وعلى كل حال ، فإن الكتب الحديثة تجدها دائمًا قائلة بفكرة التطور ، وإن الإنسانية تطورت وإنها . . . إلخ . .

كل هذه النواحى إذا أدخلناها فى محيط العقيدة ، أو أدخلناها فى محيط الأخلاق أو أدخلناها فى محيط الدين ، فإنها تجعل من الدين مجموعة من المبادئ النسبية ، ومعنى مجموعة من المبادئ النسبية ، أنها ليست حقائق مطلقة ، وأنها يمكن أن تتطور وتتطور إلى اللانهاية ، ويأتى يوم من الأيام وقد انفصلنا عن الدين وعن المبادئ الدينية الانفصال الكامل والانفصال التام .

فكرة التطور فيما يتعلق بالحضارة الحديثة قام بها (دارون) ويعترف اليهود أو يعترف الصهيونيون ، فى كتابهم أو مبادئهم « برتوكولات حكماء صهيون » يعترفون بأنهم هم الذين وضعوا (دارون) فى الأفق على المنصة ، وهم الذين أعلنوا عنه ، وهم الذين أذاعوا فكرته ، وهم الذين حبذوها ، وهم الذين نشروها فى كل مكان .

ولقد فعلوا ذلك لأنها تقوض الأديان من أساسها ، وهى مع ذلك كما قلنا — فكرة ظنية ، وكلما تقادم العهد بها ازداد الشك فيها . الثقافة الحديثة ، أو الحضارة الحديثة فى جانبها الثقافى ، إذا رحبنا بها ، فإن ذلك يعد من الحجب التى تحجب شيئًا فشيئًا الفكرة الإسلامية والذاتية الإسلامية ، وأنه لمن المعقول أننا عندنا القرآن وعندنا السّنّة ، وقد طبق القرآن وطبقت السنة فكان ازدهار الأمة الإسلامية وكان مجدها . .

من المعقول أن نصدر فى ثقافتنا عن ذاتية إسلامية عن قرآن وسُنة ، وكل هذا البريق فيما يتعلق بالحضارة الحديثة فى جانبها الثقافى يجب ألا يخدعنا مثلا : الحرية والمساواة. ومن الغريب أن الأوربيين أنفسهم من كبار المفكرين فى أوربا نفسها ، يرون أنّ هذين المبدأين متعارضان :

يرون أنه إذا وجدت الحرية فلامساواة .

وإذا وجدت المساواة فلا حرية .

يرون التعارض فى المبدأين وأنهما لايجتمعان ، لأنه إذا وجدت المساواة ، فكيف يتأتى أن توجد الحرية .

ومن هذه الأشياء فى الجانب الثقافى أيضًا : مايقال من أن العلم للعلم ، أو الأدب للأدب ، أو الفن . . . كل هذه لها خطورتها فيما يتعلق بالأجواء الإيمانية ، فى جو الإيمان لايتأتى مطلقًا أن يكون الأدب للأدب ، وإنما الأدب للأخلاق وللفضيلة ، لترقية الفطر ، لإثارة الشعور الدينى الكريم ، لكل هذه المعانى .

أما فكرة الأدب للأدب فإنه لايستسيغها مطلقًا ، عقل أو قلب مؤمن ، كذلك فيما يتعلق بالفن للفن ، الفن للفن معناه أنك ترسم الصورة العارية كما شئت .

الفن للفن أيضًا فكرة لايتأتى للمؤمن أن يقول بها وأن يمتدحها أو أن يتبناها شعارًا له هذه النواحى كلها وكثير غيرها فيما يتعلق بالثقافة الغربية الحديثة : الثقافة النظرية يجب أن نكون بعيدين عنها كل البعد ، وأن نتبع فى هذا الجانب الإسلامى وحده ، نجعله الأساس ، نجعله المصدر الموجه .

إن هذه الآراء الثقافية النظرية الحديثة ، هى كما يقول أحد كبار المفكرين فى أوربا مثلها كمثل « الموضة » وأزياء النساء تتبدل من عام إلى عام ، ومن فترة إلى فترة .

إن « موضة » هذا العام فى علم النفس مثلا هى كـذا هى نظرية فلان ، أو هى نظرية فلان ، أو هى نظرية فلان ، والموضة فى العام المقبل أو فى العام الماضى نظرية أخرى . . . وهكذا الأمر فيما يتعلق بالفلسفة ، أو فيما يتعلق بالتشريع . . . إلخ .

هذه النواحى كلها تجعلنا حذرين فيما يتعلق بالقسم الثقافى فى الحضارة الحديثة ، بل يجب أن نكون بعيدين عنه كل البعد ، وأن نقرأه لاعلى أنه حقائق ومبادئ ، وإنما على نتاج بشرى متغير متطور نسبى لاثبات له ، وإذا قرأناه على هذا الوضع انتفى بعض الضرر منه .

ويجب أن نصدر عن ذاتية إسلامية ، وعن مبادئ إسلامية ، عن قاعدة إسلامية عن جو إسلامى .

والنتيجة التى أريد أن أنتهى إليها . وهى الخاتمة إنما هى العودة إلى الإسلام .

العودة إلى الإسلام :

١ – ملاحظة وتجربة ، ومنهجًا وقوة مادية .

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) .

العودة إلى الإسلام : من تسخير الأرض ، وتسخير السماء وتسخير مابين الأرض والسماء وتسخير الكواكب ، وتسخير الشمس والقمر ، وتسخير البحار والأنهار .

العودة إلى الإسلام أقوى ماتكون فى الجانب المادى .

٢ – والعودة إلى الإسلام ، والاعتزاز بالإسلام أقوى ماتكون فى الجانب الثقافى ، سواء اتصل ذلك بالعقيدة أو اتصل ذلك بالتشريع ، أو اتصل ذلك بالأخلاق .

فى التعريف بالإيمان

يقول الله تعالى (قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

ويقول سبحانه : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقًّا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم)

ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى عن أنس . « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » ، وفيما رواه البخارى . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فوالذى نفسى بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده » .

وفيما رواه البخارى : عن أنس قال : قال النبى ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

وفيما رواه البخارى : عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء فقال رسول الله ﷺ : دعه فإن الحياء من الإيمان .

وقد كتب الإمام البخارى رضى الله عنه فى صحيحه كتابًا عن الإيمان سار فيه على هدى الكتاب والسنة والصحابة والتابعين وسلف الأمة وقد قدم للكتاب بمقدمة يستدل فيها بآيات الكتاب الكريم وكانت أحاديث كتاب الإيمان كلها موجهة لليقين بأن الإيمان قول وفعل . يقول الإمام البخارى عن الإيمان :

وهو قول وفعل ويزيد وينقص قال الله تعالى . . . ثم أخذ يبرهن على رأيه بالآيات القرآنية نذكر منها .

(ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم)[٤] .

(وزدناهم هدى)[٥]

(ويزيد الله الذين اهتدوا هدى)[٦] .

(والذين اهتدوا زادهم هدى وأتاهم تقواهم)[٧] .

(ويزداد الذين آمنوا إيمانًا)[٨] .

(وقوله : (أيكم زادته هذه إيمانًا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا)[٩] .

وقوله جل ذكره (فاخشوهم فزادهم إيمانًا)[١٠] .

وقوله تعالى (ومازادهم إلا إيمانًا وتسليمًا)[١١] .

قد أفلح المؤمنون :

وإذا كان هذا رأى البخارى رضى الله عنه فإن أبا الحسن على بن خلف يقول فى شرح صحيح البخارى : « مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها أن الإيمان : قول ، وعمل يزيد وينقص » .

---

(٤) (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً ، ليُدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً) . (سورة الفتح آيتا ٤ ، ٥)

(٥) (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا) .
(سورة الكهف آيتا ١٣ ، ١٤)

(٦) (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردًا)
(سورة مريم -- آية ٧٦)

(٧) سورة محمد -- آية ١٧ .

(٨) (وماجعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وماجعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانًاولايرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، كذلك يضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هى إلا ذكرى للبشر) .
سورة المدثر آية (٣١) .

(٩) (وإذا ماأنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانًا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون) .
(سورة التوبة -- آية ١٢٤)

(١٠) (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .
(سورة آل عمران آية : ١٧٣)

(١١) (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانًا وتسليمًا) .
سورة الأحزاب آية (٢٢) .

ويقول عبد الرزاق حسبما ذكره الإمام النووى فى شرح مسلم .

سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا : سفيان الثورى ، ومالك بن أنس ، وعبيد الله ابن عمر ، والأوزاعى ، وعمر بن راشد ، وابن جريج ، وسفيان بن عيينة ، يقولون : الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص .

وهذا قول ابن مسعود ، وحذيفة ، والنخعى ، والحسن البصرى ، وعطاء ، وطاوس ومجاهد ، وعبد الله بن المبارك .

ويتابع عبد الرزاق الحديث فيقول :

فالمعنى الذى يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إثباته بهذه الأمور الثلاثة : التصديق بالقلب . والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح ، وذلك أنه لاخلاف بين الجمع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه لايستحق اسم مؤمن ، ولو عرفه وعمل وجحد بلسانه وكذب ماعرف من التوحيد لايستحق اسم مؤمن ، وكذلك إذا أقر بالله تعالى ، وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولم يعمل بالفرائض لايسمى مؤمنًا بالإطلاق وإن كان من كلام العرب يسمى مؤمنًا بالتصديق فذلك غير مستحق فى كلام الله تعالى لقوله عز وجل .

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون،الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقًّا) فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفاته .

وماذكره عبد الرزاق يؤيده ابن بطال فى باب من قال الإيمان هو العمل من شرح صحيح البخارى فيقول : فإن قيل قد قدمتم أن الإيمان هو التصديق . قيل التصديق هو أول منازل الإيمان ، ويوجب للمصدق الدخول فيه ، ولا يوجب له استكمال منازله ولا يسمى مؤمنًا مطلقًا . هذا مذهب جماعة أهل السنة : إن الإيمان قول وعمل .

قال أبو عبيد : وهو قول مالك ، والنووى ، والأوزاعى ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصابيح الهدى وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم .

قال ابن بطال ، وهذا المعنى أراد البخارى رحمه الله إثباته فى كتاب الإيمان وعليه بوب أبوابه كلها . فقال .

باب أمور الإيمان .

وباب الصلاة من الإيمان .

وباب الزكاة من الإيمان .

وباب الجهاد من الإيمان . وسائر أبوابه .

وإنما أراد الرد على المرجئة فى قولهم إن الإيمان قول بلا عمل وتبين غلطهم وسوء اعتقادهم ومخالفتهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة .

وينهج الإمام الطبرى هذا النهج أيضًا فيقول : « الإيمان – كلمة جامعة الإقرار بالله وكتبه ورسله ، وتصديق الإقرار بالفعل » ا . هـ .

بيد أن العامة – وهى دائمًا الأكثرية – انتهت بالإيمان إلى أن أصبح – على حد تعبير الشيخ محمد عبده « يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدى الذى لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان ، وليس له أثر فى الأفعال ، لأنه لم يقع تحت نظر العقل ، ولم يلحظه وجدان القلب ، بل أغلقت عليه خزانة الوهم ، ومثل هذا الذى يسمونه إيمانًا لايفيد فى إعداد القلب للاهتداء بالقرآن .

وهذا الذى غلب على العامة من معنى الإيمان ، أثر على بعض علماء الكلام أنفسهم فتناقشوا نقاشًا طويلا فى معنى الإيمان ، وهل هو التصديق بالقلب فحسب بالغًا مابلغ هذا التصديق من الضعف والسلبية أو إنه تصديق وفعل ، وقد أراق المتكلمون كثيرًا من المداد لتحبير العشرات من الصفحات فى هذا الموضوع .

وإذا تدخل العامة فى الشئون العلمية ، وإذا تأثر العلماء بآراء العامة ، متخلفين بذلك عن القيادة ، متخلين بذلك عن القيادة الرشيدة ، فإن الأمر ينتهى لامحالة بأن ينزل العلماء إلى المستوى الشعبى « شاعرين بهذا النزول أو غير شاعرين » : ومن هنا كان الرأى يسود فى بعض أوساط المتكلمين : أن الإيمان مجرد التصديق مهما كانت منزلة هذا التصديق من الهزل والسلبية وكان من فضل الله علينا أن بين لنا سبحانه مقاييس الإيمان فى كتابه الكريم ، والصور الإيمانية فى هذا الكتاب الخالد لاتكاد تحصى .

وكان من فضل الله أيضًا أنَّ الرسول صلوات الله عليه ، بكلامه ، وفعله ، وسيرته يحقق مثلا أعلى للإيمان كما أراد الله ورسوله .

ونريد – بتوفيق الله – فى حديثنا عن الإيمان : أن نتخذ الأساس القرآن الكريم وأحاديث صحيحة رواها الإمام البخارى والإمام مسلم فى أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى ، وقد ذكرنا بعض الآيات القرآنية فيما سبق .

أما الأحاديث : فعن أبى هريرة رضى الله عنه يقول رسول الله ﷺ ، الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان ، رواه الإمام البخارى . وروى الإمام مسلم عن أبى هريرة عن

رسول الله ﷺ قال : « الإيمان بضع وستون أو بضع وستون شعبة » فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان .

وحينما بنى سادتنا العلماء المحققون – الذين أخلصوا لله ورسوله – تلك الشعب عن طريق الأحاديث الشريفة التى وضّحت الإيمان ، وعن طريق الآيات القرآنية الكريمة التى تحدثت عن الإيمان : قسموا تلك الشعب إلى مايختص منها بالقلب ، ومايختص باللسان ، ومايختص بالبدن أى أن الإيمان يغمر الكيان الإنسانى كله ، اعتقادًا وقولا وفعلا .

ومن الأحاديث الشريفة نتبين أن الحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان ، وأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه .

وإن الذى يؤذى جاره ليس بمؤمن .

وليس بمؤمن من شبع وجاره جائع .

وإن الجهاد من الإيمان يقول صلوات الله عليه وسلامه . « انتدب الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا إيمان بى ، وتصديق برسلى ، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة ، أو أدخله الجنة ولولا أن أشق على أمتى ماقعدت خلف سرية ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل » .

ومنها نتبين أيضًا أن قيام ليلة القدر من الإيمان والإنصاف من النفس من الإيمان وبذل السلام للعالم من الإيمان . والإنفاق من الإقتار من الإيمان .

وتطوع قيام رمضان من الإيمان .

والصلاة من الإيمان ، بل لقد عبر الله عنها بالإيمان فى قوله تعالى : (وماكان الله ليضيع إيمانكم) .

ويتغلغل الإيمان فى الحياة الاجتماعية حتى يصل إلى السهل من أمرها والميسور فتكون إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان ، ويكون إفشاء السلام – تعارفًا وتوددًا من الإيمان .

وإذا ماتغلغل الإيمان فى النفس وجد المؤمن حلاوة الإيمان وهو لاينعم بحلاوة الإيمان إلا . . « أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر ، كما يكره أن يقذف فى النار »

وأساس الإيمان على كل حال هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . والإيمان بالقدر خيره وشره .

وهذا الأساس كأساس القصر بالضبط ، وكما لايطلق على أساس القصر أنه قصر فكذلك لايطلق على أساس الإيمان أنه إيمان كامل ، وكما لايكون القصر بدون الأساس فإنه لايوجد الإيمان بدون الشهادتين .

وهذا الأساس نفسه يتبلور فى شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

فى أساس الإيمان

أشهد أن لاإله إلا الله :

من روائع مناجاة ابن عطاء السكندرى مايلى . (١٢)

« إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك .. أن يكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون هو المظهر لك » .

متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟ ا هـ » .

إن مسألة وجود الله لم تكن فى يوم من الأيام محل بحث عند ذوى الشعور الدينى السليم . ولم ينشأ الجدل فى هذه المسألة إلا فى العصر اليونانى : فهو العصر الذى جعل منها مشكلة قابلة للأخذ والرد والقبول والرفض .

والواقع أن ظروف العصر اليونانى القديم هى التى جعلت منه مثلا سيئًا فى كل مايتعلق بالدين والخلق . لقد كان عصرًا خلا من الدين الحق ، ولم ينعم بالمعرفة الصحيحة عن طريق الوحى .

فحاولت طائفة منه أن تصل إلى الوحى عن طريق الكهانة ، ومن ذلك كاهنات معبد دلفى المشهورات .

وحاولت طائفة أخرى أن تصل إلى الوحى عن طريق النسك والعبادة والذكر ، ومن هؤلاء فيثاغورث وأتباعه ، وأفلاطون والأفلاطونيون القدماء منهم والمحدثون .

لقد حاولوا أن يقتنصوا الوحى اقتناصًا وأن يكشفوا عن الحجب ، وأن يزيلوا الأقنعة وأن يصلوا إلى الله ، فيتصلوا بالجمال والجلال والخير المطلق .

بيد أن الطريق الذى سلكوه إنما هو طريق خاطئ لأنه لم يؤسس على وحى يرسم طريق الهداية الصحيح ، إنما أسس على نهج عقلى بشرى أو على تقاليد متوارثة .

ومن أجل ذلك لم ينتج الثمرات المرجوة ، ثم هو طريق صعب المرتق ، لأنه يعارض النزعات

---

(١٢) حينما يكتب الكاتبون عن الإيمان يبدءون عادة بإثبات وجود الله سبحانه ويتخيلون أن هذه المسألة أهم مافى موضوع الإيمان ، وهذا النهج – فيما نرى – لايقره دين ولاتقره فطرة . وقد حاولنا أن نستفيض فى بيان رأينا فى هذا النهج مبينين أن الدين لا يضع مسألة وجود الله موضع بحث ، وأن الفطرة السليمة لاتقر بذلك .

الحيوانية فى الإنسان ويحاول السمو بها وإعلاءها ، ويريد أن يرقى بالإنسان إلى مايقرب من المستوى الروحى الملائكى .

ولكن بنى البشر فى الأغلب منهم يخلدون إلى الأرض ويتبعون أهواءهم . لذلك كانت قلة قليلة تلك الفئة التى حاولت اتباع هذا التيار فى صرامة وإخلاص .

أما الأغلبية العظمى من اليونان فقد اتبعوا التيار الذى يعتمد على العقل البشرى اعتمادًا كليًا ، وكان زعيمهم الأكبر فى ذلك أرسطو فهو الذى وطد أركان العقل البشرى ، وأشاد به كأساس للبحث فى عالم ماوراء الطبيعة وفى عالم الفضيلة أو الخير .

وماكان العقل فى يوم من الأيام -- عند الحكماء المصريين أو حكماء الهنود -- أهلاً لأن يكون مصدر المعرفة فى عالم الغيب .

وأخذ العقل -- عقل أرسطو ومن لف لفه -- يجادل ويمارى فى الحقائق -- صغرت أو كبرت ، دقت أو جلت ، واضحة كانت كوضوح النهار أو خفية كأنها غلفت بقطع من الليل المظلم ، وتجرأت أقلامهم على تناول عالم الغيب وعالم الخير بالإنكار أو الشك أو ترجيح الوجود أو توجب العدم .

وحاول كل زعيم أن يصور الأمر فى هذين الميدانين -- ميدان ماوراء الطبيعة وميدان الأخلاق -- بحسب مزاجه وأهوائه ، وبحسب ماتمليه عليه ثقافته وبيئته ، وبحسب ماتمليه عليه طبيعته الجسمانية وجبلته الخلقية .

وانتهى الأمر بأن حاول المثبتون الرد فحاول المنكرون تعليل الرفض : وزالت قدسية الموضوع ، وأصبحنا أمام جو من اللجاج والمماراة لايليق بجلال الله وعظمته (ماقدروا الله حق قدره) .

ولو قيض الله للبيئة اليونانية جوًا من الخير والهدى ، ولو أنعم الله عليهم بنشأة رسول فيهم ، لما كان هذا الانحراف الذى انتشر فيهم ، منذ أرسطو وانتشار الوباء الخبيث والذى تغلغل حتى وصل به الأمر وهو انحراف منحرف -- إلى أن أصبح وكأنه الوضع الطبيعى ، فساد فى كل بيئة وغزا كل عقل ، وكلما تقدم به الزمن ازداد رسوخًا وثباتًا وازداد انتشارًا حتى لقد غزا الأديان نفسها التى تأبى أن تقره أو تعترف به ، لقد تغلغل فى المسيحية فوضع رجال المسيحية مسألة وجود الله وقضية الفضيلة موضع البحث ونزلوا إلى مجال المجادلة والمماراة .

وأخذ هذا الوضع يتخطى القرون حتى جاء الإسلام فوضع الأمر فى نصابه ووجه الأذهان إلى أن الأمر الأساسى إنما هو مسألة الوحدانية « أشهد أن لاإله إلا الله » وجه الإسلام الأذهان فى

عنف ، وفى قوة إلى التوحيد ، لا إلى إثبات الوجود ، لقد وجه الأذهان إلى أن الله لا يحتاج فى ثباته وفى وجوده إلى دليل ، وهو – على العكس – الدليل على غيره فغيره ثابت به ، والعالم ثابت به ، والسماوات والأرض والعرش والكرسى . كل ذلك موجود بوجوده ثابت بثباته والوجود بأكمله محتاج فى كل لحظة إليه فضلا عن احتياجه إليه فى نشأته الأولى ووجوده الأصلى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) إنه يمسكها فى كل آونة وفى كل لحظة فإذا ماتخلى عنها طرفة عين تلاشتا فكانتا هباءً وكانتا عدماً ، وكل ذرة فى العالم ، وكل خلية فى كائناته إنما ثباتها بالله وقيامها به .

ومثل الإنسان كمثل أى كائن آخر من حيث وجوده وقيامه بالله ، وقد كرمه الله وأعطاه الكثير من المنح والمزايا ، ووهبه هذا التمييز والفهم ، وسخر له الكثير من العوالم الأخرى ، وجعله خليفة فى الأرض ، ومن أجل ذلك كانت مسئوليته فيما يتعلق بتصحيح الصلة بينه وبين الله عظيمة خطيرة . أما تصحيح هذه الصلة فإن ذروتها العليا ومثلها الأسمى إنما هو ما أمر به صلوات الله وسلامه عليه فى قوله تعالى : (قل إن صلاتى ونُسكى ومحيايَ ومماتى لله ربِّ العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

وفرق هائل بين من يتخذ هذه الآية القرآنية شعارًا ومن يحاول – متجاوزًا قدره – الاستدلال على وجود الله بمخلوق من مخلوقاته . إن الفرق بينهما هو الفرق بين طريق الهدى والصواب وطريق الجدل والشك . وجاء الإسلام – كما قلنا – ليضع الأمور فى نصابها وليصحح الأوضاع التى انحرفت .

ومن هذه الأوضاع المنحرفة الشرك بالله ، والإنسان يشرك بسبب الضعف على وجه العموم وقد يكون هذا الضعف فقرًا ، وقد يكون جهلاً ، وقد يكون طمعًا وجشعًا ، وقد يكون خوفًا وفزعًا وقد يكون غير ذلك ، ومهما يكن من أمر الشرك فإنه أينما وجد ليس إلا مظهرًا من مظاهر الضعف .

وحاول الإسلام أول ماحاول أن يطهر النفوس من هذا الضعف وأن يعيدها بالتوحيد – إلى مجالات العزة والكرامة .

(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) . فكانت دعوته للتوحيد .

أما مافى القرآن مما تخيله الناس استدلالا على وجود الله ، وأعتقد أن القرآن يذكره للاستدلال وجودا لله ، فليس إلا بيانًا لمظاهر قدرة الله وعنايته بالعالم ، ومن ذلك مثلا : (وفى الأرض قطعٌ

متجـاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صِنْوانٌ وغير صِنوانٍ يُسقى بماء واحد ونُفضل بعضها على بعض فى الأكل) .

وإن الله سبحانه وتعالى جعل :

(وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعًا شدادًا ، وجعلنا سراجًا وهّاجًا . وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجّاجًا ، لنخرج به حبًّا ونباتًا ، وجنات ألفافًا) .

و (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سماوات طبـاقًا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير . . .) .

وما مثل هذا فى تصور قدرة الله كمثل : (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفًا . فيذرها قاعًا صفصفًا ، لا ترى فيها عَوجًا ولا أمْتًا ، يومئذ يتَّبعون الداعى لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسًا ، يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أُذن له الرحمن ورضى له قولا ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علمًا ، وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما) .

إن فى ذلك وكثير غيره إنما ذكر ليبين عظمة الله وجلاله وقدرته ويبين رحمته بعباده وعنايته بهم .

ومامن شك فى أنه يمكن أن يؤخذ من ذلك أدلة كثيرة على وجود الله .

وما من شك فى أن الأدلة التى تؤخذ من ذلك يمكن أن تصاغ فى أسلوب منطقى : فى قياس يشتمل على المقدمات والنتائج ، ويكون متفقًا مع قواعد المنطق الأرسطى ومبادئه ، ولكن ذلك لن يكون أبدًا تصويرًا لهدف من أهداف القرآن . فالقرآن لم يضع قط وجود الله موضع شك حتى يحتاج إلى الاستدلال عليه .

ومن القصص التى تروى على أنحاء شتى وبأساليب مختلفة تتفق فى الجوهر وتختلف فى الرسم مايحكى من أن بعض مشاهير العلماء ألف كتابًا ضخمًا فى إثبات وجود الله فأقام له أصدقاؤه حفلة تكريم من أجل عمله هذا الضخم ، ومرَّ بهم بعض الصالحين فأخذوا يحدثونه عن عبقرية المؤلف فسأل :

ومتى غاب الله حتى يكون فى حاجة إلى إثبات ؟ فوجم الجميع ، ولم يستطع المؤلف الإجابة ، وتركهم الرجل الصالح وهو يردد .

(قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) قال رجل للنووى : الصوفى المعروف : ماالدليل على الله ؟ قال : الله — قال الرجل : فما العقل ؟

قال : العقل عاجز ، والعاجز لايدل إلا على عاجز مثله :

من رام بالعقل مسترشداً سرحه فى حيرة يلهو

وشاب بالتلبيس أسراره يقول فى حيرته هل هو

والنتيجة التى نريد أن نصل إليها هى : إن روح القرآن إذًا هى قيادة النفوس إلى التوحيد (وماأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، قل إنما يوحى إلىَّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد فهل أنتم مسلمون) .

وتأتى مشكلة الملاحدة والوجوديين المنكرين لوجود الله ، ماذا نفعل بإزائهم ؟ إن مثل هؤلاء لاوجود لهم فى مجتمع سليم طاهر ، ويكفى اعتزالهم كمرض خبيث ينفر الإنسان منه ويكفى عزلهم أن يفسدوا الآخرين : تلاميذ كانوا أو طلبة أو عمالا أو زرّاعًا ولن تمر فترة طويلة عليهم فى هذا الوضع حتى يرتدعوا ويعدلوا عن اتباع أهوائهم وشهواتهم .

وماالوجودية إلا لهوى . إنما هوى النفس التى لاتحتمل القيام بالواجب الاجتماعى والدينى .

والإلحاد ضعف : لأنه محاولة للفرار من التكاليف . ومع كل ماتقدم فإنه لايتأتى لى أن أترك هذا المجال دون أن أذكر قصة سمعتها حديثًا هزتنى من الأعماق ووقعت من نفسى موقعًا من الروعة والجلال لا يمكننى تصوير مداه .

لقد ذكر لى هذه القصة فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ مدثر الحجاز وكيل جامعة أم درمان الإسلامية ورئيس الطريقة التيجانية بالسودان .

فى إحدى القرى النائية المنعزلة من قرى السودان كان يعيش رجل عابد صالح وكان يقضى وقته بين المسجد والبيت ، لم يكن يفارق القرية يومًا ما ، والقرية فى انعزالها كأنها بالنسبة له ، العالم كله .

وفى يوم من الأيام ولظروف معينة ، غادر هذا الرجل الصالح القرية بصحبة صديق له وجدّا فى السير حتى وصلا إلى الطريق الذى يؤدى إلى المدينة .

ومإإن وصلا إلى الطريق حتى رأيا — بطريق المصادفة — رجلا من رجال الجيش الإنجليزى

بملابسه العسكرية مترف المظهر ، متحليًا بكل مايمكن أن يتزين به رجل الجيش المترف الأنيق .

ولم يكن الشيخ الصالح قد أتاحت له الظروف رؤية مثل هذا المنظر فى قريته أو فى عالمه المنعزل النائى الذى اختصره الشيخ – مع صغره – من قرية إلى بيت ومسجد .

وتأمل الشيخ رجل الجيش الإنجليزى فى دهشة ثم سأل صديقه مشيرًا إلى هذا الشىء الغريب ، ماهذا ؟ فقل له صديقه : هذا كافر .

وعاد الشيخ يسأل فى دهشة أشد وفى استغراب أقوى – أهو كافر بالله ؟

فقال صديقه : نعم . وما إن نطق صديقه بذلك حتى تملك الشيخ شعور بالاشمئزاز منعه من أن يتلفظ أو ينطق .

وغمره إحساس بالغثيان أخذ يقوى ويزداد بسرعة سريعة وإذا بالشيخ يتقايأ اشمئزازًا وغثيانًا وتقززًا من هذا الكافر .

هذه هى القصة :

أترى تصويرًا أدق للشعور بالنسبة للملحد من هذا الاشمئزاز ؟ أترى صدقًا أصدق من الغثيان من الكافر ؟ وأى قلم يبلغ فى التعبير مابلغ هذا الشيخ وأى أسلوب .

إن جميع الأعراف فى جميع أرجاء الكون تتفق فى الاشمئزاز ممن ينكر الجميل ، وهذا الاشمئزاز يتفاوت بنسبة قيمة الجميل الذى يسدى ، وبنسبة درجة التكرار التى تقابله ، وبنسبه صفاء النفس التى تعلم ، أو ترى هذا النكر .

والإنسان إيجادًا وتصويرًا وخلقًا من صنع الله ، وهو بصرًا وسمعًا وذوقًا وإحساسًا وشعورًا من صنع الله ، وهو عقلا وفكرًا من صنع الله ، وكل نعمة ظاهرة وباطنة . ونعم الله لاتعد – إنما هى من صنع الله .

(وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) (ومابكم من نعمة فمن الله)

إن الإنسان – مادة ومعنى ، حسًّا وعقلاً ، شعورًا وفكرًا – وما بالإنسان من نعم ينقلب فيها ليلاً ونهارًا صباحًا ومساء – إن كل ذلك من الله .

فإذا ماكفر إنسان بالله فإنه يكون أخس من أن يعاقبه الإنسان بالصفع ، وأحقر من أن يبصق الإنسان فى وجهه . . ولايستأهل إلا الاشمئزاز إلى درجة التقايؤ . أما الجزاء فى الدين الإسلامى : يستتاب فإن لم يتب : قُتل مرتدًّا .

* * *

ومما لاشك فيه أن من الوسائل الكريمة التى تحول دون انتشار هذه القيادات الفاسدة الملحدة

فى المجتمع مايرجع إلى علماء الدين : فإنهم وقد هيأ الله لهم أن يتولوا قيادة المجتمع دينيًّا لاشك يكون تأثيرهم جارفًا إذا كانوا مثلا عُليا للفضيلة : للفضيلة فى أسمى معانيها وأشملها أى إذا كانوا حقًّا بالمنزلة التى ترضى الله ورسوله علمًا وخُلقًا ، وحبًّا للخير ، وإخلاصًا فى كل مايأتون ومايدعون .

وقد بين الله مقاييس الخير وموازين الفضيلة وبين طريق الشر وسبيل الضلال . وعلماء الدين أعرف بذلك من غيرهم فمسئوليتهم أشد وواجباتهم أصرم وتأثيرهم فى المجتمع باديه وحاضره ، لاشك كبير . والله يهدينا جميعًا سواء السبيل .

وأشهد أن لا إله إلا الله :

إن درجات المعرفة لاحصر لها ، وليس فى اللغة مايسد الحاجة فى التعبير عن كل درجة منها ولكن فى اللغة كلمات تعبر عن مراحل طويلة ، تبتدئ بالمعرفة التى تكون جهلا لتنتهى بالمعرفة التى هى اليقين الكامل وتبتدئ بالمعرفة السلبية التى تدفع إلى العمل لتنتهى بالمعرفة الإيجابية الفعالة .

وفيما يتعلق بمعرفة أن لاإلٰه إلا الله يمكن أن نورد بعض التعبيرات المتدرجة فى الرسوخ والثبات تبعًا لتفاوت حالة الأفراد .

فبعض الناس ، يقول : لاإله إلا الله .

وبعضهم « ينطقها » .

وبعضهم « يقتنع » بها .

وفريق « يؤمن » بها .

وقلة « تعتقدها » .

وقليل « يوقن » بها .

ولكن المثل الأعلى فى الإسلام أن « نشهد » أن لاإله إلا الله .

« ونشهد » تلك هى « ذروة اليقين » أو على حد التعبير الصوفى « حق اليقين » والوصول إلى مرتبة الشهادة ليس بالأمر الهين ، ولكنه ليس بالمستحيل فإذا ماتاب الإنسان إلى بارئه ، وقتل نفسه ، وأحيا روحه ، وشرب من العين التى يشرب منها عباد الله ، والتى يفجرونها بأنفسهم تفجيرًا : بالتوبة الخالصة وبما ذكره القرآن من وسائل هذا التفجير إذ يقول شارحًا هذه الوسائل . (يُوفون بالنذر ، ويخافون يومًا كان شره مستطيرًا ، ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً) .

إذا ما أخلص الإنسان التوبة ، وأناب إلى الله ولجأ إليه رق قلبه ، وصفت روحه فيحدث له فى لحظات أن يغيب عن العالم وعما حوله وعن نفسه ، ويتلاشى كل شىء ويضمحك ويصير أثرًا بعد عين أو هباءً منثورًا ، عند ذلك يشهد « أن لا إله إلا الله » ويصير بذلك شهيدًا والشهيد من شهد .

ومن شهد وهو فى هذا العالم أعرق فى صفة التشهيد ممن شهد أثناء الوفاة أو بعد الممات . ومن « شهد » أن لا إله إلا الله فقد رفعه الله إليه ، رفعه إليه وهو معنا فى عالم الكون والفساد .

وإذا مارفعه إليه بالشهادة صار ربانيا وامتنع عليه حينئذ أن يشرك بالله فأصبح أحديًّا وأصبح من الموحدين .

والتوحيد هو شهادة أن لا إله إلاالله . وهو عقيدة وحالة .

وليس هناك من صعوبة كبيرة فى أن يصبح التوحيد عقيدة ، ولكن الصعوبة كل الصعوبة فى أن يصبح التوحيد حالة .

إن نفى الشرك من أقوال الإنسان وأفعاله مؤسسًا ذلك على نفيه من قلبه ومن نفسه درجة لاينالها إلا الأقلون ، وهم الذين تحرروا من رق المادة ، ومن عبادة الأوثان .

ورق المادة وعبادة الأوثان هما من السمات العامة التى تسود البشرية فى مختلف ظروفها ، يتمثل ذلك فى عبادة المال . وعبادة الجاه ، وما من شك فى أن الخضوع للشهوات — وهى كثيرة — إنما هو عبادة لها ، والإنسان بطبعه يخلد إلى الأرض ويبيع هواه وتستعبده الأرض ، ويستعبده هواه ويبتعد بذلك — وبمقياس درجة استعباده عن الله سبحانه وتعالى .

وكل خضوع لغير الله وكل عبودية لما سوى الله شرك بالله ، إنها تتنافى مع التوحيد ، إنها لاتنسجم مع لاإله إلا الله .

والشرك الخفى كثيرة ألوانه ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

أما الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم هؤلاء قلة ، ومن الظلم فى الإيمان أو من الإشراك فى الإيمان مثلا أن يتصدق الإنسان للمراءاة أو للفخر أو يصلى ويصوم غير ناظر إلا للناس ومايقولونه عنه .

عن أبى هريرة — فيما رواه الإمام مسلم — سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به ، فعرفه نعمته فعرفها .
قال : فما عملت فيها ؟
قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : هوجرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى فعرفه نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال . فأتى به فعرفه نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك .

قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .[١٣]

وكل عمل صغر أو عظم لايراد به وجه الله وإنما يراد به غيره فهو إشراك به سبحانه . والتلبيسات الآن كثيرة وقد أتت بسبب الجانب الثقافى اللادينى من المدنية الغربية وقد تسربت إلينا فى خفاء غزتنا غزوًا لاشعوريًّا وكان من أثر تردادها أن ألفناها وأصبح مايخالفها فى نظرنا باطلا ، واتسم ذلك الباطل بسمة الحق وانعكست الآية .

وقد صورت لنا هذه المدنية أن من أسمى الأعمال إنما هى الأعمال التى يأتيها الإنسان إرضاء لضميره .

بيد أن إرضاء الضمير ليس هدف المؤمن الحقيقى ، فهدفه الوحيد إرضاء الله . وإرضاء الضمير إذًا كهدف للعمل إنما هو تلبيس وانحراف .

أما السبب فى أنه تلبيس وانحراف فهو أننا إذا أخذنا إرضاء الضمير قائدًا وباعثًا هدفًا ضللنا سواء السبيل : ذلك أن الضمير متغير متقلب متحول مختلف من إنسان لآخر ، ومن بيئة لأخرى ، ومن ثقافة لأخرى . وهو فى الجملة لااستقرار له ولاثبات . فلو عملنا الأعمال إرضاء للضمير لأسسناها على شفا جرف هار .

وقد أنزل الله قواعد للأخلاق ثابتة خالدة على الدهر فهى المقياس ، واتباعها واجب سواء وافق الضمير ، أوخالفه ، وهذا الاتباع نفسه يجب أن يكون هو الملحوظ فيه إنه طاعة لله وخضوع له واتباع لأمره . ومن التلبيسات أيضًا مايقال الآن كثيرًا من أن هذا العمل أوذاك إنما

---

(١٣) رواه مسلم والنسائى ورواه الترمذى وحسنه وابن حبان فى صحيحه وكلاهما بلفظ واحد .

يراد منه المصلحة العامة . والمصلحة العامة هذه يقولها كل إنسان ، ويتمسح فيها بالحق والباطل ، وكل إنسان يقيسها بمقياسه الشخصى . وبمنفعته الذاتية وهى مصلحة عامة إذا اتفقت مع مصالحه ، أما إذا اختلفت فهى باطل وهى فساد فى نظره وفى قوله ، وهى على كل حال تتأرجح وتميل نفيًا وإثباتًا مع القائل أو المدعى ومع ميوله وأهوائه .

وإذا أردنا إذًا أن نخرج عن دائرة الذبذبة والميل مع الهوى فعلينا بالتزام المبادئ التى حددها الوحى ، فهى وحدها التى تعرفنا بالمصلحة العامة أو بالصالح العام وهى وحدها التى تقودنا فى كل الأحوال إلى الخير والحق ، وهى التى بها تزكية أنفسنا إذا أردنا بها وجه الله .

ومن هذه التلبيسات : الاعتداد بالنفس أو الاعتزاز بالنفس ، فى مسائل الدين ، وذلك هو مايمكن أن نعبر عنه الآن بالدين العقلى . ومعنى ذلك فى حقيقة الأمر تحكيم العقل فى الدين وإخضاع الدين للعقل . وهذه النزعة تسود عند هؤلاء الذين لايسيطر عليهم الشعور الدينى السليم .

وعادة تنتهى هذه النزعة بجعل الدين فلسفة وجعله نظرًا عقليًا أكثر منه خضوعًا وطاعة وإيمانًا ، ويصبح الدين بذلك مجرد معرفة تختلف فيها الأنظار والعقول وتتضارب فيها الآراء والأفكار ، ويصبح الأمر أمرَ هوًى ومزاج وذوق ، ويخضع الإنسان لعقله لا لله ، فيبتعد بذلك قليلا أو كثيرًا عن « لا إله إلا الله » ويدخل فى زمرة « أرأيت من اتخذ إلهه هواه » .

والوسائل التى عالج بها الإسلام موضوع قيادة الناس ليشهدوا أن لاإله إلا الله كثيرة ، ويمكن أن يقال بصفة عامة : إن الإسلام كله قائم على الشهادتين . ونذكر من هذه الوسائل أن القرآن يشرح فى كثير من الآيات أن الله سبحانه .

ضمن الرزق .

وحدد الآجال .

فهو سبحانه يقول فى ضمان الرزق .

(وفى السماء رزقكم وما توعدون) .

ويؤيد ذلك بالقسم بنفسه سبحانه وتعالى فيقول بعد ذلك مباشرة .

(فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) .

ويقول سبحانه (ومامن دابة فى الأرض إلاّ على الله رزقها) . ويقول لمن كانوا يقتلون أولادهم خوف الفقر . (ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) أما تحديد الآجال فيقول الله فيه . (إن أجل الله إذا جاء لايؤخر لو كنتم تعلمون) (لكل أجل كتاب) ويقول الله تعالى للذين آمنوا : (يأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى

الأرض أوكانوا غُزًّى لوكانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم . والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير) وإذاكان الله سبحانه ضمن الرزق وطلب أن نسعى إليه . (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) .

فكل جشع وقلق وحيرة واضطراب ولجوء إلى غير الله فى الرزق إشراك بالله ، وإذاكان الله قد حدد الآجال فإن الجبن والفرار إشراك بالله .

والمؤمن إذًا مطمئن إلى رزقه ساع إليه ، وهو يعلم أن الآجال بيد الله فليس إذًا بجبان ، وإذا ما اطمأن إلى رزقه ، واطمأن إلى أن كائنًا من كان لاينقص من أجله زالت العقبات فى طريق وصوله إلى التوحيد عقيدة وحالا .

وإذا ماكان موحدًا عقيدة وحالا فقد شهد أن لا إله إلا الله وكان بذلك محاولا الاقتداء برسول الله ﷺ الذى قال له رب العزة جل وعلا . (قُلْ إنَّ صلاتى ونُسكى ومَحْياىَ ومماتى لله رب العالمين.لاشريك له)

أشهد أنّ محمدًا رسول الله :

وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله ، ولامفر من هذه الشهادة ، بل إنه لاتقبل – فى الأوضاع المستقيمة .

شهادة أن لا إله إلا الله « دون شهادة » وأن محمدًا رسول الله ، وهما إقرار متكامل بالإيمان إقرار لايتجزأ .(١٤) . كيف نشهد أن محمدًا رسول الله ؟

يقول الإمام الغزالى : « فإن وقع لك الشك فى شخص معين أنه نبى أم لا فلا يحصل لك اليقين إلا بمعرفة أحواله ، إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع ، فإنك إذا عرفت الطب ، والفقه ، يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمعرفة أحوالهم وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم ، ولاتعجز أيضًا عن معرفة كون الشافعى رحمه الله فقيهًا وكون جالينوس طبيبًا ، معرفة بالحقيقة ، لابالتقليد عن الغير ، بل إن تتعلم شيئًا من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما ، فيحصل لك علم ضرورى بحالتهما فكذلك إذا فهمت معنى النبوة ونريد الآن أن نشرف بمرافقة الرسول صلوات الله وسلامه عليه لنشهد بعض سناء النبوة ولألائها فيه صلوات الله عليه .

---

(١٤) لقد سرنا ، فيما يتعلق بوجود الله . على أن الأمر لايحتاج إلى إثبات ، أما فيما يتعلق بإثبات صدق الرسول ﷺ ، فإن الأمر على العكس : ذلك أن القرآن وجهنا إلى ظروف وملابسات وإلى أدلة وبراهين : تثبت صدقه ﷺ ، فإذا حاولنا هنا الاستفاضة فى إثبات صدقه ﷺ فإنما نتبع فى ذلك التوجيه القرآنى الكريم .

إنه سليل أمجاد : يحدثنا التاريخ عن شرفهم وعراقة أصلهم وعن المكرمات التى كانوا يقومون بها من أجل الإنسانية ومن أجل الخير.

فقصىّ – أحد أجداده ﷺ – ابتنى دار الندوة وجعل بابها إلى البيت ، وكانت دار الندوة هذه هى مجلس الشورى وهى البرلمان ، وهى المجلس التنفيذى بل إنها كانت أوسع من ذلك كله ، ففيها كان أمر قريش كله وماأرادوا : من نكاح أو حرب ، أو مشورة فيما ينوبهم .

ولايعقدون لواء حرب لهم ولالقوم غيرهم إلا فى دار الندوة يعقده لهم قصى : ولاتخرج عير قريش فيرحلون إلا منها ، لايقدمون إلا نزلوا فيها تشريفًا له (لقصى) وتيمنًا برأيه ومعرفة بفضله ، ويتبعون أمره كالدين المتبع لايعمل بغيره فى حياته وبعد موته .

وقصى هذا من أجداد الرسول ﷺ وتابعه ابنه عبد مناف ، فاضل هو الآخر فى الذورة والسنام شرفًا فى قومه .

وكذلك كان أمر بن عبد مناف : الذى أنقذ أهل مكة من الموت جوعًا فى السنين الجدب التى أصابتهم والتى ذهبت بأموالهم .

أما عبد المطلب الجد المباشر للرسول ﷺ فقد كان من حكماء العرب وكان من حكماء قريش ،«.» وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها : كالمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق والنهى عن قتل الموءودة ، وإذا نظرنا إلى رسول الله ﷺ من ناحية والده أو من ناحية والدته فإنها خلقًا وعراقة أصل : من أشرف بيوت مكة وأكرمها وأسماها بشهادة المؤرخين عن بكرة أبيهم .

فكان الرسول ﷺ – كما يقول ابن هشام – « أوسط قومه نسبًا ، وأعظمهم شرفًا من قبل أبيه وأمه .

ولد – صلوات الله عليه – فأرخ ميلاده ، ابتداء التمهيد لما أرادته الحكمة الإلٰهية من إخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

كان ميلاده تمهيدًا لذلك بمعنى : أن الله سبحانه وتعالى فى هذه الفترة التى سبقت الرسالة أحاط رسول الإسلام برعايته وعنايته ليكون أهلاً لأن يحمل أعظم رسالة ، ولأن يبشر بالدين العام ، ولأن يبين للإنسانية جمعاء عن المعنى الصحيح . فيما يتعلق بأمر الصلة بينها وبين الله وفيما يتعلق بأمر سلوك كل شخص بالنسبة لنفسه .

وبالنسبة للآخرين ، وليحدد مسئولية كل شخص فى المجتمع حاكمًا كان أو محكومًا وزوجًا

كان أو أبًا ، أو ابنًا أو أخًا أو رئيسًا فى العمل أو عاملا . . إلى غير ذلك مما يشتمل على بعضه الحديث الشريف .

وكلكم راع ومسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل فى بيته راع ومسئول عن رعيته .

والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

ومنذ ميلاده صلوات الله وسلامه عليه ، بدأت تتزلزل جميع أسس الضلال والانحراف وترمز إلى ذلك السيرة النبوية برموز جميلة فتحدثنا .

أنه فى ليلة ميلاده ، غاضت بحيرة ساوى ، وتصدع إيوان كسرى ، وخبت نار الفرس أما الأصنام التى كانت على ظهر الكعبة فإن مصيرها المحتوم وتحطيمها المؤكد قد تحدد موعده بالسنين والأيام .

إن عمد الشرك والضلال ، والانحراف ، والظلم ، والاستعباد بدأت تتهاوى وتنهار منذ ميلاد الرسول ﷺ ، وأصبح أمر النور والهداية ، والرشاد وشيك الظهور والانتشار ، وسمى المولود ، محمدًا ، أما سبب هذه التسمية فهو من جانب أن آمنة أتاها – فيما يروى – آت حين حملت به ، فقال لها :

إنك قد حملت بسيّد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى .

أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، ثم سميه « محمدًا » ومن جانب آخر : فهو حينما جاء جده عبد المطلب ليراه قيل له . ماسميت ابنك ؟ فقال محمدًا فقيل له :

وكيف سميت باسم ، ليس لأحد من آبائك ، وقومك .

فقال : إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم وذلك حسبما يروى لرؤيا كان قد رآها عبد المطلب ، وقد ذكر حديثها على القيروانى فى كتاب : كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض ، وطرف فى المشرق ، وطرف فى المغرب ثم عادت كأنها شجرة وعلى ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها .

فقصها ففسرت له بمولود يكون من صلبه ، يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض فلذلك سماه : محمدًا .

وأخذت حليمة السعدية رسول المستقبل إلى بادية بنى سعد ، وليس هناك من غرابة فى أن يكون رسول النور هذا قد ملأ رحلتها من مكة إلى البادية بالبهجة والنشاط والأمل والتفاؤل . وإن

الأبحاث الحديثة نفسها ، وتجارب الإنسانية منذ أن وجدت الإنسانية تؤيد أن هناك إشعاعات عند بعض الناس تضفى على المرافقين لهم بهجة ونشاطًا ، فلا غرابة إذن أن تنشط حليمة وينشط زوجها ، وتنشط دوابها ، وأن تسير الرحلة رخاء ، وأن يكون محمد فى براءته وطهارته ، وفى طفولته الباسمة ونضارته المتألقة هو سبب ذلك كله .

ويملأ محمد ﷺ بيت حليمة بهجة وسرورًا ، ويدب النشاط فى جميع أرجاء البيت وسكانه ويبارك الله فى كل شىء فيه ، وتنعم هذه الأسرة بحياة هنيئة فيزيد عطفها على محمد ﷺ ، ويزيد حنانها عليه ، فينمو فى جو من الرحمة والود والحنان وينغرس كل ذلك فى نفسه ، ويمتلئ قلبه الناشئ ببذور أسمى العواطف والشيم ،

وفى عامه الرابع ﷺ فى هذه السن التى يبتدئ الإنسان فيها بنوع من التمييز يمكن أن يؤدى به إلى بعض الأعمال التى قد تخرجه من براءة الطفولة المطلقة وطهارتها الناصعة ، فى هذه السن ، حصنته رعاية الله بما تعبر عنه السيرة النبوية : بشق الصدر ، وهذا الرمز هو كما يرويه الإمام مسلم : صاحب الصحيح قال : عن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ ، أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه وصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه : يعنى مرضعته إن محمدًا قد قتل . فاستقبلوه وهو ممتقع اللون . لقد استخرج جبريل حظ الشيطان من قلبه فى هذه السن المبكرة فكان كما تقول السيدة آمنة :

والله ماللشيطان عليه من سبيل .

وحقيقة إنه صلوات الله وسلامه لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس حياته كلها .

لقد كانت مكة – حينما كان رسول الله ﷺ شابًا فتيًا قويًا تعج بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة .

لقد كانت بيوت الخمر منتشرة فيها ، وكذلك البيوت المريبة ، وفى هذه وتلك المغنيات والراقصات الماجنات ، وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهافت عليه وأراد الله أن يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك .

ذكر البخارى رضى الله عنه ، أنه صلوات الله عليه وسلامه قال : ماهممت بشىء من أمر الجاهلية إلا مرتين . إحدى المرتين : أنه ﷺ : كان فى غنم يرعاها هو وغلام من قريش . فقال لصاحبه .

« اكفنى أمر الغنم حتى آتى مكة ، وكان بها عرس فيها لهو وزمر ، فلما دنا من الدار . ليحضر ذلك ألقى عليه النوم ، فنام حتى ضربته الشمس عصمة من الله له .

وفى المرة الأخيرة قال لصاحبه مثل ذلك ، وألقى عليه النوم فيها ، كما ألقى فى المرة الأولى وهذا الخبر الذى يفيدنا عصمة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه عن شرور الجاهلية ومفاسدها : يعرفنا بأمر آخر ، وهو رعاية محمد ﷺ للغنم قبل بعثته .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه يرعاها فى بادية بنى سعد . وقد كان يرعاها فى مكة وقد أخبر صلوات الله وسلامه عليه أن موسى عليه السلام بعث وهو راعى غنم ، وبعثت وأنا راعى غنم أهلى بأجياد ، إنما جعل الله هذا فى الأنبياء كما يقول صاحب الروض الأنف ، تقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق ، ولتكون أممهم رعاية لهم .

ومضت فترة الشباب برسول الله ﷺ وهو طاهر زكى صلوات الله وسلامه عليه .

وأشهد أن محمدًا رسول الله .

وصفه قومه بالأمين ، لما رأوه ولاحظوه وحققوه وأيقنوا به : من صفات تتمثل فيها الأمانة واضحة وضاءة .

لقد كان أمينًا على نفسه ، فلم يسلمها إلى مهاوى الشرك أو الشهوة أو الرجس .

وكان أمينا على الناس فلم ينتهك عرضًا ولم يوقع بعض القوم فى بعض بالنميمة ولم يغتب .

وكان أمينًا على الأموال التى تودع عنده ليتاجر بها ، وليحفظها ، فلم يختلس ولم يسرق . وكان أمينًا على الحديث إذا تحدث : فلا كذب ، ولامغالاة .

وكان أمينًا على الأسرار : فلم يفشها ، ولم يذعها إنه الأمين . . . أجمع عليها القرشيون وقالوها حينما اختلفوا فى رفع الحجر الأسود واستلُّوا السيوف ، وأوشكت الحرب أن تقع بينهم ، ثم استقر رأيهم على الاحتكام لأول آت ، فغمرتهم الفرحة حينما رأوا محمدًا وصاحوا : « إنه الأمين » .

والأمين : تعنى الصادق المخلص ، فالصدق والإخلاص : عنصران تتكون منهما الأمانة وكانت هذه الأمانة معروفة عنه ، صلوات الله عليه وسلامه ، فى شبابه وفى حياته كلها وهو القائل فيما بعد : لا أمان لمن لا أمانة له .

وعند بدء (دعوته جهرًا) حينما نزل قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) صعد رسول الله ﷺ على الصفا فقال :

يامعشر قريش : فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف : فأقبلوا واجتمعوا فقالوا مالك يامحمد ؟ قال : أرأيتكم لو أخبرتكم ، أن خيلا بسفح الجبل ، أكنتم تصدقوننى ؟

قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وماجربنا عليك كذبًا قطّ .

قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، يابنى عبد المطلب ، يابنى عبد مناف ، يابنى زهرة . . . حتى عدد الأفخاذ من قريش – إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين وأنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولامن الآخرة نصيبًا إلا أن تقولوا « لاإله إلا الله » .

وإذا كان رسول الله صلوات وسلامه عليه قد طرح الثقة بنفسه على قريش برفعه علم الأمانة هذا فى وجوههم ، فإنه كان مطمئنا واثقًا من حياته هى من الصفاء بحيث لم يشبها مايجعل رأى قريش قبيحًا .

لقد كانت حياته : البراءة الكاملة ، والطهر التام . وهذا مادعاه إلى أن يتحدى فى صراحة ، وأن يعلن فى وضوح أن حياته تثبت صدق مايقول :

ولو تمثلت الأمانة – الصدق والإخلاص – فى كل من يحيطون به من المكيين لما كان فى حاجة إلى رفع علمه هذا ، فقد كان يكفى الإخبار ، بأنه رسول فتكون الاستجابة .

ولقد آمن بمجرد هذا الإخبار كثيرون : لما توفر فيهم من الصدق والإخلاص لأنفسهم وللآخرين : أى لما توفر فيهم من الأمانة . لقد آمنت خديجة ، وآمن أبو بكر وآمن ورقة ، وغيرهم ، بمجرد أن أخبرهم بأمره ، آمنوا لما يعرفون فيه ، ولما يعلمونه من حياته .

ولقد أقر بهذه الصفة : – صفة الأمانة – أبو سفيان فى وقت كان فيه من أشد أعداء الرسول ﷺ ، سأله هرقل قائلا . هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال : فقال أبو سفيان : لا . وكان استنتاج هرقل . أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

سأل هرقل أبا سفيان أيضًا عما إذا كان قد أثر عن محمد غدر ؟ فأجاب أبو سفيان بالنفى . فقال له هرقل : سألتك : هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لاتغدر .

وحديث هرقل هذا مع أبى سفيان الذى رواه البخارى وروته كتب الحديث ، وكتب السيرة : جدير بالتأمل . فهو استنتاج عاقل ، ومنطق مروى ، ونأخذ منه الآن ما يتصل بحياة الرسول ﷺ ، وندع مايتصل بالرسالة لما بعد : يقول هرقل لأبى سفيان .

سألتك عن نسبه ، فذكرت : أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت : أن لا .

فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله .

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت : أن لا .

قلت : فلو كان من آبائه من ملك ، لقلت : رجل يطلب ملك أبيه . . ا . هـ

وإذا نظرنا إلى حياة الرسول ﷺ من ناحية الوراثة أو من الناحية النفسية . . فإننا نجد : أنها تحقق صدقه .

لقد كانت حياته – صلوات الله وسلامه عليه – شرحًا مستفيضًا ، وتوضيحًا كاملا وتعبيرًا تامًّا لما ذكره ابن خلدون ، ومايتفق عليه العقلاء ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة : من أن علامات الأنبياء .

« أنه يوجد لهم قبل الوحى : خلق الخير والزكاء ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات المنافرة لها ، كأنها منافرة لجبلته .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه مبينة لهذه القاعدة فيقول :

« وفى الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام ، مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها فى إزاره ، فانكشف ، فسقط مغشيًّا عليه حتى استتر بإزاره .

ودُعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب ، فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئًا من شأنهم .

بل لقد نزهه الله عن ذلك كله ، حتى أنه بجبلته يتنزه عن المطعومات المستكرهة ، فقد كان ﷺ ، لايقرب البصل والثوم ، فقيل له فى ذلك ، فقال :

« إننى أناجى من لاتناجون » ا هـ .

ومن الملاحظات الدقيقة : التى وجه ابن خلدون الأذهان إليها مشيرًا بها إلى أن الملابسات والظروف والجو الذى عاش فيه الرسول ﷺ وحياته قبل البعثة وبعدها إنما كان كل ذلك خيرًا وفضيلة ، سواء من ناحية سلوكه الشخصى ، أو من ناحية صلته بملك أو وحى يقـول ابن خلدون :

وانظر لما أخبر النبى ﷺ ، خديجة رضى الله عنها بحال الوحى أول مافاجأته وأرادت اختباره فقالت : « اجعلنى بينك وبين ثوبك ، فلما فعل ذلك ذهب عنه »

فقالت : « إنه ملك وليس بشيطان » .

ومعناه أنه لايقرب النساء ، وكذلك سألته عن أحب الثياب إليه ، أن يأتيه فيها .

فقال : البياض والخضرة .

فقالت : إنه ملك .

يعنى : إن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة ، والسواد ألوان الشر والشياطين وأمثال ذلك » ا هـ .

هذا النهج الذى نهجناه فى هذا البحث ، والذى اتجه إليه ابن خلدون ، واتجه إليه من قبله هرقل ، هو نهج الفطرة ، ونهج العقل وهو النهج القرآنى : إنه نهج الفطرة ، ولذلك قالت السيدة خديجة رضى الله عنها ، على البداهة للرسول – حينما فاجأها بخبر الوحى وقال لها : « لقد خشيت على نفسى » قالت له :

« كلا . . . والله لا يخزيك الله أبدًا : إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدم وتُقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

ونحن إذن حينما ننهج هذا النهج . فإنما نتأسى بالقرآن الذى بين أن حياته صلوات الله وسلامه عليه ، تقف دليلا واضحًا على أنه : صادق فى كل مايقول : فهو على خلق عظيم . (وإنك لعلى خلق عظيم) .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه . « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

وهذا الجانب الخلقى فيه : يعرفه قومه ، ومواطنوه . حق المعرفة ، فقد كانوا يعرفون محمدًا ، كما يعرفون أبناءهم وإخوتهم ، لاتخفى عليهم من سلوكه خفية .

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) ويوجه القرآن تفكيرنا : إلى أنه صلوات الله وسلامه عليه ، كان أميًا فما كان يتلو من قبله من كتاب ولايخطه بيمينه : إذن لارتاب المبطلون .

(وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطُّه بيمينك إذًا لارْتاب المبطلون) .

ثم إن مما يلفت النظر فى قوة : أنه مكث فيهم أربعين سنة ، لايتحدث عن رسالة ولانبوة ومضى عهد الشباب الطموح لم يعلن فيه شيئًا ، ولم يتحدث فيه بزعامة ولاملك ولانبوة ، فلما اكتمل نضجًا ، وعقلا ، تحدث عن اجتباء الله له واختباره لأداء الرسالة .

(قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولاأدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرًا من قبله أفلاً تعقلون)

ويتحدى القرآن المنكرين فى صدقهم ، وإخلاصهم وإن شئت فقل : فى أمانتهم فيعرض عليهم أمرًا واحدًا سهلا لايشق عليهم تنفيذه .

(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد)

ويزيد القرآن على ذلك كله : التحدى بالقرآن الكريم .

(وأشهد أن محمدًا رسول الله)

وما من شك فى أن كل شخص مخلص ، يستمع إلى الدعوة الإسلامية : يقر مع النجاشى : إن الذى جاء به محمد ﷺ ، والذى جاء به عيسى عليه السلام : يخرج من مشكاة واحدة .

لقد كان النجاشى يؤمن بعيسى عليه السلام إيمانًا لايخالجه فيه شك ، فلما سمع وصفا لموضوع الدعوة الإسلامية آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام ، إيمانًا كإيمانه بعيسى عليه السلام فى صدقه ، وفى أنه يستمد دعوته من الله .

لقد قالها النجاشى حينما سمع جعفر بن أبى طالب يقص أمر الجاهلية وأمر الإسلام ، وقد عاش جعفر بن أبى طالب حياة الجاهلية ، وعاش حياة الإسلام وكل الأخبار والوثائق : تؤيده فيما يتعلق بالجاهلية .

والقرآن الكريم والأحاديث الشريفة تؤيده فيما يتعلق بالإسلام يقول جعفر :

« أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف .

فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولا منا : نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله : لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد وآباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء .

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، وعدَّد عليه أمور الإسلام .

فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ماجاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئًا وحرمنا ماحرم الله علينا ، وأحللنا ماأحل لنا .

فلما سمع النجاشى ذلك . وقر فى قلبه يقين لايتزعزع بصدق محمد . فقال كلمته المشهورة السابقة .

أما هرقل فيما رواه البخارى ، فإنه حينما سأل أبا سفيان عن الدعوة الإسلامية ، ذكر له أبو سفيان أن محمدًا ، يأمر الناس :

« أن يعبدوا الله وحده ولايشركوا به شيئًا وينهاهم عن عبادة الأوثان ، ويأمرهم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، وصلة الرحم ، فقال هرقل :

إن كان ماتقول حقًّا فسيملك ماتحت قدمى هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن

أنه منكم ، فلو أنى أعلم أننى أخلص إليه ، لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه ، هذا النهج : من الاستدلال بالدعوة على الصدق وجعل النظر فى الدعوة إحدى الوسائل التى تسلم مع غيرها من الملابسات إلى اليقين بصدق الداعى .

هذا المنهج الذى اتخذه هرقل والنجاشى هو المنهج الذى أقره الإمام الغزالى ، فإنك إذا : « أكثرت النظر فى القرآن والأخبار ، يحصل لك العلم الضرورى بكونه ، ﷺ ، على أعلى درجات النبوة .

وأعضد ذلك بتجربة ماقاله فى العبادات وتأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف صدق فى قوله :
« من عمل بما علم ورثه علم مالم يعلم » وكيف صدق فى قوله :
« من أعان ظالمًا ، سلطه الله عليه » . وكيف صدق فى قوله .
« من أصبح وهمومه هم واحد – هو التقوى – كفاه الله هموم الدنيا والآخرة فإذا جربت ذلك فى ألف وألفين وآلاف حصل لك علم ضرورى لاتمارى فيه بنبوته عليه الصلاة والسلام .

إن النظر إلى الدعوة الإسلامية فى نظر الإمام الغزالى هو إحدى الوسائل التى تثبت صدق الرسول ﷺ . وقد تابع هذا الاتجاه فى الاستدلال : العالم الاجتماعى الكبير ابن خلدون وهو يستوعب فى نظرة عامة – الكثير من الاتجاهات المستقيمة فى شأن النبوات .

وننقل هنا ماكتبه خاصًا بموضوع الاستدلال بالدعوة ، حينما تكون الدعوة خيرًا محضًا كالدعوة الإسلامية على صدق الرسول فيما يدعيه يقول : ومن علاماتهم أيضًا .

دعاؤهم إلى الدين والعبادة : من الصلاة والصدقة والعفاف ، وقد استدلت خديجة على صدقه ﷺ ، بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا فى أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه ، وفى الصحيح أن هرقل حين جاءه : كتاب النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام ، أحضر من وجد فى بلده من قريش ، وفيهم « أبو سفيان » ، يسألهم عن حاله ، فكان فيما سأل أن قال : « بم يأمركم » .

وقال أبو سفيان : « بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف . . إلى آخر ما سأل فأجابه فقال : إن يكن ماتقوله حقًا فهو نبى وسيملك ماتحت قدمى هاتين .

والعفاف الذى أشار إليه هرقل : هو العصمة فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة دليلا على صحة نبوته ﷺ ، ولم يحتج إلى معجزة ، فدل ذلك على أن ذلك من علامات النبوة . اهـ .

والواقع أننا إذا نظرنا إلى موضوع الرسالة الإسلامية فإننا نجده فى صورة دقيقة الهدف الذى

حدده الله من إنزالها ، وهو الرحمة العامة ، يقول تعالى لرسوله الكريم : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

والرحمة إذن هى الطابع العام ، لكل التعاليم الإسلامية سواء فى ذلك ما يختص بالمجتمع أو ما يختص بالفرد ، وسواء فى ذلك ما يتصل بالجانب العقدى أو بالجانب الأخلاقى ، أو الجانب التشريعى .

وهذه الرحمة تظهر فى مختلف ميادين النشاط الإنسانى بصورة متعددة ، فتظهر فى المجتمع بمظهر العدالة والأخوة ، وقد ربط الإسلام المجتمع بعضه ببعض برباط كرباط البناء المحكم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا » .

ويتماسك كتماسك الجسد الحى الذى يسعد جميعه أو يشقى جميعه ، بسعادة أعضائه أو بشقائها « مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد : إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى .

وهذا الإحكام ، وهذا الترابط : إنما كان بسبب العدالة السارية التى تكبح شهوات الجموح ، وترد من غرب الطامع ، وتفىء بالمسرفين إلى سبيل الاعتدال . والأخوّة بجوار العدالة عامل ثان من عوامل الترابط والتماسك .

والمؤمنون : لوحدة أهدافهم ، ولوحدة آمالهم : هم إخوة متعاونون . (إنما المؤمنون إخوة) .

وتظهر الرحمة فى الفرد – فى أسمى معانيها – فى صورة التجرد لله سبحانه وتعالى : (ألا لله الدين الخالص) .

وهذا الدين الخالص : إنما هو العبودية الكاملة لله وحده ، وإذا ماوجدت هذه العبودية ، وجد الإيثار والتضحية ، والبذل والفداء ، ووجد كل خلق كريم ، وكان البعد عن كل خلق ذميم وأصبح الإنسان الذى يتمثل فيه ذلك رحمة ، أينما حل وحيثما أقام ولكنه هو نفسه : يصبح أيضًا ، بعبوديته هذه فى كنف الله تعالى وفى رعايته ، وكان آمنًا على نفسه ، وعلى ذويه ، سعيدًا بعناية الله تعالى به وتوفيقه له ، فهو إذن مغمور برحمة الله .

والمثل الأعلى الذى تمثلت فيه الرسالة الإسلامية خير تمثيل ، إنما هو : رسول الله ﷺ ، لقد كان خلقه القرآن كما جاء على لسان عائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، لقد خالط القرآن فى روحه وبدنه ، وامتزج ، صلوات الله وسلامه عليه ، بالرسالة الإسلامية وامتزجت به فكانت هى الرحمة المرسلة ، وكان هو الرحمة المهداة .

وإذا نظرنا إذن إلى الرسالة الإسلامية ، فإننا نشهد أن محمدًا رسول الله صلوات الله ورحمته وتحياته وسلامه عليه .

صور إيمانية

ومن صور الإيمان السامية التى نتطلع إليها كنبراس مضىء ، وكمثل أعلى ننظر إليه فى احترام وقداسة ، ونحاول أن نتخذ منه أسوة وقدوة : الصور الآتية .

تروى كتب السيرة النبوية ، وكتب الأحاديث الشريفة : أن رجالا من أشراف قريش مشوا إلى أبى طالب ، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنًّا وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا : من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

ثم انصرفوا عنه فى عزم مصمم ، وفى إرادة مريدة ، فعظم على أبى طالب من جانب فراق قومه وعداوتهم له ، ولكنه من جانب آخر لم يطب نفساً بإسلام رسول الله لهم ولا خذلانه ، ووقع فى حيرة مريرة ، واستغرق فى تفكير عميق ثم بعث إلى رسول الله ﷺ وقص عليه نبأ قومه ثم قال له :

يا ابن أخى : ابق علىَّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه رأى جديد ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته ، والقيام معه ، وفى لمحة فكرية عميقة مستغرقة تكشف لرسول الله ﷺ المستقبل بدون نصرة عمه ، فإذا به يزداد ثقة بالله ، وإيماناً بنصره وإذا به يقول :

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

ثم قام واثقاً بالله تعالى ثقة لا تزعزعها الأعاصير ، ثقة تميد دونها الجبال ، ولا يميد فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل بابن أخى ، فأقبل رسول الله ﷺ فقال له : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً .

وإن الشجاعة الأدبية المؤمنة لا تتمثل حقيقة إلا إذا كانت هناك معارضة قوية ، وكلما زادت المعارضة ، وكلما قويت حتى تصبح تهديداً منذراً ووعيداً مهدداً كانت الشجاعة الأدبية عند المؤمن بالحق ، والمؤمن بالصواب مثلا أعلى ، ورجولة كاملة ، وهذه الحادثة التى رويناها ، لا تمثل ظاهرة عابرة فى حياة الرسول ، صلوات الله عليه ، وإنما تمثل شعاراً دائماً .

قال عتبة بن ربيعة يوماً ، وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده « يا معشر قريش » ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ؟

وذلك : حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ ، يزيدون ويكثرون فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال :

يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت : من البسطة فى العشيرة والكمال فى النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً .. تنظر فيها لعلك تقبل منى بعضها .

فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاسمع منى ، قال : افعل .

قال : « بسم الله الرحمن الرحيم (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فُصِّلتْ آياته قرآناً عربيًّا لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعْرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا : قلوبنا فى أكنَّةٍ مما تدعونا إليه ..)

ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه .

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك » .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم : قالوا « ما وراءك يا أبا الوليد » قال « ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة » .

يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوّا بين هذا الرجل ، وبين ما هو فيه فاعتزلوه . فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : « هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدالكم »

قد يقول قائل : إنه لو عرض على محمد ﷺ هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل . هذا القول ينقضه : إن عتبة كان مفوضاً من زعماء قريش وينقضه أيضاً الخبر الآخر الذى ترويه كتب السيرة .

لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث أخو بنى عبد الدار ، وأبو البخترى بن هشام ، والأسود بن المطلب بن الأسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل .بن هشام ، عليه لعنة الله ، وعبد الله بن أبى أمية والعاص ابن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض .

« ابعثوا إلى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه » .

فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم .

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه « وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم فقالوا له.»

« يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا ، وإن كنت إنما تريد به ملكاً ، ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً ، تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً ، فربما كان ذلك – بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك » فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم .ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ ، أصبر لأمر الله حتى يحكم بينى وبينكم .

وصورة من صور الإيمان حققها الصحابة ، رضوان الله عليهم ، وكم حقق الصحابة من صور إيمانية .

لقد خرج الرسول ، ﷺ ، مع الجيش ليعترض طريق قافلة قريش ردًّا على ما أخذوه من أموال المسلمين ظلماً واغتصابًا فأتاه الخبر عن قريش بمسيرتهم ليمنعوا قافلتهم ، فاستشار الناس ، وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر الصدّيق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال : وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ، اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له ، ولم يكن الرسول ﷺ قد سمع قول الأنصار ، ولم يكن أحد منهم قد تكلم فقال ﷺ : أشيروا علىَّ أيها الناس .

وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا برآء من زمامك حتى تصل إلى دورنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه آباءنا ونساءنا ، فكان رسول الله ﷺ ، يخاف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم ، فلما قال رسول الله ﷺ ، قام سعد بن معاذ وتذكر كلمته بأكملها ، لأنها من الدساتير الرائعة الواجبة التحقيق فى الصلة بين الجيش المخلص وقائده المؤمن .

قال سعد : والله أكأنك تريد يا رسول الله ، قال أجل ، قال : فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ، ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لَصُبُرٌ فى الحرب صُدقٌ عند اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقربه عينك فسر بنا على بركة الله .

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال سيروا وأبشروا فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مضارع القوم » .

وكان السير على بركة الله ، وكان النصر بتوفيق الله .

ومن الصور الإيمانية التى قصها القرآن الكريم غير مرة ، ووضعها ، وضّاءة متلألئة ، أمام أنظار المسلمين فكانت عبرة ، وكانت حافزاً : قصة السحرة الذين أتى بهم فرعون مغالباً بهم سيدنا

موسى ، فإنه لما تبين لهم الحق ، قالوا على ملأ من الأشهاد وفى وجه فرعون » (آمنا برب هارون وموسى) .

وثارت ثائرة فرعون ، وغلى مرجل غضبه . وهددهم بإنزال أفظع ألوان العذاب فما جبنوا ، وما تخاذلوا .

ولنترك مجال الحديث للقرآن يصور لنا هذه القصة فى سورتين كريمتين : سورة الأعراف وسورة طه .

يقول تعالى فى سورة الأعراف :

(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون ومَلَئِهِ فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ، قال إن كنت جئت بآية فأتِ بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه ، فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ، قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ، قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ، وجاء السحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ، قال نعم وإنكم لمن المقربين ، قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ، قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ، ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ، قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكرٌ مكرتموه فى المدينة لتُخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ، قالوا إنّا إلى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لمّا جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) .

ويقول الله تعالى متحدثاً عن فرعون فى سورة طه : (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ، قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، فلنأتينَّك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوىً ، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضُحى . فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ، قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ، فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ، قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجْمعوا كيدكم ثم أتوا صفًّا وقد أفلح اليوم مَن استعلى . قالوا يا موسى إما أن تُلقى وإما أن نكون أول من ألقى ، قال بل ألقوا فإذا

حبالهم وعِصِيَّهم يُخَيَّلُ إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ، فألقى السحرة سجّدًا قالوا آمنا برب هارون وموسى ، قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ، إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) .

مؤمن آل فرعون

ويقص القرآن الكريم علينا قصة مؤمن أخفى إيمانه ليكون أكثر فاعلية فى مساعدة المؤمنين ، إنه مؤمن ومن آل فرعون .

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا : ساحر كذاب ، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم[١٥] وما كيد الكافرين إلاّ فى ضلال . وقال فرعون ذرونى[١٦] أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد . وقال موسى إنى عذت[١٧] بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا[١٨] أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات[١٩] من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم . إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إنْ جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد . وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب[٢٠] مثل دأب[٢١] قوم نوح

(١٥) واستبقوا نساءهم .

(١٦) أى اتركونى أقتله .

(١٧) التجأت إليه متحصنًا به .

(١٨) بسبب أنه يقول ربى الله فلا يقوله فرعون .

(١٩) بالحجج الواضحات وهى المعجزات التى شاهدوها .

(٢٠) الأحزاب الأمم والطوائف التى هلكت من قبل وأبادها الله بسبب الإشراك به والتكذيب بأنبيائه وإتيان المعاصى .

(٢١) مثل الجزاء الذى نزل بقوم نوح وعاد وثمود ومن أتى بعدهم .

وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد . ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومَنْ يُضلل الله فما له من هاد ، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ، وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السمٰوات فأطلع إلى إلٰه موسى وإنى لأظنه كاذباً ، وكذلك زُيّن لفرعون سوء عمله وصُدّ عن السبيل ، وما كيد فرعون إلا فى تباب . وقال الذى آمن يا قوم اتبعوا أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ، تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أنّما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردّنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوِّض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب) .

صور تتعارض مع الإيمان

مثل الملحد :

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين،ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض . واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) .

إن آيات الله محيطة بالإنسان من جميع أقطاره ، فالسموات من آيات الله ، والأرض من آيات الله ، والأشجار من آيات الله ، والأنهار والجبال ، والمحيطات ، والنجوم والكواكب ، كل ذلك من آيات الله ، هذا الإبداع المحكم الذى يحيط بالإنسان من جميع أقطاره هذه الآيات التى تحيط بالناس ، أينما كانوا والتى تنادى بجلال الله وعظمته . حاول بعض الناس الانسلاخ منها ، فلم يقروا بالألوهية الإقرار السليم ،والتعبير بالانسلاخ من أحكم وأدق وأروع ما يكون ، ولقد حاولوا الانسلاخ منها وهى ملتصقة بهم التصاق جلد الإنسان بالإنسان ، وانسلخوا منها بعد لأى وعلى خلاف الفطرة ، وعلى وضع لا يتلاءم مع النظام الطبيعى ، وانسلخوا بذلك من محيط الألوهية ، إنهم خرجوا عن سرادق الألوهية وخرجوا عن أن يكونوا من عباد الله فتهيئوا بصنيعهم هذا ليكونوا من أتباع الشيطان . وسهل على الشيطان غزوهم ، فغزاهم بخيله ورجله فكانوا من الغاوين ، ولو شاء الله لرفعهم بآياته ، ولكن العيب جاء منهم هم إذ أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم . وسواء كنا بصدد من أخلد إلى الأرض أو بصدد من اتبع هواه ،،فإن مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث .

ولكن لِمَ يلهث فى كلتا الحالتين؟

إن الذى أخلد إلى الأرض مهما بسط الله له فى الرزق فهو ضيق بحياته لأنه لا يطمئن إلى شىء روحى يقنعه ، والمادة – مهما أوتى الإنسان منها – فإنها – ما دام الإنسان جشعاً – لا تنتهى إلى إرضائه ، لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لطلب ثانيًا – ولو كان له واديان لطلب ثالثاً . وإذا ضيق الله عليه فى الرزق فإنه يلهث ، وذلك واضح .

ومن آثر اتباع الهوى فإنه لا يعتمد على هاد يطمئنه ولا على اطمئنان يسكنه وهو ضيق بالحياة

ذرعاً لأن هواه لا تحده حدود ، ولأن خياله لا يكبح جماحه مبدأ ، ولا خلق كريم ، ولا مثل أعلى ثابت ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث .

وهذا المثل إنما مثل الذين كذبوا بآيات الله وقد أنزله تعالى ليتفكر فيه الناس وليتعظوا به ولعله يقود إلى الهداية والرشاد هؤلاء الذين انحرفوا عنها ..

فى صفات الذين لم يعمر الإيمان قلوبهم

لقد أبان الله عز وجل عن الكثير من صفات غير المؤمنين فقال تعالى فى سورة (القلم) :

(فلا تطع المكذبين[٢٢] ، ودّوا لو تدهن فيدهنون[٢٣] ، ولا تطع كل حلاف مهين[٢٤] ، همّاز بنميم[٢٥] ، منّاع للخير معتدٍ اثيم ، عتل بعد ذلك زنيم[٢٦] ، ان كان ذا مال وبنين[٢٧] ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسمه على الخرطوم[٢٨]) .

هذه بعض أوصاف غير المؤمنين تكون فيهم متفرقة أو مجتمعة كل بحسب درجته فى الإشراك بالله ، والإلحاد . ثم يقول الله تعالى بعد هذه الآيات مباشرة : (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) ....

وصورة أصحاب الجنة من الصور التى تتعارض مع الإيمان الصحيح .

---

(٢٢) الذين كذبوا بآيات الله وكذبوا برسله .

(٢٣) ودوا لو تلين لهم فيلينون لك . أى : وهؤلاء المكذبون أن تمالئهم بإجابتك إياهم إلى الركون إلى باطلهم فيمالئونك باتباع بعض ماتقول دون إيمان منهم به .

(٢٤) كثير الحلف حقير .

(٢٥) عياب : يمشى بين الناس بالنميمة للإفساد بينهم .

(٢٦) يمنع الخير : كلما استطاع -- عن الغير -- ويتجاوز العدالة إلى الظلم بالتعدى على الناس كثير المعاصى .

والعتل : الجاف فى المعاملة ، الغليظ فى السلوك . والزنيم : الدعىّ فى نسبه أى من ينسب إلى غير أبيه ومعنى « بعد ذلك » أى مع كل هذه القبائح والآثام فإن هناك ماهو أقبح منها وهو زنيم .

(٢٧) يقول صاحب الكشاف عن هذه الآية : إنها متعلقة بقوله (ولاتطع) يعنى ولاتطعه مع هذه المثالب لأنه كان ذا مال وبنين . أى : ليساره وحظه من الدنيا ، ويجوز أن يتعلق بما وعده على معنى لكونه مشمولا مستظهرًا بالبنين . كذب بآياتنا .

(٢٨) المعنى سنطبع بعلامة على أنفه أى سنجعله فى غاية الذل والمهانة جزاء بما كذب وتكبر .

صور أصحاب الجنة

وهى قصة قديمة حديثة ، إننا نقرؤها على أنحاء متعددة فى آثار الماضين ، ونشاهدها على ألوان مختلفة فى حوادث عصرنا الراهن .

ومجمل القصة كما يرويها القرآن أن جملة من الأولاد ورثوا عن أبيهم بستاناً يانعاً ناضراً « إنه جنة » .

فلما حان قطاف الثمار الناضجة الشهية وطنوا العزم ، وصمموا الإرادة ، وأقسموا على أن يستأثروا بجميع ما حملت وأن يخصوا أنفسهم بالثمين والحقير ، ولا يدعوا لفقير ولا لمسكين من حظ .

وسولت لهم أنفسهم وسول لهم الشيطان ، أنهم أحق بكل ثمرة فيها من الفقراء والمساكين ، أليسوا أصحاب عيال ؟ أليسوا أصحاب أسر ضخمة ؟ وكيف يطمئنون على رزقهم فى الغد ؟ إن الغد مجهول ، ولا يدرى الإنسان ما يأتى به المستقبل من أحداث فعليهم إذن أن يمنعوا تسرب أية ثمرة من هذه الثمار إلى أيد محتاجة أو بطون جائعة تتمثل فى الفقراء والمساكين .

ولما ارتفع صوت أوسطهم يدعوهم إلى حق الله زجروه ، ولم تجد كلمة الحق منه عندهم آذاناً مصغية ولا قلوباً مفتحة .

لقد بيتوا هذا العزم بليل ، وقدروا أمراً ، وقدر الله أمراً .

فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت جنتهم خراباً ولا شجر فيها ولا ثمر .

وجاء هؤلاء الذين دبروا المؤامرة بليل ، جاءوا متلصصين حذرين ، جاءوا وهم يتخافتون ألا يدخلها اليوم عليكم مسكين . فلما رأوها وقعوا فى حيرة ، وظنوا أنهم ضلوا الطريق وتبلبلت أفكارهم أخذاً ورداً ، فلما تيقنوا من الأمر أسقط فى أيديهم وكان ذلك درساً قاسياً وكان عبرة ، وكان عظة .

وفى لمحات من التركيز الواعى ، أصبح عندهم الاستعداد الكافى لأن يرجعوا إلى الله ويتوبوا إليه ، وهنا ارتفع صوت أوسطهم .

(ألم أقل لكم لولا تسبحون)

ووجد هذا النداء آذانا مصغية وقلوباً متفتحة فنطقوا فى إخلاص . (سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) . وأخذوا يستعرضون أمرهم . (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) فقد تدارسوا فيما

بينهم الأمر واستنتجوا منه العظات والعبرة ، وانتهوا إلى الوصف الصادق الذى ينطبق عليهم فى مؤامرتهم ضد الإنفاق فى سبيل الله فقالوا :

(يا ويلنا إنا كنا ظالمين)

ثم تابوا توبة نصوحاً خالصة إلى الله فى صدق وكانت نهاية قولهم .

(إنا إلى ربنا راغبون)

والله قد يربى بالابتلاء ، كما أنه قد يبتلى بالنعم . والمؤمن الحق الذى — لا يفرح بالنعمة إلا على أساس أنها توصله إلى مرضاة الله ، ولا يقنط للابتلاء لأن الصبر عليه إنما هو مرضاة الله ، وأن المال قد يكون ابتلاءً إذا أقبل وقد يكون ابتلاءً إذا أدبر ، وقد يكون نعمة إذا أقبل ، وقد يكون نعمة إذا أدبر ، والمثل الأعلى هو ألا نجعل المال فى إقباله وإدباره إلٰها يعبد من دون الله ، وأن نسمو بأنفسنا حتى لا نجعلها من عبيد المال ، وحتى نحررها من رق الذهب والفضة وذلك بأداء حق الله ، والإنفاق فى سبيله .

عن أبى واقد الليثى قال : كان رسول الله ﷺ « إذا أوحى إليه ، أتيناه يعلمنا لما أوحى إليه فجئته ذات يوم فقال : إن الله عز وجل يقول : « إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لأحب أن يكون له الثانى ، وإن كان له الثانى لأحب أن يكون له الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب . ويقول صلوات الله وسلامه عليه : خلتان يحبهما الله عز وجل ، وخلتان يبغضهما الله عز وجل ، فأما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخاء . وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل ، وإذا أراد بعبد خيراً : استعمله فى قضاء حوائج الناس .

والصورة التى تتعارض مع الإيمان فى هذه القصة إنما هى الشح والبخل التى غمرت أصحاب الجنة ، قبل التوبة وقبل العودة إلى الله ، فكان الابتلاء خيراً إذ أنه كان سبباً فى أن تعمر قلوبهم بالإيمان .

قارون

كان قارون من قوم موسى ، وقد نشأ فى ربوع مصر ، وآتاه الله ثراءً عريضاً ورزقه من المال مالا يكاد يحصى ولا يعد ، وهيأ له من وسائل الحياة الهانئة وأسبابها الشيء الكثير ، فكان مع ثرائه الواسع قوى الجسم وضيء الصورة إلى درجة أن كان يسمى « المنور » وكان إلى ذلك طلق اللسان ، جذاب الحديث ، أتاه الله كل ذلك . وآتاه أكثر من ذلك ، فكان منطق الحكمة أن يؤدى لله حق

الشكر على نعمه ، وأن يتصرف فيما منحه الله إياه تصرف المعترف بالفضل الذى لا ينكر الجميل .

ولكن نفسه كانت تتطلع إلى غير ذلك . لقد أجال بصره فى بيئته وفى عشيرته فلم يجد ما يساعده على أن يكون حاكماً ، أو صاحب ولاية ورئاسة ، فأخذ ينسلخ من عشيرته وينفصل عن قومه ، ويتقرب إلى فرعون يداهنه ، ويتملق كبرياءه ، ويتزلف إليه حتى أصبح من جلسائه وفى فترة من الفترات وجد نفسه ينعم بجاه الثروة ويستمتع بجاه السلطان .

فانتشى بهذا المجد الزائف ، وملأه الغرور ، واستولى عليه الكبر ، ورسخ فى نفسه أن السعادة إنما هى الثراء والجلوس مع فرعون .

ولما وقر فى نفسه ذلك ، نسى الله أو تناساه ، فتعود عادات الذين لا دين لهم من ازدراء العشيرة واحتقار الفقراء ونضوب معين الرحمة من القلب ، واعتبار أن الحياة الدنيا هى كل شىء . وأن المثل الأعلى إنما هو الاستمتاع على أى وضع كان ، وفى أى صورة حدثت .

وسارت الحياة به على هذا النمط رخاءً فترة من الزمن فاعتقد أنها ستسير به هكذا إلى النهاية . . ولكن ، وفى يوم من الأيام بينما كان يجلس قارون مع فرعون وهامان دخل موسى عليه السلام يعرض عليهم الرسالة التى كلفه الله بتبليغها ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب .

لقد كان المنتظر من قارون أن يدافع عن موسى ، إن لم يكن من أجل الحق الواضح فمن أجل العصبية والجنسية ، ولكنه ضرب بالحق ، وبالعصبية عرض الحائط ، وجارى فرعون ، حرصاً على ماله ، واحتفاظاً بثروته ، وقال كما قال فرعون : « ساحر كذاب »

ومن أجل الإبقاء على ثروته جارى فرعون فى إسرافه وطغيانه فقال موافقاً له اقتلوا الذين آمنوا معه (مع موسى) واستحيوا نساءهم .

ولما قال فرعون (ذرونى أقتل موسى) لم يحاول قارون الدفاع عن رسول الله ، وإنما الذى فعل ذلك رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه .

وارتكب قارون كل ذلك إيثاراً للمال ، وخوفاً على الثروة من أن يصادرها فرعون لو خالفه فيما يرى من رأى ، وغاب عنه أن الثروة والملك والدنيا والآخرة بيد الله وحده ، وكما أنه سبحانه المانح الوهاب فإنه تعالى المانع القابض .

ولما رأى بعض الصالحين من قوم قارون أن الثروة والجاه أفسداه تشاوروا فيما بينهم ، واتفقوا على أن يسدوا إليه النصيحة ، فلما اجتمعوا به ، تلطفوا فى القول ما استطاعوا وأجملوا النصيحة فى أمور خمسة هى فى الواقع القواعد العامة المثالية لما ينبغى أن يكون عليه الأثرياء ، وهى القانون

الذى يجب أن يخضع له أهل الغنى قالوا له :

١ – إنك مباه بثروتك – فخور بها ، فرح بكثرة المال ، وما ينبغى أن يكون الفرح بالمال إلا لأنه وسيلة إلى النفع ، فلا تفرح بكثرة المال فرح بطر ، فإن الله لا يحب الفرحين الذين يتمثل فيهم ذلك .

٢ – وقد أتاك الله الكثير المتنوع فابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، واتجه فى كل ما تأتى وما تدع إلى تقوى الله ومرضاته .

٣ – والدنيا مزرعة الآخرة وطريقها فلا تنس نصيبك من الخطوات فى هذا الطريق بالعمل الصالح الذى سيكون رصيدك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

٤ – وأحسن كما أحسن الله إليك ، فاجعل زكاة مالك مساعدة الفقير وزكاة قوتك نصرة الضعيف وزكاة جاهك معاونة المظلوم حتى يسترد حقه .

٥ – ولا تبغ الفساد فى الأرض : إن الله لا يحب المفسدين .

ولكن هذه المبادئ السامية : التى إذا عمت كانت الدستور لكل صاحب جاه أو نعمة لم تلق أذناً مصغية لدى قارون الذى ألهاه التكاثر فقال ساخراً متحديا لا يبالى . (إنما أوتيته على علم عندى) .

لقد أوتيت هذا المال بسبب تدبيرى وحكمتى وحسن تصريفى للأمور ، وحدسى الذى لا يخطئ فى شئون التجارة ورأيى الصائب فى ارتفاع الأسعار ونزولها ، وأنكر بذلك أى أثر إلٰهى للنعمة التى ينعم بها .

وتناسى قارون وهو فى نشوة الثراء ، وحماسة الجدل ، الأخبار الصحيحة التى تدل على أن الله سبحانه أهلك كل ذى جاه لم يتق الله فيما أنعم به عليه ، ولم يؤد حق النعمة مالا كانت أو قوة أو رئاسة .

(أو لَمْ يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) وأراد قارون أن يتحدى وأن يسخر وأن ينعم بالتحدى والسخرية ممن نصحوه فخرج يوماً على قومه فى موكب كأبهى ما يكون من الزينة والأبهة ، وكأضوأ ما يكون بريقاً وزخرفاً لقد خرج على قومه فى زينته – فى كل زينته – فمدت إليه الأعين ، وأخذ بريق الذهب الذى يتحلى به الركب يخطف بالأبصار ، ولمعان الفضة المحلاة بها سروج الخيل يخلب الأفئدة .

وتهادى الركب بقارون وهو ينظر يميناً وشمالا فى كبرياء سافر ، وفى غرور مكشوف ولما رأى هذا المنظر الذين يسيرون بحسب قانون الغرائز ويريدون الحياة الدنيا فتنهم بريق الذهب ، ولمعان

الفضة وزخرف الموكب فقالوا فى شهوة غلابة وفى جوع إلى المال نهم .

(ياليت لنا مثل ما أُوتى قارون ، إنه لذو حظٍّ عظيم)

ولكن الذين هداهم الله إلى صراطه المستقيم ردوا عليهم منبهين : (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً) .

وسنة الله لا تتخلف عادة ، نذكر منها فيما نحن بصدده قوله تعالى : (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمْس) .

وقوله تعالى : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) .

وإذا كانت هذه سنة الله فى الأرض (وفى القرى) فماذا ينتظر أن تكون فى قارون وأمثاله ؟ إنها : (فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) .

ولما رأى الذين تمنوا مكان قارون بالأمس ما حل به رجعوا إلى الله وأنابوا إليه (ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) .

أما العبرة من كلِّ ذلك فيلخصها القرآن – عند انتهاء قصة قارون – تلخيصاً جميلا موجزاً ، (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) .

وإلى هنا انتهت قصة قارون ، وكان يمكننا أن نقف عند هذا الحد ، ولكن هناك بعض الطرائف والملاحظات ، يقول الله تعالى : عن قارون : (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أُولى القوة) .

١ – يقول صاحب البحر المحيط : « سميت أمواله كنوزاً لأنها لم تؤد الزكاة وعلى ذلك فإن الأموال التى تؤدى فيها الزكاة لا تدخل تحت قوله تعالى (الذين يكنزون الذهب والفضة) .

٢ – أما عن المفاتح التى تنوء بها العصبة أولو القوة ، فقد قال أبو مسلم رأياً له طريفاً جدًّا فى تفسيرها فقد قال : المراد من المفاتح ، العلم والإحاطة كما فى قوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب) ، والمراد : « وآتيناه من الكنوز هذه لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها القائمين على حفظها .

٣ – يذكرنا ثراء قارون بأثرياء المسلمين فى العصور الماضية وكان من هؤلاء عبد الرحمن بن

عوف ولكنه رضى الله عنه ، كان يؤدى حق الله كاملا فى ماله ، حتى لقد تبرع يوماً لفقراء المدينة بقافلة كاملة مكونة من خمسمائة جمل بما تحمل من تجارة إذن – فالمال إنما يكون فتنة إذا لم يؤد حق الله كاملا فيه – وكذلك الأولاد إنما تكون فتنة إذا لم يؤد الوالد حق الله والوطن بتربيتهم خير تربية .

فى قوانين إلٰهية خاصة بالإيمان

والقانون معناه : علة ومعلول ، سبب ومسبب ، مقدمة ونتيجة ، أى أن هناك ارتباطاً بين مقدمات تسمى عللا وأسباباً ، وبين نتائج تسمى معلولا أو مسببات .

وإذا كانت قوانين العالم المادى ، وهى أيضاً قوانين إلٰهية – تطرد عادة ، فإن القوانين التى سنذكرها أثبت وأقوى لأن الله سبحانه أعلن صدقها وصحتها .

وهذه الفتوى :

إنما نقدمها لهؤلاء الذين يعتقدون أو يسيرون فى حياتهم كما لو كانوا يعتقدون أن العمل الصالح والتقوى والتوكل ، والصدق والإخلاص إنما هى أمور من أجل الآخرة فقط ، ونفعها إنما يكون يوم الحساب .

ومما لا شك فيه أن نفعها يوم الحساب كبير ولكن الله سبحانه وهو أصدق القائلين ، يبين لنا أن نفعها فى الحياة الدنيا يكون أيضاً نفعاً كبيراً ، وأن فائدتها فى سلوكنا اليومى وفى تصرفاتنا ، وفى أمتنا ، وفى السكينة تغمر قلوبنا ، وفى إزالة الحيرة والخوف من قلوبنا . . فى كل ذلك وغير ذلك من وجوه الخير بالنسبة لنا ، وبالنسبة لأهلنا . . كبير . .

فى فائدة الإيمان بالنسبة للفرد
القوانين الإلٰهية الإيمانية المتعلقة بالفرد

وإذا تحقق المؤمن بالإيمان الصادق فإنه يكون قد فاز بخيرى الدارين . ومن أعظم ما يفوز به أن الله يصبح وليه ، ويخرجه من الظلمات إلى النور .

(الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) .

ويهديه الله الصراط المستقيم .

(وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) ويتكفل الله بنجاته .

(ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقًّا علينا ننج المؤمنين)

ويتكفل الله بنصره فى الدنيا والآخرة .

إن الله سبحانه ينبه أولا على أن النصر من عند الله . (وما النصر إلا من عند الله) . وينبه ثانيًا إلى : (إن ينصركم الله فلا غالب لكم) ثم يرشد إلى أن نصر المؤمنين حق عليه سبحانه . (وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين) .

ويؤكد ذلك مبيناً أن نصره سبحانه يتضمن النصر فى الحياة الدنيا ولكنه لا يقتصر عليها وإنما يتحقق فى الآخرة أيضاً ، يقول سبحانه :

(إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) .

ولكنه سبحانه يبين فى صورة لا لبس فيها هؤلاء الذين ينصرهم فيقول (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

والتقوى داخلة فى نطاق الإيمان ومن قوانينها : (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم) .

(ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) .

والتوكل داخل فى نطاق الإيمان وقانونه : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) . ومن الإيمان الرحمة ولها قوانين :

١ - الراحمون : يرحمهم الرحمان .

٢ - ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

٣ - لا تنزع الرحمة إلا من قلب شقى .

٤ - عدم الخزى فى الدنيا والآخرة وهذا القانون أعلنته السيدة خديجة رضوان الله عليها حينما أقسمت للرسول ﷺ قائلة :

كلا والله ما يخزيك الله أبداً .

ثم عللت عدم الخزى بقولها :

إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب العدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . وهذا الوصف إنما هو تفصيل لأوضاع الرحمة أو هو الرحمة مفصلة ، ومن القوانين التى تتصل بالرحمة ما يلى :

١ - من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

٢ - ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة .

٣ – ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة .

٤ – والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه .

وما من شك فى أن التوبة أول المعارج فى سلم الإيمان الصادق ، ومن قوانينها :

١ – إن الله يحب التوابين .

٢ – (استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) .

ويرسم رسول الله ﷺ كيفية تحقيق الإيمان الصادق فى طى حديث رواه إمام المحدثين الإمام البخارى رضى الله عنه فى أصح كتاب بعد كتاب الله سبحانه وتعالى .

يخبر رسول الله ﷺ فى حديث قدسى عن رب العزة .

« من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب » .

« وما تقرب إلىّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه . وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولإن استعاذنى لأعيذه » ويتوج كل ذلك قوله تعالى :

(الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

فى الإيمان والمجتمع

أما الأمن فى المجتمع ، فإنه يقاس بدرجة الإيمان فى الأفراد ، فكلما ازداد إيمان الأفراد أمن الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، وكلما خف وزن الإيمان فى النفوس اضطرب الناس واستولى عليهم القلق ، فيما يتعلق بدمائهم ، وأعراضهم وأموالهم مهما كانت سيطرة القانون وقوته ، فالقوانين لا تمس من الإنسان إلا الشكل الظاهر .

أما الإيمان فإنه يسيطر على الكيان الإنسانى كله . ومن هنا كانت ضرورة الإيمان للمجتمع ، وحاجة المجتمع للإيمان ، وإذا ما سيطر الإيمان على الكيان الإنسانى كله كان المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يتوادّون ويتعاطفون ، ويتآخون فى الله ، يصور رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، هـذه الولاية خير تصوير فيقول :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

ويقول فى روعة رائعة :

« مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

ويقول الله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) .

والمؤمنون قوامون إذن على المجتمع : يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولكنهم من قبل ذلك ، ومن بعده يأتمرون فى أنفسهم بالمعروف . وينتهون فى أنفسهم عن المنكر لأنهم مؤمنون ، ويقيمون الصلاة ، تزكية لنفوسهم وتطهيرًا لقلوبهم ، ويكررون الصلاة استدامة لهذه التزكية واتباعاً لما أمر الله .

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا)

(إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)

وهم يؤتون الزكاة تطهيراً وتزكية لأموالهم ونفوسهم وإعانة للفقير والمسكين وصاحب الجاه .

ومن خصائص المؤمنين التى ذكرت فى الكتاب والسنة وفى الآية السابقة ، أنهم يطيعون الله ورسوله .

والقرآن يقرن عادة طاعة الرسول بطاعة الله عز وجل ، بل يجعل طاعة الرسول ، طاعة الله عز وجل .

(ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ومن هنا كانت نزعة شيطانية : ذلك التيار الذى ينساب كالأفعى مشككاً فى أحاديث رسول الله ﷺ مزلزلا لمنزلتها فى النفوس باسم البحث العلمى ، وما هو من البحث العلمى فى شىء ، وإنما هو حب الظهور ، وحب الشهرة واتباع الهوى على حساب الحق وعلى حساب الإيمان والأمن ، والسلام الروحى .

وإنه لمن المعروف أن حب الشهرة إنما هو من مركبات النقص ، التى تقود الإنسان إلى ارتكاب كل موبقة ، ولسنا بصدد الحديث عن هؤلاء الآن ، وإنما نريد أن نبين أن الآية الكريمة السابقة التى أضفت على المؤمنين هذه الأوصاف السامية تنتهى بقوله تعالى ، تفضلا عليهم وتبشيرًا لهم :

(أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) .

إنهم إذن ناجون ، وهم منتصرون ، وهم فى قبس من رحمة الله ، لا ينقطع وما ذلك إلا لإيمانهم ، وليس إيمانهم الذى نالوا به هذه المنزلة بالأمر الهين .»

فالإيمان بضع وسبعون شعبة ، أدناها إماطة الأذى عن الطريق « ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

والمؤمن من آمنه الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم .

والمؤمن كله منفعة إن شاورته نفعك ، وإن شاركته نفعك وإن ماشيته نفعك فأمره كله منفعة .

ولقد كان صحابة رسول الله ﷺ رضى الله عنهم يجلسون حوله ، وإذا بهم يسمعونه يقول « والله لايؤمن ، والله لا يؤمن ، فاستفسر الصحابة رضوان الله عليهم عن الأمر ، فقال : « من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم »

ويقول صلوات الله وسلامه عليه ، « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره وليصل رحمه ، وليقل خيراً أو ليصمت » .

وهكذا الإيمان لو تتبعنا جميع جوانبه ، لوجدنا أثره فى المجتمع كبيراً ، ولوجدناه إيجابيًّا لا سلبية فيه .

وللإيمان موازين لا تخطئ يزن بها نفسه من يدعى الإيمان ، ويزعم أنه فى زمرة المؤمنين ، نذكر من ذلك قول رسول الله ﷺ يسأل بعض أصحابه رضوان الله عليهم . « أتصبرون عند البلاء ؟ قالوا نعم : أتشكرون عند الرخاء ؟ قالوا : نعم : أتثبتون عند الحرب واللقاء ؟ قالوا : نعم قال : مؤمنون ورب الكعبة » .

أما بعد فإن الله سبحانه أوجز لنا تحديد المؤمنين فى كلمات قليلة تتضمن من المعانى الشىء الكثير فقال : سبحانه فى كتابه الكريم (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون) وهذه الآية مبتدئة بأداة الحصر هى المقياس الصحيح للإيمان .

فمن ظن بنفسه الإيمان فلينظر إلى هذه الآية فإن وجد أنها لا تتحقق فيه فليعمل على إكمال نفسه ، ومن رأى أنه يمثلها فليحمد الله مصدر الهداية والتوفيق .

ويشكره سبحانه على ما تفضل به عليه .

فى نتيجة النطق بالشهادتين

إذا نطق الإنسان بالشهادتين – أشهد أن لا إلهٰ إلا الله وأن محمداً رسول الله – فهو مسلم ولزمه أن يؤدى جميع فرائض الإسلام فيجب عليه أن يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت إن كان مستطيعاً ، ومن امتنع عن أداء ركن من هذه الأركان لا يخرجه ذلك من الإسلام إلا إذا كان امتناعه عن إنكار وجحود لهذا الركن أو ذاك .

فمن امتنع عن أداء الزكاة تهاوناً فهو مسلم عاص مطالب بأدائها ، أما إذا كان امتناعه عن إنكار فريضتها فإنه يكفر بذلك ويخرج من عداد المسلمين لأنه أنكر ما علم من الدين بالضرورة .

ولقد حارب سيدنا أبو بكر رضى الله عنه الممتنعين عن أداء الزكاة بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وإنما حاربهم سيدنا أبو بكر حرب مرتدين لأنهم أنكروا أن تكون الزكاة من أركان الدين أو من أقرّ أنها من أركان الدين ومع ذلك لم يؤدها فمثله كمثل من يعترف أن الصوم مثلا من أركان الدين ومع ذلك لا يصوم ، إن هذا أو ذاك مادامًا مقرين فَهُما من عصاة المسلمين أما من أنكر فهو كافر . .

فى الدليل المقنع على وجود الله

الدليل المقنع على وجود الله آثاره المشاهدة التى لا يمكن أن تكون موجودة بغير قوة كبرى على قدرة وعلم وصفات يصدر عنها هذا الإبداع وهى قوة الله تعالى : والإيمان بوجود الله حقيقة مقررة فى فطرة الإنسان منذ خلق ، والرجل البدوى حين سئل عن وجود الله بفطرته فقال :

البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير فسماء ذات أبراج . . وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟ وأنت تعلم أن آدم خلق وهبط إلى الأرض وفى قلبه هذه الحقيقة ، ونشأت ذريته الأولى على هذا الإيمان ولما تفرقوا فى طول البلاد وعرضها ، شغلهم طلب العيش والمأوى عن التفكير فى خالق هذا الكون وهدتهم فطرتهم إلى أن هناك من هو أقوى منهم يسيرهم ويسيطر عليهم بما يرونه من كواكب ومخلوقات شتى حاولوا التقرب إليها أو التحصن ضد خطرها ، وكما يحدثنا علماء الفلسفة والأجناس البشرية رموزاً إلى هذه القوة الخفية بما يعبر عن عقيدتهم فى شكل تمثال أو غيره .

ومن هنا جاء الرسل لتلفت أنظار الضالين إلى حقيقة الألوهية .

ومهما يكن من شىء فإن علماء العصر الحديث على الرغم من تنكرهم للدين الذى عاشوا فى ظله قروناً وحرمهم كثيرًا مما يحتمه انطلاق الفكر ونشاط الإرادة فلم يستطيعوا أن ينكروا وجود إله وراء هذه المادة التى هى وعاء علمهم وتجاربهم وكان أسلوبهم فى البحث بعيدًا عن الأسلوب التقليدى الدينى الذى ثاروا عليه ، ولو شئت لأوردت لك كثيرًا من أقوال كبارهم فى إثبات وجود الإله ، ولكنى أحيلك على كتاب (الله يتجلى فى عصر العلم) الذى جمع فيه « جون كلوفرموسما » الباحث الدينى الاجتماعى كثيرًا من شهادات علماء أمريكا المتخصصين فى سائر العلوم بما يؤكد اعتراف العلم بوجود الله .

وإن شئت دليلا على طريقة المتكلمين وعلماء التوحيد على وجود الله أحيلك على رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده « ولعلك توفق إلى فهم الأسلوب الموضوع للاستدلال على وجود الله سبحانه . اعتقد أيها السائل أنك ما دمت مسلمًا ومؤمناً بالتالى بوجود الله فلا تشغل نفسك بأمر لا يعنى به إلا الفلاسفة والعلماء المختصون الذين ينفقون وقتاً كبيراً فى الجدل والمناقشة .

فى المعجزة تدل على صدق الرسول

إن قيام سيدنا محمد ﷺ بالدعوة إلى دين جديد حقيقة تاريخية مقررة ، لا ريب فيها وتلك آثارها شاهد صدق عليها ، ولما جاء بالدعوة وكذبه قومه وطلبوا منه ما يثبت صدقه بالإضافة إلى ما عرفوه عنه من صدق وأمانة وقد انتزع منهم هذا التصديق المبدئى بقوله : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىَّ » ؟ :

قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، فقال لهم : « إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

فلما كذبوا جاءهم بالقرآن متحديا به فعجزوا وبعشر سور فعجزوا وبسورة فعجزوا على الرغم من أنهم فرسان البلاغة والفصاحة ، وقد نص على ذلك قول الله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً) .

وحيث إنهم عجزوا عن محاكاته علم أنه ليس من صنعه فيكون من صنع الله وحده الذى جعل المعجزة دليلا على أن الرسول مبعوث من عنده ، وقد صح فى الحديث المتفق عليه ما من الأنبياء من نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة .

وإذا صدقنا بالقرآن معجزة صدقنا برسالة سيدنا محمد وبكل ما جاء به فالآيات فى القرآن

كثيرة تثبت رسالة جميع الرسل السابقين وإن شئت توضيحاً لهذه الحقيقة فارجع إلى رسالة التوحيد (للشيخ محمد عبده).

فى الإسلام صالح لكل زمان ومكان

إن الإسلام هو آخر الأديان جميعاً وهو صالح لكل زمان ومكان ، وبحيث يتمشى مع تطور البشرية فى عصورها المختلفة ويناسب كل بيئة مهما كان مستواها وذلك بفضل قواعده الكلية ونصوصه الجامعة التى تدع مجالا واسعًا للتفسير والتطبيق على الأحداث والقضايا المتجددة والمتنوعة ، وتوضيح ذلك يحتاج إلى مساحة واسعة وأحيلك إلى كتاب (الإسلام دين عام خالد) للمرحوم محمد فريد وجدى .

أما من جهة مسايرته للتقدم العلمى الحديث وما جاء به من كشوف فإن الإسلام كرّم العقل وقدّره ، وحث على النظر والفكر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض ، وشجع كل باحث على البحث مهما كانت النتيجة التى يصل إليها ، فله أجر إن أخطأ ، وأجران إن أصاب ، وما جاء به العلم من كشوف فى العصور الزاهية للإسلام وفى عصر النهضة الحديثة ، فإنما هو نفحة من نفحات السياسة العلمية التى لم يجىء فى غير الإسلام ما يضاهيها قوة ودقة وتشجيعاً ، وهو لم ينص على اكتشاف معين فما أكثر الاكتشافات ، وحتى يجعل لبعضها نوعاً من الاهتمام يثير جدلا وأن يحث على البحث قال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحق) .

وقد حاول بعض الناس أن يلتمسوا نصوصاً صريحة تدل على اكتشاف معين ، ولكنهم تعسفوا فى التأويل بما لا حاجة إلى القرآن ، فيكفيه التشجيع العام للعلم وتكريم العلماء وتسخير الكون كله أرضه وسمائه لنشاط عقله وفكره وعمله . .

فى أن لكلمة « الإسلام » معنيين : أحدهما عام والآخر اصطلاحى خاص

إن المعنى العام هو : إسلام الوجه لله سبحانه وتعالى ، وهو بهذا المعنى : لا يتقيد بزمان ولا مكان ولا بشخص ، فإلقاء الإنسان بنفسه بين يدى الله تعالى مستسلماً لما يريد خاشعًا لربوبيته طالبًا لمرضاته . . إن هذا المعنى لا يتقيد بماضٍ ولا بحاضر ولا بمستقبل ، إنه المعنى الخالد الذى

يجب أن يكون عليه كل إنسان فى صلته بالله سبحانه وتعالى ، بل هو المعنى والدليل الوثيق لكلمتى (الدين) ومن أجل ذلك كان التعبير القرآنى (إن الدين عند الله الإسلام) .

وتفسير الدين بأنه الإسلام : كان ذلك أعمق تعبير وأصدق تفسير ولا يتأتى ولن يتأتى أن تجد لكلمة « الدين » تفسيرًا أصدق ولا تعبيراً أرقى من كلمة : « الإسلام » .

ومن أجل ذلك كان منطقيًّا أن يكون سيدنا آدم مسلمًا وأن يكون سيدنا نوح مسلماً ، وأن يقول سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل : (ربنا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك) وأن يوصى سيدنا إبراهيم وسيدنا يعقوب أبناءهما بالإسلام (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنىّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون) .

وهكذا الأمر بالنسبة لجميع الأنبياء : فقد كانوا جميعاً من المسلمين . .

أما المعنى الاصطلاحى الخاص فإن هذا الدين الذى أوحاه الله سبحانه وتعالى إلى محمد ﷺ والذى جاهد الرسول وكافح لنشره فى مكة طيلة ثلاث عشرة سنة وأخرج منها بسببه ، فهاجر تاركاً الأهل والعشيرة ومسقط الرأس فى سبيل الله ثم أخذ يكافح ويجاهد فى المدينة المنورة طيلة عشر سنوات حتى بلّغ الرسالة وأدى الأمانة إلى آخر ما نزل من وحى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

وتتمثل مبادئ هذا الإسلام بصورة عامة فى « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » .

وتتمثل هذه المبادئ فى كل ما أتى به القرآن من عقائد ومن أخلاق ومن تشريع . .

إن المعنى الاصطلاحى الخاص للإسلام يلتقى التقاءً تامًّا بالمعنى العام يصل هذا الالتقاء إلى حد التطبيق والشرح والتفسير .

إن كل جزئية من جزئيات المعنى الاصطلاحى الخاص إنما كان باعثها : إسلام الوجه لله وغايتها ، وفى نفسها صورة من إسلام الوجه لله ، وضمن آية جزئية : خذ الزكاة مثلا : فإن باعثها أن يتخلى الإنسان عن المادة بعد امتلاكها مرضاة لله واتباعاً لأمره ، وأما نتيجتها : فهى تخلى الإنسان عن أن يستعبد للمادة فى سبيل إسلام وجهه لله وحده ، وهى فى نفسها تزكية للنفس عن أن تكون متعلقة بغير الله وكل هذا : إنما قوة إسلام الوجه لله ، وقد مثلنا بالزكاة متعمدين ، لأن غيرها من الصلاة والحج والشهادة ، والصوم أوضح فى تصوير إسلام الوجه لله .

وهكذا يلتقى المعنى العام بالمعنى الاصطلاحى الخاص « ولا يوجد تعبير وإيضاح للمعنى العام إلا هذا الذى بين دفتى القرآن الكريم .

فى الحكمة من إرسال الرسل

يقول الله تعالى معبراً عن الحكمة فى إرسال سيد الخلق (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قبل لفى ضلال مبين) ومن دعاء سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل ، وهما يرفعان القواعد من البيت قولهما ، (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلُواْ عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم) .

من هذه الأيات ومن غيرها : نعلم أن الحكمة فى إرسال الرسل ، إنما هى : تبليغ آيات الله تعالى أى تعاليمه وأحكامه وتكاليفه إلى بنى البشر ، إن الله سبحانه وتعالى -- لم يرد أن يترك البشر دون هداية فى الأمور الأساسية لبناء المجتمع وهى : العقيدة والأخلاق والتشريع ، فأرسل لأهل الأرض الدستور السماوى الذى يؤدى اتباعه والعمل به إلى تزكية النفس وتطهيرها وصفائها ، فالأديان والرسل إنما كانوا لبيان الأسس والقواعد التى لا يقوم المجتمع الصالح بدونها وكانوا أيضاً لمصلحة الفرد التى تتمثل فى الارتفاع إلى مستوى التزكية والطهر والصفاء ، وهو مستوى يجد فيه مَنْ يحققه السعادة كل السعادة ، والبهجة كل البهجة ، ويشعر من يرتقى فى معارجه منغمساً فى نور هداية الله سبحانه وتعالى ، بالسكينة تحيط به وبالطمأنية تملأ جميع أقطاره ، ويشعر فوق كل ذلك برضوان من الله أكبر ، فحكمة إرسال الرسل إذن إنما هى إسعاد المجتمع وإسعاد الفرد والرقى إلى المستوى الذى يرضاه الله لها .

فى موطن الرسالة

يقول الله تعالى لرسوله صلوات الله عليه فى شأن الرسل : (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك) .

يقول سبحانه (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) فالرسل كثيرون ، وربما كان لم يعلم منهم أكثر مما علمنا ، وأما كُن من لم نعلم منهم مجهولة لدينا ، والقول إذن بأن الله اختار الوطن العربى ليكون مهبط الرسالات السماوية ربما يكون فيه بعض التسامح .

ولكنه مما لا شك فيه أن الرسالات السماوية الكبرى الأخيرة نزلت فى الوطن العربى

لقداختار الله سبحانه وتعالى موسى وعيسى ومحمداً بالذات صلوات الله عليهم فتحدد المكان الذى نزلوا فيه ، فالمكان تابع للرسول واختيار الرسول هو الذى حدد مكان الرسالة .

وأما صفات المواطنين الذين كانوا مع الرسول وحملوا لواء الدعوة معه وبعده ، فإنها صفات وأثر من آثار تربية الرسول نفسه ، وكل رسول إنما هو معلم ومربّ ، إنه يعمل منذ الكلمات الأولى للوحى على أن يغرس خلق الخير والفضيلة فى طائفة يربيهم تربية دينية هادفة مقصودة ليحملوا الرسالة وينشروا كلمة الله فى مشارق الأرض ومغاربها ومن ذلك نتبين أن الله سبحانه وتعالى إنما اختار أولا وبالذات إنساناً فتحدد بذلك المكان ، واكتسب المكان نوراً من نور الرسول ، فكان مشرفا بشرف الرسول ، وخير مكان هو مكان خير الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين . .

والله أعلم .

فى خلافة الله فى الأرض

يقول الله تعالى للملائكته : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) . .

ولقد استحق الإنسان خلافة الله فى الأرض لأن الله سبحانه خلقه ووضع فيه الاستعداد للتخلق بأخلاق الجمال التى هى لله سبحانه ، ومن المعروف أنه مطلوب من كل شخص أن يتخلق بأخلاق الجمال التى لله سبحانه ، فالله مثلا : سمى نفسه الرحمان ، بل جعل هذه الصفة تالية للاسم الكريم أعنى . « الله » قال سبحانه : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) ومطلوب من الإنسان أن يكون رحيماً ولقد أعد لأن يكون رحيماً إذا شاء ، والله سبحانه كريم ومطلوب من الإنسان أن يكون كريماً وفيه الاستعداد أن يكون كريماً .

وهكذا خلق الله الإنسان مستعداً للرحمة والكرم والمغفرة والعفو والسلام والعلم والسمع والبصر .. وغير ذلك ..

وكل ذلك من صفاته سبحانه وتعالى . والله سبحانه خالق مصور ومبدع وفى مقابل — ذلك بالنسبة للإنسان العمل والكدح فى الأرض جعلها الله ذلولا له وسخرها له ، بل سخر الكون كله له من سمائه وأرضه ومابينهما ليستخدم كل ذلك للعلم بالعلم والعمل ، واستحق الإنسان خلافة الله فى الأرض إذن بهذه الصفات الخيرة ، وبالفعل المتواصل ، أما إذا لم يكن كذلك بأن كان شريراً أوكان كسولا فإنه يكون قد تخلى عن الرسالة التى هيأه الله لها ، وهى رسالة الخلافة فلا يكون أهلا لها .

والله أعلم . . .

فى معنى الإيمان فى الكتاب والسنّة

لقد حدد القرآن مفهوم الإنسان بأنه عقيدة وعمل ، قال تعالى :

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) .

وقد كان مما أمر الرسول به وفد عبد القيس الإيمان بالله وحده – قال : أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا الله ورسوله أعلم – قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس ، فقد أوضح الرسول ﷺ حقيقة الإيمان فى مفهوم الشرع بأنه يشتمل مع التصديق القلبى على الأعمال وهذا ما فهمه السلف والمحدثون ومنهم الإمام البخارى .

فى فائدة الإيمان بالنسبة للمجتمع

تقاس درجة الأمن فى المجتمع بمقياس درجة الإيمان فى أفراده ، فكلما ازداد إيمان الأفراد أمن الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، وكلما خف وزن الإيمان فى النفوس اضطرب الناس واستولى عليهم القلق فيما يتعلق بأموالهم ودمائهم وأعراضهم مهما كانت سيطرة القوانين ، فالقوانين لا تمس من الإنسان إلا الشكل والظاهر .

أما الإيمان فإنه يسيطر على الكيان الإنسانى كله ومن هنا كانت ضرورة الإيمان للمجتمع وكانت حاجة المجتمع للإيمان .

فى مظاهر الإيمان

إن مقاييس الإيمان ومظاهره كثيرة ، ونتخذ أساس ذلك حديثاً صحيحاً رواه الإمام البخارى عن أبى هريرة يقول رسول الله صلوات الله عليه : الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء من الإيمان وقد قسم سادتنا العلماء تلك الشعب فى ضوء الأحاديث الشريفة والآيات القرآنية إلى ما يختص منها بالقلب ، وما يختص باللسان ، وما يختص بالبدن ، فالحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان ، ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، وإن الذى يؤذى جاره ليس بمؤمن ،

وليس بمؤمن من شبع وجاره جائع ، وإن الجهاد من الإيمان ، والإنصاف من النفس من الإيمان ، وبذل السلام والإنفاق من الإيمان ويتغلغل الإيمان فى الحياة الاجتماعية ، حتى يصل إلى السهل من أمرها والميسور ، فتكون إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان ، وإذا ما تغلغل الإيمان فى النفس وجد المؤمن حلاوة الإيمان ، وشرطها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار . .

فى هل الشك ينقص الإيمان ؟

من علم أنه خلق من عدم وأن من خلقه قادر على أن يبعثه بعد موته ويحاسبه على ما قدم لنفسه من خير أو شر ، ومَنْ علم أنه ليس فى طوق أحد أن يمنح الحياة لأى شىء حتى الذباب آمن بربه وأذعن لأمره لأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء وآمن بالقضاء والقدر وحسبه أنه قد يرى فعل شىء لديه كل أسباب فعله ولكنه لا يتيسر له ذلك فمن الذى حال بينه وبين فعل ما يريد أليس هو الله رب العالمين والشك ينقص الإيمان وقد يذهب به كله ، ونعوذ بالله من زوال الإيمان أو نقصه .

وعليك كلما مر بك خاطر الشك أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . وأن تقول : بسم الله ذى الشأن عظيم البرهان شديد السلطان ما شاء الله كان ، أعوذ بالله من الشيطان ثلاثاً : أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون – ثلاثا .

رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون ثلاثاً . يا مقلِّبَ القلوب ثبت قلبى على دينك – ثلاثاً .

وتستديم قراءة هذه الأحاديث عقب كل صلاة فإن ذلك يذهب بالشك الذى لديك إن شاء الله ويجعلك من المحافظين . .

وأنصح لك ألا تعارض قول : الله ربى لا أشرك به شيئاً ، فإن لهذا الحديث أثراً كبيراً فى إصلاح أحوال ذوى النفوس المريضة .

والله تعالى أعلم .

بين العقل والدين

لا يتأتى التعارض بين القرآن الكريم والعقل :

وذلك أن القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، وقد نزل القرآن الكريم هداية للعقل فى الأمور التى إذا ترك العقل وحده فيها لتعرض دون شك - للضلال ، وهذه الأمور التى لا يستطيع العقل أن يسير فيها إلا على هدى من الله تعالى هى : مسائل العقيدة ، ومبادئ الأخلاق وقواعد التشريع ونظم المجتمع .

وحينما نستعرض تاريخ الفكر البشرى فى هذه المسائل نجد العقل ، قد تخبط فيها حينما انفصل عن الدين ، وما كانت رسالات الأنبياء إلا لقيادة الإنسانية إلى الحق فى أمور العقيدة والأخلاق والتشريع .

ولكن الأهواء تتسلط أحياناً فتخيل للإنسان أنها عقليات فيسير الإنسان وراءها مع أنها مجرد أهواء والله سبحانه وتعالى يقول :

(أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه وأضله الله على علم . .)

ويقول تعالى : (أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً . . .)

وكل من يرى تعارضاً بين النص والعقل ، يجب عليه أن يعود إلى نفسه ويتأمل من جديد ، وكثيراً ما يكون هذا الذى يسمى تعارضاً بين النص القرآنى والعقل إنما هو تعارض بين النص والعادات المألوفة ، ومألوفات الناس فى حياتهم العادية لا تتحكم فى النص وخوارق العادات التى يجريها الله تعالى على يد بعض أنبيائه أو على يد بعض أوليائه ، إنما هى خوارق عادات وليست خوارق عقليات .

وعلينا إذن أن نتدبر فى تأمل كل ما يمكن أن نتوهمه تعارضاً بين النص والعقل فسنرى فى النهاية أن النص والعقل يسيران فى انسجام . تام . .

والله أعلم . .

فى مشكلة القدر

« اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم » :

هذا الحديث الشريف يلخص المنهج الذى نحب أن يسير عليه العالم الإسلامى فى أمر العقيدة .

نحب أن يسير عليه رأياً وفكرة ، ونحب أن يسير عليه – من قبل استعداداً وتأهلاً . وهذا الاستعداد والتأهل يتأتى على الخصوص بوساطة دور التعليم فى جميع مراحله والصحافة والكتب التى تنشر .

وهذا الحديث الشريف يسانده فى معناه مالا يكاد يحصى من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والآثار التى وردت عن كبار الصحابة وكبار التابعين . يقول الله تعالى :

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

لقد كمل الدين ، فكفانا الله كل ابتداع ، و إذا كان الدين كاملا فما علينا إلا الاتباع أما طريقة الاتباع فقد حددها الله فى الآية الكريمة التى سبق ذكرها ، والطريقة إذن أن نتبع الآيات المحكمات فى فهم ووعى وتأييد ، وهى ليست مثار جدل ولا خصومة ، وليست مجال نزاع يحتدم أو أهواءً تثور ، وأن نؤمن بالمتشابه كما ورد ، وألا نتبعه متأولين .

فإن تتبع المتشابه ، إنما ينشأ عن القلوب التى تلونت بالزيغ والانحراف وهى التى تتبعه ابتغاء الفتنة وتتبعه لتأويله ، وتأويله إنما يعلمه الله .

ولكن ما هو هذا المتشابه ؟ :

لقد اختلف فيه أئمتنا ولا نريد أن نتعرض لهذا الاختلاف وإنما نريد أن نقول ، فى اطمئنان وثقة :

إن المسائل التى نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الخوض فيها والمسائل التى كان الاتجاه العام فى عهد الخلفاء الراشدين ينفر من الخوض فيها هى من المتشابه ، فالمتشابه إذن ، هو ما تنفر منه الروح العامة للدين الإسلامى فى عهده الأول : عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وخلفائه الراشدين وتتحرج من الخوض فيه . مثل ماذا ؟

أما أولى مسائل المتشابه التى نريد أن نتحدث – بتوفيق الله تعالى – عن شىء من تاريخها فهى مسألة القدر .

لقد شغلت مسألة القدر ، أو الجبر والاختيار ، أو أفعال العباد ، عقول الإنسانية منذ أن كان الدين ، أى منذ ابتداء تاريخ الإنسان على ظهر الكرة الأرضية .

وإذا أثيرت مسألة القدر فى أى وسط كان ، مهما كان قليل العدد فإنها تقسمه إلى قسمين : يقول أحدهما بالجبر ، والآخر يقول بالاختيار .

لقد أثارها اليهود فى دينهم ففرقت بينهم ، وقال بعضهم بالجبر ، وقال الآخرون بالاختيار .

وأثيرت فى الديانة النصرانية على مجرى التاريخ فكان النزاع والجدل وكان التحيز لرأى والتعصب له ، وانقسم رجال المسيحية إلى فريقين يختصمان ، وأراد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . أن يتلافى انشقاق الأمة بسبب إثارة هذه المشكلة فكان ينهى دائماً عن إثارتها وعن الجدال فيها ، روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون فى القدر ، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم ، فقال : يا قوم : بهذا ضلت الأمم قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن الكريم لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به » .

وعن أبى هريرة « قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى احمرّ وجهه ، ثم قال :

أبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت إليكم إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر عزمت عليكم ألا تنازعوا » .

واتخذ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، موقفاً حاسماً حازماً بالنسبة لمنع الخلاف فى هذه المسألة أو حتى مجرد إثارتها .

ومضى رسول الله ﷺ راضياً مرضيًّا ، وهو لا يسمح حتى النفس الأخير من حياته الشريفة ، بأن تثار هذه المسألة .

ولم تثر هذه المسألة فى عهد سيدنا أبى بكر لانشغال المسلمين بتوطيد دعائم الأمة الإسلامية منصرفين بذلك عن العبث فى دين الله .

وكانت درة سيدنا عمر كفيلة برد كل منْ تحدثه نفسه بإثارة هذه المشكلة إلى جادة الصواب .

ومسألة القدر إذن : من المتشابه ، إنها من أهم مسائل المتشابه ، وهى فضلا عن ذلك عصية على الحل . إنها ليست قابلة للحل ، وهى ليست قابلة للحل سواء أثيرت فى الشرق أو فى الغرب ، وسواء أثيرت فى القديم أو فى الحديث أو أثيرت فى البادية أو فى الحضر ، إنها مفرقة بين الباحثين

فيها ، ومهما طال الجدل بينهم فلن ينتهوا إلى نتيجة ، ومن أجل ذلك كانت الروح الإسلامية العامة تحرم الخوض فيها .

ومع ذلك فقد بدأت هذه المشكلة تتسلل شيئاً فشيئاً ، إلى المجتمع الإسلامى حتى لقد احتلت يوماً ما مركز الصدارة فى الفكر الإسلامى النظرى .

ولقد مهدت السياسة أولا لهذا التسلل وكانت السياسة أول عامل من عوامل إفساد التفكير النظرى الدينى فى المجتمع الإسلامى السليم .

كتب معاوية بن أبى سفيان -- بعد أن تولى الملك -- إلى المغيرة بن شعبة يطلب منه أن يكتب إليه الحديث الذى كان يقوله صلوات الله وسلامه عليه أحياناً ، وهو على المنبر . فكتب إليه المغيرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : فى دبر كل صلاة إذا سلّم :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وأخذ معاوية يذيع هذا الحديث الشريف من على المنابر مؤمناً بأنه من عوامل توطيد مركزه فى الأمة .

هذا الاستعمال السياسى للأقوال الشريفة أثار بعض الضمائر التى لم تطمئن إلى هذه الصورة التى اعتبروها استخداماً للدين ، والتى لم يروا فيها مظهراً للخضوع والانقياد له ، فهبوا يعارضون فكرة الجبر التى أخذ معاوية يبشر بها مستنداً إلى هذا الحديث الشريف .

ولسنا الآن بصدد التاريخ الكامل لهذه المشكلة ولقد بينا الآن على الأقل أمرين :

أحدهما : أن هذه المشكلة من المتشابه . لأن الرسول ﷺ نهى عن الخوض فيها .

ثانيهما : أن السياسة هى التى بدأت بإدخال هذه المشكلة فى البيئة الإسلامية .

أما النتيجة التى نريد أن نصل إليها من وراء كل ذلك فهى : أن البحث فى هذه المسألة : يجب أن ينتزع كلية من محيط الفكر الإسلامى ، وأن تنتزع المسألة مما يسمونه علم الكلام ، فإذا ما فعلنا ذلك ، فإننا نكون قد أزلنا سبباً هامًّا من الأسباب التى تفرق بين المسلمين بسبب الخلاف فى العقيدة ، ونكون بذلك قد أسهمنا بقسط وافر فى سبيل التوحيد . .

وبالله التوفيق . .

فى مشكلة الصفات

يقول الله تعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون)

ويقول سبحانه (ليس كمثله شىء)

ويقول ابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ هـ مستنتجاً ومرشداً .

« إن الله ليس كمثله شىء ، فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظر؟ أمّا حكماء المصريين القدماء ، فإنهم يقولون فى حكمة حكيمة « محال على من يفنى أن يكشف النقاب الذى تنقب به من لا يفنى » ومن يفنى : هو الإنسان .

ومن لا يفنى هو الله الباقى :

وسواء نظرنا إلى التراث الدينى الصحيح من قرآن أو سنة . أو نظرنا إلى أصحاب الآراء السليمة التى فهمت الأوضاع الدينية فهماً ينسجم مع الروح الصحيحة للتدين ، فإننا نجد أن الاتجاه العام فى ذلك كله يبتعد بالإنسان ابتعاداً تامًّا عن أن يقول فى الله سبحانه – ذاتاً وصفات – برأيه « تفكروا فى آلاء الله ، ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » .

إن هذا الأثر يرسم النهج السليم ويعبر عما يجب أن يكون عليه الإنسان إذا أراد النجاة وابتغى السلامة .

(١) وما من شك فى أن البحث فى الذات والصفات الإلهية ، من ناحية الصلة بينهما : توحيداً أو تغايراً والبحث فى الصفات الموهمة للتشبيه ، نفياً أو تأويلا إنما هو تهجم من الإنسان على مقام لا يرقى إليه وهم متوهم ، ولا خيال متخيل ، وإنه لحق : إن كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك .

وقد كان من الطبيعى : أن يقدر الباحثون أنفسهم باعتبارهم من البشر حق قدرها ، وأن يقدروا الله حق قدره .

ولو سار الأمر على هذا النسق لما تطاول البشر إلى مقام الله ، ولما تجاوزوا حدودهم وبالتالى لما كان هناك اختلاف وتنازع وافتراق فى موضوع الصفات الإلٰهية .

ولكن بعض الباحثين لم يلتزموا حدودهم كأفراد من البشر وغيّرهم عقلهم وخدعهم شيطانهم : فحاولوا بعقولهم على الله ما لم ينزل به سلطاناً ، فكانت المشكلة الثانية فى علم الكلام – مشكلة الصفات – التى أثارت الجدل والخصومة والتفرقة بين المسلمين ، جعلتهم فرقًا تتنابز

وتتخاصم ، ويرمى بعضها بعضاً بالانحراف والضلال .

(ب) ونشأت المشكلة حينما بدأ الباحثون يتعرضون للآيات التى وردت فى القرآن الكريم والتى توهم التشبيه ، كاليد والوجه والاستواء ، أو التى وردت فى الأحاديث كالنزول : والصورة ، والأصابع .

بدأت المشكلة حينما تعرض بعض الباحثين لهذه الألفاظ وأمثالها تأويلا لها أو نفياً لمعناها أو تفسيراً أو شرحاً .

ومنذ أن بدأ الحديث فيها بدأ الجدل حولها والنزاع ، واستمر خلال العصور عصراً تلو عصر ، ولا يزال للآن يثار الجدل بين أنصار الإمام الأشعرى وأنصار الإمام ابن تيمية .

وكان النزاع حول موضوع الصفات وصلتها بالذات على وجه العموم يسير فى هدوء أحياناً وفى عنف أحياناً أخرى .

وقد تولد عنه كثير من المشاكل الدامية ، كمشكلة خلق القرآن ، والمشاكل المبلبلة للأفكار والخواطر كمشكلة « الصلاح والأصلح » وجدت هذه المشاكل وكثرت وتعددت كدليل واضح على عجز العقل البشرى تجاه العظمة اللانهائية للإلهية .

ومع الإخفاق المتتابع فى البحث فى هذا الموضوع منذ الآماد المتطاولة ، فإن البشرية لم تَرْعوِ ولم تتعظ ولا تزال مستمرة فى البحث تتخبط فيه وتتنازع وتتجادل وتختصم .

(حـ) والحكمة كل الحكمة إذن ، إنما هى فى موقف سلفنا الصالح رضوان الله عليهم – فقد هدتهم نزعتهم الدينية السليمة إلى الموقف السليم فـ « قدروا الله حق قدره » وقدروا أنفسهم حق قدرها ، فسلموا من البلبلة ، والاضطراب ، وسلموا من التنازع والاختلاف ، وكانوا فرقة واحدة .

لقد اتخذوا مبدأً أساسيًّا : وقاعدة لامراء فيها ولا شك هى قوله تعالى (ليس كمثله شىء) وهذه الآية تنسف كل تشبيه نسفاً مطلقاً ، فاحترز سلفنا الصالح عن التشبيه حتى لقد قالوا : من حرك يده عند قراءة قوله تعالى :

(خَلَقْتُ بِيَدَىَّ) أو أشار بأصبعه عند رواية الحديث الشريف .

« قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن . وجب قطع يده وقطع أصبعه .

احترز السلف عن التشبيه ، ولكنهم احترزوا عن التعطيل أيضاً ، فهم يثبتون لله اتباعاً للقرآن – الإرادة – والعلم – والصفات الكريمة التى ورد بها القرآن الكريم .

والموقف الذى يقفه من أراد متابعة السلف الصالح إذن ، تجاه كلمات الصورة واليد ،

والنزول ، إنما هو الإيمان بها مع التنزيه لله تعالى عن الجسمية وتوابعها وليس معنى ذلك أن هذه الألفاظ معطلة عن المعنى ، بل لها معنى يليق بجلال الله وعظمته ومما ليس بجسم ، ولا عرض فى جسم .

وأن يؤمن بأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ فهو كما وصفه ، وحق بالمعنى الذى أراده وعلى الوجه الذى قاله .

وألاّ يحاول لها تفسيراً ولا تأويلا .

وشعار السلف معروف فى أمثال هذه الكلمات إنه « أمروها كما جاءت »

وكانوا يذكرون فى هذه الظروف الآية القرآنية الكريمة . (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يَذَّكَّرُ إلا أولو الألباب) ولا مناص ، لمن يريد أن يحترز عن الزيغ من أن يمتنع عن التأويل والتفسير وأن يمر بهذه الكلمات كما جاءت .

ويلخص الإمام الرازى فى كتابه « أساس التقديس » المذهب السلفى فى كلمات موجزة دقيقة كل الدقة فيقول : إن هذه المتشابهات يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى فيها شىء غير ظواهرها ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى ولا يجوز الخوض فى تفسيرها .

هذا هو مذهب السلف فى الصفات ، وهو مذهب لا يثير جدلا ولا خصومة ، وليس من طبيعته ذلك ، إنه مذهب العبودية الصحيحة .

وهو المذهب الذى يتمذهب به كل من عنده نزعة التدين السليمة . وهو مذهب الإمام مالك ، والإمام الشافعى ، والإمام أحمد بن حنبل والسلف الصالح رضى الله عنهم .

ومن الطبيعى أن يكون مذهب الفرقة الناجية .

ويجب على كل المسلمين الفاقهين لدينهم ، أن ينشروه فى جميع أنحاء المملكة الإسلامية فهو أمانة فى عنقهم ، وهو رسالة يجب عليهم نشرها منعاً للحيرة والاضطراب عند الأفراد ، ومنعاً للاختلاف والتنازع بين الجماعات ، ونشراً للإسلام وتوحيداً للكلمة بين الأفراد والجامعات الإسلامية ، ويجب أن ينتزع بحث الصفات كلية من محيط الفكر الإسلامى ، وأن تنتزع المسألة مما يسمونه علم الكلام ، فإذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أزلنا سبباً آخر هامًّا من الأسباب التى تفرق المسلمين بسبب الاختلاف فى العقيدة ، ونكون بذلك قد أسهمنا بقسط وافر فى سبيل التوحيد .

فى روح الإنسان ومعنوياته هى ميدان التحدى الحقيق
ثما نصيب العقيدة الدينية فى بناء هذا الجانب

معنى المادية :

أن يتجه الإنسان إلى ما هو مادى فقط ، يقف عنده ، من جاه أو مال ، أو ولد ، أو متاع آخر ، من متع الدنيا وهؤلاء الماديون لا يتورعون عن ارتكاب كل سبيل ، ولو كانت محرمة أو مزعجة ، فى سبيل تحقيق ما يريدون . ومن هنا تركبهم الشقاوة ، ويسيطر عليهم الهم ، ويضحون فى سبيل آمالهم بكل شيء .

ويحرم الإسلام المادية الطاغية ، ويحارب الماديين المغالين ، لا نحرافهم عن السلوك الإنسانى المهذب ، وغفلتهم عن المثل العليا . ويصفهم سبحانه بقوله : (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) لشقائهم بما سعوا إليه .

ومعنى الروحية :

إدراك المعانى الإنسانية الفاضلة الرفيعة وآثارها على القيم المادية وحدها ، والإسلام وسط بين المادية الطاغية ، والروحية المذلة القاسية ، فهو يطلب تحقيق المادية العادلة والروحية المهذبة ، مع إيثار هذه على ثلاث ، إيثار لما هو خير وأبقى (ويزيد الله الذين اهتدوا هـدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردًّا) .

ويقول سبحانه : (المال والبنون زينة الحياة الدنيـا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا) فالجانب الدائم والباق فى جانب الروحية الفاضلة من أعمال البر وصالح الأعمال ، والوقوف مع الحق والخير .

والإنسان مفطور على حب الجانب المادى (زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .

ويشفع ذلك مباشرة بعد ذلك بالالتجاء الآخر والذى هو المحك الحقيقى لصدى الإيمان وقوته (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا

عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) .

فالإنسان ومعنوياته والفضائل الإنسانية هي ميدان التحدى الحقيقى فى ميدان الاختيار. والإسلام وإن عُنى بالجانبين - كما ذكرنا - فقد فضل الجانب المعنوى والإنسانى .

فى ماذا عن ظاهرة الإلحاد التى بدأت تزحف إلى العديد من الأوساط العلمية كيف نحد من زحفها الحثيث

حينما رحل المستعمر عن البلاد الإسلامية التى احتلها ترك ظله ووجوده وراءه فى صورة : موجهين تربوا على مائدته ، ودانوا بما يدين وحملوا رسالته من بعده . . وفى صورة كتب ملحدة ، تقوض كل ما بقى من الشريعة الإسلامية على يد المستعمر أو صنائعه من بعده ، وأحياناً يكون خطر من ينتسبون إلى الإسلام أشد وأنكى على الإسلام من أعداء الإسلام .

وحين ازدوجت مناهج التعليم عندنا طغت المناهج الوافدة فى الثقافة الأصيلة فعم الإلحاد ، وطغى الوافد على الأصيل وحط من قدره مما جعل من موازين وقيم ليصرف الناس عنه .

وحين ولدت مبادئ هدامة ، من شيوعية ملحدة تنكر وجود الله وتهزأ بالدين ، ورجاله ، ومن وجودية هدامة تدعو إلى الفوضى والإباحية ، وتخلع ربقة الدين .

وحين خفّت التعاليم الإسلامية بتقليصها من الدراسة وتعطيلها عن التنفيذ وإبعادها عن مجال الحكم والتوجيه ، استشرى الإلحاد بكل الوسائل ليحيا ويستشرى ، وينتشر انتشار النار فى الهشيم .

فلابد من التعاون بين الأفراد والجماعات والأسر والبيوت ، ورجال الدعوة والحكومة ووسائل الإعلام والعناية بتدريس الدين ، وتمكين الدعاة وإعدادهم الإعداد الكافى ، والدولة قدوة فى ذلك لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

وحينئذ ستشرق شمس الهداية من جديد ، ويختفى الإلحاد مع الظلام ، ويفرح المؤمنون بنصر الله ، قال ﷺ .

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

فى الروح

إن الموت ليس انفصالا كليًا بين الروح والجسد ، فالآثار الدينية ترشد إلى أن القبر – وهو مقر الجسد بعد الموت – إما أن يكون روضة من رياض الجنة وإما أن يكون حفرة من حفر النار ، وترشد هذه الآثار إلى أن الروح تبقى بعد الموت وتسمع السلام عليها ، وتعرف الشخص الذى يزور قبر صاحبها .

أما فيما يتعلق بمقرها فإنه يختلف باختلاف عملها من خير ومن شر ، ويختلف أيضاً بسبب اختلاف درجة الخيرية شرفاً وأشرف ، أما أين هذا المقر فإن أين يستفهم بها عن المكان والأرواح لامادية فهى إذن لا تتقيد بمكان ، أما أن الجسد يتحلل ويذهب فإن الله سبحانه وتعالى يحدثنا ذاكراً السؤال والجواب يقول : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) ويقول سبحانه (أفعيينا بالخلق الأول ؟) أى أفعجزنا عن الإيجاد من العدم حتى نتصور أن يعجز عن الإعادة مع أنها أسهل من الخلق الأول فالبعث إعادة الخلق من جديد وليس ذلك على الله ببعيد ، يقول سبحانه : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) .

فى الروح من أسرار الله تعالى

لقد حاول الفلاسفة القدماء وحاول الفلاسفة المحدثون البحث فى الروح ، ولقد حاول أيضاً علماء الكلام من كل الأديان البحث فيها ، ولكن هؤلاء وأولئك لم يتفقوا فى شأنها على رأى ولم يسلم واحد منهم للآخر حجته أو دليله ، وبقيت الآية القرآنية حقيقة لا مراء فيها (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

أى الروح سر من أسرار الله عز وجل ، أمر رسول الله ﷺ ، بألاّ يتحدث عن كنه حقيقته ، وما دام الأمر كذلك فلا عبرة بالسؤال عنه .

ورحم الله امرأً وقف عند أمر ربه تعالى ، فلم يتجاوزه إلى مالا ينبغى له . فإن الروح لم يطلع عليها أحد حتى يعرف من أى شىء تكونت ، وكلام الفلاسفة وغيرهم فى شأن الروح ، لا يعضده دليل علمى ، ولا دليل نقلى ، لهذا نرى أنه لا ينبغى لأحد أن يتجاوز قدر نفسه فيبحث فى

موضوع لا تصل إلى سره العقول وكل ما يمكن أن يقال فى أمر الروح ، أنها سر الحياة ، وبدونها لا تكون حياة . .

فى زيارة القبور والأضرحة

زيارة القبور عامة والأضرحة خاصة مندوبة للاتعاظ وتذكر الآخرة وحث النفس على التأسى بالسابقين من الصالحين آل بيت الرسول ﷺ ، وينبغى للزائر الاشتغال بالدعاء والتفرغ إلى الله سبحانه والاعتبار بالموت وقراءة القرآن والدعاء إلى الله أن يجعل ثوابه للميت ، فإن ذلك ينفعه على الأصح إن شاء الله .

ومما ورد أن يقول الزائر عند رؤية القبور « اللهم رب الأرواح الباقية ، والأجسام البالية ، والشعور المتمزقة ، والجلود المتقطعة ، والعظام النخرة التى خرجت من الدنيا وهى بك مؤمنة أنزل عليها روحاً منك وسلاماً منى . » .

ومما ورد أيضاً : أن يقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لا حقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، وينبغى أن تكون الزيارة مطابقة لأحكام الشريعة فلا يقبل حجراً أو عتبة أو خشباً ويكون سؤاله وطلبه من الله سبحانه وتعالى وعلى الله القبول .

فى اكتشافات العلم الحديث ووجود الله

إن الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى من العقل والنقل أكثر من أن تعد أو تحصى ولا يمارى فى ذلك إلا من لا يحس بوجود نفسه ، لأن وجوده على قيد الحياة دليل قاطع على وجود الله سبحانه ، فمن الذى أوجده وأعطاه القدرة على الاكتشاف ووهبه العلم ، قال تعالى ، (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) ويقول الرسول ﷺ : « من عرف نفسه عرف ربه » .

العربى الجاهل فى البادية حينما سُئل عن الله فقال بفطرته ، البعرة تدل على البعير وأثر السير يدل على المسير ، فأرض ذات فجاج ، وسماء ذات أبراج ، أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير .

والأجدر بهؤلاء الذين وصلوا إلى الاكتشافات الحديثة وصعدوا إلى القمر أن يزدادوا إيماناً ويقيناً بوجود الله ، لأنهم قد أنفقوا الكثير من المال والوقت والبحث والدرس على أن يصلوا إلى أقرب كوكب من الكواكب إلى الأرض ، وهو واحد من المجموعة الشمسية التى هى إحدى الملايين من المجموعات التى تسبح فى الفضاء بنظام وإبداع واتفاق لا يصطدم واحد منها بالآخر :

(لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) ، فكان ينبغى بعد هذه الاكتشافات أن تخر الجباه ساجدة أمام عظمة الله ، قائلة « تبارك الله أحسن الخالقين »..

والإسلام يحث على التزود من العلم والمعرفة وأول آية من كتابه وهو القرآن تنزلت على النبى ﷺ تدعو إلى ذلك (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) ونفى الله المساواة بين من يعلمون ومن لا يعلمون فقال : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وأمر نبيه بأن يدعوه بقوله : (وقل رب زدنى علماً) .

ودعانا القرآن إلى النظر فى المخلوقات فقال : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رُفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت) وقال : (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) وسخر لنا الشمس والقمر لننتفع بهما وسائر النجوم ، ومن وسائل الانتفاع أن نكتشف ما فى النجوم من أسرار ، قال تعالى : (وسخر لكم الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) وهبوط الإنسان على القمر ليس إلا اكتشافاً لهذا الكوكب الذى أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه مسخر لنا لننتفع بما فيه ، وليس فى القرآن ما ينافى ذلك أو يستبعده ..

فى العقائد التى انحرفت سبب الإلحاد

دين الله نزل صافياً من السماء منذ آدم ، ولكن أهواء البشر غيرت على مر الزمن وبدلت وانحرفت بالكثير منه إلى طريق غير مستقيم يتعارض مع العقل ، ولا ينسجم مع المنطق .

ولعل الذين يلحدون ، بسبب العقائد التى انحرفت ، لهم بعض العذر ، فإذا قلت لإنسان : إن التوراة تروى أن الله نزل إلى الأرض ، كائناً بشريًّا وسار فى مزرعة سيدنا إبراهيم ، دون استئذان صاحب المزرعة ، فلما رأى إبراهيم هذا الغريب يسير فى المزرعة ، فى حرية وعدم مبالاة ، ثار كبرياؤه ، فحصلت بينهما مشادة والتحما فى معركة حامية ، أوشك إبراهيم فيها أن يصرع إلهه ، وأن يطرحه أرضاً لولا أن الإله المشفق على نفسه من السقوط والهزيمة النكراء ، صارح إبراهيم بحقيقة أمره فأطلق سراحه بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق لبنى جنسه .

إذا قلت لإنسان هذا ، فليس من الغريب أن يلحد فى التوراة ، وله العذر إذا ما شك فى الدين الذى يقوم على هذا الكتاب .

وإن أى إنسان مميز تقول له عن كائن معين بالذات ولد فى يوم محدد وفى شهر معين ، ونشأ كما ينشأ الآخرون . . إذا قلت لإنسان مميز إن هذا الكائن مولود غير مخلوق وإنه أزلى ، وإنه واحد ، ومع ذلك فهو ثلاثة فى الوقت الذى هو فيه واحد ، وواحد فى الوقت الذى هو فيه ثلاثة ، إذا قلت لإنسان ذلك فشك وألحد فى دينه فله العذر .

وكلمة القديس أوغسطين : « إنى أومن بهذا لأنه غير معقول » غير مستساغة لذى أصحاب المنطق والتفكير السليم .

ولكن من البداهة أن الشك فى دين معين لا يقتضى الشك فى جميع الأديان وإذا كان البطلان قد ظهر ، بالنسبة لدين خاص فليس معنى ذلك أن البطلان يتعدى ذلك الدين إلى غيره . . .

فى ذكر أنبياء الله فى الكتاب

لا عجب أن يذكر فى الكنائس أنبياء الله : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، فإن يعقوب هو إسرائيل ، وعلى بنى إسرائيل نزل الوحى مدة طويلة ، وكثر فيهم الأنبياء فإسحق بن إبراهيم جدهم ويعقوب أبوهم ومنهم موسى وعيسى وزكريا ويحيى . . ونحن مؤمنون بهم وبكل الأنبياء ولا يمنعنا كونهم من بنى إسرائيل ألا نؤمن بهم حسداً أو تحزبًا وتفريقاً بين أنبياء الله بل نحن مؤمنون بهم وبكل من علمنا ومن لم نعلم من الأنبياء ، ودينهم الذى جاءوا به وهو عبادة الله وحده والتصديق بكل حق عنده . والله يحب أن يؤمن العالمون بكل أنبيائه كذلك . .

فى عبادة الأوثان

عبادة الأوثان تعنى أن يتوجه العابد إلى الوثن بالعبادة ، ويعتقد فيه أنه مجال لحلول الإله وأنه يضر وينفع ، ويجازى كلا من أتباعه بما يستحق .

وإذا كان الله تعالى ذكر قول عباد الأوثان : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فإنه قد بين أنهم كانوا يعبدونهم ، والعبادة مطلق الطاعة والخضوع لمن بيده الضرر والنفع والتصرف الكامل فى الإنسان وما يحيط به .

وليس من ذلك تقبيل الحجر الأسود والطواف بالكعبة لأن فى هذين الفعلين عبادة الله بأداء فعل ما جعله الله تعالى مظهر العبادة المقبولة .

وليس فى هذا الفعل عبادة لحجر أو تعظيم لحجر – وإنما فيه عبادة لله وحده وإفراد له بالطاعة والخضوع .

إن عبادة الأصنام والأوثان تعظيم لغير ما عظمه الله ، وإشراك لله بجعل بعض المخلوقات لها من مظاهر الألوهية ماالله – وانصراف عن التسليم الكامل لله بالوقوف عند بعض مخلوقاته وتعظيمها تعظيمًا لا يليق إلا به سبحانه .

ولو اعتقد إنسان أنه بتقبيله الحجر يعبد الحجر فهو كافر وكذلك الأمر فى الطواف بالبيت . إن على الحاج أن يستشعر المطلوب هنا وهو الاستسلام الكامل لله ، وتنفيذ كل ما أمر به وخصه عليه .

وإن كلمة سيدنا عمر معروفة مشهورة فيما يتعلق بالحجر حيث قال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أن رسول الله قبلك ما قبلتك ، وهذه الكلمة التى يقر بها جميع المسلمين تنفى كل شبهات الوثنية .

إن الحاج يبدأ الطواف ببسم الله والله أكبر . . .

فى القوة المادية وسيلة لإرضاء الله تعالى

لا يلزم من امتلاك القوى المادية تأييد الله وتسديده ، فكما تكون القوة والنعم المادية نعمة لمن شكر واستخدمها فى الخير ، تكون نقمة لمن كفر واستخدمها فى الشر . عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : إن الله ليملى للظالم – أى يمهله ويؤخر مؤاخذته ويمد له فى حبال الأمل ، حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم تلا قوله تعالى : (وكذلك أَخْذُ ربك إذا أَخَذَ القرى وهى ظالمة إن أَخْذَهُ أليم شديد) ولقد جرت العادة بأن الأنبياء والأولياء والمؤمنين الصادقين أكثر الناس صبرًا على البلاء ومقاومة لطغيان الكفر والفساد « فهذا رسول الله ﷺ يحكى عن نبى من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ضربه قومه فأدموه ، وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول : «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» وهو بذلك إنما يصور بعض ما جرى له مع قومه .

وبالصبر والعمل الجاد الدائب والتوكل على الله تعالى يتحول الضعف إلى قوة فى الأمة الإسلامية ويتحقق وعد الله للمؤمنين : (وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين) . . (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) .

والمقصود أن القوة المادية تكون وسيلة إلى مرضاة الله إذا استندت إلى إيمان صحيح ودين قويم – أما إذا لم تستند إلى شيء من ذلك فهي وسيلة لاختبار المؤمنين بالصبر في مواجهتها والعمل على الوصول إلى مستواها والسير بمبادئهم رغماً عنها ، ومحاولة تسييرها على أساس هذه المبادئ . .

في الحلف بغير الله

وروى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً ، فليحلف بالله أو ليصمت » .

وقال ﷺ : « كل يمين يحلف بها دون الله شرك » .

من هذا نعلم أن الحلف لا يكون إلا بالله ، ومثل الحلف بالله الحلف بالقرآن ، لأن القرآن الكريم كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته فهو كالحلف بالله سواء بسواء وأما الإجبار في الحلف فممنوع شرعاً إلا إذا كان لغرض شريف مثل التثبت من صحة قول الحالف في موضوع يتصل بمصلحة المسلمين ، وإلا فالإجبار على الحلف الباطل حرام ، والإكراه على الحلف لا يضر الحالف في صحته إذا تحققت شروط الإكراه ، وكان الحالف بريئاً وعند الإكراه بغير حق يرفع الحالف أمر مَنْ أكرهه إلى القضاء لحفظ دينه وكرامته وإذا ترتب على الحلف أضرار مادية يرفع الحالف أمره إلى القضاء .

والله أعلم ....

في الجبر والاختيار

هذه مسألة خاض فيها العلماء منذ زمن طويل وذهبوا فيها مذاهب .

١ – مذهب الجبرية الذي يرى أن الإنسان لا كسب له ولا اختيار في أفعاله وأنه كريشة معلقة في الهواء تسيرها الرياح كيف شاءت .

٢ – مذهب المعتزلة الذي يرى أن الإنسان إنما يخلق أفعاله الاختيارية ويوجدها بقدرته وإرادته التي خلقها الله فيه ولا دخل للقضاء والقدر في أفعاله .

٣ – ومذهب أهل السنة الذي يرى أن الله هو الذي يخلق أفعال العبد والعبد له كسب واختيار في أفعاله .

وهذا هو الذى ارتضاه جمهور المسلمين وهو أن العبد مخير فى أفعاله لأنه هو الذى يرجح ويختار حسب ما أودعه الله فيه من عقل يميز الخير من الشر ، وأنه هو الذى يعزم ويصمم على الفعل ، وبعد ذلك يكون خلق الفعل من الله سبحانه وتعالى كما قال فى كتابه العزيز . (والله خلقكم وما تعملون) .

فى الإسلام دين الفطرة

الإسلام دين الفطرة السليمة ، وليس فيه كهنوت ولا رجال دين يملكون أن يغفروا الخطايا ويعفوا عن الذنوب .

وهذه الأمور هى من العلاقة بين العبد وربه ، فمن التزم أوامر الله واجتنب نواهيه دخل الجنة بفضل الله وإحسانه . قال تعالى :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلا) .

فجعل الجنة جزاءً للإيمان والعمل الصالح . وليس من الإسلام أن يبيع الإنسان نفسه لأحد فالمسلم حر عزيز لا يباع ولا يشترى ، ولا يغنى أحد عن أحد شيئًا عند الله سبحانه وتعالى : ولقد قال الرسول ﷺ لأقربائه موضحاً لهم هذه الحقيقة مرشدًا لهم إلى الطريق القويم ومحذرًا لهم من الاتكال على الانتساب إليه دون عمل فقال منادياً أقرب الناس إليه « يا فاطمة بنت محمد اشترى نفسك من الله (أى بالعمل الصالح) لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب عم رسول الله ويا صفية عمة رسول الله اشتروا أنفسكم من الله (أى بالعمل الصالح) لا أغنى عنكم من الله شيئاً .

وقال سبحانه وتعالى (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون)

من كل ذلك نعلم أن علاقة المسلم برجال الدين هى علاقة إرشاد وهداية وقدوة ومثل : وليست علاقة استذلال واستعباد .

ومن يدعو الناس إلى أن يبيعوا أنفسهم نظير أن يدخلوا الجنة فليس من رجال الدين ولا من المتأدبين بآدابه أو المتمسكين بتعاليمه ، ويجب أن يحذره الناس ولا ينخدعوا به .

فى الخلافة

إن الخلافة فى الإسلام لا تورث ، إنها ليست ملكاً عضوضاً ، والمقطوع به من الدين إن الأمة يجب عليها أن تختار للخلافة أكملها فهماً للدين وتقوى الله وأمثلها حكمة واتزاناً وحزماً وعدلا . .

ونظام ميراث الملك ابناً عن أب عن جد أو نظام كون الملك فى أسرة معينة لا يتعداها نظام لا يعرفه الإسلام .

لم يوصِ سيدنا أبو بكر بالخلافة لأحد أبنائه ، ولم يأمر بها سيدنا عمر لأحد من أبنائه برغم أن ابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنه كان قمة فى التقوى والصلاح والفضيلة ولم يوص سيدنا عثمان بالخلافة أن تكون فى أسرته وماكان سيدنا على ، من الجهل بالإسلام وقواعده بحيث يأتى بعمل يخالف روح الإسلام ويخالف قواعده فيأمر أصحابه أن ينتخبوا ابنه الحسن خليفة من بعده وإذا كان هناك أمر فما يعنى الانتخاب إذن ؟ ولِمَ الانتخاب ؟ إن المنطق البسيط يرشد إلى أن سيدنا على لا يفعل مثل ذلك .

ويأتى التاريخ الصحيح وكتب السير والأخبار الثابتة فتؤيد ما أيده المنطق وترشد إلى أن سيدنا علياً ماكان يرى الخلافة كسرية متوارثة وإنما كان يراها انتخاباً من أُولى الأمر . .

والله أعلم . . . .

فى الشيعة

إن الأغلبية الغالبة الآن من الشيعة توجد فى إيران وفى العراق وفى اليمن ، وشيعة إيران والعراق من الشيعة الاثنا عشرية ، أما شيعة اليمن فإنهم من الشيعة الزيدية وهذه الأقطار الذى ذكرناها تضم ملايين الشيعة .

بيد أن هناك آلافاً من الشيعة العلويين فى لبنان ، ومجموعة ضخمة من الشيعة (طائفة البهرة) فى الهند ، وطائفة ضخمة أخرى من الشيعة الإسماعيلية فى الهند وأفريقيا .

أما تسميتهم بالشيعة فلأنهم شايعوا علياً رضى الله عنه فى خلافه مع معاوية رضى الله عنه ، ومع الآخرين من الصحابة ، فكانوا شيعة على أى مناصريه ومؤيديه على كل من خاصمه .

أما الفروق التى بين الشيعة وبين غيرهم فهى فروق فى الفقه وفى العقيدة وأبرز مظاهر الخلاف بين أهل السنّة والشيعة فى الفقه . أمران :

أحدهما : زواج المتعة وهو أن يتفق الرجل مع المرأة على أن يستمتع بها فترة من الزمن فى مقابل مبلغ من المال ، إذ يعتبر الشيعة ذلك حلالا ويعتبره أهل السنة حراماً .

والأمر الثانى : فى الاختلاف الفقهى حول الجمع بين العصر والظهر ، وبين المغرب . يأخذ به الشيعة فيجمعون ولا يفعل ذلك أهل السنة إلا فى حالات معينة ، أما الاختلاف فيما يتعلق بالعقيدة فأبرز مظاهره .

١ – اعتقاد الشيعة فى عصمة أئمتهم ، أما أهل السنة فإنهم لا يعتقدون إلا فى عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

٢ – اعتقاد الشيعة أن عليًّا كرم الله وجهه أفضل أصحاب رسول الله ﷺ على الإطلاق ، وأنه كان أحق بالخلافة ممن سبقه من الخلفاء ، أما أهل السنة فإنهم يكبرون عليا رضى الله عنه ويحترمونه ولكنهم يرتبون الخلفاء فى الأفضلية بحسب ترتيب الخلافة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على ، وهؤلاء الأربعة هم أفضل الصحابة عند أهل السنة .

تفصيل الحديث عن الشيعة

أصل الشيعة(٢٩)

يختلف الناس فى أصل « الشيعة » ؛ فيعزوها بعضهم إلى أثر الفرس ، الذين كانوا يقدسون « المَلِكَ » ؛ فلما زال مُلكُهم ، ودخلوا فى الإسلام ، ظهر أثر ذلك فى موقفهم من « آل البيت » وتقديسهم للأئمة .

ويرى آخرون : أن « الشيعة » تدين فى نشأتها لـ « عبد الله بن سبأ » ، الذى كان يهوديًّا واعتنق الإسلام للنَّيل منه ، والكيد له ؛ فأظهر هذا المذهب ليفرِّق بين المسلمين ، ويقضى على وحدتهم ، وعزتهم .

---

(٢٩) من مصادر هذا الفصل : مقالات الإسلاميين « للأشعرى » .
الفرق بين الفرق « للبغدادى » ، التبصير فى الدين « للإسفرايينى » .
الملل والنحل « للشهرستانى » . مقدمة « ابن خلدون » عثمان « للدكتور طه حسين » ، على وبنوه « للدكتور طه حسين » فجر الإسلام « للدكتور أحمد أمين » ، ضحى الإسلام « للدكتور أحمد أمين » ، أصل الشيعة وأصولها « الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء » أصول الإسماعيلية « للدكتور برنارد لويس » .

رأى « ولهوزن » و « دوزى » :

يقول الدكتور « أحمد أمين » :

وقد ذهب الأستاذ « ولهوزن » إلى أن العقيدة « الشيعية » نبعت من « اليهودية أكثر مما نبعت من « الفارسية » مستدلا بأن مؤسسها « عبد الله بن سبأ » وهو يهودى .

ويميل الأستاذ « دوزى » إلى أن أساسها « فارسى » ؛ فالعرب تدين بالحرية ، و « الفرس » يدينون « بالمَلِك » ، وبالوراثة فى البيت المالك ، ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة ، وقد مات « محمد » ولم يترك ولداً ، فأولى الناس بعده ابن عمه « على بن أبى طالب » ، فمن أخذ الخلافة منه « كأبى بكر » و « عمر » و « عثمان » و « الأمويين » فقد اغتصبها من مستحقها ؛ وقد اعتاد « الفرس » أن ينظروا إلى « الملك » نظرة فيها معنى إلهى ، فنظروا هذا النظر نفسه إلى « على » و « ذريته » .

وقالوا : « إن إطاعة الإمام أول واجب ، وأن إطاعته لله(٣٠) » أ هـ .

رأينا فى أصل الشيعة :

ولكنا نرى أن السبب فى نشأة (الشيعة) ، لا يرجع إلى الفرس عند دخولهم فى الإسلام ، ولا يرجع إلى اليهودية ممثلة فى « عبد الله بن سبأ » . وإنما هو أقدم من ذلك ؛ فنواته الأولى ترجع إلى شخصية « على » - رضى الله عنه - من جانب ، وصلته بالرسول - عليه الصلاة والسلام - من جانب آخر .

وتوضيح ذلك : أن صلة « على » بالرسول - عليه الصلاة والسلام - أقدم من الإسلام نفسه .

لم ينس « محمد » - عليه الصلاة والسلام - بعد زواجه « بخديجة » ، رضى الله عنها ، عطف « أبى طالب » عليه ، ورعايته له .

فقد ضم « أبو طالب » الرسول إليه ، وكفله ، بعد وفاة جده « عبد المطلب » وذلك بالرغم من كثرة عياله ، وعدم ثرائه .

وكان من تصرفات المقادير : أن أصابت « قريشاً » أزمة شديدة فتحدث رسول الله ، ﷺ ، مع عمه ، « العباس » وكان من أيسر « بنى هاشم » ، فقال له :

---

(٣٠) ضحى الاسلام للدكتور أحمد أمين ، ص ٣٤٠ .

إن أخاك « أبا طالب » كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عِيالِه : آخُذُ من بنيه رجلا ، وتأخذ أنت رجلاً ، فنكِلهُما عنه .

فقال « العباس » : نعم ، فانطلقا حتى أتيا « أبا طالب[٣١] » .

وانتهى الأمر بينهما وبينه : أن أخذ رسول الله ، ﷺ ، « عليا » فضمه إليه ، وأخذ « العباس » « جعفرا » .

نشأ « على » مع الرسول ، ﷺ ، منذ نعومة أظفاره ، فتفتحت عيناه - طفلا - على أكرم مثل للقدوة الحسنة ، ممثلة فى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتفتحت عيناه على أكرم مثل للود المتبادل بين الزوجين الطاهرين ؛ والحنان الذى يملأ البيت الكريم ، والرحمة التى تفيض من قلب « محمد وخديجة » فيكون من أثرها حمل الكلّ ، وصلة الرحم ، وقرى الضيف ، والإعانة على نوائب الدهر ، فترك ذلك فى نفسه أكرم الأثر .

وأوحى الله إلى الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، « وعلى » - يومئذ - ابن عشر سنين ، فلم تتدنس جبهته بالسجود لصنم ، ولم يكن فى سن تجترح فيها المعاصى : فاعتنق الإسلام طاهراً .

ولقد أراد - قبل إسلامه - أن يستشير أباه ، وبات ليلته يفكر فى الأمر ، فلم يكن يغمض له جفن ، فلما أصبح أعلن فى ثقة واطمئنان : أنه أسلم ، وأنه فى غير حاجة لرأى « أبى طالب » وقال :

« لقد خلقنى الله من غير أن يشاور « أبا طالب » فما حاجتى أنا إلى مشاورته لأعبد الله » .

« وكان رسول الله ، ﷺ ، إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه « على ابن أبى طالب » مستخفياً من أبيه « أبى طالب » ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا[٣٢] »

وحين نزلت الآية الكريمة (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا « محمد » عشيرته إلى الطعام فى بيته ، وحاول أن يحدثهم ، داعياً إياهم إلى الله ، فقطع عمه « أبو لهب » حديثه واستنفر القوم ليقوموا .

ودعاهم « محمد » فى الغداة كرة أخرى ، فلما طعموا قال لهم :

ما أعلم إنساناً فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم : بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر؟ فأعرضوا عنه ، وهموا بتركه .

---

(٣١) سيرة ابن هشام ، ص : ٢٩٣ .

(٣٢) سيرة ابن هشام ، ص : ٣٦٢ .

لكن « عليا » نهض وهو ما يزال صبيًّا دون الحلم وقال :

أنا يا رسول الله فى عونك ، أنا حرب على ما حاربت . فابتسم « بنو هاشم » وقهقه بعضهم ، وجعل نظرهم يتنقل من « أبى طالب » إلى ابنه ، ثم انصرفوا مستهزئين[٣٣] .

وفى ليلة الهجرة أسر الرسول ، ﷺ ، إلى « على » أن يتسجَّى بُرْدَه الحَضرمىَّ الأخضر ، وأن ينام فى فراشه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس[٣٤] .

وآخى رسول الله ، ﷺ ، بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، حين نزلوا المدينة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض ، ثم أخذ بيد « على » بن « أبى طالب » فقال : هذا أخى .

فكان رسول الله ، ﷺ ، و « على » بن « أبى طالب » رضى الله عنه ، أخوين[٣٥] .

لقد رباه رسول الله ، ﷺ ، صغيراً ، وكان رضى الله عنه ، يعيش فى بيته كأحد أبنائه ، وكان أول من أسلم من الذكور ، وآخى رسول الله ، ﷺ ، بينه وبينه ، وزوجه بأحب بناته إليه .

« فاطمة » ، رضى الله عنها .

ثم إن شجاعته الفذة ، وإخلاصه النادر للرسول ، ﷺ ، وتقواه ، وزهده ...

كل ذلك مشهور ، لا يحتاج إلى توضيح ، ولذلك يقول الدكتور « طه حسين » بحق :

ولقد قال المسلمون بعد وفاة النبى : إن « عليا » كان أقرب الناس إليه ، وكان ربيبه ، وكان خليفته على ودائعه ، وكان أخاه بحكم تلك المؤاخاة ، وكان ختنه ، وأبا عقبه ، وكان صاحب لوائه ، وكان خليفته فى أهله ، وكانت منزلته منه بمنزلة « هارون » من « موسى » بنص الحديث عن النبى نفسه .

لو قد قال المسلمون هذا كله ، واختاروا « عليا » بحكم هذا كله للخلافة ، لما أبعدوا ، ولا انحرفوا[٣٦] .

ولا غرابة ، والأمر كذلك أن : « كان جمع من الصحابة » يرى أن عليا أفضل من « أبى بكر » و « عمر » وغيرهما :

---

(٣٣) حياة محمد ، للدكتور هيكل ، ص : ١٤٠ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص : ٢١١ .

(٣٥) سيرة (ابن هشام) ، والروض الأنف : ص ١٨ .

(٣٦) عثمان للدكتور « طه حسين » ، ص ١٥٢ .

وذكروا أن ممن كان يرى هذا الرأى « عماراً » و « سلمان الفارسى » و « جابر بن عبد الله » ، و « العباس » و « بنيه » و « أبى بن كعب » و « حذيفة » إلى كثير غيرهم[٣٧] .

ولكن اجتماع الثقيفة انتهى باختيار « أبى بكر » ، رضى الله عنه ، خليفة للمسلمين فامتنع « على » ، رضى الله عنه ، عن البيعة ، لاعتقاده ، أنه أحق بالخلافة ، والحديث التالى يبين موقفه .

فى صحيح البخارى : حدثنا « يحيى بن بكير » ... عن « عائشة » ، أن فاطمة – عليها السلام – بنت النبى ، ﷺ ، أرسلت إلى « أبى بكر » تسأله ميراثها من رسول الله ، ﷺ ، مما أفاء الله عليه « بالمدينة » و « فدك » وما بقى من خمس خيبر ، فقال « أبو بكر » .

إن رسول الله ، ﷺ ، قال :

لا نورث ، ما تركناه صدقة ، إنما يأكل آل محمد فى هذا المال ، وإنى والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله ، ﷺ ، عن حالها التى كان عليها فى عهد رسول الله ، ﷺ ، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله ، ﷺ ، فأبى « أبو بكر » أن يدفع إلى « فاطمة » منها شيئاً ، فوجدت « فاطمة » على « أبى بكر » فى ذلك ، فهجرته ، فلم تكلمه حتى توفيت .

وعاشت بعد النبى ، ﷺ ، ستة أشهر ، فلما توفيت ، دفنها زوجها « على » ليلا ، لم يؤذن بها « أبا بكر » وصلى عليها . وكان « لعلى » من الناس وجه حياة « فاطمة » فلما توفيت استنكر « على » وجوه الناس ، فالتمس مصالحة « أبى بكر » ومبايعته . ولم يكن يبايع تلك الأشهر ؛ فأرسل إلى « أبى بكر » أن ائتنا : ولا يأتنا أحد معك . كراهية ليحضر « عمر » ، فقال « عمر » :

لا والله لا تدخل عليهم وحدك . فقال « أبو بكر »

وما عسيتهم أن يفعلوا بى ، والله لآتينهم .

فدخل عليهم « أبو بكر » ، فتشهد « على » فقال :

إنا قد عرفنا فضلك ، وما أعطاك الله ، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ، ولكنك استبددت علينا الأمر ، وكنا نرى ، لقرابتنا من رسول الله ، نصيباً ، حتى فاضت عينا « أبى بكر » . فلما تكلم « أبو بكر » قال :

والذى نفسى بيده ، لقرابة رسول الله ، ﷺ ، أحب إلىَّ أن أصل من قرابتى ، وأما الذى شجر بينى وبينكم من هذه الأموال : فلم آل فيها عن الخير ، ولم أترك أمراً رأيت رسول الله ، ﷺ ، يصنعه فيها إلا صنعته .

---

(٣٧) فجر الإسلام ، من ص : ٣٢٨ .

فقال « على » « لأبى بكر » : موعدك العشية للبيعة .

فلما صلى « أبو بكر » الظهر ، رقى المنبر فتشهد ، وذكر شأن « على » ، وتخلفه عن البيعة ، وعذره بالذى اعتذر إليه ، ثم استغفر .

وتشهد « على » فعظم حق « أبى بكر » ، وحدَّث : أنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة على « أبى بكر » ، ولا إنكاراً للذى فضله الله به ، ولكنا كنا نرى لنا فى هذا الأمر نصيباً ، فاستبد علينا ، فوجدنا فى أنفسنا .

فسر بذلك المسلمون ، وقالوا : أصبت . وكان المسلمون إلى « على » قريباً حين راجع الأمر بالمعروف[٣٨] . اهـ .

بايع « على » « أبا بكر » فى إخلاص المؤمن الصادق الإيمان . وأخذت حياته تسير فى مجراها الطبيعى : زهد ، وتقوى ، وعلم ، وورع ، واستمر منارة يهتدى بها الحائر ، ومثلا أعلى يسير على هداه من رغب عن سنن الباطل ، وطمح إلى رضوان الله .

وتوفى « أبو بكر » — رضوان الله عليه — بعد أن عهد بالخلافة إلى « الفاروق » فاجتمعت كلمة المسلمين على « ابن الخطاب » فقادهم جَهْدَه إلى مرضاة الله ، وكان « على » فى زمنه ، كما كان فى زمن « أبى بكر » ، المنارة والمثل الأعلى .

وكان كل شىء يرشح « عليا » للخلافة بعد موت « عمر » : قرابته من النبى ، ﷺ ، وسابقته فى الإسلام ، ومكانته بين المسلمين ، وحسن بلائه فى سبيل الله ، وسيرته التى لم تعرف العوج قط ، وشدته فى الدين ، وفقهه بالكتاب والسنة ، واستقامة رأيه فى كل ما عرض عليه من المشكلات .

ولئن تحرج المسلمون من تقديمه على « أبى بكر » : لأنه كان رفيع المكانة عند النبى ؛ ﷺ ، وثانى اثنين فى الغار ، ولأنه خلف « النبى » على الصلاة بالناس .

ولئن تحرج المسلمون من تقديمه على « عمر » ، لمكانة « عمر » أولا ، ولعهد « أبى بكر » بالخلافة إليه ثانياً .

لقد كان المسلمون يستطيعون أن يختاروا « عليًّا » للخلافة ، لا يجدون بذلك بأساً ، ولا يبقون فيه حرجاً ، « فعمر » قد رشحه ، ومكانته ترشحه ، ثم هو كان بعد ذلك من قوة العصبية فى

---

(٣٨) البخارى ، ويجب أن نأخذ هذا الحديث بتحفظ فيما يتعلق بتفاصيله وتعبيراته ، فهو رواية السيدة « عائشة » — رضى الله عنها — وقد يكون فيه ، بطريقة لاشعورية ، بعض مايغض من شأن « على » ، ولكنه صحيح فيما يعرفنا به من امتناع « على » عن البيعة ، ومن تحديد الزمن الذى امتنع فيه . ولهذا أهميته .

العرب عامة ، وفى قريش خاصة ، بالمنزلة التى كان فيها « عبد الرحمن بن عوف » .

فهو قد أصهر إلى « قريش » ، وأصهر إلى « مضر » ، وأصهر إلى « ربيعة » ، وأصهر إلى « اليمانية » ، وكان له بنون من نسائه على اختلاف قبائلهن . فلو قد ولى الخلافة قبل أن يفترق الناس لكان خليقاً أن يقارب بين العصبيات المتباعدة ، وأن يجمع الناس على طاعته ، وأن يحملهم على الجادة كما قال « عمر » .

ولكن المسلمين لم يختاروه لأمرين :

أحدهما : خوف قريش أن تستقر الخلافة فى « بنى هاشم » إن صارت إلى أحد منهم . وقد بينت الحوادث أن « علياً » لم يكن لينقل الخلافة بالوراثة ، فهو قد سار سيرة « النبى » وسيرة « عمر » فلم يعهد لأحد من بعده .

والآخر : أن « عليا » لم يقبل ما عرضه عليه « عبد الرحمن » من أن يبايع على كتاب الله ، وسنة رسوله ، وفعل « أبى بكر » و « عمر » لا يحيد عن شىء من ذلك . تحرج « على » من أن يعطى هذا العهد ، مخافة أن تضطره الظروف إلى أن يقصر عن الوفاء به كاملا ، فعرض أن يبايع على أن يلزم كتاب الله ، وسنة رسوله ، وسيرة الشيخين بقدر جهده وطاقته(٣٩) .

وللمرة الثالثة لم يتول سيدنا « على » الخلافة : إنما تولاها سيدنا « عثمان » واستمر سيدنا « على » المنارة ، والهدى ، والمثل الأعلى . وحدثت الأحداث التى انتهت بقتل سيدنا « عثمان » ... وتولى سيدنا « على » الخلافة فلم يتغير سلوكه ولم ينحرف عن الجادة .

وقد عاش « على » قبل الفتوح ، كما عاش بعد الفتوح ، عيشة هى إلى الخشونة والشظف ، أقرب منها إلى الرقة واللين : فلم يتجر ، ولم يتسع ، وإنما اقتصر على عطائه يعيش منه ، ويرزق أهله ، ويستثمر فضوله فى مال اشتراه بَيَنْبُع ، ثم لم يزد عليه .

ولما مات لم تحص تركته بالألوف ، فضلا عن عشراتها أو مئاتها أو الملايين ، وإنما كانت تركته كما قال « الحسن ابنه » فى خطبة له : سبعمائة درهم ، كان يريد أن يشترى بها خادماً .

وكان « علىّ » فى أثناء خلافته القصيرة ، يلبس خشن الثياب ، والمرقع منها ، ويحمل الدرة ، ويمشى فى الأسواق ، فيعظ أهلها ، ويؤدبهم ، كما كان يفعل « عمر » فكان هذا دليلا على أن « عمر » كان صادق الفراسة حين قال : « لو ولُّوا الأجلح لحملهم على الجادة(٤٠) » .

حقًّا لقد كان سيدنا « على » مثلا سامياً فى الدين والأخلاق ، ومع ذلك فإنه لم يكد يتولى الخلافة بعد مقتل سيدنا « عثمان » ، حتى اضطرب الأمر ، واختل النظام .

(٣٩) عثمان « للدكتور طه حسين » ، ص : ١٥٢ – ١٥٣ . (٤٠) عثمان ، ص : ١٥ .

أراد سيدنا « على » أن يقود الناس إلى الآخرة ، فإذا هم متطلعون إلى الدنيا ، وأراد أن يوجههم إلى الله ، فإذا بالمادة قد غلبت عليهم ، ولقد عاش طيلة خلافته فى جلاد وصراع ، ضد الأهواء ، والشهوات ، والدنيا .

وفى النهاية لقى مصرعه على يد « عبد الرحمن بن ملجم » . وتغلبت الأهواء ، والشهوات ، والدنيا . ممثلة فى « معاوية » .

وانتصرت الدنيا ، ولكن كان للآخرة عشاقها ومحبوها ، وهؤلاء لم يتوانوا فى نصرة « على » حيا ، فلما قتل أخذوا يذكرون حياته الحافلة بصالح الأعمال وجليلها ، وأخذت صورة « على » – بمر الزمن – تلبس ، شيئاً فشيئا هالة من الإجلال ... والتقديس ... والتنزيه ... والربانية ... والألوهية ... و ... وهل من مزيد ؟ .

كانت « الشيعة » – فى بدء أمرها – محبة كمحبَّة « سلمان الفارسى » « لآل البيت » ثم أصبحت محبة ، وعطفاً ، وشفقة ، حينما اعتقد بعض الناس : أن « البيت العلوى » لم يأخذ المكانة اللائقة فى المجتمع . فلما أصبح الظلم : اضطهاداً ، وتعذيباً ، وتشتيتاً ، وبتراً للأعضاء ، وسملا للعيون ، وقتلا ... تكونت « الشيعة » بالمعنى الاصطلاحى المعروف الآن ... وكان رجال « البيت العلوى » ومن يعطف عليهم ، يغذون الفكرة ، ويمدونها بما استطاعوا من مال ، ومن تشجيع ...

ولكن الأفكار – إذ ذاك – لم تكن تسير بالمال والتشجيع فحسب ، وإنما كانت تتطلب سنداً من الدين لا مناص منه .

ولجأت « الشيعة » إلى القرآن ، وإلى السنة ، تستمد منها – فى يسر ، أو فى تعسف – ما يعينها على ما تريد ...

وآل أمر « الشيعة » إلى شِيَع ، وأفرط الكثير منها فى « على » وغالى ، والحب – حقا – يعمى ويصم : فكان من ذلك ، الغلاة .

ولعل فيما تقدم ، ما يدل على أن أصل « الشيعة » لم يكن يهوديًّا ، ولم يكن فارسيًّا ، كما يزعم بعض المستشرقين ، وإنما نشأت الشيعة نشأة طبيعية ، ونمت نموا طبيعيًّا .

فرق الشيعة :

وبرغم أن (الشيعة) تفرقت إلى ما لا يكاد يحصى من أحزاب ، فإنه من الممكن تقسيمها إلى :

١ – غلاة .

٢ – إسماعيلية ، وما تفرع عنها .

٣ – إمامية اثنا عشرية .

٤ – زيدية .

أما الغلاة ، فقد بادوا ، وانقرضوا ، وقد تبرأ منهم الشيعة : الإمامية منهم ، والزيدية .

يقول الشيخ « محمد الحسين آل كاشف الغطاء » ، فى رده على بعض الناقدين « للشيعة » .

« فهل مراده ما يسمونه » « : « غلاة الشيعة » «كالخطابية » و « الغرابية » و « العلياوية » و « المخمِّسة » ، و « البزيعية » ، وأشباههم من الفرق الهالكة « المنقرضة » التى نسبتها إلى الشيعة من الظلم الفاحش ، وما هى إلا من الملاحدة : (كالقرامطة) ، ونظائرهم . أما « الشيعة الإمامية » ، و « أئمتهم » « ع » فيبرءون من تلك الفرق « براءة التحريم [٤١] » .

أما « عبد الله بن سبأ » الذى يلصقونه « بالشيعة » أو يلصقون « الشيعة » به – فهذه كتب « الشيعة » بأجمعها تعلن بلعنه ، والبراءة منه ، وأخف كلمة تقولها كتب رجال « الشيعة » فى حقه ، ويكتفون بها عن ترجمة حاله عند ذكره فى حرف العين هكذا : « عبد الله بن سبأ » ألعن من أن يذكر[٤٢] » .

وأما « الإسماعيلية » ، وهم منتشرون فى الهند ، والباكستان ، وجنوب إفريقيا وشرقها : فلسنا الآن بصدد الحديث عنهم ، وعن مذهبهم ، وقربه وبعده عن الدين ، وصلته أو عدم صلته بالأفلاطونية الحديثة أو بغيرها من مذاهب ، وسنترك ذلك لفرصة أخرى إن شاء الله .

سنقتصر فى الحديث إذاً على«الإمامية الإثنا عشرية»و«الزيدية»و«الشيعة الإمامية الاثنا عشرية » يمثلون – كما يقول الشيخ « محمد الحسين آل كاشف الغطاء » – أكثرية أهل السواد فى « العراق » ، وتسعة أعشار « إيران » ، وجماعات فى « القفقاز » من « الاتحاد السوفيتى » وجبل « عامل » من « الشام » ، وجزر « البحرين » و « الكويت » وسواحل « الأحساء » ، و « الهند »[٤٣] .

ويقول « الدكتور أحمد أمين » : ويبلغ « الإمامية » الآن نحواً من سبعة ملايين فى « فارس » ، ونحو مليون ونصف فى « العراق » ، وخمسة ملايين فى « الهند »[٤٤] .

و « الزيدية » هم « الشعب اليمنى » على الخصوص .

---

(٤١) أصل الشيعة ، ص : ٤٦ – ٤٧ .

(٤٢) أصل الشيعة ، ص : ٥٠ .

(٤٣) أصل الشيعة .

(٤٤) ضحى الإسلام ، ص٢١٣ .

١ – والإمامية والزيدية يتفقون على أن « عليا » أفضل الخلق بعد رسول الله ، ﷺ .
٢ – وأنه لذلك كان أحق بالخلافة من « أبي بكر » و « عمر » أما فيما عدا هذا ، فلا يكادون يتفقون على شيء .

مذهب الإمامية :

والإمامية مجمعون على أن النبي ، ﷺ ، نص على استخلاف « على » بن « أبي طالب » باسمه ، وأظهر ذلك وأعلنه ، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي ، ﷺ ، وأن الإمامة لا تكون إلا بنص وتوقيف ، وأنها قرابة ، وأنه جائز للإمام فى حالة التقية أن يقول :

إنه ليس بإمام ، وأبطلوا جميعاً الاجتهاد وزعموا أن الإمام لا يكون إلا أفضل الناس ، وزعموا أن « عليا » رضوان الله عليه ، كان مصيباً فى جميع أحواله ، وأنه لم يخطىء فى شيء من أمور الدين ...

وأنكروا الخروج على أئمة الجور ، وقالوا : ليس يجوز ذلك دون الإمام المنصوص على إمامته ...

وهم يدْعَون « الإمامية » ، لقولهم بالنص على إمامة « على » بن « أبي طالب »(٤٥) .

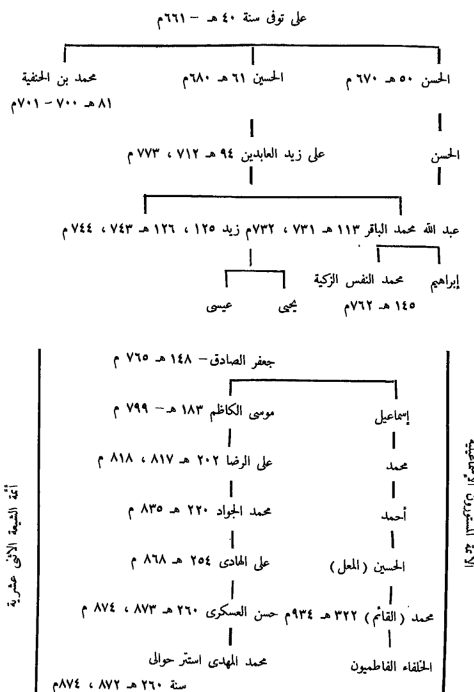
وسميت : الإمامية الاثنا عشرية ، لأنها تُسَلسِلُ الأئمة إلى الثانى عشر « محمد بن الحسن ابن على » وهو الغائب المنتظر عندهم ، الذى يدعون أنه سيظهر فيملأ الأرض عدلا ، بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .

والشجرة التالية تبين تسلسل الأئمة عند فرق « الشيعة » نقلا عن المستشرق « برنارد لويس » .

---

(٤٥) مقالات الإسلاميين ص ٨٧ – ٨٨ ط النهضة المصرية .

آل على


على توفى سنة ٤٠ هـ - ٦٦١م
الحسن ٥٠ هـ ٦٧٠ م
الحسين ٦١ هـ ٦٨٠م
محمد بن الحنفية
٨١ هـ ٧٠٠ - ٧٠١م
الحسن
على زيد العابدين ٩٤ هـ ٧١٢ ، ٧٧٣ م
عبد الله
محمد الباقر ١١٣ هـ ٧٣١ ، ٧٣٢م
زيد ١٢٥ ، ١٢٦ هـ ٧٤٣ ، ٧٤٤ م
إبراهيم
محمد النفس الزكية
١٤٥ هـ ٧٦٢م
يحيى
عيسى
جعفر الصادق - ١٤٨ هـ ٧٦٥ م
إسماعيل
موسى الكاظم ١٨٣ هـ - ٧٩٩ م
محمد
على الرضا ٢٠٢ هـ ٨١٧ ، ٨١٨ م
أحمد
محمد الجواد ٢٢٠ هـ ٨٣٥ م
الحسين (المعل)
على الهادى ٢٥٤ هـ ٨٦٨ م
محمد (القائم) ٣٢٢ هـ ٩٣٤م
حسن العسكرى ٢٦٠ هـ ٨٧٣ ، ٨٧٤ م
الخلفاء الفاطميون
محمد المهدى استتر حوالى
سنة ٢٦٠ هـ ٨٧٢ ، ٨٧٤م
الأئمة المستورون الإسماعيلية
أئمة الشيعة الاثنى عشرية

الزيدية :

وكان « الإمامية » ، و« الزيدية » فى بدء أمرهما : حزباً واحداً ، ثم اختلفا ! والسبب فى اختلافهما لم يكن أصلا من أصول الدين ، وإنما كان حول « الإمامة » ، وهو يبين وجهة نظر كل منهما فيها .

يقول — البغدادى : « وسبب افتراقهما » أن « زيد » بن « على » قد بايعه على إمامته خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة ، وخرج بهم على والى العراق ، وهو « يوسف » بن « عمر » الثقفى عامل « هشام » بن « عبد الملك » على العراقيين ، فلما استمر القتال بينه وبين « يوسف » بن « عمر » الثقفى ، قالوا له :

إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى « أبى بكر » ، و« عمر » اللذين ظلما جدك « على » بن « أبى طالب » .

فقال « زيد » :

إنى لا أقول فيهما إلا خيراً ، وما سمعت أبى يقول فيهما إلا خيرًا ، وإنما خرجت على « بنى أمية » الذين قاتلوا جدى « الحسن » . وأغاروا على المدينة يوم الحرة ثم رموا بيتاً لله بحجر « المنجنيق » والنار ففارقوه عند ذلك — حتى قال لهم : رفضتمونى ! ومن يومئذ سموا : « رافضة » ....

وبقى « زيد » فى مقدار مائتى رجل وقاتلوا جند « يوسف » بن « عمر » الثقفى ، حتى قتلوا عن آخرهم ، وقتل « زيد » ، ثم نبش من قبره وصلب ، ثم أحرق بعد ذلك[٤٦] .

والزيدية يرون أن الأدلة الخاصة بإمامة « على » — رضى الله عنه — اقتضت تعيينه بالوصف لا بالشخص ، وتقصير الناس إنما أتى من حيث إنهم لم يضعوا الوصف فى موضعه .

وهم لا يتبرءون من « الشيخين » ، ولا يطعنون فى إمامتهما ، مع قولهم بأن « عليا[٤٧] » أفضل منهما :

ذلك أنهم يجوِّزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل . ويشترطون بأن يكون « الإمام » عالمًا ، زاهداً ، جوادًا ، شجاعا ، ويخرج داعيًا إلى إمامته .

---

(٤٦) الفرق بين الفرق للبغدادى : ص ٢٥ ، ط المعارف .

(٤٧) « ابن خلدون » ص ١٣٩ ، ط عبد الرحمن محمد .

وقد كان « زيد » يناظر أخاه « محمد الباقر » على اشتراط الخروج فى الإمام ، فليزمه « الباقر » ألا يكون أبوهما « زين العابدين » إمامًا ، لأنه لم يخرج ، ولا تعرض للخروج :

وكان « الباقر » ينعى عليه أيضاً مذاهب « المعتزلة » وأخذه إياها عن « واصل ابن عطاء[٤٨] » .

و « الزيدية » سموا بذلك نسبة إلى صاحب المذهب وهو « زيد بن على بن الحسين السبط » .

وقد ساق الزيدية « الإمامة » على مذهبهم فيها ، وإنها باختيار أهل الحل والعقد ، لا بالنص ؛ فقالوا بإمامة « على » ، ثم ابنه « الحسن » ، ثم أخيه « الحسين » ، ثم ابنه « على زين العابدين » ، ثم ابنه « زيد بن على » ، وهو صاحب هذا المذهب ؛ وخرج بالكوفة ، داعيًا إلى « الإمامة » ، فقتل وصلب .

وقال الزيدية بإمامة ابنه « يحيى » من بعده ، فمضى إلى « خراسان » ، بعد أن أوصى إلى « النفس الزكية » فخرج بالحجاز وتلقب « بالمهدى » ، فأرسل إليه « المنصور » جيشاً ، فقتل . بعد أن عهد إلى أخيه : « إبراهيم » الذى قتل « بالبصرة[٤٩] » .

الشيعة وأصول الإسلام

نرى مما سبق : أن الشيعة تكونت فى المبدأ حبًّا فى « على » : لقرابته من الرسول ﷺ ولشخصيته الفذة . ثم تطورت فأصبحت « حزب البيت العلوى » .

ونظرياتها دارت – أولا وبالذات – حول الإمامة ، وحول الإمام :

« فالمهدى » إمام من أئمتهم ، يعود فيملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جوراً . و « العصمة » لأئمتهم ، لا شك فيها ، بحسب نظرهم .

و « الغيبة » التى تعقبها « الرجعة » إنما هى لإمام : هو آخر الأئمة ، اختفى ، وهم فى انتظار عودته ، مهما طال الزمن .

و « التَّقيَّة » إنما وجبت لإحكام العمل حتى يتولى « البيت العلوى » الرياسة ...

أين الخلاف فى الأصول فى كل هذا ؟

يقول الشيخ « محمد الحسين آل كاشف الغطاء » فيما يتعلق بموقف « الشيعة الإمامية » من الغلاة الذين يتبرأ منهم كل مسلم :

(٤٨) مقدمة « ابن خلدون » ، ص : ١٤٠ .

(٤٩) مقدمة « ابن خلدون » ، ص : ١٤٠ ، ط عبد الرحمن محمد .

أما الشيعة الإمامية ، وأعنى بهم جمهرة العراق ، وإيران ، وملايين من مسلمى الهند ، ومئآت الألوف في سوريا ، والأفغان ؛ فإن جميع تلك الطائفة ، من حيث كونها شيعة : يبرءون من تلك المقالات . ويعدونها من أشنع الكفر والضلالات : وليس دينهم إلا التوحيد المحض ، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوقات ، أو ملابسة لهم ، فى صفة من صفات النقص ، والإمكان ، والتغير ، والحدوث ؛ وما ينافى وجوب الوجود ، والقدم ، والأزلية ؛ إلى غير ذلك من التنزيه . والتقديس المشحونة به مؤلفاتهم فى الحكمة ، والكلام من مختصره : كالتجريد ، أو مطولة كالأسفار ، وغيرهما مما يتجاوز الألوف ، وأكثرها مطبوع منتشر ، وجلها يشتمل على إقامة البراهين الدامغة على بطلان التناسخ ، والاتحاد ، والحلول ، والتجسيم(٥٠)

رأينا فى الشيعة :

« الشيعة » : حزب ، وهم لذلك يزيفون كل ما يقف عقبة فى سبيل توطيد مركزهم ، ويتهافتون على كل ما يتوهمون أنه يساعدهم ، ويؤولون التاريخ حسب ما تهوى نفوسهم :

فإذا ما تركنا العصبية جانباً فإننا نرى – فى إخلاص – أنه لو كان هناك ما يشبه – ولو من بعد – أن يكون رغبة « للرسول » فى أن يتولى « على » الأمر من بعده ، لسارع « أبو بكر » و « عمر » إلى بيعته .

إن إخلاص « أبى بكر » و « عمر » لله ، ولرسوله ، وللدين ، أسمى وأجل من أن يتطرق إليه ظل من الشك .

وسيدنا « عمر » – رضى الله عنه – حينما دهمته الطعنة المشئومة ، وأوشك أن يلاق ربه ، وأراد أن يخرج من الدنيا ، ولم يأل جهداً فى الإخلاص لربه ، وللأمة الإسلامية ... لم يول « عليا » ، وإنما جعل الأمر شورى ، بين ستة نفر ، هم أمثل الأمة الإسلامية فى نظره ، ومن بينهم « على » رضوان الله عليه .

ولم ينته مجلس الشورى هذا باختيار « على » .

ولما تنازل « عبد الرحمن بن عوف » عن ترشيح نفسه ، ليختار الخليفة – وكان الأمر بيده – لم يختر « عليا » وإنما اختار « عثمان » رضى الله عنهما .

ثم إنه امتنع عن بيعة « على » « سعد بن أبى وقاص » بطل « القادسية » وفاتح « فارس »

---

(٥٠) أصل الشيعة ؛ ص : ٤٧ – ٤٨ .

وأول من رمى بسهم فى سبيل الله ، وأحد هؤلاء الذين توفى « الرسول » وهو راض عنهم ، ومطمئن إليهم .

وامتنع عن بيعته « عبد الله بن عمر » ، الرجل الزاهد ، الورع ، الذى آثر الله فى كل تصرفاته .

وامتنع عن بيعته أيضاً « أسامة بن زيد » – وصلته « بالرسول » معروفة – وتقدير « الرسول » له أشهر من أن يتمارى فيه اثنان .

وامتنع عن بيعته « محمد بن مسلمة » ومكانته فى الأنصار معروفة .

وامتنع عن بيعته غير هؤلاء ممن أراد السلامة لدينه ، والبعد عن الفتن .

على أن أصول الإسلام العامة تستوجب المساواة بين المسلمين فى الحقوق ، والواجبات ، وتجعل الأكرم هو الأتقى .

والحق أن الأمة الإسلامية – على اختلاف طبقاتها – تقدر « عليا » تقديراً كريمًا ، وتنزله من نفسها منزلة سامية ، أما ما وراء ذلك من آراء « الشيعة » الغالية منهم والمعتدلة ، فليس ديناً ، وليس ضرورة عقلية .

وإننا لنعتقد – فى إخلاص – أن الزمن كفيل برد « الشيعة » إلى السنن القويم . وبالله التوفيق .

فى علامات الساعة

من الأمور التى يجب الإيمان بها كما جاءت عن الصادق المعصوم ﷺ علامات الساعة لأنها من الأمور الغيبية ، ومن علامات الساعة إتيان المهدى ونزول عيسى عليه السلام .

وقد ورد بذلك الآثار عن الرسول ﷺ ، وإتيان المهدى قبل عيسى عليه السلام ، ثم نزول عيسى يكون عند خروج الدجال فينزل فيقتله ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية كما ورد فى الحديث ..

ونزول عيسى عليه السلام إنما هو تأييد لرسالة سيدنا محمد ﷺ وأنه سينزل عاملا بشريعة الإسلام مؤيدًا لها ناشراً عبادتها وتعاليمها ، صلوات الله وسلامه على رسل الله أجمعين ..

فى الإمام المهدى المنتظر

خبر ظهور المهدى جاءت به نصوص السنة الصريحة وأنه سيكون أول ظهوره بمكة المكرمة ، وسيكون قبل نزول المسيح عيسى ين مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وسيظل قائماً بأمر المسلمين يتولى شئونهم ويقودهم فى جهاد عدوهم ، حتى ينزل المسيح بن مريم حاكمًا بشريعة سيدنا محمد ﷺ منفذاً لقواعد الإسلام والمفهوم من جو الأحاديث الخاصة بالمهدى أنه قائد عربى مناضل مجاهد يحاول نشر العدالة ورفع الظلم كما جاء فى الأحاديث الخاصة فى أسلوب صريح . واضح . وأنه ينزل سيدنا عيسى عليه السلام وقد أقيمت الصلاة فيتنحى المهدى للمسيح من إمامة المسلمين فى تلك الصلاة فيدفعه المسيح عيسى بن مريم بين كتفيه ويقول له : لك أقيمت فصل ، فيصلى بالمسلمين تلك الصلاة ثم يتسلم سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام القيادة منه ، ثم يذهب إلى الدجال فيقتله ..

ومن أخبار المهدى ما رواه الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى ، وفى لفظ آخر حتى يلى رجل من أهل بيتى .

وعن على رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال : «لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتى يملؤها عدلا كما ملئت جوراً» أخرجه أبو داود .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول ﷺ : المهدى منى ، أجلى الجبهة ،

أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين ... أخرجه أبو داود .

وهذا الحديث وإن كان فى ظاهره انقطاع إلا أنه بالنسبة للأحاديث الواردة فى وجود المهدى وولايته للمسلمين صحيح المتن وهو بذلك يوجب على المسلمين التحرز من رفض ما جاء فى المهدى من أخبار وتفهم من الأحاديث الواردة فيه أنه ليس خاصًا ببقعة من الأرض كنيجيريا مثلا أو غيرها وإنما قائد للمسلمين بدليل قول النبى ﷺ يملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلماً وجوراً .

والجو العام لأحاديث المهدى يبشر بتحقيق الدولة العالمية التى تضم جميع أقطار الأرض تحت راية واحدة وهى راية العدل والخير والحق ، وهو أمل يسعى له كثير من الذين يريدون للإنسانية خيراً ، ويظنون بها خيراً ، وهو حلم راود الكثير من الفلاسفة خطط له الفارابى مثلا حينما كتب عن عالمية الحكم بمناسبة كتابته عن المدينة الفاضلة .

والأحاديث عن المهدى أيضاً تذكير للمسلمين بأن من رسالتهم إزالة الظلم والجور من العالم أجمع ونشر الحق والخير وتحقيق العدالة .

والله أعلم ...

فى نزول المسيح عليه السلام إلى الأرض مرة ثانية

نعم سينزل المسيح عليه السلام إلى الأرض مرة ثانية وسيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويرد بنفسه على مَن ألّهوه وبدلوا شريعته وأنكروا ما جاء به من التبشير بسيدنا محمد ﷺ كما قال تعالى :

(وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىَّ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

والدليل على ذلك قوله ﷺ :

والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم ﷺ حكماً مقسطاً – أى عادلا – فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وفى رواية : يقول أبو هريرة راوى الحديث : اقرءوا إن شئتم (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ...) أى وما من أحد من أهل الكتاب يكون فى زمن نزول عيسى عليه السلام إلا ويؤمن به

إيماناً صحيحاً قائماً على أساس أنه عبد من عباد الله وأنه مقر لنبينا بالرسالة . وفى رواية عن الرسول ﷺ قال :

« والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير .. »

بل إن عيسى عليه السلام حينما ينزل يبلغ من تقديره للرسول ﷺ ولرسالته أن يمتنع عن التقدم على إمام المسلمين الذى يصلى بهم يقول ﷺ .

« ولا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال : فينزل عيسى ابن مريم ﷺ ، فيقول أميرهم تعال صل لنا . فيقول : لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة » .

قال الإمام النووى : فى قوله ﷺ ، حكماً : دليل على أن عيسى عليه السلام ينزل حاكماً بهذه الشريعة أى الإسلام – ولا ينزل نبيًّا برسالة مستقلة وشريعة ناسخة بل هو حاكم من حكام هذه الأمة .

وما من شك فى أن محمداً ﷺ هو خاتم النبيين والرسل بنص القرآن الكريم يقول سبحانه : (وخاتم النبيين) .

وكونه ﷺ خاتم النبيين إنما يؤخذ أيضاً من أن الله سبحانه تكفل بحفظ القرآن من كل تحريف أو تبديل : يقول سبحانه : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . فالذكر أى القرآن بمثابة رسول دائم قائم فى الإنسانية يحق الحق وسيبطل الباطل ، والله سبحانه وتعالى بهذا الحفظ يشير إلى أن محمداً ﷺ لا تزال رسالته قائمة محفوظة ، وكأنه بذلك بيننا مبشر وهادٍ ونذير ، ورحمة لكل من اتبعه فنزول عيسى عليه السلام إنما هو من أجل التبشير بدعوة نبينا والعمل على إقامتها ، ومما له مغزاه العميق أن رسول الله ﷺ يقول عن سيدنا موسى : « والله لوكان موسى حيًّا ما حل له إلا اتباعى » وكذلك الأمر فى سيدنا عيسى فلوكان حيًّا ما حل له إلا اتباع محمد رسول الله ﷺ .

والله أعلم .

فى المسيخ الدجّال

المسيخ الدجّال إنسان مولود من أبوين كسائر البشر ، فسيدنا عمر رضوان الله عليه ظنَّ أنه ابن صياد ، وكان ابن صياد مولوداً من أبوين ، وقد أراد سيدنا عمر أن يقتله ، فنهاه الرسول ﷺ قائلا له : إن يكن فلن تُسلَّط عليه ، وإن لا يكنه فلا خير له فى قتله . فهو موجود إذاً واستعاذة

الرسول صلوات الله عليه منه إنما كانت تعليماً للأمة وتحذيرًا لها منه . وسيظهر قبل قيام الساعة .
وأما علامات قدومه فذلك عندما يخف وزن الإيمان فى النفوس ، ويغزو الشر القلوب وتكثر الخلافات ويسود الشغب .

أما الفتنة التى ستحدث فإن ضعاف الإيمان وجرهم عن طريق الرغبة وعن طريق الرهبة إلى اتباعه والكفر بالدين الصحيح ، كفر مطلق ، وهى أيضًا ذلك الصراع الرهيب بينه هو وأتباعه من جانب . وبين من استمسكوا بالإيمان واعتصموا بحبل الله وقانا الله شره ، وأعاذنا من الفتن ..
والله أعلم ..

فى عمد بعض اللادينيين إلى الخلط بين المذاهب الفنية والأدبية وبين المذاهب الاقتصادية والاجتماعية الوثيقة الصلة بتصور العقيدة

المذاهب الفنية والأدبية التى تتعلق بوسيلة التعبير ، وكيفية توصيل المعانى إلى الناس لا يقيدها الدين إلا من ناحية ما تعبر عنه ، أى أن الدين يهتم بالمعنى المعبر عنه ، وبأن تكون وسيلة التعبير غير مفيدة معنى آخر ، وبأن يكون هذا المعنى فى إطار الخير ..

ومن المفيد أن نشير إلى قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) أى أن الرسالة لا يمكن أن تصل إلى المرسل إليهم إلا إذا كانت بلغة يعرفونها وبلسان يفهمونه ..

وقد أوجب الإسلام تعلم لغات الناس لتوصيل الدعوة إلى غير العرب انطلاقاً من قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وانطلاقاً من هذه القاعدة تنوّعت أساليب القرآن من محاورات عقلية إلى أمثال حسية ، إلى قصص أدبية ، ليتسع مجال فهمه لكل العقول ولشتى البيئات وهو سر من أسرار الإعجاز فيه ، إن كل إنسان مهما كانت درجة ثقافته يفيد منه ، ولا يمكن أن يرتفع إنسان مهما علت ثقافته عن مستوى التعبير القرآنى الكريم .

وفى السنة الشريفة تنوعت أساليب الرسول ﷺ ما بين استفهام لتنبيه الأذهان إلا ما يلق من علوم ، وتوجيه مباشر ، وسؤال لاستخراج المعلومات من الناس ثم تصحيح هذه المعلومات إلى غير ذلك مما يجده الباحثون .

ومذاهب التعبير إذن مذاهب إنسانية تختلف باختلاف أحوال الناس ونظمهم ودرجة

ثقافتهم ، والإسلام لا يقيدها كما قلنا إلا من ناحية ما تعبر عنه ، ومن ناحية الألفاظ المستخدمة فى التعبير .

أى أن الإسلام لا يبيح الخروج على آدابه ولو فى اللفظة المستعملة فى التعبير ، ويترك للمسلم بعد ذلك أن يعبر عن فكرته بالأسلوب الذى يرد ، دون أن يقيده بمذهب ما ، فلم يأت الإسلام بمذهب للتعبير لا يرضى غيره ... وهكذا ...

هذا عن المذاهب الفنية والأدبية .

أما المذاهب الاقتصادية والاجتماعية فقد رسم الإسلام إطاراً للتحرك فى مجالها بما سنَّهُ من تكاليف وقرره من قواعد .

فأسلوب التصرف فى المال مقيد فى الإسلام بمراعاة أن يكون مصدره من حلال ، وبأن يدفع حق الله منه وهو الزكاة ، وبألاّ يفرط فى حق لازم عليه كالنفقة على أهل بيته ، وصلة رحمه ، وهكذا ...

أما كيفية العمل فقد ترك الإسلام للناس طريق التطور فى استخراج خيرات الأرض عن طريق الصناعة بطرقها المختلفة أو الزراعة أو التخصص فى مجال من المجالات . والمذاهب الاجتماعية رسم الإسلام لها أُطرًا لا ينبغى الخروج عليها ، كنظام النكاح والطلاق وسائر ما يتعلق بتكوين الأسرة ، وتركيب المجتمع ، ومسئولية المسلم من غيره من المسلمين ، وفيما عدا ذلك ترك الإسلام للمسلم أن ينظر فى نظم المجتمعات المختلفة ، ويؤسس النظريات على أساس من هذا النظر ، ليظهر روعة الإسلام فيما قرره من أحوال المجتمعات ، ليتكون له من البصر بشئون الدنيا ما يمكنه من نشر تعاليم الإسلام أو تطبيقها إن كان ممن يملك وسائل التطبيق .

المذاهب الفكرية والفنية إذن وسائل للتعبير لا يقيدها الإسلام إلا من حيث ما تعبر عنه ، والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية – إن وافقت الإسلام أخذ بها على أنها إسلام أو وضع إلٰهى لا على أنها أفكار بشرية ، وإن خالفت الإسلام ضربنا بها عرض الحائط ، إذ المسلم لا يرى خيراً فيما لا يوافق دينه ، وإلا كان متناقضاً مع نفسه .

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السمٰوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون) .

فى أهل الفترة

من عاش ومات قبل الرسول ﷺ وقبل نزول القرآن الكريم يسمون أهل فترة ، وهؤلاء قد اختلف فى حكمهم علماء التوحيد .

فيرى أهل السنة أنهم ناجون وليسوا بمكلفين لقوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

ولقوله تعالى : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة) وآية : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) صريحة كل الصراحة فى أن أهل الفترة ناجون وهم لا يبعثون على دين معين ، ونجاتهم إنما هى بفضل الله ورحمته .

فى أول من كفر بعد مجىء الإسلام ، ومن هو أول من حاول تشويه الإسلام

إذا دخل الإيمان فى القلب وشع نوره على الأعضاء ، فإن المؤمن لا يمكن أن يرتدّ عنه ولا يتأتى الكفر إلا ممن دخل فى الإسلام لمجرد منفعة ، أو مصلحة تعود عليه . فإذا لم تتحقق هذه المصلحة فإنه يرجع عن دينه ، وهذا هو الذى لا يغفر الله له ذنبه ولا يتجاوز عن سيئاته .

قال تعالى : (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرًا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) .

أما أول من حاول تشويه الإسلام فهم اليهود ، كانوا فى عصر الرسول ﷺ يشككون فى الإسلام ويقولون للذين كفروا إنهم أهدى سبيلا من محمد وقومه قال تعالى فى سورة النساء .

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) .

وبعد عصر الرسول ﷺ دخل كثير منهم فى الإسلام ليكيدوا له ويدسوا سمومهم فيه ويشوهوا تعاليمه فدسوا الإسرائيليات فى تفسير القرآن ، ووضعوا كثيراً من الأحاديث ونسبوها للنبى ﷺ .

بيد أن المسلمين الصادقين كانوا لهم بالمرصاد فبينوا زيفهم ونبهوا على كل دسيسة حاولوا بها الكيد للإسلام وصدق الله تعالى إذ يقول :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

وسُئِل رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم

فى عدد الرسل

أرسل الله سبحانه وتعالى إلى بنى البشر رسلا من أنفسهم ليرشدوهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

والأنبياء والرسل كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله ، والواجب الإيمان إجمالاً بأن لله أنبياء ورسلا كثيرين لا يعلمهم إلا هو كما قال تعالى :

(منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) .

ويجب علينا أن نؤمن تفصيلا بخمسة وعشرين رسولا وهم المذكورون فى القرآن الكريم ، وقد جمعهم علماء التوحيد فى بيتين من الشعر :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية   من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
إدريس هود شعيب صالح وكذا   ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وقد ورد فى ذلك أحاديث ضعيفة والمشهور منها ما رواه ابن مردويه عن أبى ذرّ قال : قلت يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا » .

قلت يا رسول الله : كم الرسل منهم ؟ قال « ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير »

هذا والله أعلم بعدتهم كما ورد فى الآية السابقة ..

فى لماذا اختار الله الجزيرة العربية للرسالة المحمدية ؟

(إن أول بيت وضع للناس للّذى ببكة مباركاً)

وهذا البيت كان قبل إبراهيم عليه السلام .. وإبراهيم عليه السلام إنما رفع قواعده التى كانت موجودة من قبل ..

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) .

وكما كان أول بيت للعبادة فإنه فى التقدير الأزلى آخر بيت لله تقام فيه العبادة على الوجه الصحيح الصادق ..

ولقد اختار الله تعالى الجزيرة العربية للرسالة المحمدية لأن بها بيته هذا المحرم ملتقى الحجيج من كل جانب . مـن جوانب الأرض ، ولأن أهلها كانوا حينئذٍ أحسن الناس استعداداً لحمل رسالة الله ... ولو أن الرسالة كانت فى غير جزيرة العرب لما وجدت آذاناً مصغية .. ولا قلوباً واعية .. ذلك أن الروم كانوا أهل دين يصعب عليهم تركه إلى دين آخر ، والفرس كانوا ذوى ملك وسلطان . يرون فيها العزة والمتعة ، ولا يمكن أن يدينوا معها بدين آخر من أبرز ما فيه تغيير العقيدة وتغيير الأنظمة وإزالة الطغيان الذى كان سمة كثيرين من الملوك والأمراء .. لذلك كانت الجزيرة العربية المكان الصالح لنشر الدعوة المحمدية لأن أهلها كانوا بفطرتهم وعدم اعتناقهم أىّ دين من الأديان التى كانت موجودة حينئذ مهيئين لقبول الرسالة وحملها ..

ولقد رفض اليهود الإسلام بالمدينة . وما حولها وهم يعلمون تمام العلم صفة رسول الله ﷺ فى كتابهم .. ولكن خوفهم من ذهاب السلطان جعلهم يجحدون .. وأصحاب السلطان فى الفرس والروم لا شك كانوا يرفضون الدين الجديد خوفاً من زوال سلطانهم ..

فى ما يقال بأن سيدنا محمد ﷺ هو أول مخلوق فأين كان حينما كان آدم وحواء فى الجنة ؟

فى كتاب « حجة الله على العالمين فى معجزات سيد المرسلين » للنبهانى « فى خلق نوره ﷺ وانتقاله من أصلاب أجداده الطاهرين » قال الحافظ أبو على الحسن بن على بن عبدُ الملك الرهونى المعروف بابن القطان فى كتابه البشائر والأعلام لسياق ما لسيدنا ومولانا محمد المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام من الآيات البينات والمعجزات الباهرات :

كان من أول ما ظهر من آياته ﷺ قبل البدء ما رواه على بن الحسين عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال : قال رسول الله ﷺ : كنت نوراً بين يدى ربى عز وجل قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام .

وفى حديث آخر : كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين .

ولعل المراد أنه كان نبيًّا فى علم الله سبحانه وتعالى .

وكان ﷺ حينما كان آدم وحواء فى الجنة ، فى صلب آدم .

وكما ورد فى الحديث الشريف خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدتنى أمى لم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء .

والرأى السليم الصحيح فى كل هذا هو أن النبى ﷺ ولد ولادة طبيعية عادية وليس فى أمر خلقه خوارق عادات والأحاديث التى تتحدث عن خلقه ﷺ قبل خلق آدم لا أساس لها من الصحة وليس الأمر أمر أولية فى الخلق فليس فى أولية الخلق أساس للتفاضل أو التفضيل وإنما أساس الفضل والتفضيل هو التقوى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وهو الخلق الحسن ولقد كان رسول الله ﷺ على أعلى مستوى أخلاقى وهو الذى قال سبحانه وتعالى فيه : (وإنك لعلى خلق عظيم) وهو القائل : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ولقد وصفت السيدة عائشة رضوان الله عليها خلقه فقالت «كان خلقه القرآن » ولقد وصل ﷺ القمة فى الإخلاص السامى وفى السمو الأخلاقى بقول الله تعالى له :

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين) ﷺ ..

روى الإمام أحمد بسنده عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال : قال لى النبى ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته » ...

وروى أحمد بسنده عن ميسرة قال : قلت يا رسول الله ... متى كنت نبيًّا ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد ..

رواه أحمد والطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

وهذان الحديثان لا يدلان على أنه ﷺ أول مخلوق ، وإنما يدلان على أن نبوته ثابتة من القديم وأن الله سبحانه وتعالى كتبها وقدرها وتم بها ما أراد .

أما كونه ﷺ أول مخلوق فيحتاج إلى ما يدل عليه من الآثار الصحيحة ..

وأولية الخلق لا تستلزم تفضيلا ولا تشريفاً .. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى رتب بعض الأشياء على بعض فى الوجود ، ولم يجعل السبب بأفضل مما يترتب عليه من المسببات .

أما كونه ﷺ أحب مخلوق إلى الله .. فهذا مما لا يمكن أن يشك فيه .. والقرآن الكريم يشير إلى ذلك فى كثير من الآيات .. إنه ﷺ رحمة للعالمين قال تعالى :

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

وهو ﷺ خاتم الأنبياء قال تعالى :

(ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأتم نعمته عليه وهداه صراطاً ونصره الله نصراً عزيزاً واختصه بالشفاعة العظمى التى يتقاصر دونها مشاهير الأنبياء .

وببركته ﷺ رفع العذاب عن أهل الأرض ولم يهلكهم الله فى الدنيا بكفرهم أو من عنادهم قال تعالى :

(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)

وامتثالا منه ﷺ لقوله تعالى : (وأما بنعمة ربك فحدث) تحدث عن كثير من هذه النعم ، وعن تكريم الله تعالى له وتفضيله له على كل خلقه .. قال ﷺ :

« لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعى .. وقال :

أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة .. رواه مسلم وقال :

« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع » – رواه مسلم وأبو داود ...

وقال :

« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ – آدم فمن سواه – إلا تحت لوائى وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر » رواه أحمد والترمذى وابن ماجه . .

وفضائله ﷺ كثيرة والأدلة على كونه أحب الخلق إلى الله عديدة نفعنا الله باتباعه ورزقنا حبه وحب من يحبه وجعلنا من جنوده الصادقين ..

أما لماذا ؟ فذلك أنه ﷺ أخلص نفسه لله سبحانه وتعالى إخلاصاً كاملا .

ومعنى كونه أول المسلمين : إنه أول المسلمين فى كل فضل وفى كل خير وفى كل مكرمة ولأجل ذلك كان أحب خلق الله إلى الله .

وألقى بنفسه إلقاء كاملا فى الرحاب الإلٰهى مستجيباً إلى الله فى كل ما أمر منتهياً عن كل ما نهى ولقد حقق صلوات الله وسلامه عليه قوله تعالى :

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) .

فى النسب الشريف

الصحيح من نسب رسول الله ﷺ أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصىّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

. أما ما بعد عدنان من الأسماء فإنه لا يقين فيه .

والذى صح عن رسول الله ﷺ أنه انتسب إلى عدنان لم يتجاوز .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بلغ فى ذكر نسبه إلى عدنان قال : «كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً» .

وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال إنما ننتسب إلى عدنان وما فوق ذلك لا ندرى ما هو ، أما مسألة أن النسب الشريف ينتهى حقًّا إلى سيدنا إبراهيم فقد روى فى ذلك الإمام البخارى حديثاً «صحيحاً» عن واثلة بن الأسقع: قال رسول الله ﷺ : «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة . واصطفى من بنى كنانة قريشاً . واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم» .

ويلاحظ أن هذا الحديث الشريف لم يذكر سلسلة النسب من إسماعيل عليه السلام إلى بنى كنانة ولكنه يؤكد أن النسب الشريف ينتهى إلى إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام وليس فى ذلك استحالة عقلية وليس هناك من التاريخ اليقينى ما ينفى ذلك وبقى الحديث صحيحاً وأن نسبه ﷺ ينتهى إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام .

فى حكمة إرسال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام

يقول الله تعالى معبراً عن الحكمة فى إرسال سيد الخلق ﷺ :

(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

ومن دعاء سيدنا إبراهيم ، وسيدنا إسماعيل ، وهما يرفعان القواعد من البيت (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم) .

من هذه الآيات ، ومن غيرها : نعلم أن الحكمة فى إرسال الرسل ، إنما هى تبليغ آيات الله ، أى تعاليمه وأحكامه وتكاليفه إلى بنى البشر ، إن الله سبحانه وتعالى : لم يرد أن يترك البشر دون هداية فى الأمور الأساسية لبناء المجتمع وهى : العقيدة ، والأخلاق ، والتشريع ، فأرسل لأهل الأرض الدستور السماوى الذى يؤدى اتباعه والعمل به ، إلى تزكية النفس وتطهيرها وصفائها .

فالأديان والرسل إنما كانوا لبيان الأسس والقواعد التى لا يقوم المجتمع الصالح بدونها ، وكانوا

أيضاً لمصلحة الفرد التى تتمثل فى الارتفاع به إلى مستوى التزكية والطهر والصفاء وهو مستوى يجد فيه من يحققه السعادة كل السعادة والبهجة كل البهجة . ويشعر من يرتقى فى معارجه منغمساً فى نور هداية الله سبحانه بالسكينة تحيط به وبالطمأنينة تملأ جميع أقطاره ويشعر فوق كل ذلك رضوان من الله أكبر . حكمة إرسال الرسل إذن إنما هى إسعاد المجتمع وإسعاد الفرد والرقى بها إلى المستوى الذى يرضاه الله لها وهو المستوى الربانى .

بيد أن الإنسانية ابتعدت شيئاً فشيئاً عن الأديان والرسالات ، فأخذت تشقى بنسبة هذا الابتعاد أفراداً وجماعات ، وأخذت فى تدمير بعضها بعضاً وتنكيل بعضها بالبعض الآخر ولو عادت إلى الله لسعدت أفراداً ولسعدت جماعات ، وباب السعادة مفتوح ورحمة الله لن تضيق بمريد مخلص ، وعلى كل فرد إذا أراد الخير لنفسه وللإنسانية أن يتمسك وأن يدعو إلى التمسك بهدى السماء ، ففى ذلك سعادته وسعادة المجتمع .

فى معجزة النبى فى الأمّية

رسولنا محمد ﷺ ، كان أميًّا لم يعرف القراءة والكتابة وهذه معجزة له إذ إنه جاء بالقرآن الذى أعجز العرب الفصحاء البلغاء وهم أهل القراءة والكتابة مع كونه أميًّا ، وهذا دليل على أنه من عند الله ..

وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله :

(وما كنت تتلواْ من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) .

وفى سورة الأعراف قوله تعالى :

(الذين يتبعون الرسول النبىّ الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) .

فى خُلق الرسول ﷺ

سُئلت السيدة عائشة رضوان الله عليها عن خُلق رسول الله صلوات الله عليه فقالت : كان خُلقه القرآن . والقرآن كان يتحدث عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه حديثاً مباشراً أو كان يرسم المبادئ ويضع القواعد فى العقيدة والأخلاق ويصور فى الوقت نفسه الطريق الذى كان يسير عليه السراج المنير الرءوف الرحيم صلوات الله وسلامه عليه ، فالقرآن إذن المصدرُ الأول الذى تستمد منه صفات الرسول وأخلاقه ﷺ .

والمصدر الثانى هو كتب الأحاديث الصحيحة وخيرها صحيح البخارى يليه صحيح مسلم وكل كتاب من كتب الأحاديث على وجه العموم يخصص قسماً منه لصفات الرسول وأخباره ثم يأتى فى المرتبة الثالثة كتب السيرة القديم منها والحديث .

ومن خير كتب السيرة القديمة سيرة ابن هشام ، ولقد طبعت طبعات مختلفة محققة مع شرح الكلمات الصعبة . ومن خير الكتب القديمة والحديثة كتاب الأنوار المحمدية للعارف بالله يوسف النبهانى .

أما الكتب الحديثة فإن من خيرها كتاب « حياة محمد » للدكتور هيكل وقد نال هذا الكتاب إقبالا يستحقه وقد توالت طبعاته ولا تزال تتوالى وتجد رواجاً كبيراً هى أهل له ومنها كتاب « محمد رسول الله » . وهو كتاب مترجم عن الفرنسية كتبه أحد كبار مفكرى الفرنسيين بعد أن هداه الله للإسلام وبعد أن حج بيت الله الحرام معتمداً على المضادر الإسلامية الأصلية .

فى حجة الوداع

فى السنة العاشرة للهجرة وقد دار الفلك دورته قبل شهر ذى القعدة نادى منادى رسول الله ﷺ فى المسلمين أن يجهزوا أنفسهم لحج بيت الله الحرام مع رسول الله ﷺ فقد عزم الرسول أمره على أن يؤدى بالمسلمين فريضة الحج ليأخذوا عنه المناسك فهو إمام المسلمين وقدوتهم (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) واجتمع الألوف المؤلفة من المسلمين وقدموا من الصحارى والبوادى وضربوا خيامهم حول المدينة استعداداً للرحيل إلى بيت الله الحرام وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة سار الرسول ﷺ ومعه نساؤه كلهن ومائة ألف أو يزيدون من المسلمين ميممين شطر المسجد الحرام بمكة المكرمة ليطوفوا بالبيت ويقفوا بعرفات ويؤدوا مع الرسول ﷺ هذه الفريضة الجامعة فيعرفوا منه صلوات الله وسلامه عليه المناسك الصحيحة وهو القائل صلوات الله عليه :

خذوا عنى مناسككم ، ويبلغ الرسول والحجيج معه مكة المكرمة فى اليوم الرابع من ذى الحجة وأدوا جميعاً مناسك العمرة ، ويقف الرسول ﷺ محرماً لأداء مناسك الحج ، وفى يوم التروية وهو الثامن من ذى الحجة ذهب الرسول والمسلمون معه إلى منى فقضوا فيها ليلتهم حتى مطلع الفجر فصلى الرسول الفجرْ وركب ناقته القصواء حين بزغت الشمس ويمم بها جبل عرفات والمسلمون من ورائه وارتقى الرسول الجبل وألوف المسلمين محيطين به ، بين مُلَبٍّ ومُكبّرٍ ، وضربت

للرسول قبة بنمرة ، ولما زالت الشمس يوم عرفات يوم الحج الأكبر ركب ﷺ ناقته وسار بها حتى أتى بطن الوادى ونادى فى الناس بصوت جهورى وهو على ناقته وكان يردد الصوت من بعد ربيعة بن خلف ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه خطب فى الناس خطبته الجامعة التى وضع بها القواعد والأسس لهذا الدين القويم وأكد الحلال والحرام ، وبين الحقوق والواجبات .

فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه وكل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه ، وأن الرّبا كله باطل قليله وكثيره سواء ، وأن للمرأة على الرجل حقوقاً وللرجل عليها حقوقاً ونبه المسلمين إلى أن ما فيه عز الدنيا والآخرة لكم هو كتاب الله وسنة رسوله ، فإذا انحرفوا عنها فذلك هو الضلال البعيد وها هى ذى خطبته ﷺ :

قال : بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس : اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً .

« أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا . وإنكم تلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت .

« فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع – أى مهدر – ولكن لكم أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .

« قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله .

« وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب . أما بعد أيها الناس : فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مماتحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

« أيها الناس : إن النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحله الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها : أربعة حُرم ، ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان .

« أما بعد : أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقًّا ولهن عليكم حقًّا ، لكم عليهم ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهنَّ فى المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح .

« فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

« فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً أمراً بيّناً : كتاب الله وسنة رسوله .

« أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه . تعلمون أن كل مسلم أخٌ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه « فلا تظلمن أنفسكم » .

اللهم هل بلغت :

فأجاب الناس من كل صَوْت : نعم : فقال اللهم فاشهد » .

هذه هى خطبة الوداع وسميت بذلك لأن الرسول ﷺ ودع الدنيا وذهب إلى الرفيق الأعلى بعد أداء مناسك الحج والذهاب إلى المدينة بقليل .

وكان أسلوبه ﷺ فيها أسلوب مودع ، كقوله : اسمعوا واعقلوا فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى هذا الموقف أبداً – ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

وقد حدث أنه ﷺ بعد الخطبة نزل عن ناقته وأقام حتى صلى الظهر والعصر ، ثم ركبها وسار حتى الصحراء ، وهناء تلا على الناس قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) . فلما سمعها صاحبه الصّدّيق أبو بكر رضى الله عنه بكى ، إذ أحس أن النبى ﷺ وقد تمت رسالته قد دنا يومه الذى يلقى فيه ربه .

وكما سميت الخطبة خطبة الوداع فقد سميت الحجة كذلك حجة الوداع ، كما سميت حجة البلاغ ، لأن النبى ﷺ أتمَّ فيها بلاغه للناس بما أمره الله ببلاغه .

وبعد قليل من عودته ﷺ إلى المدينة المنورة بعد أن أتم مناسك الحج دهمه ﷺ مرض الحمى ، وعانى منه صلوات الله وسلامه عليه ما عانى ، وخُيِّر الرسول ﷺ بين مفاتيح خزائن الدنيا أو الخلد فيها ثم الجنة وبين لقاء ربه والجنة فاختار لقاء ربه صلوات الله وسلامه عليه ..

فى معجزات النبىِّ غير القرآن

لكل نبىٍّ معجزات . فهل لرسول الله ﷺ معجزات غير القرآن ، وما هى ؟

أيد الله سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله بالمعجزات التى تدل على تصديقه سبحانه وتعالى لهم فى دعواهم ، وكأن الله سبحانه وتعالى – بهذا التأييد – يقول : صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى .

وهذه المعجزات تناسب العصر الذى بعث فيه الرسول وتكون من جنس ما اشتهروا به حتى يكون عجزهم عن معارضته دليلا على أنها من صنع الله وليست من صنع البشر .

ولما كان العرب أهل فصاحة وبلاغة كانت أعظم معجزة للرسول ﷺ القرآن المنزل باللفظ العربى الذى أعجزهم ببلاغته ، فلم يستطيعوا معارضته أو الإتيان بشىء من مثله وهو المعجزة الخالدة .

ولنبينا ﷺ معجزات كثيرة حسية أظهرها الله على يديه وشاهدها الحاضرون ، ولقد تحدث القرآن عن بعضها وذكرت السنة بعضاً آخر منها .

فتحدث القرآن عن معجزة الإسراء والمعراج . قال تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) وقوله تعالى : (ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى) فالآية الأولى تذكر حادثة الإسراء والثانية تشير إلى المعراج .

وفى السنة الكثير من الأحاديث التى تتحدث عن معجزاته عليه السلام ومنها مثلا نبع الماء من بين أصابعه الشريفة .

ولقد أفرد بعض المؤلفين مؤلفات فى معجزاته عليه الصلاة والسلام .

فى كيف كان بدء الوحى

إن الحديث الذى رواه الإمام البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها وفيه بعض سيرة النبى ﷺ وصفاته فى مطلع نزول الوحى عليه : هو حديث بدء الوحى .

وهذا الحديث وثيقة هى من الأهمية بحيث لايوجد مايماثلها فى الأدب العالمى ، وأهميتها ترجع إلى وصفها للكيفية التى أتى بها – أول ما أتى الوحى . وإن الإنسان حينما يقرؤها يلمس فيها مباشرة صدق الحديث ، وسهولة التعبير ، وتصويرًا للحقائق لايجد الشك إليه سبيلا .

ومن المعروف أن السيدة عائشة تروى فى هذا الحديث ماعلمته علمًا يقينيًا من الملابسات والظروف والأخبار الصادقة والروايات الصحيحة ومن حديث رسول الله ﷺ لها مباشرة .

ويمكننا أن نذكر ماتحدثت به عن سيرة النبى ﷺ فيما يلى بحسب الترتيب الذى ورد فى الحديث .

١ – لقد أخذ رسول الله ﷺ يرى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

٢ – وعند ذلك حبب إليه الخلاء ، فكان يذهب إلى مشارف مكة ، بعيدًا عن ضجيج

المدينة وصخبها ومشاغلها ويعتكف فى غار حراء « فيتحنث فيه « وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك « أى يأخذ الزاد للاعتكاف من جديد » ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء .

٣ – ولما جاء الملك فى الغار وحدث ماحدث بينهما خرج من الغار يرجف فؤاده ، وبعد أن أخبر السيدة خديجة بالأمر قال لها :

« لقد خشيت على نفسى » .

فقالت السيدة خديجة واصفة سيرة النبى فى دقة دقيقة ، سيرته التى كان عليها فى مطلع الوحى ، وكان عليها طيلة حياته ، سيرته التى كانت متناسقة مع بواعث رسالته وأهدافها ، تلك البواعث والأهداف التى قال عنها سبحانه وتعالى (وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين . . . .) قالت السيدة خديجة ردًّا على قوله « لقد خَشيت على نفسى « كلا والله مايخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلَّ ، وتكسب المُعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » وهذه الصفات التى وصفته بها السيدة خديجة والتى روتها السيدة عائشة فى الحديث الشريف الذى رواه البخارى ، إنما هى عبارة عن الرحمة .

ولقد كانت سيرة النبى – ﷺ – رحمة كلها ، وهو القائل :

« إنما أنا رحمة مهداة » .

وهو القائل :

« أنا نبىُّ الرحمة » .

فى حياة الشباب لرسول الله ﷺ

لقد كانت حياته صلوات الله وسلامه عليه شرحًا مستفيضًا وتوضيحًا كاملا ، وتعبيرًا تامًّا لما ذكره ابن خلدون ومايتفق عليه العقلاء ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة من أن ذلك من علامات الأنبياء :

« أنه يوجد لهم قبل الوحى ، خلق الخير والذكاء ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع . وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها ، وكأنها منافية لجبلّته » .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه مبينة لهذه القاعدة فيقول :

« وفى الصحيح : أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها فى إزاره فانكشف . فسقط مغشيًا عليه حتى استتر بإزاره .

. ودُعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب : فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئًا من شأنهم » .

ومضت فترة الشباب برسول الله ﷺ وهو طاهر زكى : طاهر من الآثام التى تدنس الشباب فى مجتمعاتهم . وزكى لأنه بعيد عن الشرك لم يسجد لصنم قط صلوات الله عليه وسلامه .

فى الرسول يعمل كما يعمل سائر الناس .

عاش الرسول ﷺ حياته الكريمة بكل ماتقتضيه هذه الحياة من حركة وسعى وعمل فى كل المجالات المطلوبة . . . لقد رعى الغنم واشتغل بالتجارة قبل البعثة . . . وكان القائد السياسى والحربى للمسلمين بعد البعثة .

وتطلبت هذه الحياة العريضة التنقل فيما بين أرجاء الجزيرة العربية فتنقل فيها بل تجاوزها إلى غيرها كبلاد الشام ، واستخدم فى تنقلاته وسائل المواصلات المطلوبة والميسورة فى وقته وفى ظروفه . . . فاستعمل فى ركوبه الخيل والإبل والحمير . .

وقد حفظت لنا كتب السنة والسيرة أوصافًا لما كان يستخدمه ﷺ فى ركوبه وأسفاره بل أسماء لها .

ولكنه ﷺ لم يحتج فى حياته الكريمة إلى ركوب سفينة أو اجتياز بحر .

ومع ذلك فقد كان عارفًا بالبحر وبما وراء البحر . لقد سمع بعدالة ملك الحبشة النجاشى قبل الهجرة . . فوجه أتباعه إليه فرارًا من ظلم المشركين واستبدادهم . . . وركبوا البحر من شواطئ الجزيرة العربية إلى الحبشة وعادوا بعد تلك الهجرة مجتازين له .

وبشر أمته بأن منهم من سيركب البحر مجاهدًا فى سبيل الله وسيغزو من وراءه .

إن عدم ركوبه ﷺ سفينة أو نزوله البحر أمر عادى اقتضته ظروف حياته وأحوال بيئته لاصلة له بتشريع ولاعلاقة له بالنبوة .

ومما يتصل بهذا المجال ، حكى أن بحارًا أوربيًا قرأ فيما تُرجم من القرآن قوله تعالى : (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) .

فسأل : أكان هذا بحارًا يجتاز البحار ويتنقل بين أرجائها ؟ فقيل له بأنه لم يركب البحر فى حياته . . . . فقال : إن هذا الوصف لايصفه بهذه الدقة والبراعة إلا من شاهده وعاش فيه . . . . فقيل له : إن القرآن ليس من عنده إنه من عند الله – فآمن وكان ذلك سببًا فى إسلامه .

فى أبرز صفات الرسول الخالدة

إن من أبرز صفات الرسول ﷺ الخالدة ، والتى تشع النور ، وتعطى القدوة الحسنة على مر العصور ، والتى نحتاج إلى التركيز عليها فى حياتنا الحاضرة : صفة الجهاد .

إن رسول الله ﷺ الذى كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه ، والذى كان فى كثير من الأحيان يواصل فى الصيام . . هو الذى يقول :

« والذى نفس محمد بيده : لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » .

وهو القائل :

« من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق » إن النبى العابد – هو النبى المكافح . . . وإن نبى الرحمة هو نبى الجهاد . . وما كان الجهاد قط فى الإسلام إلا فى سبيل الله . . فإذا ماخرج عن سبيل الله ، لم يكن إسلاميًا ، وكل مافى سبيل الله إنما هو رحمة . .

وأول ملاحظة : هى أن الرسول العابد ، لم يتراجع فى غزوة قط . وكان الأبطال يتراجعون ، والصناديد من المهاجرين والأنصار يفرون أحيانًا . ولكنه صلوات الله وسلامه عليه ، فى ما يقوله سيدنا على ، وهو من هو بطولة وفروسية :

«كنا إذا حمى الوطيس – أى الحرب – اتقينا برسول الله ﷺ : أى احتمينا به وفيه – فيكون أقربنا إلى العدو » . .

وكان صلوات الله وسلامه عليه – مع التجائه إلى الله تعالى ، يدعوه ويستغيث به ، ويستنجزه وعده بالنصر – يحكم الأمر إحكامًا بحيث لايدع فيه ثغرة . .

هكذا كان أمره فى جميع أموره :

لقد نظم الجيش فى غزوة بدر تنظيمًا محكمًا ، ثم اتجه إلى الله يدعوه وكان دائمًا متفائلا . . كان متفائلا حتى ولو كان العدو عشرة أمثال المسلمين . .

لقد كان المشركون فى غزوة بدر ، ثلاثة أمثال المسلمين . . فهزمهم المسلمون بإذن الله . .

وكان انهزام المسلمين فى غزوة أحد ، شذوذًا فى القاعدة . . وما كان ذلك إلا لأنهم خالفوا – متأولين – أوامر الرسول ﷺ غير أن تفاؤله صلوات الله عليه وسلامه : لم يفارقه لحظة . . إذ إنه بعد أن انهزم المسلمون فى غزوة أحد مباشرة . . أمرهم صلوات الله وسلامه عليه ، بلم شعثهم وتضميد جراحهم ، والاستعداد فورًا لخوض المعركة من جديد .

ومن مظاهر تفاؤله صلوات الله وسلامه عليه . . أنه فى غزوة الأحزاب وقد تجمع الشرك من جميع أرجاء الجزيرة . . يسانده اليهود والغادرون ليقضوا على الإسلام فى المدينة . . ليقضوا عليه دينًا ، وليقضوا عليه دولة . . ليقضوا عليه عقيدة ، وليقضوا عليه رجالا . . وقد كان المسلمون يعملون فى حفر الخندق حماية لهم ومنعًا من وصول العدو إليهم .

وفى هذه اللحظة الحرجة : يروى البراء بن عازب رضى الله عنه القصة التالية : حسبما رواه الإمام أحمد :

« أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق لاتأخذ فيها المعاول . . فشكونا إلى رسول الله ﷺ ، فجاء . . ثم هبط إلى الصخرة . . فأخذ المعول وقال : باسم الله . . فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر وقال : والله أكبر . . أعطيت مفاتيح الشام -- والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا . . ثم قال : باسم الله ، وضرب أخرى ، فكسر ثلث الحجر ، فقال : الله أكبر . . أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر المدائن ، وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا . . ثم قال : باسم الله وضرب ضُربة أخرى فقلع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر . . أعطيت مفاتيح اليمن . . والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا » .

وأشاع هذا التفاؤل الثقة والاطمئنان فى المسلمين ، وإن كان قد دعا إلى السخرية فى وسط المشركين والوثنيين الذين قالوا إن محمدًا يعدهم ويمنيهم ، وهم لا يأمنون على أنفسهم الآن . .

هذا التفاؤل ، وهذه الثقة فى الله ، لم تفارق الرسول قط فى كفاحه الطويل الدائب ، الذى استمر إلى نهاية حياته الشريفة . .

فى عرض الرسول نفسه على قبائل العرب

عرض المشركون على رسول الله ﷺ من الأموال والجاه ما يغرى غير النبى ﷺ بقبوله وترك مايدعو إليه ، ولكن رسول الله ﷺ لم يكن ليدع ماأرسل به إلى الناس لدنيا لابقاء لها ، لأن الله

ثبته بالقول الثابت والله أعلم حيث يجعل رسالته فى الذين لا يخالفون عن أمره من صفوة عباده .

لو أن رسول الله ﷺ استجاب لمشركى مكة وركن إليهم قليلا بالكف عن تسفيه أحلامهم وسب آلهتهم فى تبليغ رسالة ربه لكان مقرًّا لهم ، والمقر لأحد على فعل معصية يعتبر شريكًا له فى فعلها ومجزيًا بإثمها .

وحاش رسول الله ﷺ أن يقر أحدًا على معصية ، أو يركن إليه أو يدع ما أرسل به إلى العرب وقوله تعالى : (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض . . .) بيان لشدة تمسك رسول الله ﷺ بما أوحى به الله إليه . .

فى عدد الغزوات التى قام بها النبى

عدد الغزوات التى غزاها الرسول ﷺ تسع عشرة غزوة وقيل إنها إحدى وعشرون ، عن أبى إسحاق قال : كنت إلى جنب زيد بن أرقم فقيل له كم غزا النبى ﷺ من غزوة قال تسع عشرة ، قيل كم غزوت أنت معه قال : سبع عشرة قلت : فأيهم كانت أوّل ؟ قال العشيرة أو العشيرُ فذكرتُ لقتَادَةَ قال العشيرة وروى عن جابر أن عددها إحدى وعشرون ففات زيد بن أرقم ذكر ستتين ، ولعلها الأبواء وبواط .

وأشد الغزوات هولا غزوة أحد ، لأن هذه الغزوة فيها انتصر المسلمون أولاً ثم أخذوا فى تقسيم الغنائم وجمعها ، فاستغل الفرصة المشركون وانهالوا عليهم كالسيل الجارف ثم رأى المسلمون أن الهول الذى وقع عليهم لا يمكن صده فانسحبوا وولوا الأدبار حينئذ أصيب ﷺ وشُقّتْ رباعيته ولم يكن معه إلا أبو بكر وعدد قليل من الصحابة ، وشاع الخبر أن محمدًا قُتل ، فاشتد الهول على المسلمين والخوف وكادت نفوسهم أن تضيق بها الأمكنة . .

فى الإسلام حمل السيف دفاعًا عن حريته وعقيدته

بدأ رسول الله ﷺ الدعوة إلى التوحيد فى مجتمع لا يدين بالتوحيد ، وأخذ صلوات الله عليه طيلة الفترة المكية ، يبين الدعوة بالقرآن ، وبالأحاديث ، وبالسلوك المستقيم ، وفى هذه الفترة المكية كلها : لم يرفع الرسول صلوات الله عليه سيفًا ، ولم يقم حربًا ، وكان أعداء الحق يعذبون المسلمين ، وينكلون بهم ، ويحاولون قتل رجال لأنهم يقولون : ربنا الله .

وانتهى التعذيب إلى غايات أليمة : فأخرج الذين يقولون : ربنا الله من ديارهم ، وشتتوا من أوطانهم ، فكانوا المهاجرين : هاجروا إلى الحبشة أولا ، ثم هاجروا إلى المدينة .

ولكن الكفر لم يكتف بذلك ، فأراد أن يقضى على الإسلام فى المدينة ، وكان من توفيق الله : أن وجد فى هذه الفترة من المؤمنين من أمكنهم أن يردوا هجمات الشرك والكفر : فحملوا السيف دفاعًا عن أنفسهم وأوطانهم ولقد ألجأهم الشرك مرة إلى أن يحفروا حول مدينتهم خندقًا عميقًا ، حينما جاء أعداء الله آلافًا مؤلفة ، ليقضوا على المؤمنين فى ضربة واحدة وفى صورة حاسمة ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم .

والتاريخ إذن : يرينا – فى صورة لامرية فيها – أن الإسلام لم يحمل السيف طيلة الفترة المكية ، وقد كان ينتشر بالدعوة إليه . ثم حمل السيف دفاعًا فى أوائل الفترة المدنية ، وكان ينتشر بالدعوة إليه ، ثم لما انتشر الإسلام بالدعوة السلمية انتشارًا واسعًا ، وأصبح قوة لها شأنها ولها خطرها ، رأى المؤمنون بها أن إيمانهم بالحق لايكون كاملا إلا إذا فتحت أبواب الدعوة إلى هذا الحق فى كل مكان ، ولما كان الطغاة والمستبدون يقفون فى وجه الحق ، ويتكبرون على الهداية ، رأى المؤمنون بالحق : أنه لابد من تحرير الشعوب من طغيان الطغاة واستبداد المستبدين ، حتى يمكن بيان الحق والدعوة إليه ، فحملوا السيف تحريرًا للشعوب وفتحًا للأبواب التى أغلقها الملوك المستبدون فى وجه الدعوة إلى الله ، وليس فى تاريخ الإسلام كله حادثة واحدة تدل على أن المسلمين أجبروا شخصًا على اعتناق الإسلام ، بل كان الأمر بالعكس لبعض الولاة ، كان يضيق ذرعًا بكثرة اعتناق الناس الإسلام بالرغم مما يعمله للحد من ذلك . إن الاسلام انتشر فى كل مكان أشرق نوره فيه لأنه حق واضح ، ولأنه رحمة للعالمين .

فى رسائل النبى إلى الأمراء والملوك

كان رسول الله ﷺ ، يبعث الرسائل إلى ملوك الدول يدعوهم إلى الإسلام ، ومن هذا القبيل رسالته ، ﷺ التى بعث بها دِحْيَة إلى هرقل : بدأت هذه الرسالة :

« بسم الله الرحمن الرحيم » ، وهى آية من القرآن ، وبعد أن دعا الرسول : ﷺ : هرقل إلى الإسلام كتب ﷺ فى رسالته :

(يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئًا ولايتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله ، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

هذه الرسالة إلى هرقل رواها الإمام البخارى ورواها الإمام مسلم .

فهى إذن ثابتة وهى تشتمل على بعض القرآن ، وهى مرسلة إلى النصارى .

والذى أرسلها هو الرسول ، ﷺ ومن المعلوم ، ومن المتيقن لدى رسول الله ﷺ ، أنهم سيمسون الرسالة ، ولو كان مسها حرامًا لاشتمالها على القرآن لما كتب الرسول ، ﷺ فيها قرآنا ، وهذا هو مارآه الإمام داود الظاهرى ، والإمام ابن حزم .

هذا ومما يبيح أن يحمل القرآن من هم على غير دين الإسلام ، أنه من المحتمل أنهم يقرءون فيه فيهتدون .

أما إذا تضمن حمل غير المسلم للمصحف إهانة لكلام الله فإنه يحرم على المسلمين أن يكونوا وسيلة أو وساطة لتمكين غير المسلمين من حمله .

هذا وعلى المسلمين أن يهدوا إلى كتاب الله بكل وسيلة كريمة تيسر اهتداء الناس إلى الحق ، وقد يكون من ذلك تمكين غير المسلم من الاطلاع على القرآن .

لايلزم من رواية ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كتب إلى هرقل أن يكون كتب بنفسه ، فقد كان له كتاب للوحى . وكان الكتبة يكتبون ما يأمرهم بكتابته .

وقد كان الرسول ﷺ أميًا قبل الرسالة قال تعالى : (وماكنت تتلواْ من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون) .

ولم يرد مايفيد تعلمه ﷺ الكتاب بعد الرسالة . وورد فى الآيات والأحاديث الصحيحة مايفيد أميّة الرسول ﷺ ، قال تعالى :

(ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبىَّ الأمىَّ الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل) .

وقال تعالى :

(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) .

وأميّة الرسول ﷺ معجزة من أبلغ المعجزات دلالة على صدق الرسول ﷺ فى رسالته ، ورد كل ما ادعاه المشركون من تلقيه ﷺ عن أهل الكتاب ونحو ذلك .

كفاك بالعلم فى الأمىّ معجزة ... فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

ولأجل ذلك أمر الرسول ﷺ للقضاء على الأمية بين المسلمين بتعليم القراءة والكتابة ، وكان له كتّاب للوحى ولغير الوحى كالرسائل ونحوها . . .

وآيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ كلها داعية للعلم بشتى ألوانه وحاثة على سلوك طرق التعلم والتعليم .

زواج الرسول كان لمصلحة الرسالة

الذى نعرفه أن زواجه ﷺ كان مسايرًا للحكمة والمصلحة لا للعواطف ، فقد قضى ﷺ أول شبابه ولم يهتم بالزواج حتى فتح الله له وييسر له أمره وسخر له أم المؤمنين خديجة وهى فى مثل سن والدته ، وقد كان يعمل فى مالها تجارة من قبل عرف عنه فيها الأمانة والبركة فعرضت عليه نفسها فتزوجها واقتصر عليها طول حياتها ، وأعقب منها ذريته كلها إلا إبراهيم فإنه من مارية الجارية القبطية التى ملكتها يمينه لما أهداها إليه المقوقس عظيم القبط . . فلما ماتت السيدة خديجة وعمره خمسون أو فوقها لم يعمد إلى زواج شابة مثلا بل تزوج كبيرة فى السن هى السيدة سودة بنت زمعة بهدف أن ترعى أولاده . وقد عقد على السيدة عائشة بمكة وكانت بنت تسع سنين إكرامًا لأبيها أول المؤمنين به وأصدقهم صحبة له ، وبعد الهجرة إذ كانت بنت تسع سنين دخل بها . ومابنت سبع سنين ولاتسع بمحركة للعاطفة عند النبى الرزين المكين - تزوج سيدتنا أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان وقد كانت آمنت به وهاجرت إلى الحبشة فى سبيل الله . . فهل يتركها بعد ماعادت دون زوج لأبيها مثلا ، وقد كان عدوًا محاربًا له ، أو يتخذها زوجة له صيانة لها ومد يد نحو السلم تألفًا للقلوب ؟ كما زوجه الله بنت عمته السيدة زينب بنت جحش الذى كان زوجها لزيد بن حارثة ، لقد تزوجها ﷺ بعد ماطلقها من زيد بن حارثة الذى كان النبى ﷺ قد تبناه لاختياره الله ورسوله على أبيه وأهله وعشيرته وزوجه زينب بنت عمته لحكمة أرادها الله تعالى هى هدم عادة التبنى بعد ماكان يفعلها أهل الجاهلية بأن زوج نبيه امرأة زيد التى طلقها وقد كان النبى يخالطه شىء من الحياء قبل نفاذ الأمر ولكنه السميع المطيع لأمر الله فمادام منفذًا له فلا عليه من قالة الناس ، والله أحق أن يخشاه وقد كان أول من يخشى الله ويطيعه فلا يتأخر عن تنفيذ ما يأمر به أما قوله : هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك فلا يدل على أن الزواج نبع للعاطفة بل اعتذار عن ميل القلب بحكم البشرية فى المخالطة والمباشرة مثلا إلى بعض الأطراف أكثر من غيره وذلك طبعى لاحرج فيه مالم يحمل على ظلم أو بغى وذلك لم يحصل ، إذ قال ﷺ هذا قسمى أى بالعدل فيما أملك أى من التصرفات ، أما الذى لا أملك أنا بل تملكه أنت -- من جعل بعض الأشياء والأشخاص أحب إلىّ من غيرها -- فلا مؤاخذة فيه مادام العمل فى الحق لاعلى الهوى . .

عن لقب أمهات المؤمنين
وعن طلاق الرسول وعن كونه نبى أمىّ

إنما سميت السيدة عائشة وسائر أزواج النبى ﷺ أمهات المؤمنين إجلالا واحترامًا ومنعًا من زواجهن من بعده ﷺ كما يتأدب المرء مع أمه .

هل طلق النبى ﷺ ؟ نعم : حملت إليه امرأة فى عرشها فلما دخل عليها كان بعض النسوة قد خدعنها وقلن لها : إذا أراد منك شيئًا فقولى أعوذ بالله منك . فلما قالت ذلك أجابها قائلا : عذت بمعاذ الحقّ بأهلك أى أنك استغثت بغياث عظيم هو الله فارجعى إلى أهلك فإنك مطلقة والحق بأهلك عند العرب عبارة تفيد ذلك . .

هذه واحدة . كما رووا أنه طلق السيدة حفصة بنت سيدنا عمر رضى الله عنه فأوحى الله إليه أن يراجع حفصة فإنها صوامة وقوامة وإنها من نسائه فى الجنة .

لقد بقى ﷺ فيما نعلم أميًّا طول حياته المباركة حتى بعد نزول القرآن الكريم ، فقد كان له كتبة يسجلون الوحى بالقرآن كما نزل عليه . .

فى مظاهر الرحمة فى سلوك الرسول

إن سلوك الرسول صلوات الله عليه وسلامه كان الرحمة نفسها ، ولقد وصفته السيدة خديجة رضوان الله عليها فقالت : إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وهذه الصفات كلها : تتبلور فى كلمة واحدة هى الرحمة .

وفى يوم من الأيام ، رأى أحد الأعراب رسول الله ﷺ : يقبل أحد أحفاده ، فقال ، مندهشًا : أتقبلون أبناءكم ؟ إن لى عشرة من الأولاد وما قبلت واحدًا منهم قطّ ، فعرّفه صلوات الله عليه وسلامه فى نوع من الاستهجان . أن الله قد نزع الرحمة من قلبه ولقد تعدت رحمته ﷺ الإنسان إلى الحيوان ، وكتب السيرة تروى أنه صلوات الله عليه وسلامه : مرّ ذات يوم على بستان رجل من الأنصار فدخله ، فإذا جمل يحن وتذرف عيناه ، فأتاه النبى صلوات الله عليه وسلامه فمسح عليه ، فسكت ثم قال صلوات الله عليه : من رب هذا الجمل ؟ فجاء فتى من الأنصار : فقال هذا لى يارسول الله ، فقال له : ألا تتقى الله عز وجل فى هذه البهيمة التى ملكك الله ، إنك

تجيعه وتدئبه (أى تتعبه وتجهده) فخجل الشاب الأنصارى وتغير سلوكه مع الجمل وتذكرنا هذه القصة بما قصه صلوات الله عليه من قصة ذلك الرجل الذى وجد كلبًا يلهث من شدة العطش ، فملأ خفّه وسقاه فغفر الله له بسبب ذلك .

فى الإسراء والمعراج

ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين إلى أن الإسراء والمعراج وقعا فى ليلة واحدة فى اليقظة بجسد النبى ﷺ وروحه بعد البعثة . . .

ولقد توارد على ذلك -- كما يقول الإمام ابن حجر -- ظواهر الأخبار الصحيحة ولاينبغى العدول عن ذلك ، إذ ليس فى العقل مايحيله حتى يحتاج إلى التأويل .

ولو كان ذلك منامًا أو بالروح فقط لما كذب رسول الله ﷺ مكذب لجواز وقوع مثل ذلك لآحاد الناس :

إن الناس فى الرؤيا يرون أنهم سافروا ، وأبعدوا وذهبوا وجاءوا وعقدوا العقود ورأوا نتائج عقودهم وثمار عهودهم ، فلو كنا بصدد رؤيا لما ارتاب فى صدق الصادق الصدوق صلوات الله وسلامه عليه إنسان . . . ولما أشفقت السيدة أم هانى رضى الله عنها على رسول الله ﷺ حين أخبرها الخبر وقال إنه سيحدث الناس به فأرادت منه أن يعدل عن ذلك قائلة :

« إنهم سيكذبونك فلم يستجب صلوات الله وسلامه بنصيحتها لأن الحق ينبغى أن يُذاع وأذاعه ﷺ بين الناس .

-- ماهو إذن الموقف الذى ينبغى أن يتخذه من هذا الموضوع ؟

إن موقف المؤمن الصادق فى ذلك إنما هو موقف سيدنا أبى بكر :

فعن عائشة رضى الله عنها أنه سعى رجال من المشركين إلى أبى بكر رضى الله عنه فقالوا هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس -- فقال أوقد كان ذلك ؟ . . . .

قالوا : نعم . . .

قال : لئن قال ذلك فقد صدق . . قالوا تصدقه إنه قد ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ . . قال نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة فلذلك سمى الصّدّيق . .

لقد كان رسول الله ، صلوات الله عليه ، خاتمة سلسلة من الأنوار التى يرسلها الله إلى العالم بين

الفينة والفينة ، لتهدى إلى الرشاد ، ولتقود إلى الله ، ولتسمو بالمؤمنين درجات فى معارج القدس ، لتصل بالجديرين منهم إلى الكمال المرجو ، عن طريق الإرشاد الإلٰهى وكان الكتاب الذى أنزل عليه ، صلوات الله عليه ، وهو القرآن : خاتم الكتب ، وأكملها ومهيمنًا عليها .

ولأن الرسول – صلوات الله عليه – تخلق بأخلاق أكمل كتاب ربانى ، فهو إذن أكمل رسول ، ﷺ .

ومن هنا كانت إمامته – صلوات الله عليه – بالرسل والأنبياء فى بيت الله المقدس ، ولأنه صلوات الله عليه ، أكمل رسول ، كان من أجل ذلك ، أقرب المقربين إلى الله ، سبحانه وتعالى ، لقد تخطى الأرضين والسموات ، وتجاوز الكون كله ، ووصل إلى مالم يصل إليه بشر ، بل إلى مالم يصل إليه جبريل نفسه عليه السلام ، لقد وصل صلوات الله عليه إلى (قاب قوسين أو أدنى) وكما أن المعنى الذى يدل عليه نبأ المعراج : من وجود الأنبياء والرسل فى السموات ، ومن أن الرسول صلوات الله عليه أخذ يتجاوز هذه السموات واحدة بعد الأخرى ، ويتجاوز الأنبياء واحدًا بعد الآخر ، نقول : كما أن المعنى الذى يدل عليه النبأ معنى مكانى ، فإنه أيضًا – بل بطريق أولى – معنى روحى ، أى أن الرسول صلوات الله عليه فى تساميه الروحى فى كل لحظة من اللحظات قد بلغ فى معراجه إلى درجات تجاوزت – فى روحانيتها – آدم فى سمائه الأولى ، ثم تجاوزت يحيى وعيسى عليهما السلام ، فى سمائهما الثانية ، ثم تجاوزت يوسف عليه السلام فى سمائه الثالثة . . . . وهكذا حتى تجاوزت روحيًّا إبراهيم عليه السلام ، فى سمائه السابعة ، ولقد تجاوزت كل ذلك وتجاوز الكون كله إلى سدرة المنتهى إلى شجرة النهاية ، إلى حيث لايبلغ ملك مقرب ، ولانبى مرسل . .

لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقام الرسول صلوات الله عليه ! !

ولكن بعض الناس ، ينزل بنا من هذه الآفاق العليا والسموات السامية .

ومن الرحاب الإلٰهى . . . ينزل بنا منحدرًا ، فيجادل فى الإسراء والمعراج ، أكان رؤيا أم كان يقظة . . . .

أستغفر الله ، وأتوب إليه ! !

إن ذلك الجدل ، إذا دل على شىء ؛ فإنما يدل على ضعف الإيمان فى قلب المجادل .

وإذا كان ماسبق يدلنا على جانب من مقام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فتزداد بذلك تقديرًا ، وحبًّا واتباعًا ، فإن من هدى الله سبحانه وتعالى وتوجيهاته فى نبأ الإسراء والمعراج هذه الرمزيات الأخلاقية ، التى تربط ربطًا محكمًا ، بين الدين والأخلاق . .

والواقع أن الأخلاق فى جو الإسلام مرتبطة بالدين ارتباطًا ، لاينفصل : منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم ، وعنه تصدر ، إنها جزء من الدين الإسلامى ، لايتجزأ ، مصدرها هو مصدره ، إلٰهى ربانى .

وبعض الناس فى العصر الحديث يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى .

يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بين فالضمير يربى ويكون ، وتربيته ولونه ، هما شكله ، ونزعته واتجاهه ، الذى يتكيف بحسب الثقافة والبيئة والعصر والوسط . .

فى الحكمة من الإسراء والمعراج

إنها ليست حكمة واحدة وإنما هى عدة حكم منها : أنه كان تكريمًا للرسول ﷺ فى وقت استحكم فيه الجهاد بين قوى الخير ممثلة فى الرسول وأتباعه ، وقوى الشر ممثلة فى المشركين يتزعمهم أبو جهل ، وكانت قوى الشر فى عنفوانها على قوى الخير فجاءت معجزة الإسراء والمعراج مبينة مكانة الرسول ﷺ ، وأظهرت أن مقامه صلوات الله عليه وسلامه عليه : قاب قوسين أو أدنى فى القرب من الله سبحانه .

ومن حكم معجزة الإسراء والمعراج أنها كانت تصفية لضعاف النفوس والشاكين والمترددين ، لقد كانت نفيًا لهم عن الجماعة الإسلامية الناشئة إذ إنهم لو مكثوا فيها لكانوا ضررًا عليها ، ولئن كانت معجزة الإسراء والمعراج تكريمًا للرسول ﷺ فإنها كانت ابتلاء للجماعة الإسلامية ليميز الله الخبيث من الطيب ، وليذهب الزبد جفاء .

وتخلصت بذلك الجماعة الإسلامية الناشئة من الضعاف والشاكين والمترددين .

ومن الحكم بيان أن القيادة فى بيت المقدس يجب أن تكون للمسلمين وهذا هو المعنى الذى يؤخذ من إمامة رسول الله ﷺ للأنبياء والرسل ، إن الإمامة فى بيت المقدس وإن الكلمة الأولى والقيادة يجب أن تكون للمسلمين دون غيرهم ، فإذا قصروا فيها فهم آثمون أفرادًا ، وهم آثمون جماعات ، وهم آثمون دولا وحكومات .

ومن هذه الحكم مانبهت عليه المشاهدة الأولى فى مرحلة الإسراء المباركة لقد كان أول ماشاهد رسول الله ﷺ مشهد هؤلاء الذين يزرعون ويحصدون فى يوم ولما سأل عنهم قيل إنهم المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنات إلى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين .

والجهاد هو وسيلة الحصول إلى القيادة فى بيت المقدس .

أيها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها إن روح سيدنا عمر وروح صلاح الدين من وراء الأجيال تناديكم لإنقاذ بيت المقدس مرددة قول الله تعالى :

(انفروا خفافًا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) .

ومرددة قوله تعالى : (إلاّ تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم ولاتضرّوه شيئًا ، والله على كل شىء قدير) .

وَسُئِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

فى المراد من أسماء الله الحسنى

إن أسماء الله الحسنى ألفاظ من القرآن الكريم ، وهى دلالات على الله سبحانه وتعالى تهدى إلى ما يتصف الله به من وجوه الكمال فهى مباركة فى نفسها من حيث هى أسماء للذات المقدسة ، وهى مباركة بالنسبة لقارئها من حيث هى هداية وإرشاد للمسلم فى عقيدته ومن أجل ذلك كان الاعتقاد فى بركاتها ، سواء كانت متلوة مقروءة أو محمولة مكتوبة : اعتقاداً سليما :

وعلى هذا فإنه لا مانع للمسلم من أن يحتفظ بأسماء الله الحسنى مكتوبة محفوظة ملفوفة فى قطعة من القماش الطاهر ، وذلك للتبرك بها ، كما يحتفظ الإنسان بآيات من القرآن الكريم ملفوفة فى قماش طاهر ، ولم يمنع أحد من المسلمين أن يكتب الإنسان القرآن ، أن يكتب آيات منه أو يكتب أسماء الله الحسنى ويحملها متبركاً بها .

فإذا كُتبت أسماء الله الحسنى ولُفت لفًّا متقناً أو جلِّدت فى عناية ثم علقت فى رقبة الطفل فلا مانع من ذلك ، خصوصاً أن ذلك يدل دلالة واضحة على تقديس أسماء الله الحسنى وتقديرها واحترامها ، وعلى الرغبة الطيبة فى تعويد الأطفال على تقديسها واحترامها وتقديرها .

وما من شك فى أن أسماء الله الحسنى إنما أخبرنا الله بها لتدل أولا وبالذات على الكمالات الإلهية ولتهدينا إلى العقيدة السليمة ، بالنسبة لله سبحانه ، وذلك لا يتنافى أبداً مع كتابتها وحملها وتعليقها فى رقبة الأطفال إيمانًا ببركتها ، وتقديساً لها وحبًّا فيمن دلت عليه سبحانه .

وقد ورد فى الأخبار أن سيدنا خالد بن الوليد كان يتبرك بشعرات من شعر رسول الله ﷺ ، يحتفظ بها فى عمامته فالتبرك بأسماء الله الحسنى لا مانع منه .

فى أفضل وسيلة لحفظ القرآن الكريم

أفضل الطرق وأيسرها لحفظ القرآن الكريم هى أن يتفهم القارئ معانى الآيات التى يقرؤها ، وبوجه إجمالى فظلال المعانى فى ذهنه تساعد على بقائها ، وسهولة حفظ الجمل المعبرة عنها ، ثم يبدأ الطفل – عادة – بالسور القصيرة والأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم ، يضاف إلى ذلك أن يقرأ المُحفِّظ الآيات أمام تلاميذه ، فالقراءة الجيدة تعود التلاميذ على حسن النطق وحسن الترتيل ، ولا يكلف التلميذ بحفظ آيات كثيرة حتى لا يثقل عليه حفظ ما يكلف به .

أما الفوائد التى تعود على حافظ القرآن فأهمها المعلومات التى يستفيدها من آى القرآن وأحكامه. وقصصه ومواعظه، فقد قلت إنه ينبغى للمتعلم أن يلم بالمعانى الإجمالية للآيات التى يحفظها، ثم هو يستفيد قدرة على التعبير الأدبى، ويحسن الاقتباس من آيات القرآن، والقراءة بعد كل هذا عبادة، يستطيع الحافظ أن يؤديها فى أى وقت وفى أى مكان.

فى حرمة مسّ المصحف للمحدث

إن قراءة القرآن على غير وضوء جائزة ما دام القارئ طاهراً من الجنابة، وقد ورد أن سيدنا عمر رضى الله عنه كان يقرؤه على غير وضوء، فلما سئل فى ذلك أجاب بما يفيد أنه جائز، وأما حمله على غير وضوء، فقد أجاز أبو حنيفة رضى الله عنه، ذلك إذا كان بغلافه، أى إذا كان مُغلّفاً داخل كساء.

ولقد اختلف العلماء فى مسّ المصحف على غير وضوء: فالجمهور على المنع من مسه. ويقول الإمام القرطبى:

« واختلفت الرواية عن أبى حنيفة، فقد روى عنه، أنه يمسه المحدث حدثاً أصغر، وقد روى هذا عن جماعة من السلف منهم ابن عباس وغيره ».

ويقول الإمام القرطبى: وقد روى عن الحكم وحماد وداود بن على أنه لا بأس بحمله ومسه للمسلم طاهراً أو محدثاً حدثاً أصغر.

أما مس الصبيان للمصحف فالأظهر الجواز، لأنه لو منع لم يحفظ القرآن. وبعد فإنه مما لا شك فيه أن مس المصحف على طهارة كاملة من الأمور التى يحرص عليها المؤمن كلما أتيحت له الفرصة لذلك، وهو فى هذا يسير مع الوضع الصحيح لتكريم المصحف واحترامه. بيد أنه تحدث ظروف لا يتمكن الإنسان فيها من الوضوء لسبب من الأسباب، وتكون فى الوقت نفسه الفرصة متاحة للقراءة فى المصحف، وفى هذه الحالة للإنسان أن يأخذ برأى الأئمة الذين أباحوا مسه على غير وضوء. ذلك خير من أن يترك فرصة متاحة للقراءة والثواب.

فى احترام الأوراق المكتوب فيها القرآن

القرآن نور أنار الله به طريق السير للمؤمن ومنة امتن بها عليهم . . وقد طالبهم باحترامه والقيام بحقوقه وحذرهم من التفريط فى احترامه فضلا عن امتهانه ، قال تعالى : (إنه لقرآن كريم.فى كتاب مكنون.لا يمسه إلا المطهرون)

والذى يبيع بعض الحاجات فى ورقة بها آية من آيات قرآنية مرتكب لمنكر ، والذى يبيع من الورق ما فيه آية قرآنية لمن يبيع فيه ويمتهنه مرتكب لمنكر وهكذا .

ولا يعتبر الامتهان غير مقصود إلا إذا أغفل المسلم أو ظن أن ما فى الورق ليس قرآناً فإذا ما تمزقت أوراق مصحف أو بعض أوراقه بادر الإنسان بحرقها إذا لم يتيسر له حفظها فى مكان أمين ، أو إلقاؤها فى البحر ، لأن الماء سيزيل آثار الكتابة وتتحول حينئذ إلى ورقة عادية سرعان ما تتفتت .

والمقصود فى هذا كله المحافظة على القرآن الكريم بما يجب نحوه من احترام وإذا كان الله تعالى قد منع غير المتطهرين من مس المصحف أو شىء من القرآن ، فإن امتهان القرآن من أكبر المحرمات ، وقد كان سبب الوبال لبعض الأفراد الذين استهانوا بحرمته فمزقهم الله شر ممزق .

فى مسّ المصحف المكتوب باللغة اللاتينية بغير وضوء

الأمر فى مسّ المصحف المكتوب بالحروف اللاتينية . لا يختلف عنه بالنسبة للمصحف المكتوب بالحروف العربية .

غير أن أمر كتابة المصحف بالحروف اللاتينية لا يتم إلا بفهم المعنى المراد من كل آية قرآنية وصياغته باللغة المترجم إليها ، وليست ترجمة المعنى كترجمة النص ، فترجمته قد تكون مستحيلة فى كثير من الحالات ، أما ترجمة المعنى فهى ميسورة للمترجم ، وفهم المعنى لآيات القرآن يختلف باختلاف الباحثين إيجازاً وإطناباً وفهماً للمراد كله ، وقصوراً فى فهم المراد تارة أخرى .

وعلى ذلك فالمصحف العربى يختلف كثيراً عن المصحف اللاتينى من حيث إن المصحف العربى نص المنزّل من عند الله لا يحتمل غيره ، أما المصحف اللاتينى فإنه ترجمة للمعنى وليس نصًّا ، أعنى أنه كتاب تفسير لا قرآن .

لذلك فمسه بغير وضوء لامنع منه .

فى فضل البسملة

حسب البسملة فضلا أن افتتح الله بها كل سورة من سور القرآن ما عدا سورة « براءة » ، وحسبها فضلا أن كان رسول الله ﷺ لا يدعها فى كل كتاب أرسله إلى من دعاهم إلى الإسلام ، وحسبها فضلا أن ذكرها الله عزَّ وجل فى سورة النحل ، حاكياً عن سليمان عليه السلام أنه صدر بها كتابه إلى بلقيس : قال تعالى :

(إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلو علىَّ وأتونى مسلمين) .

وقد كان رسول الله ﷺ لا يدع البسملة فى كل شأن من شئونه وحث عليها مبيناً فضلها فقال :

« كل أمرٍ ذى بال لا يُبدأ فيه ببسم الله فهو أجزم ، وفى رواية أبتر ، وفى أُخرى أقطع . . والمعنى لا بركة فيه » .

وذكر فى بداية العمل من إثارة الإذعان بأن هذا الأمر يكون ابتداؤه ويكون تمامه بالله ، وأنه لا حول ولا قوة إلا به جل جلاله .

ومن آثارها بركة هذا العمل كما نص الحديث السالف الذكر عن رسول الله ﷺ ، ولقد قالها نوح عليه السلام وهو يركب سفينته وقد بلغت الشدة نهايتها حينما فتحت أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرت الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قُدر ، وصارت الأمواج تتلاطم كالجبال ، فكانت (بسم الله) أماناً لنوح ومن معه فى السفينة ، ولعل فى هذا بلاغاً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

فى استحباب سماع تلاوة القرآن

إن سماع القرآن خير جزيل ، وإن تلاوته خير جزيل أيضاً ، وتلاوته بصوت مسموع أفضل من سماعه ، وذلك لأن تلاوته بصوت مسموع فيها – فى آن واحد – استعمال اللسان والآذان .

والتالى للقرآن يمكنه أن يقف عندما يمر على آية استغفار يستغفر ، وعندما يمر على آية توبة يتوب ، وعندما يمر على آية عذاب يتضرع ويطلب النجاة .

ويتيسر له أن يعيد القراءة متدبراً متأملاً ، وأن يقف عند بعض الآيات متفهماً ، وكل هذا

لا يتيسر فى نوع من الكمال بمجرد السماع ، ولا يمنع عدم المهارة بالقرآن من أن يقرأه الإنسان ، فرسول الله ﷺ يقول فيما رواه الشيخان عن عائشة رضى الله عنها :

« الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ، ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » .

ويقول ﷺ فيما رواه الترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشرة أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

وهذا الحديث نص فى القراءة لا فى السماع .

فى معنى كلمة آمين

إن كلمة آمين معناها : اللهم استجب ، وهى ترد عقب كل دعاء .

إنها ترد عقب الفاتحة بعد قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالين) .

وروى الإمام البخارى والإمام مسلم وغيرهما : رضى الله عنهم أجمعين : أن رسول الله ﷺ قال : إذا قال الإمام « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » فقولوا آمين ، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه .

وفى رواية للبخارى إذا قال أحدكم آمين ، وقالت الملائكة فى السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه .

ولكن هذه الكلمة تختص بالصلاة ، فعن أبى مصبح المقرائى فيما رواه أبو داود قال : كنا نجلس إلى أبى زهير النميرى رضى الله عنهما وكان من الصحابة يحدث أحسن الحديث فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال اختمه قال آمين ، مثل الطابع على الصحيفة ، قال أبو زهير النميرى أخبركم عن ذلك : خرجنا مع رسول الله ﷺ ليلة نمشى فأتينا على رجل ألحّ فى المسألة : أى ألحّ فى الدعاء – فوقف النبى ﷺ يستمع منه ، قال النبى أوجب أن ختم ، قال رجل من القوم بأى شىء يختم ؟ فقال : بآمين ، فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب – أى قبل الله دعاءه ، فانصرف الرجل الذى سأل النبى ﷺ فأتى الرجل فقال اختم يا فلان بآمين وأبشر .

أما كون الإمام لا يجهر بها فذلك لأنها ليست قرآناً ، وأما جهر المأمومين بها فإنه ليس واجباً وهم بالخيار إن شاءوا جهروا وإن شاءوا أسروا .

فى نزول القرآن فى ليلة القدر وهل كان جملة أولا

يرى بعض العلماء – ومنهم الشيخ محمد عبده – أن المراد بنزول القرآن فى هذه الليلة ابتداء نزوله ، مستدلا بما قاله الشعبى – المراد من نحو أنزلناه وأنزل فيه القرآن : الابتداء بإنزاله .

وعلى هذا المعنى فإن القرآن ابتدأ الله سبحانه إنزاله فى ليلة القدر ، ثم توالى إنزاله بحسب الظروف والملابسات ، وبحسب حكمة الله سبحانه وهو الحكيم الخبير . أما كيف انقسمت السور القرآنية إلى المكيّة والمدنية . فإن السبب فى ذلك هو اختلاف أماكن نزول القرآن ، فقد استمر نزول القرآن على الرسول ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة : قال تعالى : (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مُكْث ونزلناه تنزيلا) وقال : (وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) ومن الآيات ما نزل بمكة ، ومنها ما نزل بالمدينة ، فسمى ما نزل بمكة بالمكىّ ، وما نزل بالمدينة بالمدنىّ ، واستخلص العلماء لكل سماته وخصائصه ومجال البحث فيه ، وإن فى تمييز المكىّ من المدنىّ ومعرفة مكان النزول يعطى صورة واضحة عن اهتمام المسلمين بكتاب الله وبكل ما يتعلق به : حيث لم يكتفوا بحفظه بل عرفوا ملابساته وما أحاط به من ظروف .

فى الوحى

يمكن الشخص العادى أن يرى سيدنا جبريل عليه السلام ، فليست رؤيته بمستحيلة ، وليست رؤيته وعدمها ، خاضعة لرغبة شخص أو عدمها ، وإنما مرد ذلك كله إلى الله عزَّ وجل ، وعلى النحو الذى يريده الله سبحانه ، حسب قدرة الرائى ، لأن سيدنا جبريل عليه السلام ، ليس كآحاد البشر ، وقد رأته السيدة مريم عليها السلام ، وليست بنبية ، ورآه أناس كثيرون فى حياة النبى ﷺ وفى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : طلع علينا رجل شديد بياض الثياب . . . شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد . . إلخ . الحديث فى أول صحيح مسلم وكان هذا الذى رآه الصحابة هو جبريل .

وليس معنى أنه يُرى أن كل من يراه يوحى إليه وحى تشريع ، لا . . . لأن وحى التشريع انتهى بوفاة رسول الله ﷺ ، وإنما تعبر الرؤيا مناماً أو يقظة بالمعنى الذى يتناسب وحال الرائى من بشارة أو إنذار أو تقرير أو نحو ذلك والوحى الخاص بقوله : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . .) الآية .

هو وحى الرؤيا المنامية ، ولم يرد فى شرح الآية نص يكشف ماهية الوحى الذى كان ، ولعله وحى إلهام . والآية الكريمة محتملة لذلك .

فى محاولات أعداء الإسلام لتحريف القرآن

المحاولات لتحريف القرآن الكريم مستمرة ودائمة . . منذ عهد قديم ، وقد تمثلت أولا فى الخروج بتفسيره عن هدى الدين ، وصرف المسلمين عن هدايته بأخبار موضوعة تبلبل المفاهيم وتصرفها عن روح الدين ، كما هو ملاحظ فى بعض التفاسير من الإسرائيليات . والحشو .

ومن ناحية ثانية فقد حرفت بعض الطوائف معانى القرآن الواضحة الظاهرة إلى معان باطنة لا تمثل إلا ما يهدم الدين تحت دعوى الخصوصية والفهم الذى لا يقبل الخطأ ونحو ذلك ، وتمثلت هذه المحاولات : فى القضاء على لغة القرآن . . وتوجيه الطعنات إليها ثم إلى القرآن ثالثاً : بتغيير رسمه وكيفية نطقه .

وآخر هذه المحاولات تغيير القرآن الكريم بحذف بعض الكلمات منه أو تغيير شكل الكلمة حتى يتغير المعنى تبعاً لذلك . وطبع مصاحف محرفة طبعات أنيقة ونشرها على أوسع نطاق .

وعلماء المسلمين يحفظون القرآن فى صدورهم ويكشفون ما استطاعوا عن هذا التزييف .

والأزهر يمارس نشاطاً كبيراً فى مجال القضاء على كل محاولات التحريف فتقوم لجنة المصحف التابعة لمجمع البحوث الإسلامية باعتماد ما تراه صحيحاً من المصاحف قبل الطبع . .

وتفحص المصاحف المزورة وتصدر نشرات عنها وعن طبعاتها وتنبه البلاد الإسلامية إلى خطرها .

وتقوم حكومة مصر على أساس توجيه هذه اللجنة بمصادرة كل مصحف غير مطابق لنص القرآن الكريم .

وسيقوم المجمع بطبع مصحف نموذجى ونشره على أوسع نطاق بحيث يعتبر أساساً لمقارنة غيره به (٥١) .

ومقارنة لكل ما يمكن أن يصدر من طبعات محرفة ، أنشئت إذاعة القرآن الكريم بمصر ، تتلو

---

(٥١) كان الأمام عبد الحليم محمود رضى الله عنه أميناً عاماً لمجمع البحوث الإسلامية وقت صدور هذه الفتوى ، وقد تم فى عهد توليه مشيخة الأزهر طبع هذا المصحف ، ونُشر على أوسع نطاق .

القرآن آناء الليل وأطراف النهار بعدة قراءات ، تيسر للمسلم أن يراجع مصحفه على أساس قراءتها .

وبعد فالله سبحانه وتعالى : قد تكفل بحفظ القرآن ، قال تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

وعلماء الإسلام يحفظون القرآن وعندهم من النسخ المضبوطة الكثير . . ومن الممكن الرجوع إليهم فيما يشك فى تحريفه .

والأمل كبير فى أن تتكاتف الحكومات الإسلامية أمام هذا المظهر الخطر من محاولات تزييف الدين والتراث فى أقدس مخلداته ، وهو القرآن الكريم (الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

فى التوبة كما وردت فى القرآن

لقد فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة على مصراعيه أمام المذنبين الذين أسرفوا على أنفسهم فى الذنوب ولم ييئسهم من رحمته فقال تعالى :

(قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تُنصرون) .

وقال سبحانه وتعالى : (إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقال أيضاً : (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه) . وغير ذلك من آيات القرآن الكريم التى ترغب فى التوبة وتحث عليها .

وفى الحديث الصحيح : إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل .

وفيه أيضاً : إن الله فتح بابه للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها . فمن أسرف على نفسه ثم تيقظ ضميره يلزمه أن يرفع أكف الضراعة والندم على ما فرط منه فى حق مولاه ، وليبك على خطيئته ، ويعزم على عدم الرجوع إليها ، ويرد المظالم إلى أهلها ويؤدى الفرائض التى فاتته بشروط التوبة ، إن فعل ذلك قبل الله توبته وعفا عن ذنبه وخطيئته وجعله فى زمرة عباده المقبولين .

أما إن أخل بشروط التوبة وتاب باللسان ولم يرد المظالم ولم يفلح عن المعصية فإن توبته مردودة عليه نعوذ بالله من ذلك .

فى حادث الإفك

إن من المبادئ الإسلامية الأصيلة الأخوّة الإسلامية : (إنما المؤمنون إخوة) ، « والمؤمنون فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » .

ومن أجل ذلك فإن الذين يسيرون فى طريق معارض وهم الذين يحبون أن تنتشر الخصال القبيحة فى الذين آمنو أعد الله لهم عذاباً أليماً فى الدنيا وفى الآخرة ، والله يعلم ما انطوت عليه السرائر وأما أنتم فلا تعلمون من ذلك شيئاً .

(إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

وهذه الآية الكريمة وما يتلوها إنما هى تعقيب على ما اقترفه البعض من الخوض فى حديث الإفك ، لقد أخذ البعض يخوض فى عرض الرسول ﷺ ولولا فضل الله ورحمته بالمجتمع الإسلامى إذ ذاك لمس الذين خاضوا فى الإفك والمشايعين لهم والساكتين على بهتانهم عذاب عظيم .

ويستمر الله سبحانه فى التعقيب على الحادث تربية للمؤمنين فيحذرهم سبحانه من اتباع خطوات الشيطان ، وذلك أن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر إنه لا يوجه إلى خير ، ولولا أن الله سبحانه قد رسم طريق الهداية واضحاً لا لبس فيه رسمه فى العقيدة ، وأساسها التوحيد ممثلا فى : إياك نعبد وإياك نستعين ، ورسمه فى التشريع وأساسه العدالة ، ورسمه فى الأخلاق وأساسها الرحمة – ولولا فضل الله ورحمته على عباده لولا كل ذلك ما زكّى منهم أحداً أبداً ، ولكن يأخذ بيد من يشاء فيزكيه ويطهره من الإثم بالتوبة والغفران ، وهو سبحانه السميع لكل من التجأ إليه متضرعاً ، متجهاً إلى تزكية نفسه ؛ العليم بالمخلصين فى الإنابة إليه .

ولقد روى الإمام البخارى وغيره أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان ينفق على مسطح لقرابته وفقره فلما خاض فى أمر عائشة رضى الله عنها قال أبو بكر : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً فنزل القرآن الكريم ناهياً أُولى الفضل وذوى السمعة أن يقسموا على عدم الإنفاق على ذوى القربى

والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، ونصح الله المؤمنين بالعفو والصفح وخاطبهم قائلا : ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم : فلما سمع أبو بكر رضى الله عنه هذا الخطاب قال : بلى والله إنى أحب أن يغفر الله لى ، وأعاد نفقته على مسطح .

فى إمكان الإعادة بعد العدم

وجود الشىء من جديد بعد كونه وتحلله السابقين ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة ، لا سيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه من عدم ، وإن كان لا يوجد حد بالنسبة لله ، شىء أسهل وشىء أصعب هذا الدليل الموجود فى الآيات فى كلمات قليلة .

(قُلْ يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) ظهور الشىء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن وواقع تحت الحس .

وإذن يمكن أن تدب الحياة فى الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى .

وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر وهو :

إن الشىء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق : هذا الدليل موجود فى آية : (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون) . وقد انتفع به الأشعرى فى إثبات إمكان البعث .

خلق الإنسان أو إحياؤه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن .

فى منهج التشريع القرآنى

يشرع القرآن أحياناً : فى صورة مجملة – لبعض المسائل التى تتغير أساليبها بتغير الزمن ويترك للمجتمع تحديد الأساليب والطرق التى تناسب الحالة التى عليها المجتمع والتى تحقق الفائدة من التشريع ، وذلك كما فعل فى الشورى مثلا ، فقد أمر بها الله سبحانه ، ثم ترك سياستها وكيفية تحقيقها لتؤدى الهدف منها إلى المصلحين فى المجتمع وولاة الأمور فيه .

أما المسائل التى تكون عادة مثار نزاع فى المجتمع أو بين أفراد الأسرة الواحدة فإن القرآن قد فصلها تفصيلا ، ووضحها سافرة لا لبس فيها وذلك كالميراث مثلا :

لقد بين القرآن الأنصبة محددة فى مختلف الحالات والظروف ، فأبان نصيب الزوجة مثلا حينما

يكون للمتوفى أولاد ، ونصيبه حينما لا يكون له أولاد ، والأم والبنت ، والأخت وهكذا .

وهذا معلوماً من الدين بالضرورة . فمن جحده إنكاراً ، أو جحده غير معترف بعدالته ، أو جحده مفضلا غيره من التشريعات عليه ، فإنه يكون بذلك قد خرج من الملة الإسلامية .

والواقع أن الانحراف فى موضوع الإرث يأتى من طائفتين :

طائفة المتفرنجين الذين يريدون أن يسووا بين الرجل والمرأة فى الميراث ويعتبرون أنفسهم من المجددين المتطورين ، وهم بهذا يعتبرون أنفسهم أحكم من الله سبحانه ، وأحكم تشريعاً منه وهم بهذا خارجون على الإسلام وعلى رب الإسلام .

والطائفة الثانية : هى طائفة العقليات والمنازع الجاهلية التى وصل بها احتقار المرأة أن كانت تدفنها حية فى العصر الجاهلى .

إن هذه العقليات الجاهلية لم تمت بعد ، إذ لا يزال أثرها حيًّا للآن برغم تحطيم الإسلام لها وإنكاره عليها وهدمه لمبادئها ، إنها لا تزال حية فى نفوس الذين لم تتشبع نفوسهم بروح الإيمان والذين لم يغمرهم نور الإسلام ، ولقد صور القرآن موقف هذه العقليات بالنسبة للمرأة أبلغ تصوير فى قوله تعالى :

(وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودًّا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به أيمسكه على هون أم يدسّه فى التراب ألا ساء ما يحكمون) .

وهؤلاء يجحدون كل حق للمرأة ويحرمونها من الميراث برغم وضوح حكم الله سبحانه وتعالى فى وجوب إعطائها حقّها وهم بذلك خارجون على الإسلام وعلى رب الإسلام .

وسواء كنا بصدد المتفرنجين أو بصدد العقليات الجاهلية فإن الواجب أن يخضع الإنسان لحكم الله أحكم الحاكمين ، وأن يوقن بأن كل خروج عليه إنما هو اتباع للهوى وسير وراء نزعات الشيطان .

وإن القرآن ليصف أمثال هؤلاء الذين يخرجون على قوانين الله سبحانه ، بأنهم كافرون وبأنهم ظالمون ، وبأنهم فاسقون . وقانا الله السوء وهدانا لاَتباع أوامره واجتناب نواهيه .

فى حكم النسخ فى القرآن

يقول الشيخ جمال الدين القاسمى :

قد تقرر أن النسخ فى الشرائع جائز ، موافق للحكمة وواقع : فإن شرع موسى نسخ بعض الأحكام التى كان عليها إبراهيم ، وشرع عيسى نسخ بعض أحكام التوراة ، وشريعة الإسلام نسخت جميع الشرائع السابقة لأن الأحكام العملية التى تقبل النسخ إنما تشرع لمصلحة البشر ، والمصلحة تختلف باختلاف الزمان ، فالحكيم العليم شرّع لكل زمن ما يناسبه .

ولقد فسر صاحب كتاب محاسن التأويل فى تفسير القرآن قول الله تعالى :

(ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) بقوله :

ما نبدل من آية بغيرها كنسخنا آيات التوراة بآيات القرآن (أو ننسها) أى نذهبها من القلوب كما أخبر بقوله : (ونسوا حظا مما ذُكِّروا به) (نأت بخير منها)

وعلى النسق فى تفسير هذه الآية سار الشيخ محمد عبده ، وكثير من رجال الفكر فى العصر الحاضر وهم يرون أن نسخ القرآن بالقرآن لم يحدث ، ويتابعون فى ذلك أبا مسلم بن بحر الأصفهانى المفسر الشهير الذى يقول :

ليس فى القرآن آية منسوخة ، ويشرح كل ما قالوا إنه منسوخ على وجه من التخصيص أو التأويل .

وهذا الرأى الذى نراه ، وعلى ذلك فإن من ينكر النسخ فى القرآن الكريم لا يكون كافراً ، والرأى المشهور لدى المسلمين إنما استند على الخصوص إلى آية النسخ فى القرآن الكريم ، وهى آية يمكن أن تفسر بنسخ الشرائع لا بنسخ آيات القرآن بعضها لبعض .

فى الذين قاموا بتشكيل القرآن الكريم بعد النبى ﷺ

نزل القرآن على الرسول ﷺ بلسان عربى مبين ، وكان الرسول ﷺ يقرؤه كما أنزل عليه وكما سمعه من جبريل ويسمعه الصحابة منه ، فيحفظونه كما سمعوه . وهم بسليقتهم العربية لا يلحنون .

ولما اتسعت الفتوح الإسلامية ودخل فى دين الله غير العرب واختلطت اللغة وبدأ اللحن فى الكلام العربى أمر الحجاج بتشكيل القرآن خوفاً من اللحن . فالحجاج فى عهد بنى أمية هو أول من

أمر بتشكيل القرآن ونقطه ، ومن الروايات المشهورة أن أول من قام بتشكيل القرآن ونقطه إنما هو أبو الأسود الدؤلى بأمر عبد الملك بن مروان ، وقد ذكر الإمام السيوطى رواية تقول : إن من الذين اشتركوا فى نقط المصحف وشكله الحسن البصرى ويحيى بن يَعْمُرُ .

فى الحافظون لحدود الله

الحفاظ على حدود الله سبحانه : هو الالتزام الكامل بأداء ما أوجبه الله على خلقه والعمل بمقتضاه أمراًكان أو نهياً يقوم بتلك أفراد الأمة : حكاماً ومحكومين إذكل راع مسئول عن رعيته .

وحدود الله تبدو فى ظاهرها عبارة عامة لكنها مع ذلك ذات مفهوم محدود ، جوهره الالتزام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويرسم الله سبحانه وتعالى صورة من الصور لهذه الحدود أو بعضها فى أول سورة : النساء : فمطلعها أمر بالتقوى : (يأيُها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة)... ثم بعد ذلك أمر آخر. يقول الله : (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم . . .) ثم هناك أحكام أخرى .

يقول تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفاً)

ثم يقول : (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا) .

ثم بين سبحانه أحكاماً فى القسمة والميراث يقول تعالى : (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) .

وقوله : (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين . . .) إلخ الآيات . ثم أشار سبحانه إلى كل ذلك بقوله سبحانه (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم) .

وتضمنت هذه الآية جزاء الحافظين لحدود الله ، أما العصاة الذين تعدوا الحدود وطغوا وبغوا فجزاؤهم فى الآية التالية مباشرة .

(ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين)

إنه الجزاء الوفاق للحافظين لحدود الله والمعتدين لها .

فى دعاء الصالحين

بظهر الغيب

روى مسلم عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك ولك بمثل :

وروى مسلم أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يقول : دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل :

بل إن نفس الرسول ﷺ صح عنه أنه طلب من عمر رضى الله عنه أن يشركه فى الدعاء فقرت بذلك عين عمر.

وغير ذلك كثير من الآيات والأحاديث ، إذن دعاء الصالحين نافع سواء كان ذلك الدعاء من الأفضل للفاضل كما حصل من الأنبياء لغيرهم أوكان من المفضول للأفضل كما حصل من عمر للنبى ﷺ ، وكما حصل من المؤمنين الذين حكى عنهم ذلك فى سورة الحشر (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) فدعاء الصالحين مستجاب وبركة .

وأما وجودهم والجلوس معهم فنافع وبركة ، والأدلة على ذلك لا تحصى ولا تعد من الكتاب والسنة والحوادث .

فى الفرق بين العزم والهم

العزم هو : توطيد النفس على المعصية والقصد إليها بالقلب والشعور . والهم : إمرار فكرة المعصية بالفكر من غير استقرار.

وفى الحديث الصحيح : عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : قال : إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك . . فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة .

وعلى هذا : فمن دارت المعصية بخاطره دون عزم عازم ورغبة أكيدة فلم يعملها خوفاً من الله وإيثاراً للصواب كتب له حسنة لأنه جاهد نفسه فتغلب على الشر فيها . .

ومن عزم عليها وتأكدت رغبته فيها كتبت عليه سيئة ، فإن لم يعملها وتغلبت مجاهدته كتبت له حسنة . .

ومن المعلوم أن من عزم على المعصية فمنعه منها مانع من غير نفسه كخوف فضيحة أو عقوبة قانون ، أو ما إلى ذلك لا حسنة له ، وعليه إثم نيته التى نواها . . .

فى التخلق بأخلاق الله الجمالية

يقول الله تعالى : للملائكته (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ولقد استحق خلافة الله فى الأرض لأن الله سبحانه خلقه وفيه الاستعداد للتخلق بأخلاق الجمال التى لله سبحانه ، ومن المعروف أنه مطلوب من كل شخص أن يتخلق بأخلاق الجمال التى لله سبحانه وتعالى ، فالله مثلا سمى نفسه الرحمٰن ، بل جعل هذه الصفة تالية للاسم الكريم ، أعنى اسم (الله) فقال سبحانه : (قل ادعو الله أو ادعو الرحمٰن) .

ومطلوب من الإنسان أن يكون رحيماً ولقد هيئ لأن يكون رحيماً إذا شاء ، والله سبحانه كريم ومطلوب من الإنسان أن يكون كريماً وفيه الاستعداد لأن يكون كريماً ، وهكذا خلق الله الإنسان مستعدًّا للرحمة والكرم والمغفرة والعفو والسلام والعلم والسمع والبصر وغير ذلك من صفاته سبحانه وتعالى ، والله سبحانه خالق ومصور ومبدع وفى مقابل ذلك بالنسبة للإنسان العمل والكدح فى الأرض التى جعلها الله ذلولا له ، وسخرها له ، بل سخر الكون كله من سمائه وأرضه وما بينهما ليستخدم كل ذلك بالعلم والعمل ، واستحق الإنسان خلافة الله فى الأرض إذن بهذه الصفات الخيّرة وبالعمل المتواصل .

أما إذا لم يكن كذلك بأن كان شرّيراً أو كان كسولا فإنه يكون قد تخلى عن الرسالة التى هيأه الله لها وهى رسالة الخلافة فلا يكون أهلا لها .

فى خلق آدم ليكون خليفة الله فى السموات والأرض

بين الله سبحانه وتعالى أنه إنما خلق آدم للأرض وذلك قبل أن يصور وينفخ فيه الروح ويبرز فى عالم الوجود فقال للملائكة :

(إنى جاعل فى الأرض خليفة)

وقد سئل الحسن رحمه الله عن : آآدم للسماء خُلق أم للأرض ؟

فقال : ما هذا ؟ للأرض خلق .

فقال السائل : أرأيت لو اعتصم ولم يأكل من الشجرة ؟

قال : للأرض خلق ، فلم يكن بد من أن يأكل منها .

ومن أجمل الآراء فى قصة آدم وأعمقها رأى الإمام أبى الحسن الشاذلى : لقد شعر أبو العباس المرسى فى يوم بضيق شديد لم يعلم له سبباً ، فذهب إلى أبى الحسن الشاذلى ، فلما رآه قال مباشرة :

آدم خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه الجنة نصف يوم خمسمائة عام ، ثم نزل به إلى الأرض ، والله ما نزل بآدم إلى الأرض لينقصه ، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله ، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله : (إنى جاعل فى الأرض خليفة)

وما قال فى الجنة ولا فى السماء ، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة ، لا نزول إهانة فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف فأنزله الله إلى الأرض ليعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة .

وأنت أيضاً لك قسط من آدم كانت بدايتك فى سماء الروح ، فى جنة المعارف ، فأنزلك الله إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة .

أما أين نزل فذلك غيب لا يتحدث عنه التاريخ الموثوق به ، وقد كان يكفى ذلك للكف عن بحث العلماء فى هذا الموضوع ولكن العلماء بحثوا فيه واختلفوا ، شأنهم فى ذلك فى بحث كل ما لم يرد فيه نص صحيح . .

فى معنى اليتيم

يقول تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . .)

واليتيم : هو : من مات أبوه وهو دون البلوغ ذكراً كان أو أنثى ، لأنه فى حاجة إلى العطف والرعاية .

أما بعد البلوغ فيكون قد زال عنه هذا الاسم ، لأنه قوى واشتد هذا هو اليتيم بوجه عام .

أما اليتيم الذى يستحق الصدقة فهو اليتيم الفقير الذى لا مال له من ميراث ، ويستوى فى ذلك الذكر والأنثى . .

فى قصة قوم تُبَّع

قوم تبع الذين جاء ذكرهم فى القرآن هم : حِمْيَر باليمن ، وقد فصل القرآن ذكرهم فى سورة سبأ ، وكانت حمير كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً ، كما يقال قيصر لمن ملك الروم ، وكسرى لمن ملك الفرس ، وفرعون لمن ملك مصر ، والنجاشى لمن ملك الحبشة ، وغير ذلك من أعلام الأجناس .

وتُبَّع هذا المذكور فى الآية : كان رجلاً صالحاً خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند واشتد ملكه واتسعت مملكته وكثرت رعاياه ، فاتفق أن مر بالمدينة المنورة فى أيام الجاهلية فلاينه أهلها بأن حاربوه فى النهار وجعلوا يقدمون له الزاد بالليل فاستحيا منهم وكف عنهم .

ولما مر بالكعبة أراد هدمها فلما أخبر بما لها من حرمة تركها وكساها كسوة حسنة وقد اعتنق اليهودية دين موسى عليه السلام قبل ظهور المسيح وتابعه قومه فى ذلك حتى إذا مات عادوا بعده إلى عبادة النيران والأصنام وكان ما كان مما قصه الله تعالى عن أهل سبأ وتبدل خيراتهم إلى نقم . .

أخرج الحاكم عن عائشة قالت : كان تُبَّع رجلا صالحاً ألا ترى أن الله تعالى ذم قومه ولم يذمه .

وروى أحمد بسنده عن سهل بن سعد عن الرسول ﷺ قال :

« لا تسبوا تُبَّعاً فإنه كان قد أسلم « أى أسلم وجهه لله ولم يشرك به شيئاً من خلقه »

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى اضطراب الأخبار فى شأن تُبَّع حيث لم ترد تفصيلاتها عن طريق موثوق يعتدّ به ، ولم تثبت الكشوف التاريخية الصحيحة شيئاً مهمًّا فى هذا المجال .

وكل ما يجب علينا أن نؤمن به هو صلاح هذا الرجل وفساد قومه كما بينته عائشة رضى الله عنها .

فى حكم قراءة القرآن على الأموات

قراءة القرآن على الأموات ليست واجبة إلا فى صلاة الجنازة فقط ؛ أما عند القبر فقد استحبها عبد الله بن سيدنا عمر رضى الله عنهما بعد الدفن مباشرة ، واستحبها الشافعى كذلك ، فقد ورد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : أحب أن يقرأ عند القبر بعد الدفن أول سورة البقرة وخواتيمها ، وقال الإمام الشافعى : أحب أن يقرأ عند الميت بعد الدفن ختمة كاملة .

وذلك لما يرجى من تنزل رحمة الله فى المكان الذى يتلى فيه كتابه وهذه الرحمة يستفيد بها الأحياء والأموات .

وإذا ترك المسلم قراءة القرآن على الأموات فليس عليه عقوبة ، وقد كان النبى ﷺ يزور المقابر كثيرًا ويسأل الله تعالى لأهلها الرحمة والعافية ، والدعاء للأموات مستحب سواء زرت المقابر أم لم تزر تأسياً برسول الله والخليل إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فقد أمر الله نبيه محمدا ﷺ بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات .

ولقد دعا لهم سيدنا إبراهيم بالمغفرة كما حكى الله عنه بقوله .

(ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) .

فى تفسير أوائل السور

الحروف التى بدئت بها سور القرآن مثل (آلم) و (آلر) و (طسم) و (حم) (ص) قيل إنها أسماء للسور التى بدئت بها ، وقيل إنها أقسام أقسم الله بها على أن ما اشتملت عليه السور التى بدئت بها حق لا ريب فيه ، وقيل إنها أسماء لله تعالى وقيل إنها نزلت للتحدى بها ، وإن القرآن الكريم مؤلف من مثل الحروف التى يؤلفون منها كلامهم . وإن على الذين ينكرون أنه من عند الله أن يأتوا بمثله والله أعلم بمراده .

آراء فى فواتح السور

منها : أنها أسماء للسور المبدوء بها ، فـ (طس) اسم للسورة المبدوء بها ، وكذلك (حم) ونحوها ، غير أن بعض هذه الأسماء مشترك من عدة سور مثل (حم) و (آلم) و (آلر) . . .

ومثل هذه يكون التمييز فيها بمشخصات كأن يقال : حمٓ ، الأحقاف ، أوحمٓ فُصِّلت ، وهكذا .

وقيل : إنها أسماء للحروف الهجائية التى وضعت بإزائها والغرض منها إفهام المخاطبين أن ما يتلى عليهم من الكلام إنما تركب من الحروف التى يتخاطبون بها ويتداولونها ، وإما لإظهار شرفها وفضلها إذ هى مبنى كتبه المنزلة .

وموقف المؤمن من أمثال ذلك ينبغى أن يكون موقف الراسخين فى العلم الذين يقولون (آمنا به كلٌّ من عند ربنا) .

فى مكانة الأنبياء

إنها فرصة طيبة للحديث فى المسائل التى تتعلق بأنبياء الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين :

والمبدأ الأول : هو أن الأنبياء معصومون فقد اصطفاهم الله سبحانه قبل ميلادهم ، وتخيرلهم الآباء والأجداد والأمهات والجدات لقد اختار لهم الأسر ، المنبت وانظر إلى القرآن الكريم يقول عن عيسى عليه السلام قبل ميلاده .

(ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيّا)

لقد كان أمراً مقضيًّا قبل ميلاده .

وتكفل الله بهم بعد ميلادهم ، إنه سبحانه يصطفيهم لنفسه ويربيهم على عينه ويبعد عنهم كل أذى ويبعدهم عما يشين ويعصمهم عن كبريات السيئات قبل بعثتهم ويعصمهم عن كبيرها وصغيرها بعد بعثتهم .

تلك هى العقيدة الإسلامية الصحيحة وعلى ضوئها يجب أن يسير المفسر ، وعند حدودها يجب أن يقف ، وعلى هذا فإن الأمر فى الآية ظاهر :

لقد اختصم اثنان من بنى البشر كما يختصمون كل يوم فى هذا الأمر أو ذاك فذهبا إلى داود عليه السلام يعتقد الظالم أنه بلسانه الطلق ، وذكائه القوى يستطيع أن يلبس على داود عليه السلام فيبدى الباطل فى صورة الحق ويظهر الظلم فى صورة العدالة ويعتقد المظلوم أن حقه واضح برغم كل ما يزيفه خصمه ، لقد كان النزاع على غنم ، والنعاج هى الإناث من الضأن ولا مجال لغير ذلك ولا يتأتى أن نصرف اللفظ إلى غير معناه .

وحكم بينهم داود عليه السلام قائلا : (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) ، ثم بين

الطبائع البشرية فقال : (وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض) ، ثم استثنى طائفة قليلة حددها بقوله : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) ، ولكن ثم تُختم الآية بقوله تعالى : (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه ، وخرَّ راكعاً وأناب) وما هى الفتنة التى ظن داود عليه السلام أن الله فتنه بها ؟

والفتنة هى الملك ، وهى هذه السعة من السلطان والجاه والسيادة يقول تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

وهل يسير بعض المفسرين على هذا النسق ؟

نعم : إن المحققين من المفسرين يرون هذا الرأى وعلى رأسهم القاضى عياض ، والإمام ابن كثير الذى يقول : قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات لم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه .

فى تفسير الربع الثانى : من الجزء الأول من سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يُضِلُّ به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يُضِلُّ به إلاَّ الفاسقين (٢٦) الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصل ويُفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون (٢٧) كيف تكفرون بالله وكُنْتُم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون (٢٨) هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سموات ، وهو بكل شىء عليم (٢٩) وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون (٣٠) وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (٣١) قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم (٣٢) قال يآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألمْ أَقُلْ لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وماكنتم تكتمون (٣٣) وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكٰفرين (٣٤) وقلنا يآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها

رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (٣٥) فأزلّهما الشيطانُ عنها فأخرجهما مماكانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين (٣٦) فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم (٣٧) قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم منى هُدى فمن تبع هُداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٣٨) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خلدون (٣٩) يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمتُ عليكم وأوْفوا بعهدى أُوفِ بعهدكم وإياى فارهبون (٤٠) وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإيّاى فاتقون (٤١) ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون (٤٢) وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين .)

إن التفسير لكل ربع من القرآن الكريم ، فى مجال التحريك والتحرك بالقرآن العظيم ينبغى أن يرسم صورة متكاملة . . لأن كل ربع فى تقسيم القرآن ، إنما يعطى معنى من المعانى التى تكتمل بها الصورة فى كل سورة .

وهذا الربع الثانى من سورة البقرة يبدأ بداية مثيرة ، إلا أنها مرتبطة بالموضوع الرئيسى الذى يتناوله هذا الربع . وأعنى بذلك تحديد علاقة الإنسان بربه وبقصة بدء الخليقة فى ذلك الحوار القدسى بين الله سبحانه وتعالى والملائكة ثم بينه جلت حكمته وبين آدم عليه السلام وإبليس . . لقد علم الله سبحانه آدم عليه السلام الأسماء كلها وهيأه بذلك ليكون خليفة الله فى أرضه لكى يعرف ابتداء مصادر العلم ومبادئ الانطلاق بهذا العلم . . وبعد أن وقف آدم على هذه الأسرار وتلك المداخل أصبح مهيئاً للخلافة وحينما اجتاز آدم الاختبار طلب الله من الملائكة أن تسجد لآدم .

وينتهى الأمر بما تشرحه الآيات تفصيلا من موقف إبليس الذى وصفه الله بالكفر والعصيان ولكن آدم عصى أمر ربه – لقدر وتقدير – تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، وهنا الفرق الكبير والبون الواسع بين آدم الذى تاب فتاب الله عليه ، وبين إبليس الذى عصى ولم يستغفر ولم يتب وإنما استمر فى كفره وعصيانه .

والغريب أن هذا الربع يبدأ باستهلال غريب ، أخّاذ يثير التساؤل ولكن حينما تربطه بمحتوى ما جاء به الربع تكتمل فى أذهاننا الحكمة من أن يورد سبحانه هذه الآيات فى مدخل هذا الربع . إنه تعالى يزيد أن يوضح مسبقاً أن الكافرين سوف يشككون ويتذبذبون ولن يقروا أو يسلموا ، وأنهم سينتقدون أى شىء حتى فى هذا الأمر البسيط – ضرب المثل بالبعوضة – وهو لا يعدو أن يكون سبيلا وأسلوبا من الله عز وجل لتبسيط الأمر بتلك الأمثال ليقربها إلى عقل الإنسان وإدراكه

وحسه ، ويقرر سبحانه بوضوح وجلاء أن المؤمنين يعلمون أنه الحق من ربهم حتى ولو كان الأمر مثل بعوضة فما فوقها . (أما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين) والأوصاف المباشرة لهؤلاء الفاسقين فى هذا الموقع هى :

١ – ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه .

٢ – يقطعون ما أمر الله به أن يُوصل .

٣ – يفسدون فى الأرض .

وبعد هذه المقدمة الأخّاذة والمثيرة يبين الله لنا أن المؤمن وهو الذى يعلم أنه الحق – يصبح مطمئنا لأمر الله وحكمه ، واثقاً فى الكلام المنزل من عند ربه . فمن مقومات الإيمان الأولى ما توضحه الآية (والذين آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) زالت من قلوبهم الريبة والشك . أما الذين كفروا فهم فى ريب دائم وتشكك مستمر ، فإذا كان أمر التشكيك يصل إلى هذا المثل (البعوضة) فما بالنا بقضية الخلق . . ولهذا فإن الله سبحانه يسأل هذا السؤال الذى يتضمن الدهشة والاستغراب وعدم تصور التصديق حينما يسأل (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سمٰوات وهو بكل شىء عليم) وأظهر سبحانه وتعالى صفة العلم عند المدخل إلى بدء الخليقة .

وهكذا نرى ونتعلم أن الله سبحانه وهو يبنى الإنسان من خلال الآيات كان لابد أن يبدأ بعد تعريف الإنسان بأنواع الناس الذين سيلتقى بهم مسار القرآن – كان لابد أن ينتقل إلى تحديد علاقة الإنسان بخالقه منذ بدء الخليقة لكى يعرف كل إنسان قدره ومكانته فليس آدم عليه السلام فى ذلك إلا كل إنسان ، ومن يستشعر هذا المعنى لابد أن يستشعر مدى تكريم الله لشخصه وما ميزه به من علم استوجب سجود الملائكة لآدم . . فإذا كان التصرف على مستوى هذا التكريم يتكافأ مع هذا العلم الذى علمه ربه إيّاه استطاع الإنسان أن يعرف فضل الله عليه وتكريمه إيّاه .

وكما حرص الربع الأول على تحديد وتعريف أنواع الناس الذين سيجرى التعامل معهم فإن الربع الثانى حريص على تحديد علاقة الإنسان أولا بخالقه ثم بالملائكة قبل أن يدخل مع القرآن – فى الرسالات . . ينبغى أن تكون هذه العلاقة واضحة ومستقرة رحمة بالإنسان عندما يعرف مصادر القوة ، ويعرف مصادر العلم ، ويعرف مصادر السلطة ومِمَّنْ يستمد الإنسان كل هذه المساندة . فمن أكبر النعم التى تفضل الله بها على الإنسان أن يشمله برحمته ، وأن يزوده بعلمه وأن يسخر له ما فى الأرض جميعاً وميزة العلم فى حد ذاتها من أكبر الدعامات لتحقيق الرحمة للفرد فى تنمية

هذا العلم الذى وضع الله به آدم عند نقطة أساس يمكن أن ينطلق منها إلى منابع الغيب بلا قيد وبلا حد فى نطاق ما يأذن به رب هذا الوجود ، فالحوار يؤكد كرامة الإنسان ويؤكد دور الإنسان فى عمارة الكون ومسئوليته عن هذا العلم الذى أودعه الله فيه والفتوى يشار إليها بأنه علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

وهنا يضاف إلى العلم الحكمة . وقد يعطى لنا العلم ولكن الحكمة هى التدبير المحكم وهى صنعة الله ، وإن الذين يشقون فى هذه الحياة هم الذين يريدون أن يعرفوا الحكمة وراء كل شىء ومن وراء كل تدبير ، لأنهم يعيشون فى الظاهر وسبحانه الأول والآخر والظاهر والباطن ، فمهما كان مقدار علمك فإنه فوق كل ذى علم عليم ، إن الله لا يجب أن يسأل لماذا ولا كيف . . أما إذا تفضل الله على عبد من عباده فآتاه الحكمة فما لا شك فيه أنه قد أُوتى خيراً كثيراً وينتهى الحوار بالكلمة الفاصلة التى يجب أن ينتهى إليها كل إنسان حتى لا يتعب .

(قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) .

وبهذا تحدد الموقف ليلتزم كل امرئ حدّه ومكانه من هذه القاعدة الكلية رحمة به حتى لا يضل ، ورحمة بالمجتمع حتى لا يضيع ، ورحمة بالبشرية حتى تهتدى إلى الصراط المستقيم .

إن كل تشريف لا يتم إلا بقدر ما يؤدى المقابل له من تكاليف ، فما استحق آدم سجود الملائكة إلا بعد أمرين :

العلم ، ثم اجتياز الاختبار بنجاح :

وهنا أصبح مُعدًّا لمباشرة الخلافة بكل ما عليها وبكل مالها ، وطالما أن هناك مسئولية فلابد أن تتأكد المسئولية بالتزام الأوامر ، والانتهاء من النواهى ، وإلا كيف يبنى الالتزام ؟ وهنا أيضاً يطلب من الملائكة السجود فتسجد ويمتنع إبليس الذى أبَى واستكبر وكان من الكافرين .

(وقلنا يآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين)

فطالما هناك تكليف . كان هناك التزام أوامر وهناك نواه . . وبهذا يكون التكريم عليه أعباء والتزامات إذا أديت كان التكريم هو الجزاء وإذا لم تُؤدّ ينتهى بنا الأمر إلى ما تعرّض له الربع الأول فى شأن الكافرين والمنافقين .

وكانت أول تجربة لآدم يخرج فيها عن أمر ربه لنعرف أن الخطأ جائز وممكن إلا أن يكون تحديًا

وأن الله تواب رحيم . . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، وبعد أن أمره الله بالهبوط إلى الأرض كفل له الرزق والاستقرار إلى حين لقائه سبحانه وتعالى :

(قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هُدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) تأكيد جديد لما جاء فى الفاتحة بأن هناك رسالات وهناك رسلا ستأتى سيتبعهم من أنعم الله عليهم وسيعصاهم من غضب الله عليهم . وسينحرف بها من ضل عن الطريق ، أى أننا على مسار قراءة القرآن سنرى أمثلة لمن أنعم الله عليهم وأمثلة لمن غضب الله عليهم . . ومن حادوا عن الصراط المستقيم وكيف كان عملهم وكيف كان جزاؤهم فنتعلم من هذه العظة ونتدارك أنفسنا بالخير والعمل الصالح ، وننتهى عند آية مخالفة الله عز وجل ثم ينبه إلى الذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون توضيحا للجزاء فى لقاء المخالفة وفتحاً لباب التوبة كما كانت توبته على آدم بعد هبوطه تبياناً كاملاً لأساس التصرف بين الإنسان وربه وبين الإنسان والملائكة تعريفاً بإبليس ومن يمثلونه على الأرض حتى نتقى الوقوع فى حبائلهم ، وينتهى هذا الربع بالكلام ولأول مرة عن بنى إسرائيل وذلك بمزيد من التفصيل بالنسبة للذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم بالنسبة لبنى إسرائيل فى مجال إعداد المسلم الذى يسعى القرآن لبنائه ينتهى هذا الربع بتحصين المسلم فى مجال بنائه وإعداده لمواجهة أنواع البشر الذين سيلتقى بهم على هذه الأرض ، ويكون من بين من يحذرنا الله منهم بنوإسرائيل وهذا التحذير يأتى من خلال خطاب موجه إليهم لعل وعسى أن يعود إليهم عقلهم ويعود إليهم إيمانهم السابق حينما فضلهم الله على العالمين فجحدوا نعمته ونقضوا عهده فيخاطبهم قائلا (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوفِ بعهدكم وإيّاى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أوّل كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا) وكأنما فى خطابه هذا لهم يوضح تصرفهم بشأن التوراة التى بدلوا فيها وعدلوا ليشتروا بها ثمناً قليلا (وإياى فارهبون) ينبههم إلى أن يرهبوه وحده ثم يشير إلى صفة تعانى منها البشرية كلها من تصرف يهود حتى إنها أصبحت علامة مميزة لهم فى مجال أخبارهم ودعايتهم ، وأعلامهم فيقول : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) . بالمعنى العام كونوا مع الناس ولا تنحرفوا كما انحرف إبليس .

النواهى :

* لا تنقض عهد الله من بعد ميثاقه .
* لا تقطع ما أمر الله به أن يوصل .
* لا تفسد فى الأرض .
* اتبع هدى الله (فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

أوامر لبنى إسرائيل وهى أوامر خاصة لها صفة العموم :

١ – اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم .

٢ – أوفوا بعهدى أوف بعهدكم .

٣ – إيّاىَ فارهبون .

٤ – (آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به) (القرآن)

٥ – (لا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون) .

٦ – (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) .

٧ – (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) .

فى تفسير قول الله تبارك وتعالى :

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين[٥٢])

فهل إبليس من الملائكة أو من الجن . . وهل هو من الشياطين .

* * *

معرفة جنس إبليس من المعتقدات التى كلفنا بها ، ومع ذلك فإن معرفة جنسه متوقفة على الخلاف فى كونه من الملائكة أوْ لا : وهو قبل معصيته لأمر الله لا يُعلم حاله بطريق ثابت ، وكل ما قيل فى ذلك فهو منسوب إلى بعض الصحابة ، أما بعد الإخبار بمعصيته ففى معرفة جنسه رأيان :

الرأى الأول : أنه من الملائكة . واستدل أصحاب هذا الرأى بأدلة منها :

(١) ظاهر الاستثناء فى قوله تعالى : (فسجدوا إلا إبليس) وهو استثناء متصل يدل على أنه من الملائكة .

---

(٥٢) سورة البقرة آية (٣٤)

(ب) أنه لو لم يكن من الملائكة لما كان أمر الله لهم بالسجود متناولا له ، ولو لم يكن متناولا له استحال أن يكون تركه للسجود إباء معصية ، ولما استحق العذاب ، وحيث حصل ذلك عامًّا بأن الخطاب بالسجود يتناوله فهو من الملائكة .

والرأى الثانى : أنه ليس من الملائكة واستدل أصحاب هذا الرأى بأدلة منها .

(ا) قوله تعالى : فى سورة الكهف إلا إبليس كان من الجن .

(ب) إن الملائكة معصومون من المعصية لقوله تعالى : (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وإبليس عصى واستكبر عن السجود فهو ليس من الملائكة .

وأدلة الطرفين متناقضة فلا يمكن الأخذ برأى فى هذا الموضوع ولهذا قيل : إن إبليس ليس من الملائكة ولا من الجن بل هو خلق مفرد خُلِقَ من نار ، وإبليس يطلق عليه شيطان ، لأن الشياطين هم شرار الجن – فإن منهم أخياراً ، كما يطلق لفظ الشيطان على من تمرد من الإنس والجن والدواب ، وإذا أردت تفصيلا أوضح فارجع إلى كتاب « آكام المرجان » للمحدث الشبلى ولمجلة الأزهر مجلد ٨ ص ٥٦٦ وما بعدها .

فى تفسير قول الله تعالى :

(يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين)[٥٣] سورة البقرة آية : ٤٧

* * *

ليس فى القرآن آية تدل على تفضيل بنى إسرائيل على كل العالمين فى جميع العصور وإنما فيه فى سورة البقرة ما يدل على أنهم أفضل عالمى زمانهم ، فقد كانوا مؤمنين بالله ربهم وبأنبيائهم فى وقت كفر الناس فيه بربهم فعوقبوا بعقوبات رادعة من إرسال الجراد على محاصيلهم الزراعية ، وإرسال الضفادع إليهم فأقضت مضاجعهم وحلت بأطعمتهم ، وسال الدم من أجسامهم لابتلائهم بأمراض الحساسية وكانت نهايتهم أن غرقوا فى البحر ونجا موسى عليه السلام ومن معه .

والآيات التى وردت بتفضيل بنى إسرائيل على عالمى زمانهم آيات بسورة البقرة منها : (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين) .

وبنو إسرائيل الذين لم يؤمنوا بعيسى ومحمد عليهما الصلاةُ والسلام من الخاسرين وليسوا بمساوين لأحد من المسلمين لقول الله تعالى :

(٥٣) سورة البقرة – آية (٤٧)

(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)

فى تفسير قوله تعالى :

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[٥٤] .

* * *

ليس الإيمان بالله واليوم الآخر ممازجاً للنصرانية واليهودية ودين الصابئة على أوضاعها الحاضرة أو المحرفة عما جاء به الأنبياء والمرسلون ولا تدل الآية على شىء من ذلك ، والذى تدل عليه أن المرء على أى دين كان فجاءه دين الله غير محرف على يد الداعى إلى الحق فاتبعه نجا وفاز أو أن الذى كان عليها كما جاء بها أنبياؤهم دون تغيير قبل التعقيب برسالة أخرى كان على الدين الحق ، والصابئة قوم زعموا أنهم .

على دين نوح وقيل يؤمنون بطائفة من الأنبياء ويعظمون الأحد ويعملون بالمعمودية والاعتراف .

فى قول الله تعالى :

(قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين)[٥٥]

* * *

ادعى اليهود أن الدار الآخرة خالصة لهم دون الناس وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن غيرهم من الناس ليس لهم فى الآخرة نصيب من الخير .

فبين الله سبحانه بالدليل العملى كذب اليهود وافتراءهم حيث طالبهم بتمنى الموت والرغبة فيه ولو تمنوه لوقع بهم .

والواقع أن الآية تشتمل على تحقيق الحق بين المسلمين واليهود ، لقد ادعى اليهود ما ادعوا من الميزات فى الآخرة فأمر الله رسوله أن يساجلهم وأن يقول لهم أنتم تقولون ذلك ، وأنا أقول إنه كذب فقالوا نتباهل أى نقول لعنة الله على الكاذب والموت المحقق لمن يدعى خلاف الحق ، فدعاهم ﷺ إلى ذلك فأبوا ولو أجابوه لنزل بهم الموت ولشرق أحدهم بريقه .

وهكذا تبين كذب اليهود فى دعواهم بهذا التحدى وظهر الحق من عند الله .

---

(٥٤) سورة البقرة – آية (٦٢) .

(٥٥) سورة البقرة (٩٤) .

فى تفسير قوله تعالى :

(فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون)[٥٦] .

* * *

معنى الآية الكريمة : أن مَن ذكر الله بالقلب كالتفكر فى الدلائل الإلٰهية ومظاهر الكمال الربانى فى هذا الخلق البديع ، والتنظيم الذى يجبر المتشككين على الإذعان والتسليم ويزيد المهتدين هدى .

ومَنْ ذكر الله باللسان بألوان الذكر الواردة من التسبيح والتهليل والتقديس والصلاة على الرسول ﷺ .

ومَنْ ذكر الله بالجوارح بأداء أمر ربه والابتعاد عما نهى عنه صادراً فى ذلك عن قلب حى وشعور يقظ .

أثابه الله تعالى برفع درجاته وتحسين مكانته ، وما إلى ذلك من المنازل العالية التى لا تحدها حدود ولا تحصرها قيود وعبر عن ذلك بالذكر لأن من يذكر شيئاً يعرف حقه ويدرك ما له وما عليه . وعلى ذلك فعلى الإنسان دائماً – خاصة المسلم أن يذكر الله على كل حال وفى أى وقت لئلا يُحْرم من فضل الله .

ففى الآية حث على الذكر ودعوة إليه لما ذكرناه .

وبعد الأمر بالذكر وبيان فائدته جاء الأمر بالشكر ، وقدم الأمر بالذكر على الأمر بالشكر لأن الذاكر مشتغل بالله تعالى والشاكر مشتغل بالنعمة والاشتغال بالله أولى من الاشتغال بالنعم .

ومن لا يشكر الله كافر بنعمه ونعم الله كثيرة . . إنها لا تحصى : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ومن داوم على شكر الله زاده سبحانه من نعمه .

(لئن شكرتم لأزيدنكم) .

والذاكر الشاكر راض وهو بذلك سعيد فى دنياه حتى إذا لقى الله سبحانه فرح بلقاء ربه .

فى حياة الشهداء فى سبيل الله

حياة الشهداء ، حياة أرواح فقط ، إلا أنها أرقى من حياة غيرها بدليل قول النبى ﷺ أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر فى رياض الجنة ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش .

---

(٥٦) سورة البقرة – آية (١٥٢) .

غير أن الآية الكريمة تنص بدلالة اللفظ على أنه لا ينبغي لأحد أن يقول فى الشهداء إنهم أموات بدليل قوله تعالى : (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاّ تشعرون[٥٧] .

وللشهداء خاصية أخرى بالنسبة لأجسادهم ، فإنها تبقى بحالها حتى تبعث أرواح أصحابها متصلة بها .

تلك الخاصية ليست لأحد سواهم إلا الأنبياء الصديقين والعلماء العاملين ، وبالاستقراء وجد أجسام كثير من المشهود لهم بالصلاح والتُّقى باقية فى قبورها بحالها لم يصبها شىء من البلى .

فى تفسير قول الله تعالى :

(قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)[٥٨] ،

وفى قول الله تعالى : (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشدُّ من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين)[٥٩] .

قال الله تعالى : فى سورة البقرة فى الحث على الجهاد : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل) .

وقال فى آية أخرى : (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ، وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل) .

* * *

والمعنى : روى أنه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش على سرية فى جمادى الآخرة ليترصّد عيراً لقريش فيهم عمرو بن الحضرمى وثلاثة معهم فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وكان ذلك فى غرة رجب وهم يظنونه جمادى . فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام الذى آمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس إلى معاشهم فسفك فيه الدماء وأخذ الأسارى ، فشق ذلك على أصحاب السرية فنزلت الآية : والمعنى أنهم يستعظمون القتال فى الشهر الحرام ، وما فعلوه من الصد عن سبيل الله والكفر به وبالمسجد الحرام وإخراج المسلمين من ديارهم أكبر من القتال فى

---

(٥٧) سورة البقرة – آية (١٥٤) .

(٥٨) سورة البقرة – آية (١٩٠) .

(٥٩) سورة البقرة – آية (١٩١) .

الشهر الحرام ، والأفظع منه فتنة المسلمين عن دينهم والشرك فى الحرم أشدّ قبحاً فلا تبالوا أيها المسلمون بقتالهم فى أى مكان وأى زمان .

والذى يرى المنكر يرتكب يجب عليه أن يغيره بأى نوع من أنواع التغيير . ولا يسكت عنه ، فمن وصايا لقمان لابنه : (يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) .

وحديث الرسول ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

فى تفسير قول الله تعالى :

(أحل لكم ليلة الصيام الرفثُ إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) . إلى آخر الآية [٦٠] .

* * *

أما قوله تعالى : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) فإنه نزل لإزالة لبس حدث فى أول تشريع الصيام ، وذلك أن بعض المؤمنين ظن أن اتصال الرجل بزوجه ومباشرته لها محرم ليلا ، كما هو محرم نهاراً ، فيبين الله لهم أن الرفث وهو مباشرة الرجل زوجه ليس بحرام فى ليالى رمضان ، وإن كان محرماً فى نهاره .

فى تفسير قول الله تعالى :

(ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) [٦١] .

* * *

إن هذه الآية الكريمة تتضمن دعاءً مباركاً وقد كان رسول الله ﷺ يرددها كثيراً ، روى الإمام أحمد عن عبد العزيز بن صهيب قال : سأل قتادة أنساً ، أى دعوة كان أكثر ما يدعوها النبى ﷺ ؟ قال : يقول : « اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . وكان أنس رضى الله عنه إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها :

---

(٦٠) سورة البقرة – آية (١٨٧) .

(٦١) سورة البقرة – آية (٢٠١) .

ولقد حدث عبد السلام بن شداد كما يذكر ابن كثير – قال كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم قال :

« اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

وتحدثوا ساعة حتى إذا أرادوا القيام قال يا أبا حمزة إنّ إخوانك يريدون القيام فادعوا الله لهم فقال : أتريدون أن أشقق لكم الأمور؟ إذا أتاكم الله فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله .

والحسنة فى الدنيا أوسع من أن تختص بباب من أبواب الخير دون غيره فهى شاملة لجميع أنواع الخير ، وقد جمعت كما يقول الإمام ابن كثير كل خير فى الدنيا وصرفت كل شر ، فإن الحسنة فى الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى من عافية ، ودار رحبة ، وزوجة حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع وعمل صالح ، ومركب حصين وثناء جميل ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبادات المفسرين ، ولا منافاة بينها فإنها كلّها مندرجة فى الحسنة فى الدنيا .

وأما الحسنة فى الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة ، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر فى العرضات وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة . وقبل أن نترك الكلام عن هذه الآية الكريمة نذكر ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ .

هل تدعو الله بشىء أو تسأله إياه؟ قال نعم : كنت أقول :

اللهم ماكنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا ، فقال رسول الله ﷺ :

سبحان الله ، لا تطيقه أولا تستطيعه فهلا قلت :

(ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

قال فدعا الله فشفاه . والله أعلم .

فى قوله تعالى :

(نساؤكم حرثٌ لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشّر المؤمنين)(٦٢) .

* * *

يقول الإمام السجستانى فى غريب القرآن عن هذه الآية :

(٦٢) سورة البقرة – آية (٢٢٣) .

الحرث هو إصلاح الأرض وإلقاء البذر فيها ويسمى الزرع الحرث أيضاً :

ولما كانت النساء مواضع النسل وما ينبغى فيهن من نطف الرجال فقد شبهتهن الآية الكريمة بالأرض التى هى موضع الإنبات والزرع . فنطفة الرجل التى تلقى فى الرحم فيكون منها الولد كالبذر الذى يلقى فى الأرض لإنبات الزرع . فيكون معنى الآية الكريمة : نساؤكم مواضع نسلكم كالأرض موضع حرثكم فكما تأتون أرضكم لإصلاحها ، وإلقاء البذر فيها من أى جهة شئتم فأتوا نساءكم من أى جهة شئتم ما دام الإتيان فى موضع الحرث أى « القبل » إذ هو موضع المرأة فلا حرج أن تأتيه من الأمام أو من أى جهة تشاء .

وقدموا الخير الذى أمركم الله به لأنفسكم وذلك شامل لصالح الأعمال ، قال تعالى : (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجرا) .

وقيل هو طلب الولد وقيل هو التسمية عند غشيان الزوجة ومن الأدعية المأثورة فى هذه الحالة « بسم الله اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى » ولا مانع أن يشمل ذلك كله ، واتقوا الله وخافوا ربكم وراقبوه فى جميع أحوالكم فافعلوا ما أمركم به واجتنبوا ما نهاكم عنه واعلموا أنكم مُلاقوه ، فمجازيكم على أعمالكم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره .

وبشر المؤمنين الذين يعملون خير الأعمال ويتركون قبيحها . روى أن اليهود كانوا يقولون : مَنْ جامَع امرأته من الخلف فى قبلها جاء ولدها أحول فذكر ذلك درسول الله ﷺ فقال صلوات الله وسلامه عليه كذبت اليهود ونزلت الآية :

يقول الإمام الزمخشرى فى تفسير الكشاف وقوله تعالى : (فأتوا حرثكم أنّى شئتم من الكنايات اللطيفة والتفويضات المستحسنة ، وهذه وأشباهها فى كلام الله لقوله هو أذى فاعتزلوا النساء ، وقوله فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مللها فى محاوراتهم ومكاتباتهم .

أما آية : (يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم . . . الآية (٥٨) من سورة النور فقد اشتملت على كثير من الآداب الحميدة والتوجيهات السديدة ، ومن هذه الآداب الحميدة والتوجيهات السديدة ومن هذه الآيات يجب أن يأخذ الآباء بها أولادهم الذين لم يبلغوا الحلم بعد ، كما يؤدب بها الإماء والعبيد . والاستئذان قبل الدخول فى ثلاث حالات قد يكون الإنسان فيها مكشوف العورة أو هو معرض لكشفها ، لأنه فى هذه الحالات الثلاثة غالباً ما يخلع ملابسه ويستبدل بها من الملابس أو الغطاء ما لا يؤمن معه كشف ما لا يحسن كشفه أما الإماء

أو الأطفال وهذه الأوقات الثلاثة وقت القيلولة وبعد صلاة العشاء وقبل صلاة الفجر وقد سماها القرآن عورات ثلاث ، إذ فيها يختل نظام الإنسان فى ملبسه على الوجه الذى شرحنا « بقوله تعالى : (يٰأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات) أمر الله سبحانه المؤمنين بأن يؤدبوا عبيدهم وإماءهم وكذلك أطفالهم الذين لم يبلغوا من التكليف بهذا الأدب الإسلامى الجميل ، وهو الاستئذان قبل الدخول بملبسهم ثلاث مرات فى اليوم والليلة هى : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة – أى تخلعوها فى القيلولة – ومن بعد صلاة العشاء هذه الأوقات الثلاثة لا يجوز دخول الصغار والإماء فيها إلا بعد الاستئذان لتكونوا قد سترتم فيها ما عساه أن يكون قد انكشف من عوراتكم فقبل صلاة الفجر وقت القيام من النوم وطرح الثياب التى ينام فيها ، ووقت الظهيرة تخلع الملابس للقيلولة وبعد صلاة العشاء وقت التجرد من ثياب اليقظة وارتداء ثياب النوم ، أما عدا هذه الأوقات الثلاثة فلا حرج عليكم فى أن يدخل إماؤكم وصغاركم عليكم فيها ، بلا استئذان لأنهم يطوفون عليكم لخدمتكم وتطوفون عليهم لاستخدامهم وطلب ما تحتاجون إليه منهم .

ليس عليكم جناح بعدهن أى بعد الأوقات الثلاثة المذكورة (طوافون عليكم بعضكم على بعض) أى بعضكم طائف على بعض ، فالحاجات بينكم وبينهم متداخلة والمصالح متشابكة والأمر بالاستئذان فى كل وقت يؤدى إلى الحرج (كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) أى مثل ذلك البيان والتوضيح يوضح الله لكم آياته والله عليم حكيم بأحوالكم وما يصلح أمركم ، حكيم فيما يشرعه لكم من آداب وأحكام .

روى عن مدلج بن عمرو – وكان غلاماً أنصاريا – أرسله رسول الله ﷺ وقت الظهيرة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليدعوه فدخل عليه وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه : فقال عمر : لوددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا ألاّ يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن ثم انطلق معه إلى النبى ﷺ فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية : وهى إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر رضى الله عنه وقيل نزلت فى أسماء بنت أبى مرشد قالت : إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان فى لحاف واحد – وقيل دخل عليها غلام لها كبير فى وقت كرهت دخوله فأتت رسول الله ﷺ فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون فى حال نكرهها – فنزلت الآية الكريمة :

فى تفسير قول الله تعالى :

(والذين يُتوفَّون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن

فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ، والله بما تعملون خبير[٦٣]) .

* * *

والمعنى أن الذين يموتون ويتركون زوجات لهم : يجب على الزوجات أن ينتظرن بدون تعرض للزواج ولا يصح العقد عليهن فى مدة أربعة أشهر وعشرة أيام ، فإذا انتهت تلك المدة فلا إثم ولا حرج على ولاة أمورهن فى السماح لهن بالتزين والتجمل والتعرض للزواج فى حدود ما هو معروف فى الشرع ، والله ، سبحانه وتعالى : بما تعملونه خبير ، فلا يخفى عليه شىء من التحايل فى مخالفة المعروف فى شرعه ودينه .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة ، أن عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام .

ولكن آية فى سورة الطلاق خصصت تلك الآية بغير الحامل حيث قال الله تعالى : (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) .

والمقصود من المعروف ما يقره الشرع من التزين المقبول ، فإذا تبرجت النساء أو تزين بما يخالف الشريعة الغراء أثِمْن ووجب على ولاة أمورهن منعهن .

فى تفسير قول الله تعالى :

(يٰأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلاَّ أن تُغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد[٦٤]) .

* * *

يأمر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة عباده المؤمنين بالصدقة من طيبات أموالهم ، قال حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنهما : أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه .

ونهاهم عن التصدق براذلة المال ودنيئه وهو خبيثه فإن الله طيّبٌ لا يقبل إلا طيباً .

ويقول الإمام ابن كثير : ولهذا قال : (ولا تيمموا الخبيث) أى تقصدوا الخبيث ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) أى لو أعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتغاضوا فيه فالله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون .

والهدف الذى من أجله ذكرنا هذه الآية الكريمة هو أن كثرة الثواب فى الصدقة تابعة لطيب المتصدق به وجودته فإن كانت فضلات الطعام هى الأطهر الأنفس الأجود فثوابها أكثر .

---

(٦٣) الآية (٢٣٤) من سورة البقرة .

(٦٤) الآية (٢٦٧) من سورة البقرة .

على أن كثرة الثواب فى الصدقة متعلق بأمر ثان أيضاً هو صفاء المتصدق وإخلاصه وإرادة وجه الله سبحانه فى تصدّقه .

والخلاصة أن كثرة الثواب على الطيب من الصدقة أى أن تكون المتصدَّق به طيباً فى النوع وطيباً من حيث نيّة المتصدق .

يقول الله تعالى :

(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

ويقول رسول الله ﷺ :

« إنما الأعمال بالنيّات »

فعلى قدر جودة المتصدَّق به وعلى قدر صفاء المتصدِّق يكون الثواب .

فى تفسير قول الله تعالى :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله تعالى : (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال مَن أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلْتَ واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين[٦٥]) .

ما يتعلق بالمفردات :

أحسّ عيسى : أى علم ويقول أبو منصور اللغوى : يقال أحسست بالشىء وحسست . وقول الناس فى المعلومات محسوسات خطأ . والصواب المحسّات ، فأما المحسوسات فهى المقتولات يقال حسه إذا قتله .

والأنصار : الأعوان . واستنصرهم طلب عونهم على إقامة الحق وبيان أمر الله المُوحَى به .

والحواريون : هم كما يقول الإمام ابن عباس أصفياء عيسى ، ويقول الفراء هم خواص عيسى . أما الحواريون فى اللغة فهم الذين طهروا من كل عيب .

وهؤلاء الحواريون كانوا اثنى عشر رجلا . وكانت صناعتهم صيد السمك كما يقول الإمام ابن عباس رضى الله عنهما .

لقد استجاب هؤلاء للدعوة إلى الله وقالوا فى صدق وإخلاص نحن أنصار الله . والدعوة إلى الله والاستجابة إلى هذه الدعوة معناها الإيمان الصادق بالتوحيد الخالص .

والتوحيد الخالص فى الماضى وفى الحاضر وفى كل مكان وفى كل زمان إنما هو الإيمان بأن الله .

---

(٦٥) آيتا (٥٢ ، ٥٣) من سورة آل عمران .

وحده هو المتصرّف فى الكون لا شريك له فى الذات ، ولا شريك له فى الفعل ، من خلق ورزق وإعطاء ومنع وحياة وموت .

وقد بين القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة هذه العقيدة فى استفاضة وفى دقة لا مزيد عليها .

وليس فى العالم الآن نص مقدس للأسلوب الإلٰهى يشرح الإيمان بالله كما يشرحه القرآن .

والكلمة التى تعبر عن هذا فى إحاطة شاملة وفى عمق عميق هى كلمة الإسلام . ومن أجل ذلك عبر الحواريون عن شعورهم العامر بالإيمان بالله بقولهم لعيسى عليه السلام : واشهد بأنا مسلمون .

وإذا أردنا شرحاً لكلمة الحواريين واشهد بأنا مسلمون فإننا نقول : إن رسولنا ﷺ : سئل عن الإسلام ما هو فقال : أن يسلم لله قلبك وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك .

لقد أسلم الحواريون قلوبهم لله فأصبحوا مسلمون ، والإسلام بهذا المعنى هو التوحيد . وإذا وجد الإنسان ربه فإنه يسير فى جو : إياك نعبد وإياك نستعين : وجو إياك نعبد وإياك نستعين هو الجو الإسلامى الصادق وهو جو الأنبياء فى رسالتهم الصافية .

إن سيدنا نوحاً يقول : وأمرت أن أكون من المسلمين .

لقد أمر أن يسلم قلبه لله تعالى ، وأمر أن يدعو قومه إلى ذلك . يقول الله سبحانه وتعالى : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، أن لاّ تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) .

وأما هود فقد قال لقومه : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلٰه غيره . وصالح أيضاً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره ، وكل الرسل أمروا بالتوحيد وأمروا به أى أمروا وأمروا بإسلام القلب لله ، وكانوا بذلك مسلمين ، وكانوا بذلك يسيرون على منهج إياك نعبد وإياك نستعين .

وكان الحواريون مسلمين بهذا المعنى :

والإسلام بهذا المعنى هو الدين : إنه الدين فى إطلاقه المطلق زماناً ومكاناً ، وفى تحديده المحدد فى القلب ، وفى السلوك وهو بذلك الدين عند الله .

إن الدين عند الله الإسلام .

وإذا كان ما قدمنا منطقاً دقيقاً لقضية (إن الدين عند الله الإسلام) ولا يتمارى فى ذلك أحد – فإن معنى ذلك أن إسلام القلب لله هو الدين منذ الأزل ، ولقد جاءت الرسل به ، وبكيفية الوصول إلى تحققه فى القلب والشعور ، لقد حققه الحواريون .

وتابع الحواريون حديثهم قائلين (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) .
وما من شك فى أن من اتبع الرسول على الوضع السليم فإنه يسلم قلبه لله ، ومن أسلم قلبه لله فإنه يكون بذلك قد هيأ نفسه ليكتبه الله مع الشاهدين .
والشاهدون هم الصادقون المخلصون فى إيمانهم . اعترفوا به قولا وصدقوا قلباً ، . وأقاموه بجوارحهم .
أما كيفية إسلام القلب لله فى العصر الحاضر ، فقد تكفل بها القرآن الكريم فى تفصيل مفصل وفى دقة دقيقة بالأسلوب الإلٰهى نفسه الذى قال الله عنه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

فى معنى قوله تعالى :

(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين)[٦٦]

* * *

هٰذه الآية من آيات سورة آل عمران المباركة ، وسورة آل عمران تتحدث فيما تتحدث عنه – عن عقيدة التوحيد لله سبحانه ، وهذه العقيدة هى جوهر عقيدة الإسلام التى قررها رب العزة وشهد بها هو وملائكته وأولو العلم فقال فى السورة (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ، لا إلٰه إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام) .
وقد جاءت الآية المسئول عنها فى هذا الإطار من الدعوة إلى التوحيد ونبذ غيره من الأديان ، سواء كانت ديانات صحيحة ثم حرفت أو اتجاهات فكرية فاسدة أدت إلى الشرك والإلحاد كعقائد الوثنية والشيوعية وغيرها .
ولكى يزداد الجواب وضوحاً نحب أن نقول : إن الآية الكريمة المذكورة سبقت بآيات أربع تقرر عقيدة الإسلام منذ الأزل فهى دعوة الرسل كلهم جميعاً منذ آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام بأن يكون من جوهر رسالتهم ودعوتهم إلى الله أن يؤمنوا بمحمد ﷺ خاتم الأنبياء وينصروه وإن بعث بعدهم مع ما آتاهم الله من علم ونبوة كريمة وحكمة .
وقد أقروا جميعاً عليهم السلام وشهدوا وشهد الله معهم على هذا الميثاق وتوعد الله من ينقض هذا العهد بالعذاب ووصفه بالفسوق والعصيان ، ثم ينكر الله سبحانه على من أراد ديناً سوى دين الله الإسلام القائم على التوحيد الذى جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ثم أمر رسوله الكريم ﷺ أن يسلك نفسه فى هذا العهد والميثاق من دعوة الرسل لله المسماة بالإسلام لا يفرق بين أحد منهم

(٦٦) سورة آل عمران – آية (٨٥) .

ويؤمن بهم جميعاً كما آمنوا به فى العهد والميثاق الذى أخذ عليهم ، ويعلن فى صراحة ووضوح أن دينه وهو دين (الإسلام) ما هو الإ امتداد وإكمال لدعوة مَن سبقه من الرسل والأنبياء .

ثم تأتى بعد ذلك الآية المسئول عنها ليقرر فيها الحق سبحانه أن من سلك طريقاً آخر غير الإسلام أيًا كان هذا الطريق سواء كان ديناً محرّفاً عن وجهه الصحيح ، أو عقيدة فاسدة قامت على اتباع الهوى وميل النفس والشيطان ، كل ذلك لن يقبل من صاحبه لأنه مهما حل من الفضائل فهو بعيد عن أمرين :

الأمر الأول : عقيدة التوحيد لله سبحانه .

والأمر الثانى : الإيمان بالله والرسول الخاتم سيدنا محمد ﷺ ، وبدون هذين الأمرين لا تقبل عقيدة مهما كانت : أما الآيات فهى قوله سبحانه :

(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدِّق لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصرنَّه قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصْرى ، قالوا : أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوْعاً وكرهاً وإليه يرجعون . قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أُوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

ثم جاءت الآية الكريمة بعد ذلك قائلة .

(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين .)

فى قوله تعالى :

(فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين[٦٧])

* * *

معنى الآية كما ورد فى كتاب الكشاف للزمخشرى وروح المعانى للألوسى وتفسير الحافظ وابن كثير وغيرهم ، فمن حاجك أى جادلك وخاصمك من النصارى فى شأن ليس من بعد ما جاءك من البينات الموجبة للعلم فقل : « تعالوا » أى هلموا ندع كل منا ومنكم أبناءه ونفسه إلى المباهلة ،

(٦٧) سورة آل عمران– آية (٦١) .

ثم نتباهل بأن نقول : مبهلة الله « أى لعنة الله على الكاذب منا ومنكم ، يقول الزمخشرى : البهلة بالفتح والضم لعنة وبهله الله ، لعنه وأبعده من رحمته ، من قولك أبهله إذا أهمله ، وأصل الابتهال هذا ، ثم استعمل فى كل دعاء يجتهد فيه ، وإن لم يكن التعاناً يقول العلامة ابن كثير فى تفسيره : وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا وفد نجران : إن النصارى لما قدموا على رسول الله ﷺ فجعلوا يحاجون فى عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم ، قال الإمام محمد بن إسحق بن بصار فى سيرته المشهورة وغيره : قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً ، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم يئول أمرهم إليهم وهم : العاقب واسمه عبد المسيح وهو الأبهم ، وأبو حارثة ابن علقمة أخو بكربن وائل ، وأويس بن الحارث ، وزيد وابناه وخويلد ، وعمرو وخالد وعبد الله ومحسن ، وأمر هؤلاء يئول إلى ثلاثة منهم وهم : العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه ، والسيد كان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وصاحب مدارسهم ، وكان رجلاً من رجال العرب من بنى بكربن وائل ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها وشرفوه وبنوا له الكنائس ، واخدموه لما يعلمونه من صلابته فى دينهم ، وكان يعرف أمر رسول الله ﷺ . وصفته وشأنه مما علمه من الكتب المتقدمة ، ولكنه استمر فى النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها قال ابن إسحاق وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات جيب وأردية يقول ، من رآهم من أصحاب النبى ﷺ ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : (دعوهم) فصلوا إلى المشرق قال : فكلم رسول الله ﷺ من أبى حارثة بن علقة والعاقب عبد المسيح ، والسيد الأيهم وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم يقولون هو الله ، أى (عيسى) ويقولون هو ولد الله ، ويقولون هو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيراً ، وفى كل ذلك من قولهم نزل القرآن .

فلما كلمه حبران قال لهما رسول الله ﷺ « أسلما » قالا قد أسلمنا قال : إنكما لم تسلما فاسلما « قالا : بلى قد أسلمنا قبلك قال : كذبتما ، يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما أن لله ولداً وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير .

قالا : فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ فلم يجبهما فأنزل الله فى ذلك قولهم أمرهم سورة آل عمران فى بضع وثمانين منها .

وجاء فى تفسير الألوسى أن رسول الله ﷺ لما تلا عليهم قوله تعالى :

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) قالوا : إن ما نعرف ما تقول ونزل (فمن حاجّك . .) الآية .

فقال لهم رسول الله ﷺ إن الله تعالى قد أمرنى إن لم تقبلوا هذا أن أباهلكم « فقالوا يا أبا القاسم بل نرجع فننظر فى أمرنا ثم نأتيك ، وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن طريف عطاء والضحاك عن ابن عباس أن ثمانية من أساقفة أهل نجران قدموا على رسول الله ﷺ منهم العاقب والسيد فلما نزلت آية المباهلة قالوا : أخرنا ثلاثة أيام فخلا بعضهم ، وتصادقوا فيما بينهم .

قال السيد للعاقب ، قد والله علمتم أن الرجل نبى مرسل ، ولئن لاعنتموه إنه ليستأصلكم وما لاعن قوم نبيًّا قط ، فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، فإن أنتم لم تتبصروه تبصرة ، وأبيتم إلا ألف دينكم ، فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم .

وقد كان رسول الله ﷺ خرج ومعه على والحسن والحسين وفاطمة فقال رسول الله ﷺ « إن أنا دعوت فأمّنوا أنتم » فأبوا أن يلاعنوه ، وصالحوه على الجزية .

وعن الشعبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد أتانى البشير أهل نجران حتى الطير على الشجر لو تموا على الملاعنة .

وروى أن أسقف نجران لما رأى رسول الله ﷺ مقبلا ومعه على وفاطمة والحسنان رضى الله عنهم قال : يا معشر النصارى إنه رأى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة فقالوا : يا أبا القاسم رأينا أن لانباهلك وأن نقرك على دينك ونثبت على ديننا ونصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفى حلة ، ألف فى صفر وألف فى رجب وثلاثين درعاً عادية من حديد ، فصالحهم على ذلك وقال : والذى نفسى بيده أن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى ناراً ولا استأصل الله نجران وأهله حتى يطيروا على رءوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى وكلهم حتى يهلكوا .

وبعد فالسائل بعد هذا البيان قد عرف الإجابة عن كل ما أورد من أسئلة . والله الموفق .

فى تفسير قوله تعالى :

(قل يٰأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً

ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون[٦٨]) .

* * *

أرسل رسول الله ﷺ كتباً إلى النصارى يدعوهم فيها إلى الإسلام وفى هذه الكتب قوله تعالى : (بسم الله الرحمٰن الرحيم) وهى آية من القرآن الكريم وفى بعضها ، قوله تعالى : (يٰأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون) وهذا نص قرآنى ، وأرسل رسول الله هذه الكتب وهو يعلم أن هؤلاء النصارى يمسونها ، وقد يكون أحدهم جُنباً ، ومن هنا رأى الإمام داود الظاهرى والإمام ابن حزم والإمام البخارى : إنه يجوز مس المصحف للجنب ، أما من حرم ذلك فإنما حرمه تعظيماً للمصحف وتكريماً ، وتعظيم المصحف وتكريمه تقتضى أن يرفع المسلم المصحف مباشرة إذا رآه مُلقىً فى نجاسة ولو كان جُنباً فإذا تركه فإنه يكون آثماً بتركه ، وإذا رفعه ولو كان جنباً فإنه يُثاب على رفعه وقوله تعالى (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون.لا يمسه إلا المطهرون) « فسرها الإمام البيضاوى – على أحد مذاهب التفسير – بقوله : « فى كتاب مكنون » : مصدق ، وهو اللوح المحفوظ لا يمسه إلا المطهرون ، لا يطلع على اللوح إلا المطهرون من الكدرات الجسمانية وهم الملائكة .

ويجوز إعطاء المصحف لغير المسلم لإصلاحه إذا كان ممزقاً أو لتجليده إذا لم يوجد مسلم يقوم بهذا العمل ، أما إذا وجد مسلم يقوم بذلك فهو أولى : وذلك لأن المسلم – لإيمانه يعظم المصحف ويحترمه ، أما غير المسلم – لعدم إيمانه بالقرآن لا يتحرى الاحترام والتكريم .

فى قول الله تعالى :

(كنتم خير أمة أُخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون[٦٩]) .

* * *

بين الله سبحانه وتعالى السبب فى خيرية الأمة الإسلامية وذلك هو قيامها فرداً فرداً بالأمر بالمعروف ، والمعروف الذى تقدم الأمة الإسلامية على الأمر به هو الحق ، وهو الخير ، وهو الفضيلة ، وهو العدل ، وهو الرحمة ، وهو كل هذه الآداب السامية والشيم الجميلة التى أتى بها

---

(٦٨) آل عمران آية (٦٤) .

(٦٩) سورة آل عمران – آية (١١٠)

الإسلام والتى يتضمنها الإيمان مبتدئة بإماطة الأذى عن الطريق حتى تنتهى بشهادة أن لا إله إلا الله .

والمنكر الذى تحاربه الأمة الإسلامية وتنهى عنه إنما هو الرذيلة بجميع ضروبها ، وهو الظلم على اختلاف ألوانه ، وهو التعدى غدراً وخيانة ، وهو كل ضرب من ضروب البطش والجبروت . إن الأمة الإسلامية خير أمة أُخرجت للناس لأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ثم لإيمانها بالله الذى حدد الله فى نطاقه تحديداً كاملا الخير والشر .

ومبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من المبادئ التى اهتم الله سبحانه ورسوله بتوطيده توطيداً محكماً ، ولقد أمر الله به ورتب عليه الفلاح فقال سبحانه : ولتكن منكم أمة ،

وإذا كانت الأمة الإسلامية خير أمّة أُخرجت للناس لهذا فإن الله لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل لأنهم ما كانوا يقومون بهذا المبدأ فقال سبحانه : (لُعِن الذين كفروا من بنى إسرائيل . .) الآية .

ولقد بين رسول الله ﷺ عاقبة اتباع مبدأى : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى النجاة ، وعاقبة إهمالها وهى الغرق فقال فى حديث رائع : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَن فوقهم فقالوا

إنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً .

فى قوله تعالى :

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ،ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين (٧٠)) .

* * *

هذه الآية نزلت تعقيباً على ما حدث فى غزوة أُحد حينما أُشيع بين الناس أن محمداً ﷺ قد قتل ورأى بعض الصحابة أن الحاجة إلى القتال قد انتهت وخارت عزائمهم ، ولكن بعض الصحابة ثبتوا فى مواقعهم وتمسكوا بالقتال . . عن أنس رضى الله عنه أن عمه أنسَ بن النضير غاب عن قتال بدر فقال : غبت عن أول قتال قاتله النبى ﷺ للمشركين لئن أشهدنى الله قتالا للمشركين

---

(٧٠) سورة آل عمران – آية (١٤٤) .

ليرين ، ما أصنع . فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إنى أعتذر إليك عما صنع هؤلاء – يعنى أصحابه – وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء – يعنى المشركين ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ دون أحد ، فقال سعد : أنا معك قال سعد : فلم أستطع أصنع ما صنع . فوُجِدَ فيه بضع وثمانون من بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم ، قال : فكنا نقول : فيه وفى أصحابه نزلت (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) .

ونزلت الآية الكريمة : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين)

وبين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن الدين والرسالة لا يرتبطان بحياة الرسول ﷺ الدنيوية أو انتهاء هذه الحياة فالمؤمن حقًّا يدافع عن الدين .

فى تفسير قول الله تعالى :

(الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرحُ للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم النّاسُ إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم[٧١]) .

* * *

يقول الله تعالى فى سورة آل عمران :

(الذين استجابوا . . . . . . ذو فضل عظيم) الآيات

لقد نزلت هذه الآيات الكريمة فى جملة ما نزل من آيات فى غزوة أحد ، ولقد كان فى غزوة أحد دروس وعظات كثيرة ، وكانت عاقبة هذه الغزوة خيراً بالنسبة للمسلمين ، فقد علمتهم أموراً كثيرة نذكر منها أمراً واحداً فقط هو :

أن يلتزموا التزاماً تامًّا بأمر القائد مهما كانت الظروف ، ومهما صور لهم خيالهم أنهم أصبحوا فى حِلٍّ من مخالفة الأمر . وذلك أنهم رأوا بأعينهم بغية مخالفة الأمر وهو ما بدا من مظهر الهزيمة .

وما إن انتهت المعركة بهذا المظهر حتى ركب الأعداء راجعين إلى مكة ، ولكن المسلمين ظنوا أن الأعداء ركبوا مسرعين من أجل الذهاب إلى المدينة ، وكان هذا هو المنطق الطبيعى لغلبتهم : أن يذهبوا إلى المدينة ليقضوا على الإسلام نهائيًّا .

(٧١) سورة آل عمران – الآيات (١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤) .

فدعا رسول الله ﷺ المسلمين للنهوض من كبوتهم والاستعداد لسبق العدو إلى المدينة إذا كان حقًّا ذاهباً إليها . ولمَّ المسلمون شعثهم وضمدوا جراحهم وحفزهم الإيمان والثقة فى الله على النشاط والعمل ، واستجابوا بذلك لله ورسوله من بعد ما أصابهم القرح : أى نالهم الجراح والطعنات والضرّ على جميع ألوانه يوم أحد .

فوعد الله سبحانه وتعالى الذين أحسنوا منهم واتقوا الأجر العظيم . وهل ذهب المشركون إلى مكة دونْ تردد أو تلاوم ؟

كلا فإنهم حين سار بهم الطريق عادوا إلى أنفسهم يتساءلون أكانت المعركة فاصلة ؟ أأحسنوا فى العودة إلى مكة ؟ وأخذوا يترددون ويتلاومون ويجيلون الرأى فيما بينهم ثم رأوا أن يمكروا بالمسلمين ليروا أثر الهزيمة فى نفوسهم فأرسلوا إليهم يذكرون فيها أنهم قد جمعوا لهم جموعهم من جديد ليستأصلوا عن آخرهم .

وحين بلغت هذه الرسالة التى حاول المشركون أن يظهروها بمظهر الرسالة العرضية استعد المسلمون استعداداً كاملا للمعركة من جديد . وعبر القرآن عن ذلك فى أسلوب جميل وفى روح قوية وفى معنى من الإيمان عميق ، يقول الله تعالى : (الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوْهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

فلما كان ذلك رد الفعل فى نفوسهم أثابهم الله تعالى على ذلك بما عبر سبحانه وتعالى عنه بقوله .

(فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم) .

فى قوله تعالى :

(يٰأَيُّها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كَرْهاً[٧٢]) .

* * *

قال ابن عباس فى هذه الآية . كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها . . وإن شاءوا زوجوها وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية :

وفى بعض الروايات عنه : أن الرجل كان يرث امرأة ذى قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها ، فأحكم الله تعالى عنه بذلك أى نهى عن ذلك .

(٧٢) سورة النساء آية (١٩) .

وقيل : كان الرجل إذا مات وترك زوجه ألقى عليها قريبه ثوبه فمنعها من الناس فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها فنزلت الآية .

ولا يخفى ما كان فى ذلك كله من تصرفات الجاهلية – من إهدار لحرية المرأة وكرامتها واستهانة بحقها ، فمنعه الله تعالى وترك لها حرية اختيار من تقبله من الأزواج بعد انقضاء عدة الوفاة ، وارتفع بها عن أن تكون مادة من المواد الموروثة عند الزوج .

فإذا ما انقضت العدة تقدم للزواج بالمرأة من شاء من الرجال من أقارب الزوج أو من غيرهم ، فمن قبلت الارتباط به حل له زواجها .

ويستوى على ذلك أى قريب للزوج ، فيجوز تزوجها من شقيقه ومن ابن عمه وابن خاله :

نعم لا يجوز لها الزواج من أبيه لأن الله تعالى جعل من المحرمات حلائل الأبناء أى زوجاتهم .

ولا يجوز لها الزواج من ابنه لأن الله تعالى قال .

(ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) .

وما عدا ذلك من الأقارب يحل له الزواج منها ، ويحل لها الزواج منه ، بعد العدة وبعد استيفاء شروط النكاح .

فى تفسير الآية الكريمة وهى قوله تعالى :

(الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا[٧٣]) .

* * *

هذه الآية تعالج أموراً خطيرة من أمور الأسرة بصفتها مجتمعاً صغيراً يحتاج – ككل مجتمع من المجتمعات – إلى قائد يقوم على أمره ويسوس شئونه ويرجع إليه الأمر فى إدارة السفينة ، فتقرر الآية الكريمة الشأن فى القيام على النساء ورعايتهن وتوجيههن كما يوجه الراعى رعيته بالأمر والنهى ونحو ذلك هو للرجال .

يقول الإمام الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) : واختيار الجملة الاسمية مع صيغة المبالغة (الرجال قوامون على النساء) للإيذان بعراقة الرجال ورسوخهم فى الاتصاف بما أسند إليهم . وعلل سبحانه وتعالى : هذا الحكم بأمرين

(٧٣) سورة النساء (٣٤) .

أحدهما : فطرى خلقى (بما فضل الله بعضهم على بعض) والآخر : فى الأصل التكوينى والخلقة فالشأن أن الرجال مهما قاموا بفطرتهم وتكوينهم للقيام بهذه المهمة فهم قوامون على النساء بسبب تفضيل الله تعالى لهم عليهن ، ولذلك خصوا بالرسالة والإمامة الكبرى ، فلا تكون المرأة خليفة للمسلمين ، والإمامة الصغرى فلا تصلى إماماً للرجال . كما خصوا كذلك بإقامة الشعائر كالأذان والإقامة والخطبة والجمعة والشهادة فى أمهات القضايا ، وجعلت شهادة المرأة نصف شهادة الرجل فى قضايا المعاملات .

قال تعالى : (واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممّن ترضون من الشهداء أن تَضِلّ إحداهما فتُذكّر إحداهما الأخرى) .

الأمر الثانى : فى التعليل لهذا الحكم أمر كسبىّ وليس فطريًّا والشأن أن يقوم به الرجال ، وهو قوله تعالى : (وبما أنفقوا من أموالهم) قال مجاهد : إنه المهر ، ويجوز أن يُراد به ما يعم المهر والإنفاق عليهن ، فالرجال هم الذين يدفعون المهور للنساء وهم الذين يجب عليهم الإنفاق عليهن حتى ولو كنّ غنيّات بمالهن الخاص بهن .

ثم بينت الآية بعد ذلك المنهج الذى يَسلكه الرجال إذا نشزت المرأة وخرجت على طاعته من وعظ وهجر فى المضاجع وضرب غير مبرح ، فإذا أطاعت واستقام أمرها فلا سبيل لبغى الرجل عليها أو طلاقه لها ، (واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا)

ولعله من المفيد أن نبين سبب نزول هذه الآية ليتبين للناس مدى عناية شرع الله تعالى بأمور الأسرة وما يصلح شأنها يقول : الألوسى : والآية كما روى عن مقاتل : نزلت فى سعد بن الربيع ابن عمرو ، وكان من النقباء وفى امرأته حبيبة بنت زيد بن زهير وذلك أنها نشزت عليه فلطمها .

فانطلق أبوها معها إلى النبى ﷺ فقال : أفرشته كريمتى فلطمها . فقال النبى ﷺ لتقتص من زوجها . فانصرفت مع أبيها لتقتص منه ، فقال النبى ﷺ : ارجعوا هذا جبريل عليه السلام : (أتانى) وأنزل الله هذه الآية : الرجال قوامون على النساء . . إلخ .

فتلاها ﷺ ، ثم قال : أردنا أمراً وأراد الله تعالى أمراً والذى أراده الله تعالى خير . . وقال الكلبى نزلت فى سعد بن الربيع وامرأته خولة بنت محمد بن سلمة وذكر القصة وقد استدل بالآية على أن للزوج تأديب زوجته ، وأن عليها طاعته لا فى معصية الله تعالى ، وأن أفضلية الرجل على المرأة إنما بالفطرة والتكوين والخلق حتى إن كان فقيراً ففقر الرجل لا يجعل المرأة أفضل منه .

فى تفسير قول الله تعالى :

(حُرِّمتْ عليكم الميتةُ والدَّم ولحم الخنزير وما أُهلَّ لغير الله به وَالْمُنْخَنِقَةُ والمْوقوذَةُ والمُترَدِّيَةُ والنَّطِيحةُ وما أكلَ السّبع إلا ما ذكّيتم وما ذُبح على النُّصُبِ [٧٤]) .

* * *

أل فى الآية الكريمة للجنس الشامل للبرى المتوحش والمستأنس الذى يُربّى فى البيوت ويألف لأنه لم يرد من السنّة تخصيص لبعض أنواعه دون البعض .

ونفهم من نص الآية الكريمة : أن أكل لحم الخنزير بصفة عامة حرام يجب البعد والكف عن تناوله والاجتناب الكلى عنه امتثالا لأمر الله سبحانه وتعالى واتباعاً لرسوله ﷺ ، فإنه الإمام والقدوة الحسنة الذى تجب متابعته دون متابعة الذين يتناولونه من غير المسلمين .

وما أظن الذين يحرصون على تناول لحم الخنزير البرى مفرقين بينه وبين الخنزير الذى يربى فى البيوت ، إلا تابعين لغير المسلمين تحقيقاً لمعجزة النبى ﷺ فى الذين يخالفون عن أمر الله وعن أمر الرسول ﷺ حيث يقول : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً شبر ، وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضَبٍّ خرب لسلكتموه » إذن فإن لحم الخنزير سواء كان بريًّا أو مربّى فى البيوت – لا يصح لمسلم أكله ولا يجوز مطلقاً تناوله .

فى تفسير قول الله تعالى :

(اليوم أحِلَّ لكم الطيباتُ وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلّ لهم والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهنَّ أجورهنَّ مُحصنين غير مُسافحين ولا مُتَّخذِى أخدانٍ ، ومن يكفر بالإيمان فقد حبِطَ عملُهُ وهو فى الآخرةِ من الخاسرين) [٧٥] .

* * *

والمحصنات : هُنَّ العفيفات العاقلات الممتنعات عن الزِّنى والفساد .

والآية دالة على جواز نكاحهن دون غيرهن من أهل الشرك من المجوس ومنكرى الدين جملة .

فيجوز على هذه الآية نكاح المسلم الكتابية يهودية أو نصرانية بدليل هذه الآية .

---

(٧٤) سورة المائدة – آية (٣) .

(٧٥) سورة المائدة – آية (٥) .

ويرى ابن عمر أن اليهودية والنصرانية من أهل الشرك لأنهم بدّلوا الدين ، وقالوا فى الله تعالى ما لا يليق به .

والجمهور على خلاف ذلك :

نعم يجوز للحاكم لمصلحة خاصة أن يمنع مثل هذا النكاح إذ رأى فيه ما قد يضر بالدولة أو يسىء إلى النظام العام .

من ذلك ما فعله عمر مع بعض الصحابة ممن تزوج بغير مسلمة .

فى تفسير قوله تعالى :

(يهدى به الله مَنِ اتَّبعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السّلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذْنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم) (٧٦)

* * *

قال المفسرون فى معنى هذه الآية : إن الله سبحانه وتعالى يهدى من اتبع رضوانه سبل السلام فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلى المبين السهل المنير .

وإن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ويخرجهم ويحيد بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك والضلال .

(أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

وإنما جمع سبحانه وتعالى لفظ الظلمات ووحد النور ولم يجمعْه لأن الحق الذى هو مُشبّه بالنور واحد ، والكفر الذى هو الظلمات أجناس كثيرة وأصناف متعددة وكلها باطلة ، كما قال تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون) .

ففى هذا إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه ولذا كان طريق الإيمان واحداً لا اعوجاج فيه ولا التواء ولا تفرق .

وأما الكفر والضلال فطرقها متعددة متشعبة .

---

(٧٦) سورة المائدة – آية (١٦) .

فى تفسير قوله تعالى :

(إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) (٧٧)

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) وفى سورة المائدة يقول الله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم ، إنّ الله لا يهدى القوم الظالمين) .

* * *

وهذه الآيات كلها ، وغيرها كثير ، صريحة فى أنه لا يصح أن يكون الأب المسيحى وليًّا لابنته المسلمة فى عقد زواجها .

وقد يسأل إنسان : ومن يكون الوالى إذاً ؟

إن الوالى الذى يتولى عقد الزواج فى مثل هذا هو الحاكم المسلم أو من يقوم مقامه من المسلمين أو مَن توكله هى أن يتولى عقد زواجها .

أما إذا رفض الأب المسيحى زواج ابنته التى أسلمت من شخص صممت هى أن تتزوج منه بعد أن أسلمت فليس لرفض الأب قيمة .

وإذا عقد العقد عند مأذون شرعى واستوفى شروطه من وجود الوكيل الذى توكله الزوجة ، ومن وجود الشهود ، فعقد الزواج صحيح ولا يؤثر رفض الأب المسيحى فى صحته .

فى معنى قوله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) (٧٨)

* * *

وبهذا قطع الله سبحانه وتعالى الطريق على كل متعلل لشربها وأبى قبول أى عذر ممن يتناولها ،

(٧٧) سورة المائدة – آية (٥٥) .

(٧٨) سورة المائدة – آيتا (٩٠ – ٩١) .

والصلاة عماد الدين ، وبين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة ، وقد حدد الله تعالى لها مواقيتها وأمر بمراعاة هذه الأوقات قال تعالى :

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

ونزل جبريل فصلى بالنبى ﷺ كل صلاة وبيّن من الصلوات فى يومين متتابعين ، وفى اليوم الأول كانت صلاته فى أول الوقت ، وفى اليوم التالى كانت صلاته فى آخر الوقت ، وبيّن بعد ذلك أن ما بين صلاته من وقت هو وقت الصلاة المطلوب أداؤها فيه .

ولا يجوز تقديم الصلاة على وقتها إلا لعذر ضرورى من سفر أو مطر يتعذر معه أداء الصلاة فى وقتها أو الاجتماع لها فى المسجد فى هذا الوقت .

كما لا يجوز تأخيرها عن وقتها المحدد إلا لعذر قهرى من الأعذار التى حددها الرسول ﷺ بقوله : « رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون المغلوب على مثله حتى يبرأ . وعن النائم حتى يحلم وفى رواية : وعن المبتلى حتى يبرأ » .

وكلها موانع طبيعية لا يد للإنسان فى أحداثها ولا قدرة له على منعها : أما شرب الخمر فإنه كبير وجرم شنيع وصاحبه مسئول عما يرتكبه فى حال سكره محاسب عليه فى الدنيا أمام قانون الشرع، وفى الآخرة أمام الله .

وقد جعل الله الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فكيف يجوز التلاعب بها تقديماً أو تأخيراً للتمكن من فعل المنكر وهو شرب الخمر .

وبعد ، فلا يجوز لمسلم أن يسكر ولا يصح له تقديم الصلاة على وقتها لأجل هذا السكر أو الخوف من حدوثه ، وليتق الله ربه ليحسن حسابه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم .

فى تفسير قول الله سبحانه :

(يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم) ويقول الرسول ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره . . الخ » فهل هناك تعارض بين الآية والحديث ؟

* * *

للإجابة على هذا السؤال : نذكر حديثين يتصلان بالموضوع أوثق اتصال : روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن قيس قال : قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يأيها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية : (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من

ضلّ إذا اهتديتم) وأنكم تضعونها على غير موضعها .

وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيروه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه »

وروى الترمذى بسنده عن أبى أمية الشيبانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له : كيف تصنع فى هذه الآية ؟ قال أية آية ؟

قلت : قول الله عز وجل : (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم) . .

قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت رسول الله ﷺ قال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحًّا مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة ، وإعجابَ كلٍّ ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام ، فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم .

ومعنى الآية إذن : إن على المسلم أن يأمر وينهى ولا عليه بعد ذلك أثمر سعيه أم لم يثمر . .

فيكون المقصود لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم بالتمسك بالحق والدعوة إليه ، ونبذ الباطل والنهى عنه ، وهو ما يوافق حديث أبى بكر رضى الله عنه ، وهذا التفسير هو ما نرجحه .

وعلى ذلك فلا تعارض بين هذه الآية وبين حديث . من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ، لأن الآية تطمئن المسلم إلى أنه لا وزر عليه إذا أدى واجبه وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

فى تفسير قول الله تعالى :

(وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقُل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنّه غفور رحيم) (٧٩)

* * *

إن هذه الآية الكريمة توضح تفضل الله على عباده ورحمته بهم ، فهى تأمر الرسول ﷺ أن يبشر المؤمنين الذين عملوا السيئات ثم تابوا وأخلصوا بأن أمرهم سلام ، أى أن التوبة انتهت بهم إلى السلامة ، فقد غفر الله لهم وتقبل توبتهم وعرفهم أن الله سبحانه وتعالى كتب على نفسه الرحمة لهؤلاء الذين يعملون المعاصى عن جهل بعقابها بالنسبة لهم فى هذه الحياة الدنيا ، وعن جهل

(٧٩) سورة الأنعام – آية (٥٤) .

بعقابها بالنسبة لهم فى حياتهم الأخرى ، والواقع أن اليقين بعاقبة المعاصى فى الدنيا والآخرة يجعل الإنسان بمعزل عن إتيان الآثام .

ومن هنا يقول الحسن رضى الله عنه : كل من عمل معصية فهو جاهل . ويقول أحد الحكماء : إن الآثام توقع الإنسان فى الشقاء ، ولا يعدل الإنسان عن السعادة التى تتمثل فى الفضيلة إلى الشقاء الذى يتمثل فى المعصية إلا إذا كان جاهلا ومن هنا : كما يقول – كانت المعصية جهلا وكانت الفضيلة معرفة .

ولقد ذكر القرآن الكريم معنى هذه الآية ليفتح الطريق أمام العصاة إلى التوبة وليحث الذين يعملون السيئات على قرع بابه تعالى بالرجوع إليه تائبين فتعمهم رحمته قال تعالى : (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليماً حكيماً) .

ويقول سبحانه :

(ثم إنّ ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إنّ ربك من بعدها لغفور رحيم) . (٨١)

فى تفسير قول الله تعالى :

(الله أعلم حيث يجعل رسالته) (٨٢)

ويقول : (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير) .

* * *

وفى هاتين الآيتين بيان لحكمة الله سبحانه وتعالى فى إرسال الرسل واختيارهم ، وأن هذا الاختيار راجع لمشيئته وحده ، يختار الرسول من أى بلدة ومن أى بيئة ويعده للرسالة ويهيئه لها ، فليس بشرط أن يكون الرسول من أهل البلدة ورسولنا ﷺ (جعله الله رحمة للعالمين) وأرسله للناس كافة بشيراً ونذيراً وأمر الله الناس جميعاً اتباعه قال تعالى :

(يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم)

ومع ذلك فلم تحرم أفريقيا من الرسل : (لقد ولد فيها موسى عليه السلام وأخوه هارون .

---

(٨٠) سورة النساء – آية (١٧) .

(٨١) سورة النحل – آية (١١٩) .

(٨٢) سورة الأنعام – آية (١٢٤) .

ووفد إليها يوسف ويعقوب والمسيح عليهم السلام ، ومن قبل ذلك وفد إليها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام .

وبعد ، فلعل أفريقيا قبل الرسالة المحمدية حوت كثيراً من الرسل ، إذْ لم يرِدْ عنهم حصر جامع فى القرآن الكريم ، ولم يذكر سجل كامل بأسمائهم وتواريخهم :

قال تعالى : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) .

وقال : (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(وهو الذى أنشأ جنات معروشات ، وغير معروشات ، والنّخل والزّرع مُختلفاً أُكله والزيتون والرُّمّانَ مُتشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقَّه يوم حَصاده ولا تُسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين) [٨٣]

* * *

ويقول الرسول ﷺ ، فيما سقت السماء العشر وفيما سقى بالنضح نصف العشر وحديث رسول الله ﷺ ، يدل على العموم ، والآية الكريمة تؤيد المنهج نحو العموم ، وعلى أساس العموم المأخوذ من الآية ومن الحديث ، تكون الزكاة واجبة فى كل ما أنبتته الأرض وهذا هو رأى أبى حنيفة الذى يعمم الزكاة فى جميع ما تنبته الأرض لا يفرق فى ذلك بين الخضراوات والفواكه - والحبوب ، وهو الرأى الذى نرتضيه أما فيما يتعلق بالمواشى التى تجب فيها الزكاة فهى : الإبل ، والبقر ، والغنم ، وتجب الزكاة فيها إذا توافرت فيها الشروط الآتية :

أن تبلغ . وأن يكون قد حال عليها الحول .

فى الأعراف :

الأعراف : هى الأشياء المشرفة ، والمراد بها هنا المكان المشرف الذى بين الجنة والنار ، أما أصحاب الأعراف فهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلفتهم حسناتهم عن النار ، فجعلوا على الأعراف ، لأنها درجة متوسطة بين الجنة والنار ، فهم ليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار ، ولكن الله تعالى سيدخلهم الجنة بفضله ورحمته ، فلأنه ليس فى

---

(٨٣) سورة الأنعام - آية (١٤١) .

الآخرة من دار سوى الجنة أو النار ، فهم – بعدل الله – فى مكان بين الجنة والنار وهم – بفضله يكون مآلهم الجنة .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : يحاسب الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاتهم أكثر بواحدة ، دخل النار وأن الميزان يخف ويثقل بمثقال حبة من خردل من إيمان ، ومن استوت حسناته وسيئاته ، كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الأعراف فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم ، سلام عليكم ، وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

فى تفسير قول الله تعالى :

(ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) (٨٤)

* * *

يخبر الله سبحانه فى هذه الآية الكريمة أن أهل القرى وهم الناس فى مجتمعاتهم – صغيرة كانت تلك المجتمعات أوكبيرة وقديمة كانت أو حديثة – لو أنهم التزموا الإيمان واتبعوا قاعدة التقوى لوسعنا عليهم الرزق وزودناهم من الخير فى كل شىء ، وليست البركات خاصة بالرزق المادى وإنما تتضمنه وتتجاوزه إلى الرزق المعنوى ، فتكون البركات فى صورة الرعاية الإلٰهية للإنسان المؤمن المتقى ، وفى صورة العناية بالله ، إن الله مع المتقين ، إن رحمة الله قريب من المحسنين ، ومن يتَّقِ الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وسنة الله سبحانه أن من كان لله كان له ، ومن كان مع الله كان الله معه ، ومن تقرّب إلى الله شبراً تقرب الله منه ذراعاً ، ومن تقرب إليه سبحانه ذراعاً تقرب منه باعاً ، ومن أتاه يمشى أتاه تعالى هَرْولة ، ولكن أهل القرى لم يلتزموا سنة الله التى وضحها على لسان رسله ولم يتبعوا هديه وكذبوا برسله فأصابهم الله بما يتناسب مع أعمالهم من الشقاء والعذاب (من عَمِل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلّام للعبيد) .

(ومن يكسب إثّما فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليماً حكيماً) .

---

(٨٤) سورة الأعراف – آية (٩٦) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سَمِّ الخياط وكذلك نجزى المجرمين) . (٨٥)

* * *

إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا يرفع لهم عمل صالح ولا دعاء بل عملهم مردود ودعاؤهم غير مستجاب ، وعلى ذلك فلا مجال لدخولهم الجنة وهم عن رحمة ربهم محجوبون لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم ، وإنما تطرد من على أبواب علّيين إلى أسفل سافلين .

أما الذنب الذى ارتكبه هؤلاء الذين أوعدهم الله بهذا الوعيد فإنه الشرك بالله ، والله سبحانه وتعالى لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، والشرك بالله سبحانه وتعالى له أثره على المجتمع وعلى الإنسانية فى غاية الخطورة ، وخصوصاً على الجانب الأخلاقى من المجتمع .

والله سبحانه وتعالى يتحدث عن أمثال هؤلاء فيقول :

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا . فاقصص القصص لعلّهم يتفكرون) .

فهم قوم أتبعهم الشيطان ووجههم وسيرهم إلى الشر والفساد فكانوا من الضالين ، ولو شاء الله لرفعهم وهداهم إلى آياته ، ولكنهم هم الذين اتجهوا إلى الشر وأخلدوا إلى الأرض بدل اتجاههم إلى السماء وإلى الهداية والصلاح والإصلاح . وآيات الله واضحة ولكنهم عاندوا وكفروا وأشركوا فنالوا مقت الله وغضبه فى الدنيا والآخرة .

فى تفسير قول الله تعالى :

(فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أُنزل معه أولئك هم المفلحون) .

* * *

المقصود بأمة محمد ﷺ الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه – وهم الذين يستحقون أن يُضافوا إليه ويتشرفوا بالانتساب له والاندراج تحت لوائه . . وهم أمة الإجابة .

أما غير المسلمين فى عصره وبعد عصره فلا يستحقون الانتساب إليه ولا يجوز تكريمهم

---

(٨٥) سورة الأعراف – آية (٤٠) .

بإضافتهم إليه ، ولم يضفهم الرسول ﷺ إليه حينما تحدث عن أمته ، قال ﷺ : كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى . . .

ولكنهم يعتبرون من أمة الدعوة حيث شاهدوا أنواره وأنوار ما جاء به فأعرضوا عن الحق واستكفوا عن اتباعه ، ومن هنا عبر عنهم الرسول ﷺ : باسم الأمة ولم يعبر عنهم بأمتى فقال ﷺ :

« والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بالذى جئت به إلا حرم الله عليه الجنة » .

فسمى اليهود والنصارى أمة ولم يقل من أمتى يهوديًّا أو نصرانيًّا .

ومن هنا فإن الفرق واضح بين أمة محمد – أى من آمن به – وغيرها من الأمم ممن لا يؤمن . .

فى تفسير قوله تعالى :

(وقطَّعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ، وأوحينا إلى موسى إذِ استسقاه قومه أنِ اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً) (٨٦)

* * *

أما قوله تعالى : (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً) فإنه خبر عن بنى إسرائيل ، يقول الله تعالى فيه : إنه سبحانه ، صيَّرهم اثنتى عشرة قبيلة ، فأصبحوا فى تفرقهم وتعددهم كالأمم . . أما هذا العدد بالذات ، فإنه يرجع إلى أن أولاد يعقوب عليه السلام كانوا اثنى عشر ولداً ، فكانت القبائل اثنتى عشرة قبيلة ، كل واحدة منها تنتمى إلى واحد منهم .

فى قول الله تعالى :

(وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) (٨٧)

* * *

ويقول الله سبحانه فى تعريف المؤمنين :

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون)

---

(٨٦) سورة الأعراف – آية (١٦٠) .

(٨٧) سورة الأعراف – آية (٢٠٤) .

والأمر بالاستماع ، والإنصات ، اللذين تفيض بسببهما رحمة الله على السامع المنصت ، إنما كان من أجل التدبر للمعانى الكريمة التى انطوت عليها الآيات القرآنية ومن أجل الاتعاظ بها ، والتزام الحدود التى سنتها ، والقواعد التى أتت بها ، وهى لكل ذلك إذا تليت على المؤمنين زادتهم إيماناً .

وكلام الله سبحانه وتعالى له أثره الطيب فى إثارة خشية الله عند المؤمنين الصادقين يقول الله سبحانه : (الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) .

والله سبحانه وتعالى يبين أن الخشية تتحقق عند المؤمنين الصادقين نتيجة لتلاوة القرآن أو سماعه ، حتى إنه لو نزل القرآن على جبل لتمثل فيه الخشوع ، بل يصل الخشوع به إلى درجة التصدع يقول سبحانه : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

فالواجب إذن التزام الهدوء والصمت مع التدبر والتأمل .

ومما لا شك فيه أن الله سبحانه أعظم من كل ما سواه ، وأننا فى جو القرآن إنما نكون فى جو إلٰهى ، أى أننا – قارئين أو مستمعين – إنما نناجى الله سبحانه ، أو ننصت إليه ، فالواجب ألا يكون تأثرنا بغيره ، وألا يكون انتباهنا إلى ما سواه ، ولا بأس من أن ينطق الإنسان مختاراً أو مضطرًّا عندما يمتلئ قلبه بمعنى من المعانى فى سموه وجلاله ، أو بكيفية من كيفيات الأداء التى تناسب المعنى ، لا بأس بأن ينطق متفاعلا مع الجو القرآنى بسبحان الله ، أو جلّ جلال الله ، أو سبحان من هذا كلامه ، أو أستغفر الله ، أو تبت إلى الله ، أو اللهم قِنِى عذابك ، أو اللهم أفض على من رحمتك .

وقد كان الرسول ﷺ يفعل ذلك .

ذلك هو موقف المؤمنين عند تلاوة القرآن أو عند سماعه .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) [٨٨]

* * *

(٨٨) سورة الأنفال – آية (٢) .

فلا ينبغى للمستمع ولا يجوز للمستمعين ارتفاع الأصوات وإحداث الصخب عند تلاوة القرآن ، ولا يتأتى لهم إلا الصمت والهدوء والسكينة ليزدادوا إيماناً ، وتخشع قلوبهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله يقول سبحانه :

(الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) . فإذا ازداد إيمان السامع للقرآن حينما يُتلى ، واقشعر جلده ، ولان قلبه ، واستجابت أعضاؤه لذكر الله ، لا يجد مجالا للصياح ولا لكلمات الاستحسان ، بل تنهمر دموعه ويحسن الاستماع والاستجابة لكل ما يتلى ، يقول تعالى :

(وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)

وكما يجب على السامع هذا فإنه يجب على القارئ أيضاً أن يعلم أنه حينما يجلس للقراءة فإنه يناجى الله تعالى بكلامه ، فيحسن الجلوس بين يديه ، ويتلو كتاب الله وعليه السكينة والوقار الذى يناسب جلال الله وعظمته ، فإن ما يتلوه حجة عليه وله ، فلا أقل من أن يفرّ من أن يكون عليه ليكون له ، وليكون بحسن أدائه وخشوعه حالة قراءته مع السَّفَرة الكرام البررة .

قال صلوات الله وسلامه عليه : « الماهر بالقرآن مع السّفرة الكرام البررة » .

وقال ﷺ : « اقرءوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » .

وسائل النصر فى القرآن الكريم رسمها الله سبحانه فى عبارة موجزة بقوله تعالى :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)[٨٩] .

* * *

وهذه الآية الكريمة صريحة فى القوة المادية ، إنها تعنى أعدوا لهم القوة المادية البحرية من مدرعات ومدمرات .

وأعدوا لهم القوة البرية من مدافع ودبابات .

وأعدوا لهم القوة الجوية بكل ما تستطيعون من قوة ، هذا من الناحية المادية ، والآية الكريمة صريحة أيضاً فى الإعداد المعنوى ، وقد كان رسول الله ﷺ يقوم فى هذا الإعداد المعنوى بأمرين :

الأول : بعث الثقة بالتفاؤل فى نفوس المؤمنين .

---

(٨٩) سورة الأنفال – آية (٦٠) .

والثانى : رعاية وتدبير يفتّان فى عضد الأعداء ويخزلانهم ما أمكن ذلك .

فوسائل النصر هى : الإعداد المادى ، والإعداد المعنوى ، والتدبير المحكم لتوهين الأعداء .

فى تفسير قول الله تعالى :

(يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) (٩٠)

* * *

يروى الإمام البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه قال : لما نزلت : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، فجاء التخفيف فقال (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) قال : فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر ما خفف عنهم ، أى أن ترتيب الحكم سار على ترتيب الآيتين .

وكان المسلمون فى أول أمرهم قليلى العدد ، والمشركون كثيرى العدد ، فكان على المسلم أن يصمد لعشرة من الكفار – ثم كثر عدد المسلمين وتعددت تبعاتهم وخفف الله عنهم هذه المسئولية الشديدة فى الجهاد . فأصبح الفرض على المسلم أن يصمد لاثنين من الكفار ولو صمد لأكثر زاد ثوابه . . . وهكذا .

وذلك ليتأتى الجهاد لأكبر عدد ممكن من المسلمين وتتوزع تبعاته عليهم . وفى الآيات الأمر بالحض على القتال والتعبئة الروحية والنفسية للمقاتلين ، ليكون قتالهم عن عقيدة ، وبيان أثر الدعاية والتعبئة فى الحروب .

وفيها : التذكير بصمود السابقين حيث كان الفرض عليهم أن يصمد الواحد منهم لعشرة من الكفار . . وقد قاموا بذلك الفرض ، فصمد الواحد منهم لأكثر من عشرة كما فى غزوة مُؤْتة وغيرها من الغزوات .

وفيها : أن الصبر أساس النصر ، الصبر على أعباء القتال ، وعلى ما ينتج عنه من خسائر ، والصبر فى مواجهة دعايات الأعداء .

---

(٩٠) سورة الأنفال – آية (٦٥) .

فى سورة براءة والبسملة

تسمى هذه السورة الكريمة سورة العذاب ، لأن العذاب – عقاباً للمنافقين والمشركين – قد ذكر فيها كثيراً ، وتسمى المبعثرة ، لأنها بعثرت ، أى أظهرت وكشفت أسرار المنافقين وعوراتهم ، وتسمى المدمومة ، أى المهلكة للمنافقين ومن لف لفهم ، وفى القرآن الكريم يقول الله تعالى عن الجاحدين المنكرين من ثمود حينما كذبوا صالحا وكفروا برسالته :

(فدمدم عليهم ربهم بذنبهم) . . أى أهلكهم بسبب ذنوبهم ، وتسمى أيضاً المخزية لأنها بكشف أسرار المنافقين قد أخزتهم ، ولها أسماء أخرى تنحو هذا النحو من بيان أمر المنافقين حتى لقد فضحهم فى سفور لا لبس فيه .

وموضوعها إذن لا يتناسب هو والرحمة أو الرأفة ، ومن أجل ذلك لم يبدأها الله سبحانه : بىسم الله الرحمٰن الرحيم . .

وهل يرى المفسرون هذا التعليق ؟

لقد عبر عن ذلك أسلافنا رضوان الله عليهم خير تعبير .

يروى صاحب محاسن التأويل ، وروى الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس قال : سألت على ابن أبى طالب : لِمَ لمْ تكتب فى براءة البسملة ؟

قال : لأنها أمان وبراءة نزلت بالسيف ، أى فنزولها لرفع الأمان الذى يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعاً بوصف الرحمة . ولذا قال ابن عيينة :

اسم الله سلام وأمان ، فلا يكتب فى النبذ والمحاربة ، قال الله تعالى : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) ، قيل له فإن النبى ﷺ : قد كتب إلى أهل الحرب البسملة . . قال : إنما ذلك ابتداء منه يدعوهم ولم ينبذ إليهم ، ألا تراه يقول : « سلام على من اتبع الهدى » فمن دعا إلى الله عز وجل ودعى إلى الجزية فأجاب فقد اتبع الهدى فظهر الفرق .

وكذا قال اليهود : إن التسمية افتتاح للخير ، وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود فلذلك لم تفتح بالتسمية .

فى تفسير أول سورة التوبة

إن رسول الله ﷺ لم يأمر بكتابة البسملة فى أول سورة التوبة ، لأنه لم ينزل عليه وحى بذلك .

والحكمة فى أن الله سبحانه وتعالى لم ينزل الوحى بكتابة البسملة هى كما رواه الحاكم عن رسول الله ﷺ بما أن البسملة أمان ، وسورة التوبة نزلت لرفع الأمان ، وقد نزلت سورة التوبة ، لنقض عهد الكفار ، وفضيحة المنافقين الذين هم أخطر على الإسلام من الكفار الظاهر كفرهم ، فهى سورة عذاب .

والبسملة رحمة ولا تجتمع رحمة مع عذاب ، وسورة التوبة تسمى : السورة الفاضحة لفضيحة المنافقين بها .

وسورة العذاب وكل ذلك يتنافى مع ما تشعره البسملة من الرحمة ولذلك لم تكتب فى أولها .

فى حكم التشاؤم

نهى القرآن الكريم عن التشاؤم ، وبين أن الشؤم من التشاؤم ، حيث حكى عن رسل المسيح عليه السلام فى سورة (يس) ردًّا على المتشائمين : (قالوا طائركم معكم)

وقال ﷺ . لا عدوى ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر .

فقد كان الناس يتطيرون ويتشاءمون إذ كانوا يخرجون الطير فإن طار إلى الشمال تشاءموا وإن طار إلى اليمين تيامنوا وكانوا يتشاءمون من شهر صفر ، فعقد القران فى أى شهر وفى أى يوم جائز لا كراهة فيه ولا حرمة ، فهذا الاعتقاد لا أصل له فى الدين ، بل هو من قبيل الخرافات التى يجب أن تحارب .

لأن من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم الله خرج عن الدين ، لأن التحريم والتحليل المرجع فيه إلى الكتاب والسُّنَّة ، وعلى الأئمة العلماء البيان فقط .

ولقد ضرب الله مثلا لنا فى ذلك عن أعمال الكفار حيث كانوا يحلون ويحرمون بعض الشهور حيث قال الله تعالى يحذرنا من الوقوع فيما وقعوا فيه :

(إنما النَّسيءُ زيادة فى الكفر ، يُضَلُّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدَّة

ما حرم الله فيحلّوا ما حرم الله . زُيِّن لهم سوءُ أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين) . (٩١)

فى تفسير قول الله تعالى :

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة) (٩٢)

* * *

الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ذكرت فضل الجهاد فى سبيل الله وبينت فضل الشهداء وما لهم من المنازل والدرجات عند ربهم ، لم تفرق بين شهيد فى عصر النبوة وشهيد متأخر عن ذلك العصر .

والآية الكريمة التى تقرر تلك الصفة الإلٰهية الرابحة التى عقدها الله تعالى مع المقاتلين فى سبيل الله الذين يَقْتُلُون ويُقْتَلون فاشترى منهم ربهم عز وجل أنفسهم وأموالهم وباعهم الجنة ، لم تفرق بين شهيد مع رسول الله وشهيد لم ينل شرف الصحبة لرسول الله ﷺ . يقول تعالى :

(إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيَقْتُلُون ويُقْتَلون وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومَن أوْفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) .

وآيات سورة آل عمران التى تبين أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم فَرِحُون بما حباهم به ربهم من النعم عامة شاملة لشهداء عصر النبوة وما بعده من عصور ، فقال تعالى : (ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يُرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) .

وقد يكون فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة ما يؤكد أن هذا الفضل عام بالشهداء فى كل العصور ، وليبقى الحافز على الدفاع عن الدين والاستشهاد فى سبيل عزة الإسلام ودفع العدوان عن أرضه وحماه .

فإن المجاهد فى سبيل الله يبذل دمه وماله ويصد العدوان عن أرضه ودينه لعلمه بأن ما عند الله للشهيد خير وأبقى .

ومما ذكره القرطبى فى سبب نزول هذه الآيات قوله : وفى مصنف أبى داود بإسناد صحيح : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ ، لما أصيب إخوانهم بأحد : جعل الله

(٩١) سورة التوبة – آية (٣٧) .

(٩٢) سورة التوبة – آية (١١١) .

أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا هنا أنّا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب ، فقال الله سبحانه : أنا أبلغهم عنكم قال : فأنزل الله : (ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً) . . إلخ وروى بقى بن مخلد عن جابر قال : لقينى رسول الله ﷺ فقال : « يا جابر ما لى أراك منكساً مهتما ؟ قلت يا رسول الله استشهد أبى وترك عيالا وعليه دين ، فقال ألا أبشرك بما لقى الله عز وجل به أباك ، قلت بلى يا رسول الله ، قال : إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول ، وما كلم أحد قط إلا من وراء حجاب فقال : له يا عبدى تمنّ أعطك قال : يا رب ردنى إلى الدنيا فأُقْتَلُ فيك ثانية ، فقال الرب تبارك وتعالى : إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون ، قال : يا رب فأبلغ من ورائى فأنزل الله عز وجل : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله . . .) الآية . فقولهم من يبلغ إخواننا عنا إنّا أحياء فى الجنة نُرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد . وفى رواية أخرى ليزدادوا فى الجهاد رغبة ولا ينكلوا عند الحرب ، وقول الله سبحانه أنا أبلغهم عنكم ونزول هذه الآيات بهذه الصيغة يرجح القول بأنها عامة فى جميع الشهداء .

وأما العمل الذى يجب أن يقوم به المقاتل فى سبيل الله حتى ينال الشهادة فهو أن يكون خروجه للجهاد فى سبيل الله مع صدق العزم وإخلاص النية لله سبحانه ، فإنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . والرسول ﷺ يقول : لا يكْلم أحد فى سبيل الله – والله أعلم بمن فى سبيله – إلا جاء يوم القيامة وجرحه يشخب اللون لون دم والريح ريح مسك ، وألا ينهزم ، ولا يتقهقر وأن يظل يقاتل حتى يُقتل فى سبيل الله صابراً محتسباً ، مُقبلا غير مُدبر .

فالله تعالى يقول : (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومَنْ يولّهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) .

روى مسلم عن عبد الله بن أبى قتادة أنه سمعه يحدث رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد فى سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال ، فقام رجل فقال : يا رسول الله إن قُتلت فى سبيل الله تكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ، إن قتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر .

ثم قال رسول الله ﷺ : كيف قلت ؟ قال : أرأيت إن قُتلت فى سبيل الله أتكفر عن

خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك .

وبين فضل الله سبحانه على المجاهد فى سبيله الذى يخلص النية ويصدق فى عزمه فى طلب الشهادة له أنه يعطيه درجة الشهيد وإن مات على فراشه .

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تصبه .

وعن سهل بن أبى أمامة بن سهل بن حنيف حدثه عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال : من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء ، وإن مات على فراشه ، أما من يخرج مع المجاهدين مُقاتلا فى صفوفهم رياءً وسمعة أو لغرض دنيوى فلاحظٌ له فى نيل فضل الشهيد وإن قُتل .

فقد جاء فى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى أن رجلا أعرابيًا أتى النبى ﷺ ، فقال يا رسول الله : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فَمن فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل الله .

وعن أبى موسى قال : سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حجة ويقاتل رياء أىّ ذلك فى سبيل الله ؟

فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ، وقال ﷺ « مَن قُتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قُتل دون ماله فهو شهيد ، ومَن قُتل دون عِرضه فهو شهيد » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنّ أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأوتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : فيمَ عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يُقال جرىء فقد قيل فأمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فيمَ عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فيمَ عملت فيها ؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك ، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم أُلقى فى النار .

ومن هنا يتضح أن الكرامة التى أعدها الله للشهيد والفضل الذى خصه الله به متوقف على صدق النيّة والإخلاص لله ، والهدف الذى قاتل وقُتل من أجله ، يستوى فى ذلك الشهيد فى عصر النبوة والشهيد بعد ذلك العصر.

أما فضل الصحبة لرسول الله ﷺ فتلك درجة لم ينلها إلا من شرف بصحبته لرسول الله ﷺ وحمل معه العبء الأكبر فى نشر الدعوة والذود عنها ، والتمكين لها فجر مطلعها ، فقد كانوا رضى الله عنهم رهبان الليل فرسان النهار ، وحسبهم ما قاله القرآن الكريم فى شأنهم : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً) .

وقال فيهم رسول الله ﷺ : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

صلى الله وسلم وبارك على رسول الله ورضى عن صحابته ومتبعيهم إلى يوم الدين .

فى تفسير قول الله تعالى :

(وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) [٩٣]

* * *

نزلت هذه الآية فى المتخلفين عن الرسول ﷺ فى غزوة تبوك ، وهى غزوة ندب الرسول ﷺ إليها كل قادر ، وبذل فيها الصادقون ما يستطيعون ولم يتخلف منها أحد ممن يستطيع الجهاد إلا قليلون .

قال ابن كثير (جـ٤ ص ٥) كان المتخلفون من غزوة تبوك أربعة أقسام :

مأمورون – مأجورون : كعلى بن أبى طالب ، ومحمد بن مسلمة ، وابن أم كلثوم .

ومعذورون : وهم الضعفاء المرضى ، والمقلون الذين لم يجد الرسول ما يحملهم عليه فرجعوا باكين لعدم الخروج .

وعصاة مذنبون : وهم الثلاثة : أى كعب بن مالك وصاحبيه ، وأبولبابة وأصحابه وكانوا عشرة .

(٩٣) سورة التوبة – آية (١١٨) .

وهذه الآية نزلت فى أبى لبابة وأصحابه فيما قاله المفسرون وما رواه أصحاب السير ، لقد ربطوا أنفسهم بسوارى (أعمدة) المسجد وقالوا لن نترك مكاننا حتى يطلقنا رسول الله ﷺ ، فلما علم الرسول بذلك قال : وأنا والله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله عز وجل هو الذى يطلقهم ، رغبوا عنى وتخلفوا عن المسلمين ، فأنزل الله تعالى : (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) وعسى من الله لتحقق الوقوع فأطلق الرسول ﷺ سراحهم وعذرهم فجاءوا بأموالهم فقالوا يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا فقال ، ما أمرت أن آخذ أموالكم فأنزل الله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها . .) إلخ فقبل منهم بعض أموالهم ، ومن المعلوم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالمتصدق عند التوبة من الذنب لقبول التوبة وسيلة للتطهير من الآثام والذنوب . .

فى تفسير الآية :

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) (٩٤)

* * *

الخطاب فى الآية للعالم كله – فيكون المراد بقوله تعالى : من أنفسكم أى من جنسكم وأصلكم بشراً مثلكم تفهمون عنه وهو ما يتناسب وعموم الدين وشمول الرسالة .

ويتضح هذا الرأى فى قراءة عبد الله بن قسيْط المكى ، « من أنفسهم » أى من أشرفكم نسباً وأكرمكم حسباً ، وهو ما قامت عليه الأدلة وشهدت به الوقائع .

والآية مدنية بلا خلاف وهى من أواخر آيات القرآن نزولا ، وتفسير الآية على العموم : هو أن الله مَنّ على العالم عامة وعلى العرب خاصة – بإرساله إليهم رسولا منهم يعرفونه ويرون من ملامح حياته الخاصة والعامة ما يقطع بصدقه ، ومن أهم صفاته وأظهر خصائصه رغبته الشديدة فى تخليص العالم من المشقة والعنت والهلاك بإخراجهم من ظلمات الكفر وشروره إلى صفاء الإسلام ونوره ، وحرصه الحريص على الوصول بالبشرية إلى بر الأمان فى رضا الله وطاعته وعبادته حق عبادة .

وهذا الحرص على إسعاد الآخرين ، والأسى الشديد عليهم إذا لم يخرجوا عن غيهم وما هم عليه من ضلال فإنما يدل على رحمة شاملة ورأفة متأصلة تزداد عمقاً وتقوى وأصالة بالنسبة

(٩٤) سورة التوبة – آية (١٢٨) .

للمؤمنين حيث يغذيها الحب ويغمرها الإخاء .

وفى الآية تشريف للرسول ﷺ ، وتكريم للمؤمنين ، وتبكيت للكافرين .

ولقد كان الرسول ﷺ حريصاً على هداية الإنسانية ، حزيناً لما سيصيب الكافرين نتيجة البغى والعناد ، ويمثل لنا ذلك قوله تعالى : (فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) .

(إنْ عليك إلا البلاغ) (أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .

فى تفسير قوله تعالى :

(الر ، كتاب أحكمت آياتُه ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير)

وقوله تعالى : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . . .) (٩٥)

* * *

ذلك أن المعنى فى الآية الأولى أن القرآن الكريم كتاب محكم فى نفسه كما تتحدث آية أخرى : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

إنه محكم فى نفسه ، وهو محكم عند الله سبحانه ، وهو محكم عند الراسخين فى العلم .

ومعنى محكم هنا : أنه حق واضح مترابط ، بين الدلالة صادق الحجة ، فكل آياته محكمة إحكاماً إلٰهيًا كاملا .

أما بالنسبة : لعامة الناس فإن القرآن ينقسم إلى قسمين : قسم مفهوم واضح هو ما يتعلق بالدين بمعناه العام : عقيدة ، وأخلاقاً ، وتشريعاً .

وعبر عن هذا القسم . بأنه محكم لوضوحه . وقسم يتعلق بذات الله وصفاته لا يعلم تأويله وتفسيره إلا الله والراسخون فى العلم .

أما العامة فإن مستواهم الروحى لا يرقى إلى فهمه .

وعبر عن هذا القسمْ بالمتشابه : أى أنه غير واضح بالنسبة للعامة من الناس ، وهو من ذلك محكم فى نفسه ، محكم عند الله ، ومحكم عند الراسخين فى العلم .

---

(٩٥) الآية الأولى من سورة هود أما الأخرى فمن سورة آل عمران آية (٧) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(وما من دابَّة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرَّها ومستودَعها ، كل فى كتاب مبين[٩٦]) .

* * *

يقول الله تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) ويقول سبحانه : (وفى السماء رزقكم وما توعدون) ويقسم سبحانه على ذلك نظراً لضعف الإنسان وقلقه فيما يتعلق بالرزق فيقول تعالى : (فوربِّ السماء والأرض إنه لحقٌّ مثل ما أنكم تنطقون) .

هذا ومن المبادئ الدينية المقررة أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق من كل ذلك نتبين الإجابة على هذا السؤال فيما يتعلق بالأجير وفيما يتعلق بالكتاب وهو : وجوب أداء الصلاة برغم كل الظروف فى أول الوقت أو فى منتصفه أو قرب نهايته إذا لم يكن بد من هذا ، ولتكن النتيجة ما تكون ، ومن اتجه إلى الله فإن الله لا يضيعه .

أما السيدة التى عليها أيام من رمضان فإنها أدرى بحالتها الصحية هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن الفيصل بينها وبين زوجها إنما هو رأى الطبيب : وليس لزوجها أن يمنعها فإذا تأكدت من نفسها أو من رأى الطبيب تأكداً تاما أن حالتها تسمح فعليها القضاء ، ودين الله أسمى من أن يخضع لنزوات زوج وأعلى من أن ينحرف مع انحراف الطبائع .

فى قول الله تعالى :

(وأما الذين سُعِدُوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذ[٩٧]) .

* * *

هذه الآية واردة فى مقابلة الآية التى وردت فى عذاب من كفروا بالله تعالى وكذبوا رسله وهى قوله تعالى : (فأما الذين شَقُوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إنَّ ربَّك فعّال لما يريد) .

وهى تنص على أن الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، هم السعداء عند

---

(٩٦) سورة هود – آية (٦)

(٩٧) سورة هود – آية (١٠٨) .

الله عز وجل وأنهم ماكثون فى الجنة خالدون فيها ، لا تنقطع سعادتهم ولا يفنى نعيمهم .

أما قوله تعالى : (ما دامت السمٰوات والأرض) فإنه مثل أُريد به تأييد خلود المؤمنين فى الجنة ، وأنهم لن يفوتهم وقت من الأوقات إلا وهم مستمتعون فيه ، بنعيم الله فى جنته ، وليس المراد به الاستثناء وذلك كقول العربى مثلا : سأفعل كذا ما لاح كوكب أو ما أضاء فجر ومعناه أنه لن يترك فعل ذلك الشيء أبداً وليس معناه يفعله كلما لاح كوكب أو أضاء فجر وأنه يترك فعله فى غير ذلك كلا .

وأن قوله تعالى : (عطاءً غير مجذوذ) يؤيدهذا التفسير ، فإن معناه عطاء من الله تعالى ، لا يفنى ولا يبيد ، والآيات فى القرآن كثيرة مستفيضة فى تأييد هذا المعنى وفى إثباته .

فى إن فعل الخيرات يذهب السيئات بدليل قول الله سبحانه وتعالى :

(وأقم الصلاة طرفى النهار وزُلفاً من الليل ، إن الحسناتِ يذهبْن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين[٩٨]) .

* * *

إن الطريق الشرعى الذى رسمه الله سبحانه وتعالى ، هو أنه إذا اتجه الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى ، فإن الخطوة الأولى إنما هى التوبة الخالصة النصوح ، وكيفية التوبة الخالصة النصوح بيّنها الإمام النووى فيقول :

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط ، أحدها : أن يقلع عن المعصية . والثانى أن يندم على فعلها ، والثالث : أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً ، فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه ردّه إليه وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه وإن كان غيبة استحله منها .

وقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه ، وفتح أبواب رحمته لكل من يتجه إليه ، يقول سبحانه :

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم[٩٩]) .

---

(٩٨) سورة هود – آية (١١٤).

(٩٩) سورة الزمر – آية (٥٣) .

ويقول سبحانه فى حديث قدسى : وفى دقة دقيقة داعياً إليه عباده . « يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم »

فالتوبة هى الخطوة الأولى لمن أتى من المعاصى ، ويأتى معها وبعدها فعل الخيرات فيكون إن شاء الله العفو والمغفرة والرحمة . ويقول الله تعالى :

(إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها .

هذا وإن ارتكاب كثير من المعاصى ، فإن فعل الخيرات مكفر لها بشرط : الإقلاع عن الذنب والندم على ما فات ، والعزم على أن لا يعود إليه أبداً فإن تحقق منه ذلك فلا شك أن فعل الخيرات يكفر ما ارتكبه من معاصى وصدق الله العظيم إذ يقول :

(إن الحسنات يذهبن السيئات) .

فالتوبة الصادقة والعمل الصالح يبدل الله بذلك سيئاتهم حسنات ويغفر ما تقدم من ذنب .

ومما لا شك فيه أن باب الله مفتوح للتائبين والله يحب التوابين . . .

فى قصة يوسف عليه السلام

إن الآيات القرآنية الخاصة بهذا الموضوع تتسلسل فى معناها على الوضع التالى :

لقد عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك ، واقتنع الملك بأن هذا التعبير هو الصواب فقال : ائتونى به ، فلما جاءه رسول الملك يدعوه لمقابلته أحب يوسف أن يلقى الملك وهو برىء من كل شبهة فحمل الرسول رسالة الملك قائلا :

(ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إنّ ربى بكيدهن عليم) ورجع الرسول إلى الملك وبلغه الرسالة فجمع الملك النسوة وسألهن :

ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه .

فرد النسوة قائلات :

حاش لله ما علمنا عليه من سوء .

وكانت امرأة العزيز حاضرة حينئذ فقالت : (الآن حصحص الحق) – أى تبين الحق وظهر وبرز – ثم اعترفت قائلة : (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) .

وهذا الاعتراف منها عللته بقولها : (ذلك ليعلم أنى لم أخُنْه بالغيب) أى ليعلم زوجها الحقيقة وهى أن المسألة لم تكن إلاَّ مراودة وأن الجريمة الكبرى لم تقع .

ثم استمرت تقول : وما أبرئ نفسى فإنها قد تمنت وأحبت وأرادت والنفس دائماً أمّارة بالسوء إلا من عصم الله (وما أبرئ نفسى إنّ النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور رحيم)

كل هذا كان بحضرة الملك ولم يكن يوسف إذ ذاك حاضراً وإنما أحضره الملك بعد ذلك آمراً من جديد (ائتونى به أستخلصه لنفسى) وكلمة : أستخلصه لنفسى تدل دلالة واضحة على أن الملك اقتنع اقتناعاً تامًّا ببراءة يوسف عليه السلام .

فالآيات المسئول عنها من كلام امرأة العزيز ، وليست من كلام يوسف عليه السلام كما أوضحنا .

فى تفسير قوله تعالى :

(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم[١٠٠]) .

* * *

وهذه الآية نص صريح فى أن كتاب كل رسول الذى نزل عليه كان بلسان قومه . . فالتوراة والإنجيل والزبور كانت بلسان من نزلت إليهم . . وكان هذا اللسان هو اللسان العبرى . . أو اللغة العبرية .

ولقد كانت تكتب تلك الكتب كالقرآن . وقد وردت النصوص التى تثبت ذلك . . فموسى عليه السلام يقول الله تعالى عنه .

(وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخُذْها بقوة وأْمُرْ قومك يأخذوا بأحسنها[١٠١]) .

وعن التوراة يقول تعالى :

(وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين . . .) إلخ

(١٠٠) سورة إبراهيم – آية (٤)

(١٠١) سورة الأعراف – آية (٤٥) .

وعن الإنجيل يقول تعالى :

(وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونورٌ ومصدِّقاً لما بين يديه من التوراة وهدى ومَوعظة للمتقين) .

وعن الزبور يقول تعالى :

(ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) فالتوراة والإنجيل والزبور كانت تكتب كالقرآن ونزلت بلغات أهلها وهى العبرية . .

ومن المعلوم أن اللغة العبرية لغة بنى إسرائيل تخالف اللغة العربية فى حروفها وتختلف عنها فى طريقة كتابتها .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ما يقوله تعالى مخاطبا رسول الله ﷺ :

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) .

فى تفسير قوله تعالى :

(والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون[١٠٢]) .

* * *

هذه آية من سورة النحل ذكرها الله تعالى فى تعداد نعمه على عباده ، ونذكر أولا مفرداتها التى هى فى حاجة إلى بيان :

الظلال : جمع ظل وهو ما يقى الإنسان من حر الشمس .

والأكنان : جمع كِنّ وهو وقاء كل شىء وستره .

والسرابيل : جمع سربال وهو ما يستّر الإنسان .

والبأس : شدة الحرب .

والمعنى والله سبحانه وتعالى جعل من النعم التى أسبغها على عباده ما يستظلون به من شدة الحر من الغمام والجبال والأشجار والبيوت وغيرها مما يستظل به من حر الشمس ولفحها لولا ذلك لأهلكت الشمس الآدميين .

وكذلك من نعم الله سبحانه أن جعل لهم من الجبال أماكن يسكنون فيها ويستكنّون ويستترون

(١٠٢) سورة النحل – آية (٨١) .

كالكهوف والمغاور والأسراب والحصون والمعاقل التى يسترون فيها الأعداء ويعتصمون بها من كل ما يقصدهم بشرٌ أو يريدهم بسوء .

ومن نعمه أيضاً أن جعل لهم مما خلق ثياباً من القطن والصوف والكتان والحرير ونحو ذلك يحفظهم من الحر اللافح وتدفع عنهم البرد القارس الذى يضر بأجسامهم ويقلل من إنتاجهم .

وكذلك جعل لهم مما خلق دروعاً يلبسونها ويستترون بها فتدفع عنهم قذائف العدو ورماحه عند شدة الحرب والتحام الجيش . مثل هذا الإنعام الكبير الذى أنعم الله به عليكم أيها الآدميون إنما جعله لكم ليتم نعمته عليكم فتشكروه عليها وتسلموا وجوهكم له وتبتعدون عن الشرك وعبادة غيره ، لأن من أنعم بهذا النعم الكبرى حقيق بأن يعبد وحده ولا يشرك بعبادته مع غيره .

فى تفسير قول الله تعالى :

(ومنكم من يُردّ إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئاً[١٠٣]) .

* * *

كان الرسول ﷺ يستعيذ بالله ويقول : وأعوذ بك من أرذل العمر فما معنى هذا وما ضرر العمر الطويل ؟ .

أرذل العمر : أردؤه وهو الهرم والخرف ومعنى قوله تعالى : ومنكم من يُردّ إلى أرذل العمر ، أى منكم من يبلغ من السن ما يتغير به عقله فلا يعقل شيئاً فيصير كما كان فى أول طفولته ضعيف النية ساذج العقل قليل الفهم .

وهذه الحالة هى التى استعاذ منها رسول الله ﷺ . فالعمر الطويل بركة للصالحين وتكثير لثوابهم ، والعمر الذى انتهى بالإنسان إلى حالة يحتاج فيها إلى من يرشده ويهديه ويسوسه ويرعاه يصبح مفرغاً من المشقة الكبيرة التى يسأل الإنسان ربه أن ينجيه منها .

على أن منصب النبوة الشريف كما نعلم ومسئولياتها تتطلب من النبى ﷺ أن يكون قادراً على إدارة شئون الدنيا وتحقيق مطالب الآخرة وذلك يحتاج إلى القوة البدنية والعقلية ، والهرم المرذول يمنع من ذلك ويجعل المرء عاجزاً حتى عن قيادة نفسه ، ومن هنا استعاذ منه الرسول ﷺ .

وإن تقييد العمر بالأرذل يدل على أن من العمر الطويل ما هو خير وبركة ، ولا ينتهى بالإنسان إلى هذه الحالة المرذولة وهذا ما لم يستعذ منه رسول الله ﷺ .

---

(١٠٣) سورة النحل – آية (٧٠) .

ثم إن أرذل العمر قد يحصل لمن هو صغير السن إذا ساء خلقه وفسد عمله أو صار كما يقول الفقهاء سفيهاً ولو كان فى ريعان الشباب .

ومن هنا فإن هذه الاستعاذة ليست استعاذة من طول العمر وإنما هى استعاذة من العمر الذى لا يكون فيه عمل صالح أو قدرة على أداء ما يجب وترك ما ينبغى أن يترك .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون[١٠٤]) .

* * *

كل ما هو عدل وإحسان وخير يأمر الله تعالى به . وكل ما هو فاحشة ومنكر وإفساد ينهى عنه سبحانه .

ومعاشرة الرجل لرجل مثله من الفواحش المنكرة التى لا يرتكبها إلا من انتكست فطرته وكان أخس من الحيوان فى طبعه ، لأن الحيوان لا يفعل ذلك ولا يأتيه ، ولقد انتشرت هذه الفاحشة فى قوم فأرسل الله إليهم لوطاً ، عليه السلام ليحولهم عن هذه الفاحشة المنكرة ولكنهم أصروا على ارتكابهم لها فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله بذنوبهم ونكس بيوتهم عليهم وذكر قصتهم فى كثير من سور القرآن لتكون عظة وعبرة لأمثالهم . قال تعالى فى سورة الأعراف .

(ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ، وما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون. فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) .

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن وهو أحد قولى الشافعى رحمه الله والحجة ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به . وقال بعض الأئمة وهو قول آخر للشافعى رضى الله عنه إن حكمه حكم الزانى ، فإن كان محصناً رجم وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة وعلى الجملة فإن هذه الفاحشة من الكبائر التى

(١٠٤) سورة النحل - آية (٩٠) .

يجب على مرتكبها أن يبادر إلى الإقلاع عنها والتوبة والرجوع إلى ربه والتكفير عن سيئاته قبل أن يأخذه الله كما أخذ قوم لوط بالعذاب الأليم فهو كافر لأنه أحل ما حرمه الله ، وأصبح معلوماً من الدين بالضرورة ونعوذ بالله من هذه الفاحشة التى تؤدى إلى العذاب الأليم .

فى تفسير قوله سبحانه :

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون[١٠٥]) .

* * *

هذه الآية ترغيب للمؤمنين فى الإتيان بالأعمال الصالحة وبكل ما حث عليه الشرع من برّ وإحسان وتشمل الذكر والأنثى وفى هذا دليل على مسئولية كل فرد من الرجل والمرأة عن عمله ومجازاة كل منهما بالجزاء الحسن على العمل الصالح بالمساواة ، والمراد بالحياة الطيبة هو الحياة التى ينعم فيها صاحبها بطيب العيش والهدوء والطمأنينة ، والاستقرار وعدم المخاوف والأحزان .

وهذه الحياة يرى جمهور المفسرين أنها فى الدنيا ، والدنيا وإن كانت لا تخلو من بعض المنغصات إلا أن المؤمن يرزقه الله القناعة بما قسم الله له ، والرضا بما قرره وقضاه فيكون راضيا فى حياته سعيدا بها منعماً فيها ، وذلك شأن كامل الإيمان . والله سبحانه وتعالى يبين لنا أن التقوى سبب فى إخراج الإنسان من كل مأزق ومن كل هم ومن كل ضيق ، وهى سبب فى توافر الرزق وحصول الإنسان عليه من حيث لا يحتسب .

فيقول سبحانه (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ، والعمل الصالح مع الإيمان سبب فى السعادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، والسعادة فى الدنيا هى ما عبر الله سبحانه وتعالى عنها بالحياة الطيبة .

فى سبيل الدعاة :

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم مبيناً سبيل الدعاة وطريقهم :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن[١٠٦]) .

* * *

---

(١٠٥) سورة النحل – آية (٩٧) .

(١٠٦) سورة النحل – آية (١٢٥) .

وسبيل الداعى إلى الله سبحانه أن يكون عالماً بأمر الدعوة عقيدة وأخلاقاً وتشريعاً يقول الله تعالى فى القرآن الكريم على لسان رسوله الكريم :

(قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) .

والبصيرة فى هذه الآية الكريمة تشمل الدعوة وأسلوب الدعوة وسبيل البصيرة فى الدعوة العلم بها وسبيل البصيرة فى أسلوب الدعوة الرفق والاتزان وأخذ الأمور مأخذ الروية والتعقل ، وهذه هى الحكمة .

ثم الحديث بالواعظ بأحسن الطرق والأساليب التى تأخذ بالقلوب وتتعلق بها الأسماع وهذه هى الموعظة الحسنة .

وإذا اقتضت الظروف الجدل والنقاش واضطررت إليه اضطراراً ، فليكن بالحسنى ، والجدل والنقاش إنما هى المرتبة الثالثة فى الدعوة إلى الله ، وهى مرتبة لا يأتيها الإنسان إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك ، وهل فى القرآن الكريم نهى صريح عن اتخاذ الأسلوب العنيف .

يقول الله تعالى للمؤمنين : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدْواً بغير علم) .

وهذا نهْى لهم عن اتخاذ الأسلوب العنيف فى الدعوة .

ويقول الله تعالى لرسوله : (ولو كنت فظًّا غليظ القلب لا نفضوا من حولك) .

وكل من خالف أوامر القرآن وأسلوب الرسول عليه والصلاة والسلام فى الدعوة فهو آثم . لأن كل دعوة فى الإسلام على غير الوجه الذى أرشدنا الله ورسوله إليه تسىء إلى الإسلام أكثر مما تنفعه فهى دعوة ضارة بالإسلام ، ثم يأتى صاحبها ويمنع من الاستمرار فيها » .

فى معنى قول الله تعالى :

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير[١٠٧])

* * *

فالمسجد الأقصى موجود بنص تلك الآية الكريمة ، وكان مسرى رسول الله ﷺ إليه ، وقد تناولته أيدى الأمراء بعد الفتح الإسلامى بالتجديد تارة ، والزخرفة تارة أخرى .

وما ورد من أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان هو الذى بنى المسجد الأقصى وأكمله من بعده الوليد صحيح .

---

(١٠٧) الآية الأولى من سورة الإسراء .

ولعل بناءه له كان نتيجة حتمية لتجديده تجديداً يناسب ما للمسجد من مكانة سامية فى نفوس المسلمين وغيرهم من الدول التى تتجه إليه وتستقبله فى صلاتها ودعائها كاليهود والمسيحيين.

ولما لم يتم الملك بناءه أتمه من بعده ولده.

وما نشر فى الصحف من أن بعض الدول الإسلامية دول علمانية لا يغير من جوهر المسجد الأقصى شيئاً.

فى قوله تعالى :

(وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدنَّ فى الأرض مرتين ولتعلُنَّ علوًّا كبيراً[١٠٨]) .

* * *

المراد بالكتاب فى الآية الكريمة هو التوراة التى أنزلها الله تعالى على سيدنا موسى عليه السلام ، والمعنى كما يقول العلامة ابن كثير فى تفسيره ، يخبر الله تعالى أنه قضى إلى بنى إسرائيل فى الكتاب أى أخبرهم فى الكتاب الذى أنزله عليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ويعلون علوا كبيراً : أى يتجبرون ويطيعون ويفجرون على الناس كقوله تعالى : (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) . أى أخبرناه بذلك وأعلمناه به .

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء الذين سلطهم الله على اليهودمن هم ؟ وقد وردت فى ذلك روايات كثيرة ، يقول ابن كثير : وفيما قص الله علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم ، وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم جزاءً وفاقاً (وما ربك بظلام للعبيد) ، إنهم كانوا تمردوا وقتلوا حلفاً من الأنبياء والعلماء وسواء أحدثت المرتان اللتان تشير إليهما الآية الكريمة أم حدثت أولاهما وبقيت الآخرة فإن الآية الكريمة تحدد وعيد الله لهم بأنهم إذا عادوا إلى الإفساد فى الأرض عاد الله إلى التنكيل بهم على يد بعض عباده قال تعالى : مختتماً هذه الآيات : (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرًا) .

ومن المؤكد تاريخيًّا أنهم عادوا إلى الإفساد فى الأرض فسلط الله عليهم من نكل بهم وشردهم وأذاقهم وبال أمرهم ، ولا يغيب عن الأذهان ما حدث بهم فى النصف الأول من هذا القرن وما يحدث من طرد العالم كله لهم ليستريح من شرهم وأخيراً وليس - بإذن الله آخراً ما حدث بهم

(١٠٨) سورة الإسراء - آية (٤) .

فى العاشر من رمضان السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ من تحطيم حصونهم المنيعة بسيناء وتيتيم أطفالهم وترميل نسائهم وبكاء رؤسائهم وما ضرب عليهم من الذلة والهوان وسيبعث الله عليهم بمشيئته تعالى – ونرجو أن يكون ذلك قريباً – من يطهر بيت المقدس من رجسهم ليعود إليه وجهه العربى المشرق ، وكلما انتعشوا وبغوا فى الأرض وأفسدوا سلط الله عليهم من عباده من يسومهم سوء العذاب ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

(وإذ تأذّن ربكِ ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب).

فى تفسير قول الله تعالى :

(إنّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا[١٠٩]) .

* * *

فقد ورد فى سياق آيات تحث على الإنفاق والبذل : فإن قبل هذه الآية الكريمة يحث الله سبحانه على الإحسان بالوالدين الإحسان الذى يتضمن الرعاية بجميع أنواعها قولية كانت أو فعلية ومنها الإنفاق عليهما عند الحاجة (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحسانا) ثم يحث الله سبحانه على إيتاء ذى القربى والإنفاق عليهم والبّر بهم ويحث كذلك على إيتاء حق المسكين وابن السبيل ، ثم يرشد سبحانه إلى أن الطريقة المثلى فى كل ذلك إنما هى عدم التبذير والابتعاد عن الإسراف ، ثم يبين بعد ذلك مباشرة القانون الذى يرتضيه سبحانه لبنى آدم فيقول : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) .

وما من شك فى أن التبذير مذموم وأن الإسراف لا يقره عاقل ولكن البخل أيضاً مذموم والتقتير لا يقره المستنيرون ، يقول الله تعالى : (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) ويقول : سبحانه (فأما مَنْ أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردّى) إن البخيل المقتر الذى يكتنز الذهب والفضة لن ينفعه ما له وماكنز حينما تأتيه سكرة الموت بالحق ، وحينما يحل به القدر المحتوم يوم لا ينفع مال ولا بنون وكماحث القرآن على التزام القصد وعلى اتخاذ التوسط فى الإنفاق فإن الرسول صلوات الله عليه حث على الإنفاق على الأهل ففيما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت

(١٠٩) سورة الإسراء – آية (٢٧).

به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك ، وقال صلوات الله عليه «كفى المرء إثماً أن يضيع من يقوت » فالتقتير على الأسرة بحجة نهى الله سبحانه عن التبذير ليس طريق المهتدين بهدى الله الذى هو التوسط والقصد والاعتدال ، وليس من الدين فى شىء .

فى قول الله تعالى :

(وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحسانا ، إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقُل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً(١١٠)) .

* * *

فى هذه الآيات الكريمة أمر الله بالإحسان إلى الوالدين بجميع أنواع الإحسان التى لا إثم فيها ، وشدّد سبحانه فى هذا الأمر بحيث أدخله مع لزوم توحيده فى العبادة تحت أمر واحد ، فإذا شعر الإنسان بأنه قد أهمل شأن والديه وكان بعيداً عنهما فعليه أن يسافر إليهما إذا استطاع وعليه أن يكتب إليهما مستسمحاً مستغفراً إذا لم يستطع ويوسط بعض معارفه إذا كان له معارف بالقرب منهما فى أن يعفوا عنه .

وتأتى التوبة من قبل كل ذلك ، وفى أثنائه ومن بعده توبة نصوحاً إلى الله سبحانه معترفاً بذنبه ، مستغفراً منه شاعراً بالندم على أنه قابل إحسانهما إليه جنيناً ورضيعاً وطفلا ويافعاً بما لا يليق بإحسانهما إليه .

ويعزم عزماً مؤكداً أنه إذا التقى بهما يكون مثالا للابن البار ، وعسى الله سبحانه بذلك أن يغفر له ويقبل توبته هذا ما لم تكن التوبة فى لحظة الاحتضار أى ما لم يغرغر ، فإن التوبة فى حالة الاحتضار لا تفيد .

فى قوله تعالى :

(أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً(١١١)) .

* * *

(١١٠) سورة الإسراء – آيتا (٢٣ – ٢٤) .

(١١١) سورة الإسراء – آية (٥٧) .

إن الوسيلة فى هذه الآية بمعنى القربة التى يبتغى بها مطلوب ، وهو الفلاح الوارد فى آخر الآية مترتباً على التقوى والجهاد فى سبيل الله وطلب الوسيلة إليه سبحانه . وتقوى الله طريقها معروف وهو الإيمان والعمل الصالح والقربات مبينة فى الكتاب والسنة ، والجهاد أمره واضح فلا إشكال فى معرفة معنى الوسيلة ولا فى معرفة ظواهرها .

وجاءت الوسيلة بهذا المعنى فى قوله تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) أى يطلبون من الله الزلفى والقربة ويتضرعون إليه فى طلب الجنة .

وجاءت الوسيلة فى السنة بمعنى قول النبى ﷺ إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول : ثم صلوا على فإنه من صلى صلاة صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له الشفاعة . . رواه عن عبد الله ابن عمرو بن العاص . والوسيلة صيغة على وزن فعيلة ، مأخوذ من توسلت إليه أى تقربت قال عنترة : إن الرجال لهم وسيلة ولعلك تقصدين من سؤالك أيتها الطالبة ما تعارف عليه بعض الناس من قولهم توسلت بفلان إلى الله أو توسلت بجاه محمد أو جاه بعض الأولياء إلى الله فاعلمى أن التوسل إلى الله لا يكون إلا بالإيمان به وطاعته ، ولا يشفع لأحد إلا بإذنه سبحانه . وإذا توسل إنسان إلى الله بدعاء رجل صالح ليكون هو الداعى دليل على حب وتقدير لهذا الصالح وتقدير الصالحين وحبهم لون من ألوان الطاعة لله .

أما قول بعضهم : أسائلك بحق أنبيائك فقد منعه بعض الفقهاء ، كما قال القدورى : المسألة بحقه لا تجوز ، لأنه لا حق للخلق على الخالق .

ومهما يكن من شىء ، فإن الواجب على المسلم أن يجتهد فى عمل الطاعات فهى وسيلته إلى الله ، وأن يدعوه ، فإن الدعاء بالعبادة رابطة العبد بالله ولا بأس من سؤال أحد الصالحين أن يدعو له ربه ، فإن الطلب كله من الله ، وقد سأل الصحابة بعضهم بعضاً . .

ويجب تحسين الألفاظ وتحديدها عند الدعاء حتى لا يكون هناك اعتراض يثير الجدل ويرمى به بعض الناس بالكفر . وأخيراً أقول (إنما الأعمال بالنيّات) وما دام المقصود بالطلب هو الله وحده ، فإنه لا إشراك فى ذلك ، وليكن تعليم الجهال من العامة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتفصيل موضوع الوسيلة بين المجيزين والمانعين ليس محله هنا .

فى تفسير قول الله تعالى :

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً[١١٢]) .

* * *

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بلسان عربى مبين كما قال تعالى : (قرآنا عربيًّا غير ذى عوج) وتحدى به العرب وهم أرباب الفصاحة والبلاغة على أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عن معارضته ، قال تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

ولقد افتتح الله سبحانه وتعالى بعض سور القرآن بحروف مثل : ألم ، المر ، حم ، حم عسق . وذكر العلماء لهذه الحروف معانى متعددة ، فمنهم من قال : إنها أسماء للسور التى افتتحت بها . ومنهم من قال : إن كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى والعرب تنطق بالحرف الواحد تدل به على الكلمة التى هو منها .

ومنهم من فوض أمر علم معانيها إلى الله سبحانه وتعالى كما ذكره الجلال السيوطى فى الإتقان قال : إنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله .

والراجح كما ذكره الرازى والمحققون : أنها إنما ذكرت هذه الحروف فى مفتتح السور بياناً لإعجاز القرآن ، وأنه كلمات مركبة من حروف الهجاء التى تتألف منها الكلمات التى ينطق العرب بها ، وقد عجز الخلق عن معارضتها فلو لم يكن وحياً من الله تعالى لم تتساقط مقدرتهم دون معارضته .

فى تفسير قول الله تعالى :

(ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً . قُلِ الله أعلم بما لبثوا له غيب السمٰوات والأرض أبصرْ به وأَسْمع ، مالهم من دونه من ولىٍّ ولا يشرك فى حكمه أحداً[١١٣]) .

* * *

(١١٢) سورة الإسراء – آية (٨٨) .

(١١٣) سورة الكهف – آيتا (٢٥ – ٢٦) .

جاء ذكر أصحاب الكهف فى القرآن الكريم فى سورة (الكهف) وقال الله تعالى لنبيه : (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) وهى على ما وردت به الروايات :

أنه كان بمدينة أفسوس أو طرسوس – بآسيا الصغرى – ملك اسمه دقيانوس ، وكان يدعو أهل مملكته إلى عبادة غير الله ، ويظلمهم ، ويعذبهم إن هم خالفوا أمره ، وكان فى البلدة فتية آمنوا بربهم وقرروا فيما بينهم الفرار بدينهم من ظلم ذلك الملك وعسفه ، فخرجوا وآووا إلى كهف فى الجبل واتخذوه مأوى لهم يعبدون الله فيه ، ولم يذكر فى الروايات أنهم نبهوا أهلهم أو لم ينبهوهم ، وأغلب الظن أنهم أسرّوا إلى المقربين إليهم من أقاربهم بسفرهم حتى لا يكون فى غيابهم همّ أو غمّ لأهلهم وخاصة الآباء والأمهات ، وأهل الله يحبون دائماً أن لا يكونوا مصدر قلق وحزن لغيرهم وخصوصاً إذا كانوا أقرب المقربين إليهم وأغلب الظن أيضا أنهم وإن كانوا أخبروهم بالسفر فإنهم لم يخبروهم بالمكان.

ولقد ذكر القرآن الكريم أنهم لبثوا فى الكهف ثلثمائة وتسع سنين ضرب الله على آذانهم فى الكهف هذه المدة الطويلة ، ثم بعثهم وأخذوا يتساءلون بينهم عن المدة التى لبثوها كما قص القرآن : (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أنهم لبثوا فى كهفهم هذه المدة الطويلة قال تعالى : (ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً قل الله أعلم بمالبثوا له غيب السموات والأرض) .

ولقد حاول كثير من المفسرين أن يحدد مكان الكهف وأخذ يذكر البلد الذى به الكهف ، ولكن هذه المحاولات إنما هى ضرب من التخمين وليس فى القرآن ولا فى السنّة ما يحدده ، وعلينا أن نكتفى بما ذكره القرآن الكريم وإنما ذكر القصة للعبرة والعظة وهى فى هذا المجال مليئة بالمعانى ككل قصص القرآن.

فى معنى الكهف :

قيل إن هذا الكهف بشرق الأردن ، وقيل بفلسطين وقيل بالضفة الشرقية من جهة نهر الأردن.

والذين بالكهف لم ينبهوا أهلهم قبل الذهاب إليه لأن كل من كانوا بالبلد الذى هم فيه كانوا

كفاراً ، فخشية أن يمنعوا من الذهاب إلى الكهف ، وخشية التعذيب لم يخبروا أحداً بمقصدهم بدليل قول الله سبحانه وتعالى :

(فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً ، فليأتكم برزق منه ، وليتلطف ولا يشعرنّ بكم أحداً ، إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً) .

وهؤلاء هم المعروفون فى التاريخ بأنهم أهل الكهف .

فى تفسير قوله تعالى :

(قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدًّا[١١٤]) .

* * *

يختلف المؤرخون فى أمر يأجوج ومأجوج وأمر السد الذى بناه ذو القرنين ، فما رأى الدين فى ذلك ؟ يروى الإمام ابن حزم أن أمر يأجوج ومأجوج قد ذِكر فى كتب اليهود التى يؤمنون بها والتى يؤمن بها النصارى ، ويروى أن أرسطو ذكر يأجوج ومأجوج ، وذكر السد فى كتابه (الحيوان) ويذكر ابن حزم أيضاً أن بطليموس : ذكر فى كتابه المسمى (جغرافيا) سد يأجوج ومأجوج ثم يقول ابن حزم .

« واعلموا أن ما كان فى عنصر الإمكان فأَدْخَلَه مُدْخِلٌ فى عنصر الامتناع بلا برهان فهو كاذب مبطل ، جاهل أو مجاهل ، لاسيما إذا أخبر به من قد قام البرهان على صدق خبره » .

ويقول السيد محمد جمال الدين القاسمى فى تفسيره قال بعض المحققين اعلم أنه كثيراً ما يحدث فى الثورات البركانية أن تنخسف بعض البلاد أو ترتفع بعضُ الأراضى حتى تصير كالجبال وهذا أمر مشاهد حتى زمننا هذا . فإذا سلم أن سد ذى القرنين المذكور فى هذه الآية غير موجود الآن ، فربما كان ذلك ناشئاً من ثورة بركانية خسفت به وأزالت آثاره ولا يوجد فى القرآن ما يدل على بقائه إلى يوم القيامة ومعنى قوله تعالى :

---

(١١٤) سورة الكهف – آية (٩٤) .

(هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكّاء)

معناه : أن هذا السد رحمة من الله بالأمم القريبة منه ، لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم ولكن يجب عليهم أن يفهموا أن متانته وصلابته لا يمكن أن تقاوم مشيئة الله القوى القدير ، فإن بقاءه إنما هو بفضل الله ، ولكن أجل السد له فى المشيئة الإلهية حد ينتهى إليه فإذا حان الموعد المضروب فى المشيئة الإلهية. فإن هذا السد لا يقف لحظة واحدة أمام قدرة الله .

بل يدكه دكًا فى لمح البصر ا.هـ..

والذى يفهم من القرآن : أن يأجوج ومأجوج أمتان أو قبيلتان كبيرتان تفسدان فى الأرض بالنهب والسلب والإغارة المستمرة على من جاورهما من الأمم ، وليس فى هذا الأمر غرابة ، فهو موجود فى كثير من القبائل أو الأمم الموجودة فى عصرنا الراهن ولما وصل ذو القرنين إلى من يجاور القبيلتين ورأوا منه القوة والحكمة والعلم والاستعداد لعمل الخير وجهوا إليه الرجاء فى أن يقيم بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا منيعاً فى مقابل أجر يعطونه له ، فامتنع عن أخذ الأجر وقال : (ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً) .

فى تفسير قول الله سبحانه :

(إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلا[115]) .

* * *

فالآية تفيد أن دخول الجنة غاية للإيمان والعمل الصالح ، والإيمان هو التصديق بوحدانية الله وبصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه .

والعمل الصالح هو العمل بشرائع الإسلام وأداء أركانه واتباع ما جاء به الرسول ﷺ واجتناب المنهيات لقوله تعالى : (إن تجتنبوا كبائر ما تُنهَوْنَ عنه نكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مُدخلا كريماً) .

فمن أتى بذلك المذكور من الإيمان والعمل الصالح واجتناب المنهيات دخل الجنة ، وأول ما يبدأ به مرضاة الله تعالى ، ودخوله الجنة إنما هوبالتوبة الخالصة النصوح ، التوبة الخارجة من أعماق القلب المؤمن ، والتوبة هى أولى الخطوات للسالك إلى الرشاد والهداية ، ومن أجل ذلك حث الله عليها كثيراً فقال سبحانه فى حديث قدسى :

(١١٥) سورة الكهف – آية (١٠٧) .

« يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم » وأمر سبحانه وتعالى بها فى القرآن الكريم قائلا :

(وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّهَ المؤمنون لعلكم تفلحون) .

وبعد التوبة يكون العمل الصالح ، وذلك أن التوبة تضع الإنسان فى مرتبة البراءة فتكون صحيفة أعماله بيضاء ويأتى بعد ذلك العمل الصالح ، ولقد رسم الله الطريق لدخول الجنة فى أسلوب محكم فيه مجال للرجاء ، وفيه وعد ووعيد ، وفيه بشرى النجاة للذين اتقوا فقال :

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) إلى قوله تعالى : (ولا هم يحزنون[١١٦]) .

معنى قوله تعالى :

(وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضيًّا[١١٧]) .

* * *

روى ابن جرير بإسناده عن عبد الله قوله : (وإن منكم إلا واردها) قال : الصراط على جهنم ، مثل حد السيف فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة ، كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون « اللهم سلم سلم » .

يقول ابن كثير : ولهذا شوهد فى الصحيحين وغيرهما من رواية أنس وأبى سعيد ، وأبى هريرة وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم .

ويكون إذن معنى الورود فى الآية الكريمة : هو المرور على الصراط والصراط على جهنم ، وليسّ المراد دخول النار بالفعل .

ولقد روى الإمام أحمد ، رضى الله عنه ، بسنده عن حفصة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

إنى لأرجو ألاّ يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية ، قالت حفصة : أليس الله يقول :

(١١٦) سورة الزمر – الآيات من (٥٣ – ٦١) .

(١١٧) سورة مريم – آية (٧١) .

(وإن منكم إلا واردها) ؟ فقال رسول الله ﷺ .

(ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًّا) .

وهذا هو رأى قتادة أيضاً : يقول قوله : (وإن منكم إلا واردها) : قال هو الممر عليها . أما قوله تعالى : (كان على ربك حتماً مقضياً) فقد فسرها ابن مسعود بقوله : قسماً واجباً وفسرها مجاهد بأنها قضاء حتم .

فى تفسير قوله تعالى :

(قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌّ فإمّا يأتينكم منى هُدى فمن اتبع هداى فلا يضلُّ ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . قال ربِّ لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنتُ بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى[١١٨]) .

* * *

فى هذه الآيات مقارنة بين من اتبع الهدى ومن أعرض عنه ، إن من اتبع الهدى فلا يضل عن طريق الحق ومتابعة الشرع ولا يشقى مهما نزل به فى الدنيا ، إنه راض قانع ، فى نضاله وكفاحه ، مستسلم لله سبحانه وتعالى ، شرح الله صدره بالإيمان وطمأنه بالتقوى والذكر : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

أما من أعرض عن نداء الحق وتجاهل أوامر الشرع وسار فى حياته بلا مرشد من الدين ولا دليل من الهدى فإنه – مهما كان غناه – ساخط ، متبرم ، قلق غاضب ، حسود ، حقود . وقد يكون كسبه حراماً وهو لا يهتم .

ويعاقبه الله تعالى فى الآخرة على ذلك بالعمى فلا يبصر طريقه ، ويسير على غير هدى ، إنه لا يبصر حجة ولا يستطيع دفاعاً عن نفسه .

ويتساءل كأنه لا يعرف أو لأنه نسى من هول ما حصل له : (ربِّ لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) . ويكون الجواب بما يفيد : لقد كانت الآيات الإلهية أمامك فهل أبصرتها ؟ وهل سرت على هداها أو تعاميت عنها ؟ إن الجزاء من جنس العمل ، والعمى فى القيامة هو عمى البصيرة ، هو الحيرة والتخبط وعدم الاهتداء إلى سبيل النجاة .

---

(١١٨) سورة طه – الآيات من (١٢٣ – ١٢٦)

وهذا الجزء ليس خاصًا بفرد دون فرد . إنه لكل مسرف ينسى الدين وينغمس فى الدنيا إنه لكل من لا يهتم إلا بالمادة ويتناسى القيم والأخلاق .

إن المادة وحدها لا تحقق إلا الشقاء فى الدنيا والقلق والاضطرابات ، وفى الآخرة عذاب أشد وقلق عظيم واضطراب أكبر ، حيث لا نهاية لما يكون فيه الإنسان والآيات بعد ذلك وقبله إنذار وتحذير لكل من يعرض آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس ، فى الكتاب والسّنة ، وفى كل ما يحيط بالإنسان ، فيكفر أو يغش .

(قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتق ولا تظلمون فتيلا) .

فى تفسير قوله تعالى :

(قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون[١١٩]) .

* * *

يقول الله تعالى (قد أفلح المؤمنون.الذين هم فى صلاتهم خاشعون) وقد رأى رسول الله ﷺ رجلا يحرك يده ويضعها على لحيته وهو فى الصلاة فقال :

لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ، وأنه لمن البديهى أن الصلاة فترة من الصلة بالله ينبغى أن تكُونَ فى جوها هادئاً وأن تبتعد عن كل ما يشغل عن المناجاة مع الله سبحانه .

فإذا عرض للمصلى شىء بعد أخذ الاحتياط الواجب فليقل : سبحان الله . ويكررها إذا احتاج الأمر إلى زيادة التنبيه ، وذلك إذا كان المصلى رجلا ، فإذا كان المصلى امرأة صفقت ، وذلك لما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« التسبيح للرجل والتصفيق للنساء فى الصلاة » ومع ذلك فإنه لو رفع المصلى صوته بالقراءة أو ببعض أذكارها لإسكات الأولاد أو التنبيه على أمر من الأمور فصلاته صحيحة ، ولكن الأفضل أتباع تعليم الرسول ﷺ .

فى شرح قوله تعالى :

(إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون[١٢٠]) .

* * *

(١١٩) سورة المؤمنون – آيتا (١ ، ٢) .

(١٢٠) سورة النور – آية (١٩) .

إن الذى يساعد على أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا إنما هو محب لذلك ، فهو داخل فيمن توعدهم الله سبحانه بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة لأنه أعان على الزّنى ومهد سبله واتخذ من الإعانة عليه حرفة ووسيلة إلى الكسب .

وفى الصحيح أن النبى ﷺ نهى عن مهر البغى ، أى أخذ الأجرة على الزّنى أو استخدام النساء لإدرار الربح عن هذا الطريق المشين ، وصاحب المنزل ممن يعيثون فى الأرض فساداً ومن الواجب على أهل الحى مضايقته ومقاومته ، ومن الواجب ردعه عن هذا الفعل المشين .

وأما من جعل فندقه حانة لشرب الخمور فهو أيضاً آثم وعامل ومعين على الفساد ، وهو أيضاً ممّن لعنهم الرسول ﷺ ، ومن الواجب ردعه ومقاومته ، وهو داخل فيمن لعنهم الله ورسوله بسبب الخمر .

فى تفسير قول الله تعالى :

(الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة . .[١٢١]) إلخ .

* * *

شبه الله تبارك وتعالى نوره فى السموات والأرض كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة لفرط صفائها وصفاء ما بها كأنها كوكب درىّ مضىء إضاءة قوية .

فإذا اجتمع نوران : نور المصباح ، ونور الزجاجة التى تشبه الكوكب الدرىّ فى مكان يحصره ، كالمشكاة التى تكون مدورة لوضع المصباح بها ، كان النور أشد ما يكون ، وهو مثل ورد للتقريب فقط ، وإلا فنور الله عزّ وجل فى السمٰوات والأرض لا يشبهه نور .

فى تفسير قول الله تعالى :

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا)[١٢٢]

* * *

إن هذه الآية الكريمة من سورة الفرقان هى أول الآيات المتتالية التى يعرّف الله سبحانه وتعالى فيها أوصاف عباد الرحمن .

---

(١٢١) سورة النور – آية (٣٥) .

(١٢٢) سورة الفرقان – آية (٦٣) .

والجاهلون فى الآية الكريمة لايقصد بهم غير المثقفين ، كلا ، وإنما يقصد بهم السفهاء . . والجهل يطلق أحيانًا ويقصد به عدم العلم ، وهذا المعنى هو الشائع لكلمة الجهل ولكلمة الجهلاء .

وقد تطلق ويراد بها السّفه ، وهذا هو ماأراده الشاعر فى قوله :

ألا لايجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جَهْلِ الجاهلينا

وهذا المعنى هو المعنى المراد من كلمة « الجاهلون » التى وردت فى الآية الكريمة فهم السفهاء وقليلو الأدب .

وهؤلاء لما فى فطرهم من إفساد ، ولما فى نفوسهم من انحراف يتعرضون للفضلاء بالأذى غير مبالين بالألفاظ ينطقون بها ، أو الأفعال التى تصدر عنهم ، وموقف عباد الرحمن منهم ليس هو موقف السّفه أو قلة الأدب وإنما هو موقف الرجل المهذب الذى يحاول أن يوجد دائمًا السلام من المجتمع الذى يعمل فيه ، وعلى إيجاده فى النفوس بقوله وفعله ، فإذا تعرض له سفيه قابله بالحسنى ، فمعنى (قالوا سلامًا) أى قالوا خيرًا ، فيقابلون السّفه بالخير ، ولقد كان من صفات رسول الله ﷺ أن لاتزيده شدة الجاهل عليه إلا حلمًا ، وموقف عباد الرحمن بعد ذلك إنما هو كما قال سبحانه : (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارًا سآتيكُم منها بخبرٍ أوآتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون) .

وفى تفسير قول الله تعالى :

(فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنسَ من جانب الطور نارًا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلِّى آتيكم منها بخبر أوجَذْوة مِن النار لعلكم تَصْطلون)(١٢٤)

قال تعالى : (إنى آنست نارًا سآتيكم منها بخبر) . . إلخ .

وقال تعالى : (إنى آنست نارًا لعلى آتيكم منها بخبر) . . إلخ .

---

(١٢٣) سورة النمل – آية (٧) .

(١٢٤) سورة القصص – آية (٢٩) .

فى الآية الأولى الإخبار بأنه سيأتى منها بخبرٍ أو بقطعة ليستدفئوا بها . وفى الآية الثانية : يرجو أن يقف على خبر هذه النار ، أو أن يحصل على قطعة ليستدفئوا بها ويقضوا منها وطرهم . والخبر والرجاء يختلفان منطوقًا ومفهومًا ، ويتفقان غاية ، ولاتعارض بين منطوق الآيتين ومفهوم كل منهما ، لأن موسى عليه السلام لما رأى النار قال سآتيكم منها بخبر ، وهو يرجو فى نفسه أن يوفقه الله لما يريده .

« وهكذا شأن الأنبياء ومن أعدوا فى سابق الأزل للرسالات ، بل شأن العقلاء لايعولون على أنفسهم فى أى أمر يقصدون إليه ، بل يعولون على الله فى كل مطلوب »

فإحدى الآيات تعبر عمّا فى قلبه من رجاء معونة الله ، والأخرى تعبر عن حديثه لأهله مطمئنا لله .

فى تفسير قوله تعالى :

(إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم)[١٢٥]

* * *

عدها البعض آية مستقلة من سورة الفاتحة ، وعلى ذلك فلابد من الإتيان بها فى الصلاة ، كما ذهب الى ذلك الشافعى رضى الله عنه ، حسب روايته فى تلاوة كتاب الله تعالى .

كما ورد فى العدد المكى والكوفى ، وحجته فى ذلك مع الرواية وجود البسملة أول كل سورة ماعدا براءة مع اجتهاد الصحابة فى تخلية كتاب الله تعالى عما ليس منه . فلو لم تكن البسملة من الفاتحة ماأثبتوها .

وذهب بعض الأئمة إلى أن البسملة ليست آية من الفاتحة ، وعلى ذلك لا تبطل الصلاة بتركها ، مادام قد اختلف فيها ، فبأى الرأيين أخذت فصلاتك صحيحة ، غير أن الأخذ بتلاوة البسملة فى كل فاتحة فى الصلاة أوْلى للحيطة .

فى تفسير قوله تعالى :

(ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حقّ القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)[١٢٦] .

* * *

(١٢٥) سورة النمل - آية (٣٠) .

(١٢٦) سورة السّجدة - آية (١٣) .

حينما طرد الله سبحانه وتعالى إبليس من الجنة أقسم إبليس أن يكرس حياته لإغراء المخلوقات من الإنس والجن قائلا : فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين .

وقد وضح الله سبحانه وتعالى أن عباده المخلصين لا يتأتى أن يكون للشيطان عليهم من سبيل قائلا :

« فالحق والحق أقول : لأملان جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » وفى هذه الآيات التى ذكرناها بيان للمقصود من الآية التى تحدث عنها السائل الفاضل والجنة : هم الجن ، وسموا جنًّا لاستتارهم عن الأنظار من الجَنّ وهو الستر :

قال تعالى : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم)

وكلمة الجن ، وكلمة العفاريت ، وكلمة الشياطين كلها بمعنى واحد ، ولا يدخل النار إلا الكفار والعصاة من الجن والإنس .

أما المؤمنون والطائعون ، فيدخلون الجنة ، سواء كانوا من الجن ، أو من الناس ، لأن الجن منهم المؤمنون ومنهم غير المؤمنين ، قال تعالى فى سورة الجن :

(وأنَّا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدًا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبًا) .

ف هل وضع القرآن الكريم قواعد إذا اتبعها الأثرياء أرضوا الله ورسوله ؟

« نعم وضع القرآن هذه القواعد وحث عليها بشتى الوسائل ، وقد جمعت هذه القواعد فى ألفاظ قليلة فى قصة قارون) .

* * *

لقد كان قارون من قوم موسى آتاه الله ثراء عريضا ورزق من المال مالا يكاد يحصى ، واتخذ قارون المال سبيلا إلى الملاذ والشهوات ، شهوات الجاه وشهوات الترف ، وشهوات النعيم الحسى بكل أنواعه ، لقد أسرف قارون فى انغماسه فى الملذات ، وكان يخرج على قومه فى زينته وفى كبريائه وغروره لا يعطف على ضعيف ولا يساعد فقيرا ولايعين ذا حاجة ، وليس للرحمة إلى قلبه من سبيل .

ولما رأى قومه ذلك اجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم واتفقوا على أن يسدوا إليه النصيحة ، فلما اجتمعوا به تلطفوا فى القول ما استطاعوا وأجملوا النصيحة فى خمس قواعد هى فى الواقع القانون

العام لما ينبغى أن يكون عليه الأثرياء ، وهى الطابع الذى يجب أن يكون عليه أهل الغنى قالوا له :

إنك مباه بثروتك فخور بها ، فرح بالمال لذاته ، وما ينبغى أن يكون الفرح بالمال إلا لأنه وسيلة إلى النفع ، فلا تفرح بكثرة المال فرح بطر وكبرياء وفخر ، إن الله لا يحب الفرحين الذين يتمثل فيهم ذلك .

وقد آتاك الله الكثير فابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، واجعل زكاة مالك مساعدة الفقير ، وزكاة قوتك نصر الضعيف ، وزكاة جاهك نصرة المظلوم .

والدنيا مزرعة الآخرة وطريقها فلا تنس نصيبك من الخطوات فى هذا الطريق بالعمل الصالح واكتساب رضاء الله قبل القدوم عليه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . وأحسن كما أحسن الله إليك : أحسن إلى نفسك بأن تتق الله فى كل ما تأتى وما تدع . وأحسن إلى الآخرين وما الإحسان إلى الآخرين إلا إحسان إلى النفس لأنه تزكية لها ، والصدقة تطهر النفس وتزكيها .

(ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين) فماذا كان وقع هذه النصائح عند قارون ؟ هذه المبادئ السامية ، التى إذا عممتها كانت الدستور لكل صاحب جاه أو نعمة .

لم تلق أذنًا مصغية لدى قارون الذى ألهاه التكاثر فقال ساخرًا متحديًا لا يبالى : (إنما أوتيته على علم عندى) فماذا كان الجزاء الإلهى على ذلك ؟

كان ما عبر الله عنه بقوله :

(فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سُجَّدًا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون[١٢٧] .

* * *

إن من المظاهر الصادقة للإيمان بآيات الله التى عبر عنها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز أنه حينما يسمعها المؤمن على لسان قارئ أو على لسان واعظ ، حينما يذكر بها على أى وضع من

(١٢٧) سورة السجدة – آية (١٥) .

الأوضاع ، فإنها تلمس فى نفسه سر الله فيه وتؤثر على مركز النور والصفاء فى روحه ، وذلك لما بينها وبين الإيمان الصادق من صلة ، فإنها تعبر عنه وتشرحه موضحة ومرشدة وموجهة .

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون) .

ومقياس الإيمان الصادق إذن إنما هو الاستجابة الكاملة لآيات الله ، الاستجابة المقرونة بتعظيم الله سبحانه عن طريق حمده والثناء عليه ، الاستجابة التى يعبر عنها المعنى العميق للخضوع لما أمر الله سبحانه والانتهاء عما نهى عنه ، وهذا هو المعنى الحقيقى للسجود ، وهذا هو ما يراد من وراء هذه الكيفية المخصوصة من وضع الجبهة على الأرض خضوعًا وتواضعًا وخشية .

والسجود يعبر عن منتهى الخضوع والخشية ، ومن أجل ذلك يقول رسول الله ﷺ : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .

ومن أجل هذا القرب يحث رسول الله ﷺ على الدعاء فى أثناء السجود ، لأن القرب مظنة الاستجابة ويقول الله سبحانه وتعالى : (واسجد واقترب) .

أى اقترب من الله عن طريق السجود إليه .

وجوهر السجود فى حديث رسول الله ﷺ وفى الآية الكريمة إنما هو : الاستجابة فى كل أمر بما يناسبه ويتفق والأوضاع والشروط المطلوبة .

والله سبحانه حين أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام كانت استجابتهم فورية ولم يستجب إبليس ويفسر عدم استجابته بالكبرياء المتغلغل فى نفسه ، ومن أجل ذلك وصف الله المؤمنين فى الآية التى نحن بصددها بأنهم لا يستكبرون .

إن التواضع لله سبحانه وخشيته والاستجابة إليه مقياس الإيمان الصادق ، وليس ذلك كلامًا يقال ولا ألفاظًا تنمق ، وإنما يظهر فى صور محددة منها : أن المؤمنين الصادقين (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، إنهم المتهجدون بالليل ، (يدعون ربهم خوفًا وطمعًا) ، ومن صفاتهم أنهم يشكرون الله بالإنفاق مما رزقهم ، إنهم يشكرونه على القوة بالإنفاق منها فى مساعدة الضعفاء ، وعلى الجاه بالإنفاق منه فى مساعدة من لا جاه لهم ، وعلى الثراء بالتصدق ، والصدقة برهان ، ويشكرونه على العلم بتعليم الآخرين ، إنهم يخرجون زكاة كل نعمة أنعم الله تعالى عليهم ، والله سبحانه وتعالى يتحدث عن عاقبة أمرهم وعما ادخره لهم فيقول سبحانه : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

فى فضل سورة (يس) :

روى الإمام أحمد والحاكم وصححه معقل بن يسار رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قلب القرآن (يس) لايقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له ـ اقرءوها على موتاكم .

وكلمة اقرءوها على موتاكم «كلمة مطلقة فهى تفيد اقرءوها على من كان فى حالة الاحتضار ، وتفيد اقرءوها على موتاكم فى المقابر ، ويساند هذا ماذكره الثعلبى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من دخل المقابر وقرأ سورة يس خفف الله عنهم يومئذ ، وكان له بعدد من فيها حسنات .

ومذهب الجمهور من أهل السنة أن ثواب قراءة القرآن يصل إلى المتوفى ـ بل لقد ذكر ابن قدامة فى كتابه (المغنى) أن الإمام الجليل أحمد بن حنبل قال :

الميت يصل إليه كل شيء من الخير ، للنصوص الواردة فى ذلك ، ولأن المسلمين يجتمعون فى كل عصر ويقرءون ويهدون لموتاهم من غير نكير ، فكان إجماع .

فإذا ماقرأ إنسان القرآن بنية إهداء الثواب إلى الميت فإنه يقول : بعد الفراغ من القراءة « اللهم أوصل ثواب ما قرأته إلى فلان »

على أن الجمهور من أهل السنة يعلن فى صراحة أن القراءة التى يصل ثوابها إلى الميت إنما هى القراءة التى ليست مأجورة ، ويعلن فى صراحة أيضًا أنه لابد من النية التى تتقدم القراءة .

وقراءة القرآن على الميت لاتتقدر بزمن بعد الوفاة ـ فلا تتقيد بمرور سبعة أيام أو أكثر أو أقل ، وما من شك فى أنه من الخير أن يُقرأ القرآن عند الميت فى حالة الاحتضار ، وأن يُقرأ بعد وفاته مباشرة ، وأن يُقرأ له بعد ذلك كلما تتاح الفرصة ، وليس فى الإسلام مطلقًا مايدل على أن القراءة تكون بعد سبعة أيام .

فى قوله تعالى :

(لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون . إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مُقْمَحُون) [(١٢٨)]

* * *

الأغلال جمع غُلّ بضم الغين ، وهو ماأحاط بالعنق ومع العنق اليدان ، واليد الواحدة للتعذيب .

---

(١٢٨) سورة (يس) آيتا (٧ ، ٨) .

مقمحون : رافعو رءوسهم غاضو أبصارهم لا يتمكنون من تحريك رءوسهم إلى اليمين أو الشمال .

ومعنى الآية : إن هؤلاء المعرضين عن الدعوة الذين صموا آذانهم عن سماعها ، وحجزوا عقولهم عن التدبر فيها ، أو محاولة فهم ما ترمى إليه ، مثلهم كمثل من قيدت يده إلى عنقه بغل ثقيل يمنعه من التحرك ببصره إلى مافيه نفعه .

فتصميمهم على الكفر يشبه الأغلال ، واستكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه يشبه الإقماح ، إذ إنهم لايتمكنون من خفض رءوسهم وهم مقمحون ، وكذلك لايتمكنون من التواضع لاستماع الدعوة وهم مستكبرون .

وهذا التشبيه فى الدنيا يتحول فى الآخرة إلى حقيقة واقعة . . . فتظهر الأغلال الثقيلة ، ويتعذب المعرضون على هذه الصورة المرهقة من العذاب .

فى قول الله تعالى :

(أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفُجّار) (١٢٩)

* * *

ذكر الله تعالى فى هذه الآية الكريمة علامتين للأخيار تتضمن كل علامة منهما الكثير من الصفات .

أما العلامة الأولى – وهى الإيمان – فهى أن يؤمن الإنسان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وكل شخص لاإيمان له فإنه لايتأتى أن يكون من الأخيار . . فأساس صفة الخير فى الرجل إنما هى الإيمان ، ولكن الإيمان بدون العمل الصالح لايجعل الإنسان خيّرًا ، بل إنه يكون بلا إيمان ، لابد إذن ليكون الإنسان خيِّراً بالعمل الصالح .

والصورة الثانية الصادقة للعمل الصالح هى أن يسلم الإنسان وجهه لله إسلامًا تامًّا ، أى أن يحقق الإنسان معنى كلمة إسلام . . وتحقيق معنى كلمة إسلام يبدأ أول مايبدأ بالتوبة الخالصة الصادقة النصوح ، ثم الأمانة الشاملة العامة .

ولقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه لا إيمان لمن لاأمانة له . والأمانة الشاملة هى أمانة الإنسان على نفسه ، فلا يدنسها برجس ، وأمانته بالنسبة لوطنه فلا يغش ولايخون ، وأمانته بالنسبة لله

(١٢٩) سورة ص – آية (٢٨) .

سبحانه وتعالى . . يأتمر بما أمر وينتهى بما نهى ، ولن يكون إسلام الوجه لله كاملا إلا إذا تخلق الإنسان بالرحمة التى هى طابع الدين الإسلامى وغايته التى يقول الله سبحانه وتعالى عنها لرسوله ﷺ : (وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

هذه هى الخطوط الكبرى لصفات الأخيار . . أما المفسدون فإنهم الذين لا إيمان لهم ولم يعملوا الصالحات ، إنهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا ، أعداء الوطن ، وأعداء الله ، ولن يجعلهم الله فى الدنيا ولافى الآخرة كالذين آمنوا وعملوا الصالحات .

فى معنى قوله تعالى :

(إنّك ميت وإنّهم ميتون ، ثم إنّكم يوم القيامة عند ربّكم تختصمون)[١٣٠] .

* * *

هاتان آيتان من سورة الزمر ، ومعناهما كما حكاه المفسرون : أن الله سبحانه وتعالى يخاطب نبيه ﷺ بعد أن دعا قومه إلى التوحيد واستفرغ جهده فى دعوتهم .

أنكم ستنتقلون من هذه الدار لامحالة ، فليست بدار بقاء لأنها فانية كما قال الله تعالى : (كل مَن عليها فان) فأنت يا محمد وهم ستموتون وستجتمعون عند الله فى الدار الآخرة ، وتختصمون فيما أنتم فيه فى الدنيا من التوحيد والشرك بين يدى الله تعالى فيفصل بينكم ، ويفتح بالحق وهو الفتّاح العليم ، فينجى المخلصين المؤمنين الموحدين الذين عبدوه وحده ، ولم يشركوا فى عبادته غيره ، وعملوا الصالحات التى تنفعهم .

وأما الكافرون فإنهم يجازون على كفرهم وشركهم وعدم إيمانهم بالعذاب الأليم ، وهذه الآية وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة ، فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا ، وإنه ستعاد الخصومة بينهم فى الدار الآخرة ويقضى بينهم الحكم بالعدل ، وهم أحكم الحاكمين ، ويجازى كُلاًّ بما يستحق . روى الترمذى : عن الزبير رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية قال أيكرر علينا ماكان بيننا فى الدنيا يا رسول الله ؟ قال ﷺ « نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذى حقٍّ حقّه . وقال الزبير : والله إنّ الأمر لشديد .

---

(١٣٠) سورة الزمر – آيتا (٣٠ ، ٣١) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنّه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له . .)(١٣١)

* * *

فهذه الآية الكريمة تدعو كل مذنب إلى التوبة ، إنها لاتستثنى أحدًا وتأمر أن لا يقنط المسلم من رحمة الله ولو أسرف على نفسه بكثرة الذنوب وبكثرة المعاصى .

على أن الكتاب والسنة وإجماع الأمة كل ذلك قد تضافر على وجوب التسوية ، يقول الله تعالى : (وتوبوا إلى الله جميعًا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام مسلم « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » .

ومن المعروف فى الجو الإسلامى أن التوبة الخالصة النصوح تَجُبُّ ماقبلها ، وأنها تعطى الإنسان شهادة البراءة .

والتوبة التى من هذا النمط ليست كلمة تقال فحسب ، أو لفظة تنتهى بانتهاء اللسان من قولها ، ولكن التوبة ، إذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لاتتعلق بحق آدمى ، لها ثلاثة شروط .

الأول : أن يقلع المذنب عن المعصية .

والثانى : أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم ألا يعود إليها أبدًا ، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فلها شرط رابع ، وهو أن يرد التائب الحقوق بقدر الاستطاعة ، فإذا فقد شرط من هذه الشروط فلا تصح التوبة والأمر فيمن جمع مالا كثيرًا عن طريق غير شرعى وأراد أن يكفر الله عن سيئاته واضح ، فلابد من التوبة الخالصة النصوح ، والمحققة للشروط التى سبق أن ذكرناها .

فى تفسير قوله تعالى :

(ومَن أحسن قولا ممّن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إننى من المسلمين)(١٣٢) .

---

(١٣١) سورة الزمر – آيتا (٥٣ ، ٥٤) .

(١٣٢) سورة فصلت – آية (٣٣) .

وقال ﷺ : نضر الله عبدًا سمع مقالتى فوعاها فأدّاها كما سمعها ، فرُبَّ مبلّغ أوعى من سامع ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . وربّ حامل فقه ليس بفقيه . وقال : بلغوا عنى ولو آية .

والدعوة إلى الله عن أى طريق مطلوبة ومثاب عليها ، ففيها تعليم وإرشاد لمن لايعلم . . وفيها تذكير لمن يعلم ، قال تعالى : (وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) ولما اتسع المجال للدعوة وتحققت لها وسائل الانتشار فى أوسع حيز ممكن كان الثواب أجزل والخير أوفر . . إذ كل من يسمع صوت الدعوة الصالحة والإرشاد السليم يشهد لصاحبها بالعمل الصالح يوم القيامة . . وله ثواب كل من استفاد فائدة أو عمل عملا صالحًا .

قال ﷺ : من دعا إلى هدى كان له مثل أجر من عمل به من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه إثم من عمل بها من غير أن ينقص من آثامهم شيئًا .

ولايضر الدعوة إلى الله بالراديو أو غيره من وسائل الإعلام ، أن تذيع هذه الوسائل حكايات أو قصصا غرامية .

إن هذه الوسائل الإعلامية تصوير للحياة بكل ألوانها . ومن الممكن للمستمع أن يختار منها مايشاء وعليه تقع مسئولية هذا الاختيار .

أما عن وجوب التزام هذه الوسائل الإعلامية لطريق الجادة باعتبارها مراكز توصية ومنارات هدى فهذا ماينبغى أن يكون . وعلى المسلم أن يتخير منها مايتفق وتعاليم دينه وهديه (من عمل صالحًا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وماربك بظلاّم للعبيد) .

فى تفسير قوله تعالى :

(لاتسجدوا للشمس ولاللقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إيّاه تعبدون)

(فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون[١٣٣]) .

* * *

وبالتالى هل يصح السجود على أيدى المشايخ أو الوالد أو أى شخص بقصد التبرك ؟

قال الله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحسانًا) وقال تعالى : (واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا) فعبادة غير الله كفر بالله ، لأنها تأليه للمعبود ، وشرك بالله ، وفى تلك الآية التى نجيب السائل عنها أن العبادة لاتنبغى لغير الله ، وعبر بالسجود عن العبادة لأنه أبرز مايكون فيها ، والسجود بعض العبادة ، فإن أبى أحد إلا السجود لغير الله وعبادته فالله عز وجل

(١٣٣) سورة فُصّلت – آيتا (٣٧ ، ٣٨) .

غنى عنه وعن عبادته ، لأنه لديه من ملائكته وعباده الصالحين مَنْ لايستكبرون عن عبادته ويسبحون له بالليل والنهار وهم ، لا يملّون ذلك أبدًا .

والسجود الذى هو وضع الجبهة على الأرض لايجوز لأى شخص من الأشخاص ؛ سواء أكان أبًا أم شيخًا ، ولايجوز للأب ولاللشيخ أن يسمح لابنه أو تلميذه بذلك أما تقبيل يد الشيخ عند السلام عليه استحبابًا إن كان الشيخ من ذوى الصلاح والتقى وترجى بركته - فذلك جائز ، لأن التقبيل حينئذ تعبير عن الإجلال والاحترام والتوقير ، وإقرار بالفضل لذويه وفى تقبيل حامل قطف العنب بالطائف ليدى رسول الله ﷺ ورجليه حينما قال له رسول الله ﷺ من أى البلاد أنت ؟ قال : من نينوى فقال له النبى ﷺ : بلد الرجل الصالح يونس بن متى ، قال العبد : من أنبأك به قال إنه نبىّ فأكب على يدى رسول الله ﷺ ورجليه يقبلها .

ونخرج من ذلك من أن السجود بمعناه الحقيقى لايجوز للمخلوق أما تقبيل اليد احترامًا وإجلالا فإنه جائز ،

فى تفسير قول الله تعالى :

(إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)[١٣٤] .

* * *

الأخ المسلم لايخذل أخاه ولايسلمه ولايظلمه .

يقول صلوات الله وسلامه عليه : المسلم أخو المسلم . . .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال :

قال صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى (متفق عليه) .

ولقد أنزل الله سبحانه فى هذا الأمر ومثله قرانًا يتلى فى سورة الممتحنة فقال تعالى : (يٰأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) .

وقال فى آخر السورة : (يأيها الذين آمنوا لاتتولّوا قومًا غضب الله عليهم) .

وقال سبحانه : (يٰأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض) .

وقال تعالى : (يٰأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان) .

(١٣٤) سورة الحجرات - آية (١٠) .

من تلك النصوص المجتمعة من الكتاب والسنة نفهم أن المسلم لايناصر كافرًا على مسلم بالقتال أو غيره ، فإن فعل ذلك فقد باء بإثمه وكان مع صاحبه فى النار قال ﷺ : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » .

بل إن صلة الإسلام أولى بالرعاية والنصرة من صلة الرحم .

ومما أسلفنا نفهم أنه تجب نصرة المسلم على الكافر مالم يكن فى نصرته معصية لله تعالى ، ومناصرة غير المسلم على المسلم معصية لله ولرسوله يجب الكف عنها .

فى قول الله سبحانه وتعالى :

(ووصينا الإنسان بوالديه إحسانًا) ثم يعلل سبحانه هذه الوصية فيقول :

(حملته أمه كُرْهًا ووضعته كُرهًا ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً)[١٣٥] .

* * *

فإذا كان الابن خيّرًا مرضيًا لله ، ومرضيًا عنه من الله ، فإن الله يبينْ موقفه فى الآية نفسها متابعًا كلامه سبحانه فيقول : (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحًا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تُبت إليك وإنى من المسلمين) .

ثم يبين الله سبحانه موقفه من مثل هذا الصالح فيقول :

(أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعْد الصدق الذى كانوا يُوعدون) .

ومن هذا القبيل قوله سبحانه وتعالى :

(ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهْنٍ وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير)[١٣٦] ولقد بين الله سبحانه الموقف الكريم ، والآداب التى يجب أن يتحلى بها الابن بالنسبة لوالديه فقال سبحانه : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحسانًا ، إما يبلغن عندك الكِبَر أحدهما أوكلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولاتنهرهما ، وقل لهما قولاً كريمًا ، واخفض لهما جناح الذلِّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربيانى صغيرا) .

ولقد روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال سألت النبى ﷺ : أى العمل

---

(١٣٥) سورة الأحقاف – آية (١٥) .

(١٣٦) سورة لقمان – آية (١٤) .

أحب إلى الله ؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه : الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى ؟ قال برّ الوالدين ، قلت ثم أى ، قال الجهاد فى سبيل الله .

فعلى الابن أن يبادر باسترضاء والده حتى يعفو الله عنه ، وإلافهو عاصٍ بمعصية هى من الكبائر ، وإذا استمرّ فى موقفه فيمكن للأب أن يرفع أمره للقضاء ليحكم له بما يجزى من مال ابنه الموسر.

فى تفسير آيات من سورة الحجرات :

(يٰأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يَدَيِ الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ، يٰأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم)(١٣٧)

* * *

هذه الآيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام ، والتبجيل والإعظام ، فقال تبارك وتعالى : (يٰأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) ، أى لاتسرعوا فى الأشياء بين يديه أى - قبله - بل كانوا تبعًا له فى جميع الأمور حتى يدخل فى عموم هذا الأدب الشرعى حديث معاذ رضى الله عنه حيث قال له النبى ﷺ حين بعثه إلى اليمن بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله تعالى : قال ﷺ : فإن لم تجد ؟ قال : بسُنّة رسول الله ﷺ ، قال ﷺ : فإن لم تجد ؟ قال رضى الله عنه : أجتهد برأيى ، فضرب فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ .

وقد رواه أحمد وأبوداود والترمذى وابن ماجه . فالغرض منه أنه أخّر رأيه ونظره واجتهاده إلى مابعد الكتاب والسنّة ولو قدّمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) لاتقولوا خلاف الكتاب والسنة .

وقال الضحاك : لاتقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم ، وقال سفيان الثورى : ولاتقدموا بين يدى الله ورسوله بقول ولافعل ، وقوله تعالى : (يٰأيها الذين امنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) .

---

(١٣٧) سورة الحجرات - الآيات (١ ، ٢ ، ٣) .

هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين ألاّ يرفعوا أصواتهم بين يدى النبى ﷺ فوق صوته . .

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا أزهر بن سعد ، أخبرنا ابن عون ، أنبأنى موسى بن أنس ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ – افتقد ثابت بن قيس رضى الله عنه ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده فى بيته منكسًا رأسه ، فقال : له : ماشأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبى ﷺ ، فقد حبط عمله ، فهو من أهل النار فأتى الرجل النبى ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا » قال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال : اذهب اليه فقل له . . إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة .

وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : (يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) إلى قوله (وأنتم لاتشعرون) . وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ ، أنا من أهل النار حبط عملى ، وجلس فى أهله حزينًا ، ففقده رسول الله ﷺ ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : تفقدك رسول الله ﷺ ، مالك ؟ قال : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ وأجهر له بالقول ، حبط عملى ، أنا من أهل النار فأتوا النبى ﷺ فأخبروه بما قال ، فقال النبى ﷺ : لا ، بل هو من أهل الجنة ، قال أنس رضى الله عنه ، فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفنه فقال بئسما تعودون أقرانكم فقاتلهم حتى قتل رضى الله عنه .

وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع صوت رجلين فى مسجد النبى ﷺ ، قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال من أين أنتما قالا : من أهل الطائف . . فقال لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا – وقال العلماء يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره فى حياته عليه الصلاة والسلام لأنه محترم حيًا وفى قبره ﷺ دائمًا .

في قول الله تعالى :

(يأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، إنّ الله عليم خبير)[(١٣٨)]

* * *

إن الله سبحانه في حكمته السامية ماجعل الناس شعوبًا وقبائل ليتدابروا ويتنافروا ، فإن الإسلام قد نهى عن التدابر والتنافر ، وأمر بالتعاطف والتراحم حيث قال ﷺ لاتقاطعوا ولاتدابروا ولاتباغضوا ولاتحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانًا ، ولايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، وأمرهم أن يعملوا جاهدين لتحقيق الخير من أجل الإنسانية حتى يثيبهم عليه تزكية نفس وصفاء روح وأمنًا وطمأنينة والتجاء إلى الله شكرًا وعرفاناً فتكون التقوى ، فيصل الإنسان إلى أن يكون كريمًا عند الله ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، فإذا ماكان الفرد كريمًا على الله فإن الله لايسلمه ولايخذله ، ومن يتق بالله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وإذا كان المجتمع كريمًا على الله بالتقوى فإن الله سبحانه يكون عونه وناصره وكفى بربك هاديًا ونصيرًا للفرد ، وهادياً ونصيرًا للمجتمع ، ويتحقق السلام للفرد وللإنسانية تحققًا كاملا باتباعهم الرحمة والأخوة والتعارف ، أو بتعبير أقصر بإسلامهم ، لأن الإسلام إنما هو أن يسلم الإنسان وجهه لله ، يسلمه له إسلامًا كاملا لاشائبة فيه من تعصب بيئى أو عنصرى ، قال ﷺ فيما رواه أبو داود « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل عصبية ، وليس منا من مات على عصبية والإسلام ليس فيه تعصب ولاافتخار بالآباء والأجداد يقول ﷺ في حجة الوداع . « إنّ الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بالآباء والأجداد – الناس لآدم وآدم من تراب ، ولافضل لعربي على عجمى إلا بالتقوى » . وقال ﷺ لرجل قال لصاحبه يابن السوداء : « إنك امرؤ فيك جاهلية » ويجب أن يكون إسلامًا صافيًا كاملا حتى تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لاشريك له ، فإذا ما أسلم وجهه هذا الإسلام كان رحمة وكان تعاطفًا ، وكانت صلته بالشعوب والقبائل صلة تعارف لاصلة تنافر ولاتعادى ولاتدابر ، وصلة الإسلام إذن بالسلام الفردى والسلام العالمى على هذا الوضع صلة واضحة .

إن الإسلام هو الموصل للسلام العالمى ، يقول الله تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم

(١٣٨) سورة الحجرات – آية (١٣) .

إلى صراط مستقيم) فكتاب الله سبحانه هو الذى يرسم السلام ويرسم سبل السلام ، وهو سبحانه إذا فعل ذلك فإنما يفعله على علم ويفعله على حكمة ، والله سبحانه يأمر المؤمنين جميعًا أن يدخلوا فى الإسلام كافة (يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) وعدم الدخول فى السلم إنما هو اتباع خطوات الشيطان .

فى معنى قوله تعالى :

(إنه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لايمسّه إلا المطهرون) (١٣٩)

* * *

القرآن نور أنار الله به طريق السير للمؤمنين ومنّة امتن بها عليهم . وطالبهم باحترامه والقيام بحقوقه ، وحذرهم من التفريط فى احترامه فضلا عن امتهانه .

والذى يبيع بعض الحاجات فى ورقة بها آية أو آيات قرآنية مرتكب لمنكر ، والذى يبيع من الورق مافيه آية قرآنية لمن يبيع فيه ويمتهنه مرتكب لمنكر وهكذا .

ولايعتبر الامتهان غير مقصود إلا إذا غفل المسلم عنه ، أو ظن أن ما فى الورق ليس بقرآن .

فإذا ماتمزقت أوراق مصحف أو بعض أوراقه بادر الإنسان بحرقها إذا لم يتيسر له حفظها فى مكان آخر أو إلقائها فى البحر ، لأن الماء سيزيل آثار الكتاب وتتحول حينئذ إلى أوراق عادية سرعان ماتتآكل .

والمقصود من هذا كله ، المحافظة على القرآن الكريم والقيام بما يجب نحوه من احترام .

وإذا كان الله تعالى قد منع غير المتطهر من مس المصحف أو شىء من القرآن فإن امتهان القرآن من أكبر المحرمات . وقد كان سبب الوبال لبعض الأمراء الذين استهانوا بحرمته فمزقهم الله شرّ ممزق .

فى معنى هذه الآية :

(قد سمع الله قوْل التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إنّ الله سميع بصير) (١٤٠) .

* * *

(١٣٩) سورة الواقعة – الآيات (٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩) .

(١٤٠) أول سورة المجادلة .

أولا : سبب نزولها :

روى أن خولة بنت ثعلبة ظَاهَر عنها زوجها أوْس بن الصامت فاستفتت رسول الله ﷺ فقال : حَرُمْتِ عليه ، فقالت : ماطلقنى ، فقال : حرمت عليه .

فاغتمّت لصغر أولادها ، وشكت إلى الله تعالى ، فنزلت هذه الآيات الأربع من سورة المجادلة وقد تشعر بأن الرسول عليه الصلاة والسلام يتوقع أن يسمع الله مجادلتها وشكواها ويفرج كربها .

ثانيا : المعنى :

قد سمع الله أى سمع الله شكوى المرأة التى تجادل وتكثر الأسئلة على الله عز وجلّ وكذلك الشكوى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما « أى تراجعكما الكلام وهو على تغليب الخطاب (إن الله سميع بصير) سامع للأقوال ، عارف مرماها ونتيجتها ومغزاها ، بصير بأحوالها وخبير . (من تفسير البيضاوى) .

فى قوله سبحانه فى سورة الممتحنة :

(لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)(١٤١) .

* * *

وقد نزلت هذه الآيات الكريمة فى مناسبات تشبه مايسأل عنه السائل ، فقد أسلم كثير من القرشيين ولهم أقارب تختلف درجة قرابتهم قربًا وبعدًا ، ونشأت ظروف تساءل فيها المسلمون عما إذا كان يباح الاتصال بآبائهم أو أمهاتهم ، وعما إذا كان يباح لهم أن يبروا الأقارب بمختلف أنواع البر أو يتقبلوا برهم وهداياهم ، فنزلت الآيات الكريمة بالقانون الإلٰهى توضح الموقف : نسالم من سالمنا ونحارب من حاربنا وهو قانون طبيعى إنسانى . والإسلام يقف من المعادين لنا موقفًا حاسمًا ؟

(لا تَجِـدُ قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم

(١٤١) سورة الممتحنة – آيتا (٨ ، ٩) .

جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله المفلحون)[١٤٢] .

من ذلك نتبين أن المسلم يؤاكل غير المسلم ويصافحه ويتعامل معه فى المباحثات من أنواع التعامل مادام السلام موجودًا بينهم ، أما فى حالة الحرب فلا يصح من ذلك إلا ماتقتضيه ضرورة الحرب .

فى معنى قول الله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون .كبر مقتًا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون)[١٤٣] .

فى هذه الآية الكريمة يسأل الله المؤمنين سؤالا استنكاريًّا مؤنبًا لهم ، طالبًا منهم السبب فى أنهم يقولون بألسنتهم مالا يفعلونه بجوارحهم ، ويتحدثون إلى الناس عن الخير ولايفعلونه ، ثم يعرفهم منزلة هذا الذى يدعو إلى الخير ولايعمل به ، فيقول لهم كبر مقتًا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون ، فكل من يدعو إلى خير ولا يعمل به ، ممقوت عند الله وملائكته والناس أجمعين .

خصوصًا هذا الذى يتكبر ولايصلى ، ذلك أن المتكبر لايحبه الله (إن الله لايحب كل مختال فخور) أما ترك الصلاة فإنه يصل بالإنسان إلى النفاق وإلى الكفر والعياذ بالله ، يقول أحد الصحابة « ... ولقد رأيتنا ومايتخلف عنها – أى عن الصلاة – إلا منافق . ولقد كان يؤتى بالرجل يهادى به – أى يسنده الآخرون لمرضه حتى يقف فى الصف » .

والداعى إلى الإسلام دون أن يعيش إنما هو مثل سيئ إلى الدعوة الإسلامية ، وأن الدين الإسلامى إنما هو دين إخلاص وصفاء ، لايعتد بمظاهر الخير مالم تكن صادرة من قلب طاهر (ألا لله الدين الخالص) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون)[١٤٤] .

* * *

(١٤٢) سورة المجادلة – آية (٢٢) .

(١٤٣) سورة الصف – آيتا (٢ ، ٣) .

(١٤٤) سورة المنافقون – آية (٨) .

العزة هى حالة مانعة للكائن الذى يتصف بها أن يغلب أو يقهر العزيز هو الذى يُقهِر ولايُقهَر . . . العزيز على وجه الإطلاق هو الله سبحانه ، إنه القهار الغالب لايجرى فى السماوات والأرض إلا مايريد .

إن العزة المطلقة له سبحانه ، وهذه العزة يفيض الله منها على المؤمنين به حسب درجة إيمانهم إنه سبحانه يمنحها لكل من سار على هداه سبحانه ملتزمًا تعاليمه بوحدانيته مؤتمرًا بما أمر ، منتهيًا بما نهى .

وأقوى المؤمنين إيمانًا إنما هم الرسول عليهم الصلاة والسلام ، ويتلوهم من آمن بهم على تفاوت فى الدرجة . والمثل الذى نريد أن نقدمه بيانًا وتوضيحًا هو مثل المسلمين الأول ، لقد آمنوا بالله إيمانًا وقر فى صدورهم وصدقه العمل ، فكانت لهم العزة والغلبة ، وإنها لقاعدة عامة للمسلمين لاتتخصص بمكان ولا زمان بأنهم كلما كانوا أقوى إيمانًا كانوا أعز جانبًا (ولينصرن الله من ينصره) .

أما هذا الذى ينصرف عن الله مستسلمًا لشهواته فإن الله سبحانه يجعل منه بين الناس شيئًا تافهًا لايبالى به أحد ، إن الله سبحانه يهيئه بإنزال درجته فى المجتمع بما كسبت يداه ومن ينزل الله مكانته لايتأتى لكائن من كان أن يرفعها ، ولن ترفع إلا إذا رجع الشخص إلى الله مغيرًا سلوكه معه سبحانه ، إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم . .

فى فضل من قرأ سورة الملك :

يقول رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لاأقول (الم) حرف ، ولكن : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

ولسورة الملك ثواب خاص بها ، فضلا عن ثواب تلاوة القرآن الكريم ، وقدورد أنّ من داوم على قراءة هذه السورة كل ليلة كانت شافعة له فى قبره ومؤنسة لديه .

وقد ورد أن رسول الله ﷺ كان لا ينام كل ليلة حتى يقرأ سورتى السجدة ، وتبارك الذى بيده الملك ، وهذا يشعر بمنزلة هاتين السورتين وعظم فضلها .

وفى سورة الملك بالذات ورد الحديثان التاليان :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إن سورة فى القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غُفر له وهى) : (تبارك الذى بيده الملك) رواه أبو داود والترمذى وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« وددت أنها فى قلب كل مؤمن – يعنى تبارك الذى بيده الملك » .

رواه الحاكم .

فى تفسير قوله تعالى :

(قل إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدًا ، عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا)(١٤٥) .

* * *

رأى بعض العلماء فى هذه الآية أنه لا يطلع على بعض الأمور الغيبية إلا من اصطفاه الله لرسالته ، وأن غير الرسل لا يطّلعون على شىء من الغيب ، ورأى البعض الآخر أن المراد بالإظهار على الغيب وتعريفه انكشافه انكشافًا تامًّا لالبس فيه ، وذلك مختص بالرسل إما على وجه المعجزة أوعلى وجه بيان تفاصيل الشريعة التى أمروا بتبليغها .

ويرى هؤلاء العلماء أن اختصاص الرسل بالاطلاع على بعض الأمور الغيبية على ماهى عليه وفى أعلى مراتب الإدراك والمعرفة لاينفى اطلاع غيرهم على شىء من الغيب على صورة أدنى من الصورة التى يدرك بها الرسل الأمور الغيبية ، فالغيب يتكشف للرسل بالوحى الصريح ، ولاينكشف لولى شىء عن هذا الطريق .

قال النسفى : والولى إذا أخبر بشىء فظهر ، فهو غير جازم عليه ، ولكنه خبر بناء على رؤياه أو بالفراسة على أن كل كرامة للولى هى معجزة للرسل .

وقد روى ابن جرير والترمذى وغيرهما فى تفسير قوله تعالى : (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

ويرى بعض العلماء أن المراد بالغيب الذى اختص الله بعلمه ولا يُطلع عليه أحداً من خلقه إنما يتمثل فى مثل قوله تعالى (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام . وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت) أى الأمور التى تتعلق بالرزق أو الأجل أوقيام الساعة ونحوها وما يتصل بتنظيم الله تعالى .

وعلى كل فلم يرد ما يمنع صراحة من اطلاع بعض الصالحين على أمور من الغيب تثبيتاً لهم ، وتقوية ليقينهم ، ومعجزة لنبيهم لأن كل كرامة لولى معجزة للنبى الذى يتبعه .

---

(١٤٥) سورة الجن – الآيات (٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧) .

في قوله تعالى : (عبس وتولى . .) إلخ .

* * *

أى شعر بالحرج والضيق حينما دخل عليه الأعمى وهو يدعو بعض رؤساء الكفر إلى الإسلام ، فخاف أن يقطع دخول هذا الأعمى حديث الدعوة إلى الله تعالى ويضيع ما يمكن أن يكون قد علق بقلب هذا الكافر منه .

ولم يكن إعراضه ﷺ عن الأعمى أو ضيقه به تحقيراً له أو توهيناً لشأنه وإنما كان تقديماً للأهم على المهم ، فجلوس رئيس من رؤساء الشرك لسماع الدعوة وتقبله لما يلقى عليه فرصة قد لا تعوض ، وقد يسلم فيسلم بإسلامه كثيرون ، أما هذا الأعمى فالفرص أمامه كثيرة ولقاء الرسول ﷺ متيسر له متى شاء .

قال ابن حزم : أما قوله تعالى : (عبس وتولى . .) الآيات . . فإنه كان عليه السلام قد جلس إليه عظيم من عظماء قريش ورجا إسلامه ، وعلم عليه السلام أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثير ، وأظهر الدين ، وعلم أن هذا الأعمى الذى يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته وهو حاضر معه ، فاشتغل عنه عليه السلام بما خاف فوته من عظيم الخير عما لا يخاف فوته ، وهذا غاية النظر فى الدين والاجتهاد فى نصرة القرآن ، فى ظاهرها الأمر ونهاية التقرب إلى الله الذى لو فعله اليوم بنا فاعل لأجر لعاقبه الله عز وجل على ذلك ، إذكان الأوْلى عند الله تعالى أن يقبل على ذلك الأعمى الفاضل التقى .

وكأن الله سبحانه وتعالى بهذا يوجه إلى فضل المؤمن على غيره من الكفار مهما كانت الفروق الدنيوية من المال والجاه ونحوهما ، والآية الكريمة تبين شدة حرص الرسول ﷺ على الدعوة إلى الله سبحانه ، وتبين من جانب آخر قيمة المؤمن عند الله وفضله على غيره من أهل الشرك والضلال .

في قصة أصحاب الأخدود المذكورة من سورة البروج :

إن هذه الآيات الكريمة من سورة البروج وقد نزلت هذه السورة الكريمة لتبين أن المؤمن يؤدى رسالة ، وأن مثله فى هذه الحياة الدنيا مثل أصحاب الرسالات الذين يجاهدون فى سبيل الله ، فيصادفون فى ذلك مصادفة المعارضين وكيدهم ومكرهم وتعذيبهم ، ومادام الإيمان يملأ القلب فإن المؤمن يصبر على كل ذلك مجاهداً إلى النهاية فينال النصر أو الشهادة ويضرب الله مثلا للمؤمنين

بأصحاب الأخدود ، والأخدود الحفرة المستطيلة فى الأرض ، وأصحاب الأخدود هم الذين حفروا هذه الحفرة المستطيلة وأوقدوا فيها النار مشتعلة متأججة وأتوا بالمؤمنين الذين لم يفعلوا جريمة ولم يرتكبوا أى ذنب إنما كان كل ما يأخذونه عليهم إنما هو أنهم آمنو بالله العزيز الحميد . ولقد عذبوهم بسبب إيمانهم وألقوا بهم فى النار بسبب إيمانهم ، وقد استمسك هؤلاء المؤمنون بإيمانهم لم يحيدوا عنه قيد شعرة . وجلس الطغاة على حافة النار ينظرون فى نوع من التسلية إلى هؤلاء المؤمنين الذين يقذف بهم فى النار واحد بعد واحد دون أن تنبض قلوب الطغاة برأفة أو برحمة .

وهذه القصة كانت بين اليهود ونصارى نجران ، فقد تآمر اليهود على نصارى نجران ودبروا المكيدة لهم فاستولوا على المدينة ، وحفروا الأخدود وألقوا النصارى واحداً بعد الآخر فى الحفرة التى حفروها ، وكانت جريمة بشعة تضاف إلى جرائم اليهود التى لا حصر لها عبر التاريخ ، قاتلهم الله . إن لهم أثراً سيئاً فى كل مكان يحلون به وإن لهم لجريمة فى كل أرض يمسون ترابها ، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يمهلهم كثيراً فى نشوة انتصارهم ، وعبر عن ذلك بقوله تعالى : (قُتل أصحاب الأخدود) أى أن الله سبحانه وتعالى أهلك هؤلاء اليهود ودمرهم بجريمتهم ، ولقد كان هذا الشأن شأن الله سبحانه وتعالى دائماً معهم ، فإنهم بنص القرآن كلما أوقدوا ناراً للحرب متمشين فى ذلك مع طبيعتهم – أطفأها الله وخذلهم شرّ خذلان . .

فى تفسير قول الله تعالى :

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره)[١٤٦] .

* * *

وكل إنسان مجزى يوم القيامة بعمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر هذه هى القاعدة الإسلامية ، قاعدة العدالة والجزاء على ما قدم الإنسان من عمل ، والصالحون دائماً بين الخوف والرجاء ، وهما شعار المؤمن التقى ، ولقد قال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه ، وهو من هو فضلا وتقوى ، وصلاحاً ، إنابة إلى الله ورجوعاً إليه ، لقد قال : « والله لا آمن من مكر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة » .

بيد أن فضل الله وكرمه ورحمته لا يحدها حد ولا يقيدها قيد ، مشيئته مطلقة ، فإذا ما شاء عفا وغفر وهو الغفور الرحيم ، ومن أجل ذلك وردت نصوص تبعث فى النفس الرجاء وتذهب اليأس والقنوط ، منها الحديث التالى ، وهو حديث صحيح ، قال رسول الله ﷺ :

(١٤٦) سورة الزلزلة – آيتا (٧ ، ٨) .

« إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق » ومنها قوله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة » وكان أبو ذرّ رضى الله عنه يسمع هذا الحديث من فم رسول الله ﷺ فقال سائلا رسول الله ﷺ : وإن زنى ، وإن سرق يا رسول الله ؟ فأجاب ﷺ : وإن زنى وإن سرق ، وكرر أبو ذرّ السؤال فكرر رسول الله ﷺ الإجابة وقال : فى المرة الأخيرة برغم أنف أبى ذرّ . على أن هذا الحديث نفسه حينما يلاحظ الإنسان قوله ﷺ : (خالصاً من قلبه) يعلم أن من قال لا إله إلا الله وتحقق إخلاص القلب بهذه الكلمة التى تزن الأرض والسماء فترجح فإنه لا يزنى ولا يسرق ولو فرضنا أنه أثِمَ ، فإنه يرجع إلى الله مباشرة بالتوبة الخالصة النصوح . والتوبة الخالصة النصوح تجبّ ما قبلها . .

وسُئِل رضي الله عنه
في السُّنَّة النبوية الشريفة

منهج الإيمان والرحمة فى رحلة الحياة

أخرج الإمام أحمد والشيخان عن أنس بن مالك بن صعصعة ، أن النبى ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به ، وكان مما قال فى هذا الحديث الصحيح : إن جبريل عليه السلام شقّ عن صدره واستخرج قلبه الشريف ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً وحكمة ، فغسل قلبى ، ثم حشى ثم أعيد .

وأخرج الشيخان من طريق يونس عن الزهرى عن أنس قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال : فرج سقف بيتى وأنا فى مكة ، فنزل جبرائيل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه فى صدرى وأطبقه .

ثم بدأت الرحلة .

وكان أول مشهد شهده رسول الله ﷺ هو مشهد قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال النبى ﷺ : ياجبرائيل ما هذا : قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه .

وأول مشهد إذن بعد امتلاء القلب حكمة وإيماناً هو مشهد الجهاد ، وما من شك فى أن القلب إذا امتلأ إيماناً وحكمة فإن الجهاد يصبح فى أوائل ما يحافظ عليه من شعارات جهاد النفس لتتزكى ، وتزكية النفس لا حد لها ، والصفاء لا نهاية تحده ، وكلما سما الإنسان فى الصفاء درجة قرب من الله أكثر ، والقرب من الله لا نهاية له ، وهذا القرب هو غاية المؤمنين ، ومن وقف منه عند حد معتقداً أن هذا هو نهاية المطاف فإن هذا يكون دليلا على أن همته بهمة السابقين السباقين .

وجهاد الأسرة حتى تستقيم والله سبحانه وتعالى يقول : (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ، وقودها الناس والحجارة . .) ووقاية الأهل من النار هو جهادهم حتى يستقيموا ويمتنعوا عن الوقوع فى المعصية فذلك هو وقايتهم .

وجهاد المجتمع ليكون مجتمعاً مؤمناً وهذا الجهاد عنصر هام من عناصر خيرية الأمة الإسلامية والله سبحانه وتعالى يقول :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله) .

ويقول سبحانه :

(لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم . .) ورسول الله ﷺ يقول فيما رواه الترمذى وأبو داود :

والذى نفسى بيده لتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم .

ومن أسمى أنواع الجهاد هو جهاد العدو بالسلاح واللسان والمال ، والله سبحانه وتعالى يقول : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) .

ويقول : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم . . . العظيم) . هذا هو الجهاد الذى رأى رسول الله ﷺ مشهده أول ما رأى من مشاهد بعد أن مُلئ قلبه الشريف حكمة وإيماناً .

ولقد وصل الأمر فى عقاب التاركين للجهاد أن ينذرهم رسول الله ﷺ إنذاراً شديداً .

فعن أبى بكر رضى الله عنه – فيما رواه الطبرانى بإسناد حسن – قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب » .

فى محبة الرسول

يقول الله تعالى فى حديث قدسى :

(من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه) .

وفى هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه فى قوة إلى صفاء القلب وطهارة النية لأوليائه .

وأولياؤه هم :

(الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

ومن عاداهم فإنما يعادى المؤمن التقى .

ونتيجة هذه العداوة ما يقوله الله تعالى :

« آذنته بالحرب » .

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه : وأول خطوة فى هذا الطريق أداء ما فرضته عليه . ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأول : شرط القرب منه سبحانه ، وهو أداء الفرائض .

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب . بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله .

لقد ترك قوم العمل وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، كما يقول رسول الله ﷺ ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

لابد من أداء الفرائض وإلا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سبيل. ومع أداء الفرائض فى جو القرب – الإكثار من النوافل ، فإذا أكثر من النوافل أحبه الله تعالى .

ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذى ذكره الله سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى .

ويربط أسلافنا – رضوان الله عليهم – ربطاً محكماً بين محبة الله سبحانه واتباع رسول الله ﷺ متناسقين فى ذلك مع توجيه الله سبحانه .

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

وهذا الربط معناه الربط بين محبة الله تعالى والعمل .

ومقدمات محبة الله تعالى هى العمل ، ونتيجة محبة الله هى العمل ، يقول الإمام أبو سعيد الخراز : وبلغنا عن الحسن البصرى رضى الله عنهما أن أناساً قالوا على عهد رسول الله ﷺ : يارسول الله ، إنا نحب ربنا حبًّا شديداً فجعل الله تعالى لمحبته علماً وأنزل عزّ وجل :

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

فمن صدق المحبة اتباع الرسول ﷺ فى هديه وزهده وأخلاقه ، والتأسى به فى الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها ، فإن الله عز وجل جعل محمداً ﷺ علماً ودليلا وحجة على أمته .

ومن صدق المحبة لله تعالى إيثار محبة الله عز وجل فى جميع الأمور على نفسك وهواك ، وأن تبدأ فى الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك ويقول :

فعلامة الحب الموافقة للمحبوب ، والتجارى مع طرقاته فى كل الأمور ، والتقرب إليه بكل حيلة ، والهرب من كل ما لا يعينه على مذهبه .

أما عن صلة المحبة بالإيمان فإن الإمام الغزالى يقول : وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة ، إذ قال أبو رزين العقيلى : يارسول الله ، ما الإيمان ؟

قال : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وفى حديث آخر :

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » .

وفى رواية : ومن نفسه .

كيف وقد قال الله تعالى :

(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار .

ومن أجمل تعبيرات المحبين عن شعورهم ما يقوله يحيى بن معاذ . إلٰهى إنى مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك . صغيراً أخذتنى إليك ، وسربلتنى بمعرفتك ، وأمكنتنى من لطفك ، ونقلتنى فى الأحوال ، وقلبتنى فى الأعمال : ستراً وتوبة وزهداً وشوقاً ، ورضاً وحبًّا ، تسقينى من حياضك ، وتمهلنى فى رياضك ملازماً لأمرك ، ومشغوفاً بقولك . . ولمّا طَرّ شاربى . ولاح طائرى ، فكيف أنصرف اليوم عنك كثيراً ، وقد اعتدت هذا منك صغيراً ، فلى ما بقيت حولك دندنة وبالضراعة إليك همهمة ، لأنى محب وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف .

وبعد : فإن ثمرة محبة الله تعالى هى ما قاله سبحانه عن أوليائه : (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) .

وهى أيضاً أن يجد حلاوة الإيمان . يقول رسول الله ﷺ : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان :

١ – أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

٢ – وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله .

٣ – وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار .

والآن نتحدث إن شاء الله عن المحبة عند الشبلى أما عن أسبابها فإنها فيما يرى نتيجة (الهمة) والهمة عند الصوفية هى التشمير والجد فى العبادة ويقول الشبلى : إن من قلت همته ضعفت محبته فمع الهمة إذن صعوداً وهبوطاً تكون المحبة صعودًا وهبوطاً .

كفى حزناً بالواله الصب أن يرى   منازل من يهوى معطلة قفرا

وسئل مرة عن أعجب شىء فقال : من عرف الله ثم عصاه .

فى الاقتداء برسول الله ﷺ

ورسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة إنه الأسوة الحسنة فى أقواله وأفعاله وأحواله : يقول الله تعالى :

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)

ويقول الشيخ الصاوى فى شرحه على تفسير الجلالين « الاقتداء برسول الله ﷺ واجب فى الأقوال والأفعال والأحوال لأنه لا ينطق عن هوى ، ولا يفعل عن هوى بل جميع أفعاله وأقواله وأحواله عن ربه ، لذا قال العارف :

وحصل بالهدى فى كل أمر فليس تشاء إلا ما يشاء » ا . هـ .

والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة النجم : (وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى) .

وإذا كان الاقتداء برسول الله ﷺ واجباً فإن له شروطاً لا يتأتى الاقتداء الصحيح إلا بتحقيقها ، وقد ذكرت الآية الكريمة هذه الشروط .

والشرط الأول منها : أن يرجو الإنسان الله سبحانه وتعالى : ورجاء الله تعالى قد حدده الله سبحانه فى القرآن الكريم بقوله :

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

فالعمل الصالح وعدم الشرك فى العبادة أمران لازمان لمن كان يرجو لقاء الله فى صدق .

ويقول الإمام ابن كثير فى ذلك :

وهذان ركنا العمل المتقبل : لابد أن يكون خالصاً لله ، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ .

وعن طاوس قال :

قال رجل : يارسول الله إنى أقف الموقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى . فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت هذه الآية .

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

ورجاء اليوم الآخر هو الشرط الثانى والتأسى برسول الله ﷺ إنما يتمثل فى العمل لهذا اليوم حتى يلقى الله فيه وهو عنه راض .

ويصف الله سبحانه الذين لا يرجون لقاءه ، ولا يرجون اليوم الآخر فيقول : (إن الذين

لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) .

وبعد ، فإن الشرط الأخير فى الوصول إلى التأسى برسول الله ﷺ هو الذكر الكثير . ولقد سأل رجل رسول الله ﷺ قائلا :

إن شرائع الإسلام كثرت علىّ ، فأخبرنى بشىء أتشبث به ، فقال له ﷺ لا يزال فوك رطباً من ذكر الله .

الله سبحانه وتعالى يقول : (واذكروا الله كثيراً لعلكم تتقون) .

كان أصحاب رسول الله ﷺ يقتدون به فى كل شىء . . . أخرج البخارى ومسلم ومالك والترمذى والنسائى وابن ماجه عن سعيد بن يسار قال : كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما فى طريق مكة ، فلما خشيت الصبح نزلت فأوترت ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما : أليس لك فى رسول الله أسوة حسنة ؟ قلت : بلى . قال : فإنه كان يوتر على البعير .

وأخرج البخارى ومسلم والنسائى وغيرهم عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سئل عن رجل معتمر طاف بالبيت أيقع على امرأته قبل أن يطوف بالصفا والمروة ؟ فقال : قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين ، وسعى بين الصفا والمروة ثم قرأ : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) .

أخرج أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عمر رضى الله عنه أكب على الركن فقال : إنى لأعلم أنك حجر ولو لم أر رسول الله ﷺ قبلك واستلمك ما استلمتك وما قبلتك . لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة .

فى سيادة الرسول فى التشهد وغيره

كان رسول الله ﷺ متواضعاً لا يرى إلا جانب العبودية لله سبحانه وتعالى وينأى عن كل ما يمكنه أن يظهر فيه بعد ذلك .

فلما سأله الصحابة كيف نصلى عليك قال : قولوا : اللهم صلِّ على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد .

فلم يذكر اسمه ﷺ بأوصاف السيادة فى هذا المجال . ولكن الرسول ﷺ فى معرض الحديث عما أنعم الله به عليه يقول فيما رواه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة ، أنا سيد ولد آدم يوم القيامة

ولا فخر . وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ – آدم فمن سواه – إلا تحت لوائى وأنا أول شافع وأول مشفَّع ولا فخر ، فنحن أمام موقفين : موقف الوقوف عند حد تعليم الرسول ﷺ للصحابة ، فلا تذكره ﷺ بوصف من أوصاف السيادة . وموقف الوقوف مع ما يستحقه ﷺ من أوصاف السيادة مما تحدث ﷺ عنها فى موطن آخر ، ويحمل تركه هذا الوصف فى جواب الصحابة على أنه ، تواضع منه ﷺ حيث ترك ذلك التبجيل والاحترام ليذكره بألفاظ السيادة من أراد وهو ما نراه ، والأمر مع ذلك متروك لرغبة المسلم ولكل وجهة وكلتا الوجهتين سليمة لا غبار عليها ، بقى أن نقول إن بعض الناس غالى فى ترك النبى ﷺ بألفاظ السيادة ، فحرم ذلك ، ولما لم يجد له مستنداً من الشرع اخترع من الأحاديث ما يوافق هواه ألا وهو حديث : (لا تسيدونى فى الصلاة).إنه ليس بحديث إنه كما يقول السخاوى وغيره من علماء الحديث . لا أصل له .

ومما له مغزاه فى هذا الموطن أن الرسول ﷺ قال : لبعض الصحابة وقد حضر سعد رضى الله عنه . قوموا لسيدكم ، ويقول سيدنا عمر رضى الله عَنه فيما رواه البخارى : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا – يعنى بلالا ، وإذا كان بلال سيدنا وأبو بكر سيدنا فمن باب أولى الرسول ﷺ صلى الله عليك يا سيدى يا رسول الله .

فى صفة خاتم النبى ﷺ

وردت الأحاديث الصحيحة فى صفة خاتم النبى ﷺ وما عليه من النقوش ، روى الترمذى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنه أن النبى ﷺ صنع خاتماً من ذهب فتختم به فى بيته ، ثم جلس على المنبر فقال : « إنى كنت اتخذت هذا الخاتم فى يمينى » ، ثم نبذه ونبذ الناس خواتيمهم .

وبذلك بين حرمة اتخاذ الخواتم من الذهب .

وكان ﷺ يلبس الخاتم فى يده اليمنى قال الترمذى : وهذا أصح شىء روى عن النبى ﷺ فى هذا الباب وكان لخاتمه من الفضة نقش به وكان هذا النقش كما تبينه رواية الترمذى عن أنس ثلاثة أسطر : محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر .

ولقد كان النبى ﷺ يراعى حرمة اسم الله على الخاتم فكان إذا دخل الخلاء لقضاء الحاجة نزع خاتمه .

أما عن سبب وجود اسم الله على هذا الخاتم فلأن الرسول ﷺ كان يختم به الخطابات التى يرسلها إلى رؤساء العالم وملوكه ، فكان شعاراً للدولة الإسلامية ، أو خاتماً تختم به الخطابات الرسمية ليعبر عن صفة مرسله ومكانته .

ومما لا يخفى أن هذا النقش كان خاصًّا به ﷺ ، لا يجوز لأحد تقليده فيه . . . لأنه لا رسول بعده ، ولا يصح لأحد أن ينتحل شخصيته .

وكان خاتم رسول الله ﷺ من فضة فصه منه .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ صنع خاتماً من ورق فنقش فيه (محمد رسول الله) ثم قال : « لا تنقشوا عليه » . . قال الترمذى : وما معنى قوله : « لا تنقشوا عليه » نهى أن ينقش أحد على خاتمه محمد رسول الله .

فى صيام الاثنين والخميس

كان ﷺ ، يصوم يوم الاثنين من كل أسبوع ، ولما سئل عن صيامه قال :

يوم ولدت فيه : وأرسل إلى فيه وهو يوم ترفع فيه الأعمال إلى الله عز وجل ، وأحب أن يرفع عملى وأنا صائم .

وبهذا نرى أن رسول الله ﷺ : فضلا عن قيامه بواجب شكر الله عز وجل على ما تفضل عليه به من نعمة إخراجه للوجود وإرساله إلى الناس ، فى هذا اليوم العظيم ، يأمر أصحابه بصيامه شكراً لله على تلك النعمة ، التى أسبغها الله عليهم وليس أدل على احتفالهم بمولد النبى ﷺ من صيامهم لذلك اليوم .

ولا شك أن صيام الرسول ﷺ لهذا اليوم العظيم يوم الاثنين وسن صيامه للمسلمين من بعده يعتبر إحياءً لذكر مولده ﷺ بعمل يثاب عليه فاعله .

وقد كانت الموالد كلها فيا مضى من نشأتها طاعة لله عز وجل القصد منها إعطاء الطعام وذكر الله عز وجل ، وتعريف المسلمين بفضائل نبيهم ﷺ ، وحثهم على متابعته .

أما ما يحدث فى الموالد اليوم ، من لهو صارف عن طاعة الله وطاعة رسوله ، ومقارفة للمعاصى إلا قليلا من المحافظين على حرمات دينهم ، فلم يكن له وجود فيا مضى ، والموالد بحاجة إلى رعاية وتقويم وفرض عقوبات على كل مستهتر بدينه لا يراعى لله ولا لرسوله حرمة .

فى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف

أما عن الاحتفال بالمولد النبوى فهو سُنَّة حسنة من السُّنن التى أشار إليها الرسول ﷺ بقوله : « مَن سنّ سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » .

وذلك لأن له أصولا ترشد إليه وأدلة صحيحة تسوق إليه ، استنبط العلماء منها وجه مشروعيته . ومن هذه الأدلة ما يأتى :

١ – سئل ﷺ عن صوم الاثنين فقال :

« فيه ولدت ، وفيه أُنزل علىَّ » . رواه مسلم .

فجعل ولادته فى يوم الاثنين سبباً فى صومه .

٢ – سئل ابن حجر عن هذا المولد فكان مما قال وقد ظهر لى تخريجها على أصل ثابت وهو ما يثبت فى الصحيحين من أن النبى ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون عاشوراء فسألهم فقالوا : هو يوم أغرق الله فيه فرعون ونجى موسى ، فنحن نصومه شكراً لله تعالى . . فيستفاد منه فعل الشكر لله على ما منّ به فى يومٍ من إسداء نعمة أو دفع نقمة ، ويعاد ذلك فى نظير ذلك اليوم من كل سنة .

والشكر لله يحصل على أنواع العبادة كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة – وأى نعمة أعظم من النعمة ببروز هذا النبى نبى الرحمة فى ذلك اليوم .

أما التاريخ الذى ابتدأ به هذا الاحتفال فقد قال السيوطى :

إن أول من أحدث فعل ذلك صاحب إربل الملك المظفر أبو سعيد كوكبرى بن زيد الدين على ابن بكتكين ، أحد الملوك الأمجاد والكبراء والأجداد ، وكان له آثار حسنة ، وهو الذى عمر الجامع المظفرى بسفح قيسون وكان ذلك فى القرن السابع .

ولا يعنى ترك السلف لهذا العمل الصالح مخالفته للشرع لأن السلف الصالح كان عندهم من اليقظة الدينية وحب النبى الكريم مايغنيهم عن التذكير بيوم مولده للاحتفال . ومما ينبغى التنبيه إليه أن الاحتفال بمولد الرسول ﷺ ينبغى أن يكون باستعراض سننه ، والتذكير بدعوته ، والاسترشاد بهديه ، وأن يكون بالإكثار من العبادة والذكر والصدقة فى سبيل الله ، هذا ومما ينافى الاحتفال بهذه الذكرى اختلاط النساء بالرجال ، وانتشار المفاسد والموبقات ، والإقبال على المحرمات وما إلى ذلك مما هو معروف .

لماذا لم يكن الصحابة والتابعون يحتفلون بمولد نبينا محمد ﷺ ونحن نحتفل بمولده ﷺ ؟

كان ﷺ يصوم يوم الاثنين من كل أسبوع . . ولما سئل عن صيامه قال : يوم وُلدت فيه . وأُرسل إليَّ فيه . . وهو يوم ترفع فيه الأعمال إلى الله عز وجل .

وأحب أن يرفع عملى وأنا صائم .

وبهذا نرى أن رسول الله ﷺ فضلا عن قيامه بواجب الشكر لله عز وجل على ما تفضل عليه به من نعمة إخراجه للوجود ، وإرساله إلى الناس فى هذا اليوم العظيم يسن لأصحابه صيامه شكراً لله على تلك النعمة التى أسبغها الله عليهم ، وليس أدل على احتفالهم بمولد النبى ﷺ من صيامهم لذلك اليوم .

ولا شك أن صيام الرسول ﷺ لهذا اليوم العظيم يوم الاثنين ومن صيامه للمسلمين من بعده يعتبر إحياء لذكر مولده ﷺ بعمل يثاب عليه فاعله .

وقد كانت الموالد كلها فيما مضى من نشأتها طاعة لله عز وجل القصد منها إطعام الطعام وذكر الله عز وجل .

وتعريف المسلمين بفضائل نبيهم ﷺ وحثهم على متابعته ، أما ما يحدث فى الموالد اليوم من لهو صرف عن طاعة الله وطاعة رسوله ومقارفة للمعاصى إلا قليلا من المحافظين على حرمات دينهم ، فلم يكن له وجود فيما مضى .

والمولد بحاجة إلى رعاية وتقويم وفرض عقوبات على كل مستهتر بدينه لا يرعى لله ولا لرسوله حرمة . .

فى كيفية الصلاة على النبى

كان الرسول ﷺ متواضعاً لا يرى إلا جانب العبودية لله سبحانه وتعالى وينأى عن كل ما يمكن أن يظهر فيه بعد ذلك .

فلما سأله الصحابة كيف نصلى عليك قال : قولوا : اللهم صلِّ على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد » .

فلم يذكر اسمه ﷺ بأوصاف السيادة فى هذا المجال ولكن الرسول ﷺ فى معرض الحديث عما أنعم الله به عليه يقول : فيما رواه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة قال : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مُشفَّع .

وفى رواية أخرى : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . . وسيد لواء الحمد ولا فخر وما من نبى يومئذ – آدم فمن سواه – إلا تحت لوائى وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر » .

فنحن أمام موقفين موقف الوقوف عند حد تعليم الرسول ﷺ للصحابة ، فلا نذكره ﷺ بوصف من أوصاف السيادة . وموقف الوقوف مع ما يستحسنه ﷺ من أوصاف السيادة مما تحدث ﷺ عنها فى مواطن أخر . ويحمل تركه هذا الوصف فى جواب الصحابة على أنه تواضع منه ﷺ حيث ترك ذلك التبجيل والاحترام بذكره بألفاظ السيادة لمن أراد وهو ما نراه .

والأمر مع ذلك متروك لرغبة المسلم ولكل وجهة وكلتا الوجهتين سليمة لا غبار عليها بقى أن نقول : إن بعض الناس غالى فى ترك ذكره ﷺ بألفاظ السيادة فحرم ذلك ، ولما لم يجد له مستنداً من الشرع اخترع من الأحاديث ما يوافق ميوله ألا هو حديث : لا تسيدونى فى الصلاة .

إنه ليس حديثاً – إنه كما يقول السخاوى وغيره من علماء الحديث . . لا أصل له .

وعلى ذلك فلا مانع يمنع من ذكر الرسول ﷺ بألفاظ السيادة فى التشهد وغيره امتثالا لقوله تعالى : (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) .

ومما له مغزاه فى هذا الموطن أن الرسول ﷺ قال لبعض الصحابة وقد حضر سعد رضى الله عنه .

قوموا لسيدكم .

ويقول سيدنا عمر رضى الله عنه فيما رواه البخارى :

أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعنى بلالا .

وإذا كان بلال سيدنا وأبو بكر سيدنا فمن باب أولى الرسول ﷺ ، عليك يا سيدى يا رسول الله .

فى دلائل الخيرات

إن دلائل الخيرات إنما هى صلوات على رسول الله ﷺ . ولا تمنع طريقة من الطرق الصلوات على رسول الله وذلك لأن الله أمرنا بالصلاة عليه فقال سبحانه : (إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) ، ورجال الطريقة التيجانية

ومشايخها يقرءون دلائل الخيرات ، وكان الشيخ عمر غمبو خليفة التيجانية بالسودان يقرأ دلائل الخيرات هو وتلاميذه وتابع أبناؤه قراءتها من بعده ، بل إنه توجد نسخة من دلائل الخيرات بخط العارف بالله الشيخ أحمد التيجانى الكبير ، شيخ الطريقة ، ويقول فضيلة الشيخ الحافظ التيجانى خليفة الطريقة بمصر : إن الأوراد اللازمة فى الطريقة يصح أداؤها بأية صيغة للصلاة على النبى ، وأنه يجوز لقارئ ورد التيجانى أن يقرأ دلائل الخيرات بل إن فى الطريقة التيجانية أحزاباً من الطريقة الشاذلية وضرب النووى ولا حرج على السالك أو المريد مادام يلتزم طريقة واحدة لأن من انقطع لشىء أحسنه .

فى الرسول ﷺ ، وسنته الشريفة

يقول الله تعالى لرسوله الكريم ، ﷺ : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) ، وماكانت هذه الرسالة العامة لأحد من الرسل من قبله ، فموسى عليه السلام أرسل لبنى إسرائيل خاصة ، لقد اقتصرت دعوته على بنى إسرائيل ، لدرجة أنه حينما ذهب هو وهارون ، عليهما السلام ، إلى فرعون ، قالا له :

(إنّا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى إسرائيل) .

فموسى ذهب إلى فرعون ليرسل معه بنى إسرائيل ، ولم يكافح سيدنا موسى الشعوب أو الأمم فى سبيل دعوته ، وعيسى عليه السلام : إنما أُرسل إلى . . « خراف بنى إسرائيل الضالة » على حد تعبيرهم القديم ، ولم يحاول سيدنا عيسى أن يبشر بدعوته خارج فلسطين ، ولم يحاول أن يجاهد من أجلها .

أما رسول الله ﷺ : فإنه أُرسل إلى الناس جميعاً : إنه أُرسل إلى الناس جميعاً من حيث المكان ، وأرسل إليهم جميعاً من حيث الزمان ، فهو الرسول الدائم زماناً ومكانا . (قل يأيها الناس إنى رسول الله عليكم جميعاً) .

وقد تكفل الله تعالى بحفظ الكتاب الذى أنزله على رسوله ﷺ ، ضماناً لهذا العموم فى الزمان وفى المكان ، وتحقيقاً له (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ومن أجل هذا الوعد يحفظ الوحى كاملا غير منقوص ، صحيحاً غير مزيف ، إنّ الحكمة الإلٰهية فى الإنسانية لا تحتاج إلى رسول بعد الرسول ، ولا إلى نبى بعد النبى ، إنه صلوات الله وسلامه عليه ، خاتم الرسل ، وخاتم الأنبياء .

ولقد امتزج رسول الله ﷺ برسالته الخالدة ، فكان هو هى شرحاً وتفصيلا .

وكانت هى هو بياناً لمعدنه وجوهره ، وخلافة له ونيابة عنه .

تقول السيدة عائشة ، رضى الله عنها : لقد كان خُلقه القرآن ، وهذه الكلمة من السيدة عائشة : رضوان الله عليها : تحتاج إلى تحديد وبيان : ذلك أن القرآن يحدد الخلق الكريم فى حده الأدنى ، ثم لا يقتصر على ذلك ، وإنما يرسم القمم من مكارم الأخلاق ، ويوجه إلى السنام منها . ويقود إلى المشارف العليا من درجات المقربين .

فهل تريد السيدة عائشة « رضوان الله عليها » حينما تصفه ﷺ بأن خلقه القرآن ، هل تريد الخلق الكريم فى حده الأدنى ؟ أو تريده فى حده الأوسط ؟ أو تريده فى حده الأقصى ؟

إن القرآن يحدد الدرجة التى وصل إليها الرسول ﷺ من الخلق القرآنى : فيقول : سبحانه لرسوله ﷺ (وإنك لعلى خلق عظيم)

هذه الآية القرآنية وصل إليها الرسول ﷺ ، إنها ذروتها وسنامها .

أول المسلمين :

ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

إنه ﷺ بعث ليتمم المكارم الأخلاقية ، ليتممها بذاته ، بسلوكه ، وليتممها بقوله ، برسالته ، إنه لم يبعث لينشر الأخلاق الكريمة فحسب ، وإنما بعث ليتمم مكارمها .

ومكارم الأخلاق : لم تكن – قبل الرسول صلوات الله وسلامه عليه – قد تمت ، إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد ، وكانت بذلك مكارم الأخلاق ناقصة ، كان ينقصها أكمل صفة لمكارم الأخلاق ، وهى إسلام الوجه لله إسلاماً تامًّا : إن الكائنات لم تكن قد وصلت – لا فى نبى مرسل ، ولا فى ملك مقرب – إلى الذروة من إسلام الوجه لله .

والذروة من إسلام الوجه لله ، أو أول المسلمين ، والتعبيران سواء – إنما هو الذروة من مكارم الأخلاق ، إن الكائن الربانى : إنه أول المسلمين ، أولهم بإطلاق أولهم بالنسبة للملائكة . وأولهم بالنسبة لبنى آدم ، أولهم قديماً وأولهم إلى الأبد . . إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد .

وكانت الإنسانية بذلك ناقصة ، وكانت الكائنات كلها بذلك ناقصة .

كان الكون ناقصاً مادة ومعنى ، كان نقصه أن تتعطر أرضه بأزكى الأجساد وأن يتعطر جوه بأزكى الأرواح ، وكان لابد من وجود كائن بهذه المثابة يكمل الله به الدين ويتم به النعمة ، ويرضى رسالته ديناً عامًّا خالداً للإنسانية جمعاء : هو إسلام الوجه لله .

وينزل القرآن محدداً إسلام الوجه لله وسائل ، ومحدداً إسلام الوجه لله غايات ، ومحدداً إسلام الوجه لله طرقاً وأساليب ، ومحدداً له بواعث وأهدافاً ، ومن هنا كان من يبتغى غير الإسلام ديناً لا يقبل منه ، يقول الله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) ، وكيف يقبل منه ما يتنافى مع إسلام الوجه لله .

إن إسلام الوجه لله هو الذروة من مكارم الأخلاق ، وهو جوهر التدين ، إنه الدين القيم ، إنه الدين الخالد ، والنص الوحيد ، النص الإلٰهى الفريد فى العالم كله الذى يبين كيفية إسلام الوجه لله ، إنما هو القرآن . وإذا ما وصل الإنسان إلى إسلام الوجه لله كان بذلك فى ذروة الإنسانية ، وفى الذروة من مكارم الأخلاق .

ويتفاوت الناس فى إسلام وجوههم لله ، ولابد من أن يكون أحدهم أول المسلمين . فكان رسول الله ﷺ ، أولهم بإطلاق مطلق :

(قل إن صلاتى ونسكى ، ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) . ولم يصف القرآن بأول المسلمين شخصاً آخر غير الرسول ﷺ .

ومكارم الأخلاق لا يحدها – من حيث التبشير بها – مكان ، ولا يحدها زمان ، بل لا يحدها عالم من عوالم الله فى الأرض أو السماء . . من أجل ذلك كانت رسالته صلوات الله عليه وسلامه رحمة للعالمين .

يقول تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

من مكانة الرسول ﷺ

ورسول الله ﷺ – لأنه يمثل الأخلاق القرآنية فى ذروتها – جعل الله سبحانه وتعالى له مكانة خاصة بين المسلمين ، فهو صلوات الله وسلامه عليه – لأنه تمثَّل القرآن وحقَّقه ، وأصبح قرآناً ، أصبح بذلك يمثل الحق بقوله ، ويمثل الحق فلا ينطق عن الهوى ولا يعمل بالهوى .

يقول تعالى لرسوله ﷺ : (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً) ، بل إن طريق الدعوة نفسه ، كان صلوات الله وسلامه عليه ، يسير فيه معصوماً ، وكل من يسير فى الدعوة على نسقه إنما يسير معصوماً بعصمة الرسول ﷺ التى منحها الله تعالى إيّاه ، قل : « هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » .

ودعوته إذن وطريق دعوته يسير فيهما على هدى ، وعلى نور من ربه ، ولذلك فإن (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ويعمم الله سبحانه ، الحكم تعميماً ، ويطلقه إطلاقاً فيقول سبحانه : (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) . ويقول تعالى : (إن تطيعوه تهتدوا) .

واتباع الرسول ﷺ علامة على محبة الله تعالى لمن يتبعه وسبب فى حبه تعالى له .

قل : (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) . إن حب العبد لله لا يفيد ما لم يتخذ العبد الوسيلة الناجعة لذلك ، وهذه الوسيلة هى اتباع رسول الله ﷺ .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى رواه الإمام البخارى : من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب . وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه .

وهذه النوافل التى ذكرت فى الحديث الشريف ، والتى إذا أكثر الإنسان منها بعد أداء الفرائض ، أحبه الله : إنما هى سلوك رسول الله ﷺ ، إنها طريق رسمه ، صلوات الله عليه وسلامه بقوله : وبعمله ، إنها سننه صلوات الله وسلامه عليه التى سنّها ، لينال الإنسان بها محبة الله سبحانه .

من مكانة رسول الله ﷺ عند ربه أيضا

وأحب الله سبحانه رسوله ﷺ ، وكان هذا الرسول بعبوديته لله سبحانه حبيب الله ، وبلغ الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه ، بعبوديته التامة درجة أول المسلمين ، كما سبق أن ذكرنا .

ولما كان أول المسلمين ، وكان حبيب الله ، ونبيه ورسوله : ميزه الله سبحانه وتعالى على بقية البشر بكونه خيرهم وهذا التمييز لا يخرجه صلوات الله عليه وسلامه عن البشرية ، فهو خير البشر ، ومنتهى القول فيه أنه بشر ، وأنه خير خلق الله كلهم ، ولأنه خير البشر يقول الله تعالى مخاطباً المؤمنين : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) .

إن الإنسان الذى خصه الله بالوحى ، واجتباه لرسالته واصطفاه ليكون - باسمه سبحانه - بشيراً ونذيراً ، إن هذا الإنسان الذى فضله الله على العالمين : يجب أن نعرف له مكانته وننزله فى الشرف الذى أنزله الله فيه ، إن هذا السراج المنير إن هذا الرءوف الرحيم ، ينبغى ألا يدعى كما

يدعى زيد وعمرو ، بمعنى لا تنادوه باسمه فتقولوا يا محمد ، ولا بكنيته فتقولوا : يا أبا القاسم ، بل نادوه وخاطبوه بالتعظيم والتكريم والتوقير بأن تقولوا يا رسول الله ، يا نبىّ الله ، يا إمام المرسلين ، يا رسول رب العالمين يا خاتم النبيين وغير ذلك .

ونستفيد من هذه الآية – كما يقول الشيخ الصاوى فى حاشيته على تفسير الجلالين إنه لا يجوز نداء النبى بغير ما يفيد التعظيم ، لا فى حياته ، ولا بعد وفاته ، فبهذا يعلم أن من استخف بجنابه ﷺ ، فهو كافر ملعون فى الدنيا والآخرة .

ويقول الله سبحانه فى أوائل سورة الحجرات : (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) ، أى لا تتقدموا بأمر من الأمور قولا كان أو فعلا ، إلا إذا أذن الله ورسوله ، وكل أمر – قولاً كان أو فعلاً – أتاه الإنسان بدون إذن الله ورسوله فإنه لا يقع على السنن المستقيمة ، يقول الضحّاك عن ذلك : هو عامّ فى القتال وشرائع الدين ، أى لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم .

(يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) ، واحذروا إن فعلتم ذلك : (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) .

أما هؤلاء الذين أساءوا الأدب دون أن يقصدوا فأخذوا ينادونك من وراء الحجرات مناداة الأعراب الأجلاف ، فإن عقولهم – فى الأغلب الأعم – ناقصة (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) .

على أن مجرد الرغبة فى الحديث إلى رسول الله ﷺ يحتاج تنفيذها إلى تقديم صدقة . يقول الله تعالى فى سورة المجادلة : (يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم ، وأطهر ، فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) .

وتدل الآية الكريمة على أن ترك تقديم الصدقة إثم ، لأن من لم يجد الصدقة فإن موقف الله سبحانه منه – لعدم قدرته – المغفرة والرحمة ، ولا تكون المغفرة والرحمة إلا على إثم ما آتاه الإنسان .

وعدم توفر الاستطاعة سبب مغفرة الله سبحانه .

وإذا حملكم خوف الفقر على ألا تفعلوا ، وإذ قادكم الضعف الإنسانى إلى ألا تنفذوا ذلك ، ثم ندمتم واستغفرتم ، فتداركوه حتى يتوب الله عليكم ، وأثبتوا حسن نيتكم وصفاء

سريرتكم ، بأن تقيموا الصلاة على الوجه الأكمل . وتؤتوا الزكاة طيبة بها نفوسكم ، وتطيعوا الله ورسوله فى الصغير والكبير ، وما من ريب فى أن الله سبحانه خبير بكل ما تعملون .

يقول الله تعالى : (أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ، فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأطيعوا الله ورسوله ، والله خبير بما تعملون) .

وبعد فيقول رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

ويقول الله تعالى :

(يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً) . هذا جانب من مكانة الرسول ﷺ التى أحبها الله له ، والتى نبه عليها سبحانه فى كتابه العزيز .

فى طاعة رسول الله من طاعة الله

وجانب آخر أحبه الله تعالى لرسوله نريد أن نبينه وهو أن الله سبحانه وتعالى قد فرض طاعة رسوله ﷺ ، مقرونة بطاعته ، بل لقد ذكرها الله سبحانه وتعالى وحدها باعتبارها فرضاً .

ويقول الله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله ، فقد ضل ضلالا مبيناً) .

ويقول تعالى : (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) . ويقول سبحانه : (قل أطيعوا الله والرّسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) .

وفى هذه الآية الكريمة : إشارة إلى أن الإعراض عن طاعة الله أو عن الرسول كفر ، وما من شك فى أنه كفر ، ذلك أن الإيمان من أركانه الإيمان برسول الله ﷺ ، وبأن كل ما أتى به صدق ، فالتولى عنه استخفافاً أو جحوداً وإنكاراً أو عناداً ومماراة ذلك كله كفر ، يخرج به المعرض عن دائرة الإسلام .

يقول الله تعالى فى طاعة الرسول صلوات الله وسلامه عليه حينما يفرده بالحديث :

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شَجَرَ بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) .

ويقول تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

ويجعل سبحانه وتعالى طاعة الرسول ﷺ من طاعته فيقول سبحانه : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ويجعل بيعته صلوات الله وسلامه عليه بيعة لله ، فيقول سبحانه : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يدُ الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومَن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) .

وطاعة رسول الله ﷺ إنما هي فيما افترضه الله سبحانه أو سنه ، وفيما افترضه رسوله صلوات الله وسلامه عليه أو سنه .

وقد تابع الرسول ، ﷺ ، القرآن الكريم فى بيانه لمنزلة السنة ،. ووجوب اتباعه ﷺ فيما سنه ، فلقد حث رسول الله ﷺ على تبليغ السنة ونشرها فقال فيما رواه أبو داود والترمذى عن زيد بن ثابت : « نضر الله وجه امرئ سمع مقالتى فحفظها ووعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوْعى من سامع » .

وروى فى معناه من طريق آخر : « رحم الله امرأ سمع مقالتى فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع » .

فكان رسول الله ﷺ يأمر الصحابة أن يبلغ الشاهد منهم الغائب فيقول فيما رواه أبو بكر : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب »

ولقد روى الحاكم والبيهقى أن رسول الله ﷺ قال : تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله ، وسنَّتى .

ويقول رسول الله ﷺ فى خطبة الوداع : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم ، ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروا ، إنى تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً : كتاب الله ، وسنتى » .

ويبين رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى عن أبى هريرة أن المسلمين سيدخلون الجنة إلا من لا يرغب منهم فى ذلك .

يقول ﷺ : كل أمتى يدخل الجنة إلا من أبى . قالوا : يارسول الله ومن يأبى ؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى .

فى مكانة السُّنَّة من القرآن

وسنة رسول الله ﷺ : لها مكانتها بالنسبة إلى القرآن ولها مكانتها بالنسبة إلى التشريع ، إنها المصدر الثانى بعد القرآن – للإسلام – إنها المصدر الثانى للإسلام باعتباره عقيدة ، والمصدر الثانى للإسلام باعتباره تشريعاً ، والمصدر الثانى للإسلام باعتباره أخلاقاً .

أما منزلتها بالنسبة إلى القرآن فإنها حسبما يقول الإمام الشافعى : « وسنن رسول الله ﷺ مع كتاب الله وجهان :

أحدهما : نصُّ كتابٍ ، فاتبعه رسول الله كما أنزل الله .

والآخر : جملة بين رسول الله فيها عن الله معنى ما أراده بالجملة ، وأوضح كيف فرضها عامًّا ، أو خاصًّا وكيف أراد أن يأتى به العباد وكلاهما اتبع فيه كتاب الله .

وفى كلمة أخرى يبين الإمام الشافعى الوجهين فيقول : « أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب ، فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب . والآخر مما أنزل الله فيه جملة كتاب ، فبين رسول الله معنى ما أراد » . وهذان الوجهان لم يختلف فيهما أحد من الفقهاء ولا من المحدثين ، يقول الإمام الشافعى : « هذان الوجهان اللذان لم يُختلف فيهما » .

والوجه الأول : بين بنفسه أنه من الواضح أن رسول الله ﷺ كان يبين القرآن عقيدة وشريعة وأخلاقاً على وجوه شتى وعلى أنحاء مختلفة ، وعلى أساليب تختلف فى الإيجاز والإسهاب بحسب حالة المخاطب . يقول الله تعالى : (وأنزلنا إليك الذِّكْرَ لتبين للناس ما نُزِّلَ إليهم) .

والرسول ﷺ كان يبين للناس ما نزل إليهم ، بسلوكه وبقوله وبإقراره يقول صلوات الله عليه وسلامه : « ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به ، ولا تركت شيئاً مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه » .

ولكن بيان رسول الله ﷺ ، كان يشتمل أيضاً على بيان ما أجمل فى كتاب الله وهذا الوجه كثير فى السنة .

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه : قال تبارك وتعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

وقال : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) .

وقال : وأتموا الحج ، والعمرة لله) .

ثم بيَّن على لسان رسوله عدد ما فرض من الصلوات ، ومواقيتها ، وسننها ، وعدد ركعاتها ، والزكاة ومواقيتها ، وكيفية عمل الحج والعمرة ، وحيث يزول هذا ويثبت وتختلف سننه وتتفق ، ولهذا أشباه كثيرة فى القرآن والسنة . ا . هـ .

وقد كان رسول الله ﷺ ، يبين كيفية الصلاة بقوله وعمله ، كأن يبين أوقاتها ، وأركانها وعدد ركعاتها ، وافتتاحها ، وترتيب حركاتها بعد الافتتاح . ويقول ﷺ : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى » .

ويبين رسول الله ﷺ ، مناسك الحج : أركانه ، وواجباته ، وسننه ويقول : خذوا عنى مناسككم .

وفرض الله سبحانه وتعالى الزكاة ، ولم يبين مقادير لها ، ولم يذكر بالتفصيل الزروع والثمار والأموال التى تجب فيها الزكاة ؛ فبين رسول الله ﷺ ذلك كله وطبقه .

ولقد بينت السنّة أن القاتل لا يرث ، وأن الوصية لا تكون فى أكثر من الثلث ، وأن الدَّيْن يقدم على الوصية هذا وكثير غيره مما بينته السنة .

عن عمران بن حصين : رضى الله عنه ، أنه قال لرجل يريد أن يقتصر على القرآن دون السنة : إنك امرؤ أحمق ، أتجد فى كتاب الله الظهر أربعاً لا يجهر فيها بالقراءة ؟ ثم عدد عليه الصلاة والسلام الزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجد ذلك فى كتاب الله مفسرا ؟ إن كتاب الله أبهم هذا ، قال : والسنة تفسر ذلك .

ولقد قيل لمطرف بن عبد الله بن الشخير : لا تحدثونا إلا بالقرآن ، فقال : والله ما نبغى بالقرآن بدلا ، ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن .

ويقول الإمام الشافعى رضى الله عنه ، ومن قَبِل عن رسول الله ، فعن الله قبل : لما افترض الله من طاعته .

فى مكانة السنة من التشريع

ورسول الله ﷺ : يشرِّع عن الله تعالى : فيما لا نص فيه من كتاب الله .

إن رسول الله ﷺ ، بعث معاذ بن جبل رضى الله عنه . إلى اليمن فقال له :

«كيف تقضى إذا عرض لك قضاء»

قال : أقضى بكتاب الله .

قال : فإن لم يكن فى كتاب الله » .

قال : فبسنة رسول الله .

قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله .

قال : أجتهد برأيى ولا آلو .

فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله .

وسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى رسالته فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه التى بدأها بقوله « سلام عليك » أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة .

يقول سيدنا عمر فى هذه الرسالة ، الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة .

فجعل سيدنا عمر السنة مصدراً من مصادر التشريع .

ولقد سئل سيدنا أبو بكر رضى الله عنه عن ميراث الجدة فقال : مالك فى كتاب الله من شىء ولكن اسأل الناس ، فسألهم ، فقام المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة فشهدا : أن النبى ﷺ أعطاها السدس .

ولم يكن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلم سنة الاستئذان حتى أخبره بها أبو موسى رضى الله عنه . (١٤٧) •

ولم يكن يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها حتى كتب إليه الضحاك بن سفيان ، أمير رسول الله ﷺ على بعض البوادى ، يخبره أن رسول الله ﷺ ورّث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها .

ولم يعلم حكم المجوس فى الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف : أن رسول الله ﷺ قال : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

ولما قدم « سرغ » وبلغه أن الطاعون بالشام استشار المهاجرين الأولين الذين معه ثم الأنصار ، ثم مسلمة الفتح فأشار كل عليه بما رأى ، ولم يخبره أحد بسنة ، حتى قدم عبد الرحمن بن عوف ، فأخبره بسنة رسول الله ﷺ فى الطاعون وأنه قال : إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه .

وهذا عثمان رضى الله عنه لم يكن عنده علم بأن المتوفى عنها زوجها تعتد فى بيت زوجها حتى

---

(١٤٧) فبين الاستئذان ثلاث ، فإذا لم يأذن له انصرف .

حدثته الفريعة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدرى بقضيتها لما توفى زوجها ، وأن النبى ﷺ قال لها :

« امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله ، فأخذ به عثمان » .

ولقد روى الحاكم ما يلى :

« حرّم رسول الله ﷺ أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلى وغيره . فقال رسول الله ﷺ « يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته فيحدث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله » فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه ، وإنّ ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله .

ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود عن عبيد الله بن أبى رافع عن أبيه لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا أدرى ، ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه .

روى أن أبو داود والترمذى وابن ماجه عن المقدام ابن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله .

وعن حسان بن عطية أنه قال : كان جبريل عليه السلام ، ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن ، ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن .

وعن مكحول قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاكم الله القرآن ومن الحكمة مثليه » أخرجها أبو داود فى مراسليه .

وقيل لمطرف بن عبد الله : لا تحدثونا إلا بالقرآن — فقال ، والله ما نبغى بالقرآن ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله » فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد فقالت يا أبا عبد الرحمن بلغنى أنك لعنت كيت وكيت فقال : « ومالى لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ ، وهو فى كتاب الله ، فقالت المرأة لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته ، فقال لئن كنت قرأته فقد وجدته أما قرأت (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قالت : بلى : قال : فإنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ .

وبعد أن يذكر الإمام الشافعى الوجوه الثلاثة :

١ – بيان السنة للكتاب على ما فى الكتاب .

٢ – بيان السنة لمجمل الكتاب .

٣ – ما بين رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب .

يقول : وذلك ما نريد أن ننتهى إليه ، وهو بين فى وضوح من كل ما ذكرنا – وأى هذا كان ، فقد بين الله أنه فرض فيه طاعة رسوله ، ولم يجعل لأحد من خلقه عذراً بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله ، وإن جعل الله بالناس كلهم الحاجة إليه فى دينهم ، وأقام عليهم حجته بما دلهم عليه من سنن رسول الله معانى ما أراد الله بفرائضه فى كتابه ليعلم من عرف منها ما وصفنا : إن سنته ﷺ ، إذ كانت سنة مبينة عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه ، وفيما ليس فيه نص كتاب آخر .

فهى كذلك أين كانت لا يختلف حكم الله ثم حَكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال .

فى تدوين السنة

بدأ رسول الله ﷺ فى العهد المكى يبشر بالقرآن الكريم ورسالة التوحيد سرًّا ثم جهراً ، وكان الرسول ﷺ يلقى بالأضواء كلها على القرآن .

١ – ذلك أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى ، وهو بأسلوبه معجز ، وهو بمعناه يأخذ بالأفئدة وهو بعظاته يتملك القلوب ، وهو بمنطقه يسيطر على العقول .

٢ – ثم إن موضوع القرآن فى هذه الفترة كان موضوعاً محدداً : لقد كان جملة من القضايا تتصل بالغيب ، الغيب الإلٰهى . أو بتعبير آخر – توضيح العقيدة .

توحيداً – ورسالة – وبعثاً .

وكان أسلوب القرآن فى ذلك واضحاً لا لبس فيه ، بيناً بياناً سافراً .

٣ – وخشى رسول الله ﷺ ، أن يضيف الناس شيئاً من كلامه إلى القرآن ويخلطوه به .

وربما أسرفوا فى هذه الإضافة : فلا يستبين الناس الفواصل والفروق بين الأسلوب القرآنى الإلٰهى ، والأسلوب النبوى حينما يتلونهما فى أول العهد بالإسلام ممتزجين لا تمييز بينهما .

إن معالم الأسلوب القرآنى واضحة ، وكلام الله سبحانه أينما كان يتميز بصفات تجعله بمعزل عن غيره .

ولكن لابد من إيجاد الفرصة الكافية لترتسم هذه المعالم فى النفوس . أى لابد من تقديم القرآن خالصاً صافياً لا يمتزج به غيره .

لابد من تقديمه كما أنزل فى ثوبه الإلٰهى البحت حتى تصبح المعالم معالم الإعجاز المعجز بينة سافرة .

من أجل ذلك نهى رسول الله ﷺ . عن كتابة حديثه صلوات الله وسلامه عليه .

٤ – على أن هذه الآيات القرآنية ، فى العهد المكى . وهى تشرح التوحيد توحيد الله فى الصفات إنما وهى تشرح الهيمنة الإلهية على الكون ، على العوالم ، جميع العوالم ، ليست فى حاجة إلى بيان أوضح أو إلى تعبير أقوى .

بل إنه لا يتأتى أن يكون هناك بيان أوضح أو تعبير أقوى .

إنها وهى تهدم الشرك ، وتدك حصونه فتقول مثلا :

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أمّا يشركون ؟ أمَّنْ خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ،أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أمّن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السُّوءَ ، ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أمّن يهديكم فى ظلمات البرّ والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، أإله مع الله تعالى الله عما يشركون .أمَّن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله . . قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) . .

إنها حينما تقول ذلك ، لا تحتاج إلى شرح أو تفسير وهى : حينما تتحدث عن البعث تقول : (ونفخ فى الصور فصعِقَ مَن فى السموات ومَن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نُفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون ، وأشرقتِ الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقُضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . وَوُفِّيَتْ كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) .

ليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

وهى : حينما تتحدث عن الرسول ﷺ ونزول القرآن عليه تقول : (نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبينْ) . ليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

ثم هى ، حينما تقول ترغيباً وتبشيراً .

(إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك

متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون . سلام قولا من رب رحيم) ، فليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

وحينا تقول موعظة وإنذارا : (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم : لِمَ شهدتم علينا ؟ ؟ قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون . وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) ، فليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

٥ – ثم إن الموضوعات التى تتحدث فيها هذه الآيات المكية : موضوعات غيبية ، والموضوعات الغيبية دقيقة وغاية فى الدقة ، فهل إذا تحدث الرسول ﷺ فى هذه الموضوعات ، ونقل عنه هؤلاء شفويًّا ، وهم حديثو عهد بالإسلام وقريبو عهد بالجاهلية الوثنية . . . هل سيحسنون التعبير ، عنها أو يقولونها كما تحدث بها الرسول ﷺ ، فى دقته الدقيقة ، وفهمه الواعى عن الله سبحانه وتعالى ؟

من أجل ذلك ، أمر الرسول ﷺ ألا يكتب عنه غير القرآن ، وحكمة هذا الأمر وتعليله واضح كل الوضوح مما ذكرنا . ولكن فى فترة العهد المدنى تغير الوضع .

ها هو ذا الإسلام ينتشر انتشاراً واسعاً وسريعاً وها هى ذى الأمة الإسلامية الناشئة المؤمنة القوية : تبعث الأمل واسعاً فى أن دين الله سينتشر فى الآفاق وسيعم نوره الأقطار وستحطم كلمة الحق صروح الباطل ، وسيتم الله نوره ولو كره المشركون وسيعم لألاؤه برغم أنوف الكافرين .

ومن أجل هذه الأمة بدأ الوحى ينزل أرسالا أرسالا بالتشريع فى جميع ألوانه تشريع دولى وتشريع جنائى وتشريع مدنى ، وتشريع للعبادة ، وتشريع للأحوال الشخصية .

لقد بدأ التشريع الإلٰهى بنظم حياة الفرد : عبادة ومعاملة : حياته مع نفسه ، وحياته مع أمته ، وحياته مع الله تعالى :

لقد أخذ بنظم حياة الإنسان منذ أن يستيقظ فى الصباح إلى أن ينتهى به الأمر إلى الصحو من جديد فى صباح تال .

وينظم حياته من أسبوع إلى أسبوع ، ومن شهر إلى شهر ، ومن عام إلى عام . وينظم حياته فى ذاته ، وينظم حياته فى أسرته ، وينظم حياته فى مجتمعه . وينظم حياة المجتمع الإسلامى كله فى الكون كله . وما كان يتأتى أن يتعرض الوحى فى ذلك للتفصيلات المفصلة ، ولا للجزئيات الجزئية

التى لا تعد ولا تحصى ، ولكنه كان يفصل تفصيلا يشبه أن يكون تامًّا فى الأمور التى تكون عادة مثار النزاع وخصوصاً – الماليات كالميراث ، وكتابة الدين مثلا .

ويضع قواعد عامة شاملة تتضمن الجزئيات المتعددة ، فى موضوعات أخرى وكان لابد من أن يستفيض الرسول : ﷺ فى البيان والشرح والتفسير .

وكان المسلمون قد ألفوا الجو الإسلامى ، وألفوا الأسلوب القرآنى ، عرفوا مفهوم الشرك ومفهوم التوحيد ، وتبينت لهم الفروق الفاصلة بين العلم والجهل ، وبين الإسلام والجاهلية . وبين توجيه الوجه للذى فطر السموات والأرض وتوجيهه للأصنام أو الشهوات أو اللهو ، ولم يكن هناك من خوف على خلط أسلوب القرآن الكريم بغيره .

وكان لابد من تقييد شروح الرسول ﷺ ، وتفسيراته . لم تكن هناك ظروف توجب عدم كتابة الحديث ، وكانت هناك ظروف توجب كتابته .

ومن أجل ذلك أباح الرسول ﷺ كتابته بعد أن كان قد نهى عنها .

وبدأ الصحابة – رضوان الله عليهم يكتبون .

روى الإمام البخارى فى كتاب العلم ، باب كتابة العلم قال : « حدثنا محمد بن سلام قال : أخبرنا وكيع عن سفيان عن مطرف ، عن الشعبى ، عن أبى حنيفة قال : قلت لعلى هل عندكم كتاب .

قال : لا ، إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما فى هذه الصحيفة .

قلت : فما فى هذه الصحيفة .

قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر . ويروى الإمام البخارى : حدثنا أبو نعيم : الفضل بن دكين ، قال : حدثنا شيبان ، عن يحيى عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث ، عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه فأخبر بذلك النبى ﷺ فركب راحلته ، فخطب فقال :

إن الله حبس عن مكة القتل ، أو الفيلَ : شك أبو عبد الله وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين ، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلى ولم تحل لأحد بعدى . ألا وإنها حلت لى ساعة من نهار ، ألا وإنها ساعتى هذه حرام ، لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها ، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد ، فمن قتل فهو بخير النظرين إما أن يعقل وإما أن يقاد أهل القتيل .

فجاء رجل من أهل اليمن ، فقال : اكتب لى يا رسول الله .

فقال : اكتبوا لأبى فلان .

فقال : رجل من قريش : إلا الإذخر ، يارسول الله ، فإنا نجعله فى بيوتنا وقبورنا .

فقال النبى : ﷺ : إلاّ الإذخر إلا الإذخر .

قال : أبو عبيد الله : يقال : يقاد ، بالقاف .

فقيل : لأبى عبيد الله : أى شيء كتب له .

قال : كتب له هذه الخطبة .

ويقول البخارى :

حدثنا على بن عبد الله . قال حدثنا سفيان ، قال حدثنا عمرو ، قال أخبرنى وهب بن منبه ، عن أخيه قال سمعت أبا هريرة يقول : ما من أصحاب النبى ﷺ ، أحد أكثر حديثاً عنه منى إلا ماكان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب . تابعه معمر ، عن همام عن أبى هريرة « انتهى البخارى » . ولقد اشتهرت كتابة عبد الله بن عمرو لكل ما يصدر عن رسول الله ﷺ حتى لقد نوقش فى ذلك من بعض القرشيين . يقول حسبما يروى فى سنن الدارمى وغيره : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر ، يتكلم فى الغضب والرضا ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فأومأ بأصبعه إلى فيه ، وقال : اكتب ، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلاّ حق .

وروى عن أبى هريرة – كما يذكر الترمذى – أن رجلا من الأنصار كان يشهد حديث رسول الله ﷺ فلا يحفظه فيسأل أبا هريرة فيحدثه ، ثم شكا قلة حفظه إلى الرسول ﷺ ، فقال له النبى ﷺ : استعن على حفظك بيمينك . أى بالكتابة .

وروى عن رافع بن خديج ، كما يذكر فى كتاب « تقييد العلم » أنه قال : قلنا يارسول الله « إنا نسمع منك أشياء ، أفنكتبها ؟ قال : « اكتبوا ولا حرج » .

على أنه قد روى عن رسول الله ﷺ أنه كتب كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن . لعمر بن حزم وغيره ، كما يروى ذلك صاحب كتاب « جامع بيان العلم وفضله » .

هذا ماكان من بعض الصحابة فى عهد الرسول ، ﷺ ، وتكثر الروايات فيما كان من كتابة الصحابة بعد انتقاله صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى . ففى مسند الإمام أحمد عن أبى عثمان النهدى قال :

كنا مع عتبة بن فرقد . فكتب إليه عمر بأشياء يحدثه عن النبى ﷺ ، فكان فيما كتب إليه . إن رسول الله ﷺ قال : لا يلبس الحرير فى الدنيا إلا من ليس له فى الآخرة منه شيء إلا هكذا .

وقال بأصبعيه السبابة والوسطى ، قال أبو عثمان : فرأيت أنها أزرار الطيالسة . ولقد كان بعض الصحابة ينقل عن بعض ، فعروة بن الزبير رضى الله عنه ، ينقل عن خالته السيدة عائشة رضوان الله عليها فتقول له : يابنى ، بلغنى أنك تكتب عنى الحديث ثم تعود فتكتبه .

فقال لها : أسمعه منك على شىء ، ثم أعود فأسمعه على غيره ، فقالت : هل تسمع فى المعنى خلافاً ؟ .

قال لا : قالتْ : لا بأس بذلك .

وبشير بن نهيك يكتب عن أبى هريرة ، ويجيزه أبو هريرة بالرواية عنه . يقول بشير : كما يذكر كتاب « السنة قبل التدوين » نقلا عن كتاب « المحدث الفاضل » وغيره – أتيت أبا هريرة بكتابى الذى كتبته ، فقرأته عليه ، فقلت : هذا سمعته منك ؟ قال نعم . وكان لابن عباس رضى الله عنه ألواح يكتب فيها عن الصحابة ، مثل أبى رافع صاحب رسول الله ﷺ .

بل لقد وصل الأمر بأنس رضى الله عنه الذى لازم رسول الله ﷺ ملازمة تكاد تكون تامة طيلة عشر سنوات ، إنه كان يملى الحديث على جموع من الطالبين ، فإذ أكثر الناس واحتاجوا إلى صحف يكتبون فيها ، جاء إليهم بها من عنده فألقاها إليهم ثم قال : هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله ﷺ وعرضتها عليه .

وكان يقول : رضى الله عنه ، لبنيه : يابنى قيدوا العلم بالكتاب .

وكان الصحابة يتراسلون فى الأحاديث ، يستفسرون ويتذاكرون ، فمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، يكتب للمغيرة بن شعبة رضوان الله عليه عدة مرات يستفسر عن بعض ما يرويه المغيرة عن رسول الله ﷺ .

فيجيبه المغيرة بن شعبة مرة عما كان رسول الله ﷺ مثلا : يقول فى ختام كل صلاة : (اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا رادّ لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد) .

ويجيبه مرة أخرى بأن رسول الله ﷺ . نهى عن : قيل وقال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال .

ويكتب زياد بن أبى سفيان إلى السيدة عائشة رضوان الله عليها ، يسألها عن مسائل تتعلق بالحج ، ويذكر لها فتوى ابن عباس رضى الله عنه ، فتكتب له بما كان ﷺ ، يفعله فى الحج .

ويصف المرحوم الأستاذ مصطفى السباعى بعض الجهود التى قام بها الصحابة لجمع الحديث فيقول فى نهاية حديثه عن تلك الجهود .

• فلما كان عهد عثمان سمح للصحابة أن يتفرقوا فى الأمصار واحتاج الناس إلى الصحابة ، وخاصة صغارهم ، بعد أن أخذ الكبار يتناقصون يوماً بعد يوم ، فاجتهد صغار الصحابة بجمع

الحديث من كبارهم فكانوا يأخذونه عنهم .

كما كان يرحل بعضهم إلى بعض من أجل طلب الحديث ، فقد أخرج البخارى فى الأدب المفرد ، وأحمد ، والطبرانى ، والبيهقى ، واللفظ له ، عن جابر بن عبد الله قال : بلغنى حديث عن رجل من أصحاب النبى ، ﷺ عن رسول الله ﷺ ، لم أسمعه فابتعت بعيراً فشددت عليه رحلى ، ثم سرت إليه شهراً حتى قدمت الشام . فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصارى ، فأتيته ، فقلت له ، حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ فى المظالم لم أسمعه فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه .

فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يحشر الناس غُرْلاً بُهْماً . قلنا ومالهم ؟ قال : ليس معهم شىء ، فيناديهم نداء يسمعه من بُعْد كما يسمعه من قرب ، أنا الديّان لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار واحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصها منه .

ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة واحد من أهل النار يطلبه بمظلة حتى أقتصها منه حتى اللطمة .

قلنا : كيف ؟ وإنما نأتى عراة غُرْلاً بُهْماً ؟ قال : بالحسنات والسيئات .

وأخرج البيهقى وابن عبد البر عن عطاء بن أبى رباح أن أبا أيوب الأنصارى رحل إلى عتبة ابن عامر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، لم يبق أحد سمعه منه غيره فلما قدم إلى منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى – وهو أمير مصر – فخرج إليه فعانقه – ثم قال ما جاء بك يا أبا أيوب ؟ قال حديث سمعته من رسول الله ﷺ فى ستر المؤمن .

فقال : نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : من ستر مؤمناً فى الدنيا على كربته ، ستره الله يوم القيامة .

ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته ، فركبها راجعاً إلى المدينة فما أدركته جائزة مسلمة إلا بعريش مصر .

ولقد وقر فى أذهان الناس ، بصورة راسخة أن السنة لم تُدوَّن إلا فى القرن الثانى ، ومن أجل اقتلاع هذه الفكرة الخاطئة أطلنا فى نقل بعض النصوص التى تثبت الحقيقة وهى أن السنة دونت فى القرن الأول : فى عهد الرسول ﷺ ، وفى عهد الصحابة الأجلاء .

ومن أجل زيادة الأمر وضوحاً ، ومن أجل تأكيد الحقيقة فى الأذهان ، ننقل هنا أيضاً رأى الأستاذ الجليل ، السيد سليمان الندوى ، كبير علماء مسلمى القارة الهندية فى هذا العصر ، ننقله عن كتابه النفيس « الرسالة المحمدية » وهو محاضرات ألقاها فى جامعة مِدْراس

يقول : وإنى أكشف القناع ، لأول مرة فى ناديكم هذا ، بأن من زعم بأن الأحاديث النبوية لم تدوّن إلى مائة سنة أو تسعين سنة قد أخطأ والتاريخ يعارضه .

والسبب فى هذا الخطأ ظنهم أن أول كتاب فى الحديث النبوى : «كتاب الموطأ» لمالك ابن أنس ، وأول كتاب فى السيرة كتاب المغازى لابن إسحاق ، وهذان الإمامان الجليلان كانا معاصرين ، وتوفى الأول ١٧٩ هـ ، والثانى سنة ١٥١ هـ ، فاعتبروا العقود الأولى من القرن الثانى بداية تدوين الأخبار والسير .

والأمر ليس كذلك ، فإن بواكير التدوين ابتدأت قبل ذلك بكثير ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ عالماً جليلاً ، ولى إمارة المدينة ثم استخلف سنة ٩٩ ، وقد عهد إلى القاضى : أبى بكر بن محمد بن عمر بن حزم ، الذى كان إماماً فى الحديث والخبر أن يبدأ فى تدوين سنن النبى ﷺ وأخباره ، لأنه خاف على العلم أن يرفع شيئاً فشيئاً .

وخاف دروس العلم وعفاءه ، وقد ذكر هذا فى تعليقات البخارى ، والموطأ لمالك ، والمسند للدارمى ، فقام بذلك أبو بكر بن حزم ، وكتبت الأحاديث والأخبار والسنن فى القراطيس وأرسلت إلى دار الخلافة بدمشق ، ونسخت فى الصحف والكتب ، وبعث بها إلى البلاد الإسلامية وكبريات المدن يومئذ (مختصر جامع بيان العلم للحافظ بن عبد البر من ١٣٨) .

فأبو بكر هذا الذى علمتم مكانته من العلم والفضل وكان قاضياً بالمدينة المنورة ، هو الذى اختاره عمر بن عبد العزيز لهذا العمل الجليل لعلمه وفضله ولأن خالته عمرة كانت من كبريات تلميذات أم المؤمنين عائشة ، وكان ما روته خالته عمرة عن أم المؤمنين عائشة محفوظاً عنده ، فأوعز إليه عمر بن عبد العزيز بتدوين مرويات خالته ، وقد اختصها بالذكر فى كتابه إليه .

ويتابع السيد سليمان الندوى حديثه فيقول :

وأمر ، ﷺ ، فكتبت أحكام الزكاة وما تجب فيه ، ومقادير ذلك ، فكتبت مشروحة مفصلة فى صفحتين ، وبعث بصورة ذلك إلى أمراء البلاد وولاتها ، وبقيت محفوظة فى بيت أبى بكر الصديق ، وأبى بكر بن عمرو بن حزم . « الدار قطنى فى كتاب الزكاة ص ٢٠٩ » ، وكان عند عمال الزكاة رسائل فيها أحكام الزكاة .

وكان لمرويات عبد الله بن عباس كراريس عدة وجاءه قوم من أهل الطائف بكراسة منها ليرويها عنه (العلل للترمذى ص ٦٩١) .

وكان سعيد بن جبير يكتب روايات عبد الله بن عباس (الدارمى ٦٩) وبقيت صحيفة عبد الله بن عمرو (الصادقة) موجودة عند حفيده . عمرو بن شعيب « سنن الترمذى ٢٩٣ ص ٦١ ،

١١٣ » وكانوا يضعفون عمرو بن شعيب ، لأنه يروى من الصحيفة وكان ينبغى له أن يروى من حفظه .

وجمع وهب التابعى روايات جابر بن عبد الله وكانت عند إسماعيل بن عبد الكريم ، وضعفوه لأجل ذلك (تهذيب التهذيب لابن حجر ٣١٦) .

ويروى سليمان بن سمرة بن جندب أنه كان عند أبيه صحيفة فيها أحاديث ، وكذلك روى ابنه حبيب بن سليمان - (تهذيب التهذيب) : ١٩٨ .

وجمع همام بن منبه روايات أبى هريرة وهو أكثر الصحابة رواية ، وأوعاهم حفظاً لأحاديث الرسول ﷺ ، فصارت تعرف صحيفته بين المحدثين بصحيفة همام ، وقد أوردها الإمام أحمد ابن حنبل فى الجزء الثانى من مسنده (ص ٣١٢ - ٣١٨ الطبعة الأولى) .

وكذلك بشير بن نهيك : كتب مروياته عن أبى هريرة فى كتاب وقرأه عليه .

(كتاب العلل للترمذى ص ٦٩١ ، والدارمى ص ، ٦٨ والسنن الكبرى للبيهقى ١٠ : ٢٨٠) . وذكر ابن حجر فى كتابه فتح البارى : أن أبا هريرة جاء برجل إلى بيته وأراه أوراقاً وقال : هذه رواياتى ، وقال الذى روى ذلك : إنها لم تكن مكتوبة بيده . (فتح البارى ١ : ١٧٤ - ١٨٥) . وكان أنس بن مالك - وهو معروف بكثرة الروايات يقول لأولاده يا بنى اكتبوا العلم وقيدوه بالكتابة (الدارمى ص ٦٨) .

وكان تلميذه « أبان » يكتب رواياته بين يديه (الدارمى ٦٨) .

وروى عن سلمى قالت : رأيت عبد الله بن عباس يستملى أبا رافع خادم رسول الله ﷺ ماكان ﷺ ، يفعل أو يقول (طبقات ابن سعد ١٢٣/٢/٢) .

والواقدى وهو من متقدمى المصنفين فى السيرة النبوية يقول : رأيت عند عبد الله بن عباس الكتاب الذى أرسله رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى سيد عمان مع كتب أخرى (زاد المعاد ٢ : ٥٧) .

وفى تاريخ الطبرى : أن عروة بن الزبير كتب جميع ماكان فى غزوة بدر مفصلا إلى عبد الملك الخليفة الأموى (الطبرى ١٢٨٥) .

ويقول سعيد بن جبير التابعى : كنت أكتب على الأقتاب ما أسمعه فى الليل من عبد الله ابن عمر وعبد الله بن عباس ، فإذا أصبحت كتبته واضحاً (الدارمى ص ٦٩) .

وكان أصحاب البراء بن عازب يكتبون عنه رواياته (الدارمى ص ٦٩) وكان نافع - وقد صحب ابن عمر ثلاثين سنة - يملى على الناس (الدارمى ص ٦٩) .

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود أنه أخرج كتاباً وقال : وايم الله ، هذا ماكتبته يد ابن مسعود (جامع العلم لابن عبد البر ص ١٧) .

وتتابع الحديث فى الموضوع على الرغم من أن الأمر أصبح واضحاً فنضيف إلى ما سبق ، أن مروان قد خطب فى الناس فذكر مكة وحرمتها فقال رافع بن خديج بصوت يسمعه الناس :

والمدينة حرم حرمها رسول الله ﷺ وهو مكتوب عندنا فى أديم خـولافى إن شئت أن نقرئكه فعلنا .

فناداه مروان : أجل قد بلغنا ذلك ، (مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤ : ١٤١) .

وأرسل الضحاك بن قيس كتاباً إلى النعمان بن بشير يسأله فيه عن السورة التى كان رسول الله ﷺ يقرؤها فى صلاة الجمعة غير سورة الجمعة .

فكتب إليه يقول : كان يقرأ (هل أتاك) (صحيح مسلم) وكتب عمر بن الخطاب إلى عتبة ابن فرقد كتاباً ذكر فيه : أن رسول الله ﷺ ، نهى عن لبس الحرير (صحيح مسلم) .

« ويقول مجاهد : رأيت عند عبد الله بن عمرو كتاباً فسألته : ما هذا ؟ فقال : هذه الصادقة « فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ ليس فى ذلك بينى وبينه أحد » .

ولما ولّى رسول الله ﷺ ، عمرو بن حزم اليمن وبعثه إليها أعطاه أحكاماً مكتوبة فى الفرائض والصدقات والديات (كنز المال ٣ : ١٨٦) .

وتلقى عبد الله بن حكيم كتاباً من رسول الله ﷺ ، فيه أحكام الحيوانات الميتة (المعجم الصغير للطبرانى ص ٢١٧) .

ولما أراد وائل بن حجر أن يرجع إلى بلاده حضرموت ناوله رسول الله ﷺ كتاباً فيه أحكام الصلاة والصوم والرّبا والخمر وغير ذلك (الطبرانى ٢٤٢) ولما وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السؤال إلى أصحاب رسول الله ﷺ فى نصيب المرأة من دية زوجها قام الضحاك بن سفيان : فقال :

نعم عندنا كتاب من رسول الله ﷺ ، يبين فيه ذلك (الدار قطنى ٢ : ٤٨٥)[١٤٨]

وقد بلغ عدد الصحابة رضى الله عنهم فى آخر حياة النبى ﷺ - عندما حج حجة الوداع مائة ألف ، ومن هؤلاء عشرة آلاف صحابى مذكورة أسماؤهم وأحوالهم فى كتب التاريخ التى أفردت تدوين أحوالهم خاصة . وأن التاريخ لم يهتم بتدوين أحوالهم ، ولم يحفظ لنا شئونهم إلا لأن كل واحد منهم حفظ شيئاً من أقوال النبى ﷺ ، وأفعاله وتصرفاته وهديه وسيرته .

(١٤٨) انظر السنة قبل التدوين ، والسنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ، ورجال الفكر والدعوة .

لقد توفى رسول الله ﷺ ، سنة ١١ من الهجرة النبوية ، وبقى فريق من كبار الصحابة بعده إلى سنة أربعين ، وبقى بعد ذلك من الصحابة ، الذين كانوا أحداثا فى حياة النبى ﷺ ، عدد غير قليل ، فلما انقرض ذلك الجيل لم يبق من الصحابة أحد ، وانطفأ كل سراج أوقد بنور النبوة .

وإليكم أسماء آخر من مات من الصحابة ، والبلاد التى ماتوا فيها وسنوات وفاتهم .

آخر الصحابة موتًا	المدن التى توفوا فيها	سنة الوفاة
١ – أبو أمامة	الشام	٨٦
٢ – عبد الله بن الحارث بن جزء	مصر	٨٦
٣ – عبد الله بن أبى أوفى	الكوفة	٨٧
٤ – السائب بن زيد	المدينة	٩١
٥ – أنس بن مالك	البصرة	٩٣

وأنس بن مالك هذا الذى كان آخر من بقى من الصحابة كان الخادم لرسول الله ﷺ ، واستمر فى خدمته عشر سنوات متوالية .

ومعظم هذه الثروة الحديثية كما يقول الأستاذ الجليل أبو الحسن الندوى قد كتب ودوّن بأقلام رواة فى العصر الأول . وقد يزيد ما حفظ فى الكتب والدفاتر كتابة وتحريراً فى العصر النبوى وفى عصر الصحابة ، رضى الله عنهم ، على عشرة آلاف حديث ، إذا جمعت صحف ومجاميع أبى هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعلى ، وابن عباس ، رضى الله عنهم ، فيمكن أن يقال : إن ما ثبت من الأحاديث الصحاح واحتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودوّن فى عصر النبوة وفى عصر الصحابة قبل أن يدوّن الموطأ والصحاح بكثير .

جمعت السنة إذن – جميعها تقريباً – فى عهد الرسول ﷺ وعهد الصحابة . جمعت دون ترتيب ولا تنسيق .

جمعت متفرقة متناثرة ، يكتب هذا الحديث والحديثين ويكتب الآخر المائة والمائتين ويزيد الثالث عن ذلك ، ويملى الرابع من حفظه على الآخرين ، وهكذا ، وفى ذلك لم يكن لأحد اهتمام بالتنضيد أو التنسيق .

يقول الأستاذ العالم الورع المثبت أبو الحسن الندوى فى كتابه « رجال الفكر والدعوة » ما يلى :

وإذا جمعت هذه الصحف والمجاميع ، وما احتوت عليه من الأحاديث كونت العدد الأكبر من الأحاديث التى جمعت فى الجوامع والمسانيد والسنن فى القرن الثالث :

وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله – من غير نظام وترتيب – فى عهد الرسول ﷺ ، وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم .

ويتحدث الأستاذ أبو الحسن الندوى عن الوهم الشائع بين الناس من أن السنة لم تدون إلا فى القرن الثالث : ويعلل هذا الوهم تعليلا منطقيا فيقول :

وقد شاع فى الناس – حتى المثقفين والمؤلفين – أن الحديث لم يكتب ولم يسجل إلا فى القرن الثالث الهجرى ، وأحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب فى القرن الثانى وما نشأ ذلك الغلط إلا عن طريقتين .

الأولى : أن عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدونى الحديث فى القرن الثانى ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت فى القرن الأول ، لأن عامتها فقدت وضاعت مع أنها اندمجت وذابت فى المؤلفات المتأخرة .

الثانية : أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذى لا يتصور أن يكون قد جاء فى هذه المجاميع الصغيرة التى كتبت فى القرن الأول : مع أن عدد الأحاديث الصحاح غير المتكررة المتجردة من المتابعات والشواهد لا يزال قليلا .

وقد نبه على ذلك العلّامة مناظر أحسن الكيلانى ، رئيس القسم الدينى سابقاً فى الجامعة بحيدر أباد فى كتابه العظيم « تدوين الحديث » يقول رحمه الله : وقد يتعجب الإنسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية فيقال : إن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبعمائة ألف حديث .

وكذلك يقال عن أبى زرعة .

ويروى الإمام البخارى أنه كان يحفظ مائتى ألف من الأحاديث الضعيفة ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة .

ويروى عن مسلم أنه قال : جمعت كتابى من ثلاثمائة ألف حديث ، ولا يعرف كثير من المتعلمين – فضلا عن العامة أن الذى يكون هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التى عنى بها المحدثون .

فحديث « إنما الأعمال بالنيات » مثلا يروى من سبعمائة طريق .

فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد لبقى عدد قليل من الأحاديث .

فالجامع الصحيح للبخارى لا تزيد الأحاديث التى رويت بالسند الصحيح فيه على ألفين وستمائة وحديثين .

وأحاديث مسلم يبلغ عددها أربعة آلاف حديث .

وهكذا لا يبلغ عدد الأحاديث المروية فى كتب الصحاح الستة ومسند أحمد وكتب أخرى خمسين ألف حديث منها الصحيح ، ومنها السقيم ، ومنها المتفق عليه ، ومنها المتكلم فيه .

وقد صرح الحاكم أبو عبد الله – الذى يعد من المتسامحين المتوسعين – أن الأحاديث التى فى الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف (توجيه النظر ص ٩٣)

ويقول الأستاذ :

ولم ينتصف القرن الثانى حتى كانت حركة الجمع والتدوين أنشط وأقوى ، وكان ممن سبق إليها من رجال هذا القرن . .

ابن شهاب الزهرى وابن جريج المكى وابن إسحاق – معمر اليمنى – سعيد بن أبى عروبة المدنى – ربيع بن صبيح – سفيان الثورى – مالك بن أنس – الليث بن سعد – وابن المبارك – ثم تتابع الناس .

فى موافقة السنة للقرآن

أن تكون موافقة لما جاء فى القرآن فتكون واردة حينئذ مورد التأكيد ومن أمثلة ذلك .

١ – قوله ﷺ : « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه » ، رواه الديلمى فإنه يوافق قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) .

٢ – قوله ﷺ : « اتقـوا الله فى النساء فإنهن عوان عندكم ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » فإنه يوافق قوله تعالى : (وعاشروهن بالمعروف) .

٣ – قوله ﷺ : « إن الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته » يوافق قوله تعالى : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة) .

أن تكون دالة على حكم سكت عنه القرآن ومن أمثلة هذا النوع . .

١ – قوله ﷺ فى البحر « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » .

٢ – قوله ﷺ فى الجنين الخارج ميتاً من بطن أمه الذكاة «وذكاة الجنين ذكاة أمة » .

٣ – الأحاديث الواردة فى تحريم ربا الفضل .

٤ – الأحاديث الواردة فى تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطيور وتحريم لحوم الحمر .

فى أقسام الحديث النبوى

لقد اعتمد أسلافنا منهج الرواية أولا ، ثم بينوا عن طريق هذا المنهج نفسه : الصحيح ، والحسن ، والضعيف ، والموضوع .

وكتبوا فى كل ذلك . ولقد ساهم الإمام السيوطى رضى الله عنه بقسط وافر فى هذا المجال وكتابه اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة أشهر من أن يتحدث عنه ، ولم يكتف أسلافنا ببيان الموضوع والضعيف والحسن والصحيح ، وإنما اتخذوا قواعد عامة منها – مثلا – أن القرآن الكريم وعمل الرسول ﷺ وعمل الصحابة كل ذلك مهيمن كمقياس للصحة والبطلان .

وقواعد الدين العامة وأصوله الصحيحة ومبادئه بل فروعه . . . إن كل ذلك واضح لدى المسلمين منذ . .

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينًا) اعتمد أسلافنا منهج الرواية ، والتزموه ، ونقدوا المنتقد منه ، وأثبتوا ما ثبت وزينوا ما زان ، وسجلوا كل ذلك ، فحققوا بهذا ما هو جدير بهم من سعة الأفق ، ومن هذه النهضة العلمية الأصيلة أبانوا أنهم أفهم الناس للروح العلمية الأصيلة وآفاق البحث فى أدق صوره .

فجزاهم الله عن العلم وأهله خيراً .

فى رواية الحديث عن المتخصصين

مثل من الإمام مالك بن أنس

* * *

وكان يتحرى التخصص المتخصص ويروى عنه – فيما يتعلق بناحية التخصص أنه قال : « لقد أدركت بالمدينة أقواماً لو استسقى بهم القطر لسقوا . أى أنهم من الصلاح بحيث لو دعوا الله أن ينزل المطر لاستجاب لهم) وقد سمعوا من العلم ، والحديث شيئاً كثيراً وما أخذت عن واحد منهم ، وذلك أنهم كانوا قد ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد . .

ويقول هذه الكلمة البالغة العمق :

إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه ، لقد أدركت سبعين ممّن يقول قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين – وأشار إلى المسجد – فما أخذت عنهم شيئاً ، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أميناً ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن .

ويريد أن يقول فى هؤلاء وأولئك إنهم ليسوا من أهل الحديث . ومن الجائز ، وهم غير متخصصين فى هذا الشأن ، أن يقرر بهم أو أن يرووا حديثاً ضعيفاً ، ويريد أيضاً أن يقول : إن الصلاح غير العلم ، وإنه لا يلزم من وجود الزهد أو الأمانة أن يكون الزاهد أو الأمين نقادة متثبتاً .

ومع هذا التحرى ومع هذا الجهد فى التثبت فإنه ماكان يروى كل ما يسمع ويقول : إن عندى لأحاديث ما حدثت بها قط ، ولا سمعت منى ، ولا أحدث بها حتى أموت ، وقال مالك يوماً : سمعت من ابن شهاب أحاديث لم أحدث بها إلى اليوم .

فقال له قائل : لِمَ يا أبا عبد الله . فقال : لم يكن العمل عليها فتركتها .

ورد مالك على السائل هو المفتاح الذى نفسر به هذا الموضوع الذى يتساءل عنه الناس كثيراً ، وذلك أن مالكاً رضى الله عنه كان قد اتخذ مبادئ نقدية محددة لقبول الحديث منها :

١ – أن يكون المُحدِّث من رجال الحديث متخصصاً فيه .

٢ – وأن يكون صاحب ذاكرة قوية .

٣ – وألاّ يكون من أصحاب الأهواء .

٤ – وألاّ يخالف الحديث أصلا من أصول الدين .

٥ – وألاّ يتعارض فى وضوح مع عمل أهل المدينة .

فإذا فقد شرط من هذه الشروط فى الحديث فإن مالكاً لا يرويه ، ومع أن ابن شهاب ثقة ، ومع أنه من شيوخ الإمام مالك فإنه لما تعارضت بعض أحاديثه مع عمل أهل المدينة لم يرو الإمام عنه ما تعارض عنها وهكذا فيما روى لما لم يستكمل شروط الصحة .

فى شرح قول رسول الله ﷺ

« إنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

* * *

يدلنا هذا الحديث الشريف على أن صحة الأعمال الصالحة ، إنما هى بالنية الخالصة لله ورسوله .

والواقع أنه ليس الأمر أمر النية فحسب ، وإنما الأمر أيضاً خلوص النية فى أعمال الخير كلها ، ومعنى خلوص النية أن يريد الإنسان بالعمل الصالح وجه الله وحده عن الضحاك بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا خير شريك ، فمن أشرك معى شريكاً فهو لشريكى ، ثم يقول رسول الله ﷺ : يأيها الناس أخلصوا أعمالكم ، فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ولا تقولوا هذه لله وللرحمة فإنها للرحم وليس لله منها شىء .

ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم ، فإنها لوجوهكم وليس لله منها شىء .

فى حديث

« الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا »

* * *

ظاهر المعنى أنَّ كل امرئ يتصرف بما طُبع عليه ، فأهل الخير والبر والإحسان إذا ليّن الله قلوبهم بالإيمان الكامل وعمّرها بالعلم النافع كانوا خير الناس لتوافر الدافعين :

أولهما : العلم المبين للخير والمميز للأصلح .

وثانيهما : حسن المعدن وكرم الأصل فى التزام المروءة وتحرى الخير .

فى بر الوالدين

روى أبو داود عن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال :

يا رسول الله هل بقى من بر أبوىّ شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم : الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما .

ومن المستحب للأموات قراءة القرآن فى البيوت بعيداً عن المقابر – مع عدم إهمال الدعاء والاستغفار وفاء بحقهما قياماً بحق برهما (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) .

أما إذا تركها المسلم فيكفيه منها الدعاء والاستغفار وإلا كان مقصراً فى حق والديه ناكراً لجميلهما عليه ، ومن سمات المؤمنين الوفاء وسيعاقب بقدر تفريطه وإهماله .

فى معنى علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل

لم يعتبر المحدثون الكلمة القائلة : علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل لم يعتبروها حديثاً ، ولم تثبت عندهم ، وإن كان معناها فى ذاته صحيحاً فإن أنبياء بنى إسرائيل كانوا قائمين بالوحى المتتابع على حفظ دين الله . ولما ختمت النبوة بسيدنا محمد ﷺ قام على الدين – جيلا بعد جيل – العلماء الأثبات والحفظة والثقات .

فى حديث

« الميت يبعث فى ثيابه التى يموت فيها »

رواه أبو داود والحاكم وابن ماجه وأبو سعيد الخدرى

* * *

ومعناه التوجيه إلى دوام تطهير الثياب من النجاسة وهذا ما فهمه أبو سعيد الخدرى حينما طلب ثياباً جديدة يستعد بها لاستقبال الموت ، وقيل إن المراد بالثياب العمل أى يبعث على عمله الذى مات عليه حسناً أو قبيحاً ، والذى نراه أن المراد الثياب الملبوسة وأن الحديث يفيد وقوع البعث للأجساد بأوضح بيان حيث إن البعث سيشمل الثياب التى مات الإنسان فيها فضلاً عن الجسد .

فى حديث

« ارحموا اليتامى وأكرموا الغرباء .. إلخ »

ليس بالقوى ، فقد قال ابن الديبع الشيبانى وردت أحاديث فى إكرام الغرباء وكلها ضعيفة ومن المعروف أن الإسلام يحث على إكرام اليتيم ، ويجعل أكل أموال اليتامى أكلاً للنار فى البطون .

والله تعالى يقول لرسوله ﷺ يحث على إكرام اليتيم ويجعل أكل أموال اليتامى أكلاً للنار فى البطون : (إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيراً) . والله تعالى يقول لرسوله ﷺ : (ووجدك يتيماً فآوى) وأما المراد بالغريب هنا فلعله غريب الدين ، إن الذى يتمسك بدينه حال الفتن وانتشار الضلال كالغريب كما فى حديث بدأ الإسلام غريباً . فطوبى للغرباء قيل ومن الغرباء قال : الذين يصلحون إذا فسد الناس .

فى شرح حديث

روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، ومايزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

وقد تحدث رسول الله صلوات الله عليه عن علامات المنافق ، فكانت العلامة الأولى من علاماته حسبما رواه البخارى ومسلم أنه « إذا حدث كذب » .

فالكذب إذن مجانب للإيمان ، وهو كما يروى عن رسول الله صلوات الله عليه يسود الوجه ، من كل ذلك نتبين : أن الكذب حرام ، وأن الكاذب آثم ، ومما له مغزاه : إن بعض الفرق الإسلامية تجعل حرمة الكذب أشد من حرمة الزنى والسرقة والله سبحانه وتعالى يقول : (إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) .

شرح حديث

عن أبى هريرة رضى الله عنه فيما رواه مسلم قال : قال رسول الله ﷺ « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا كذا » .

* * *

إن هذا الحديث الشريف يساند الآيات القرآنية التى تحدد موقف الإسلام من تبرج المرأة تحديداً لا لبس فيه

يقول سبحانه : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) .

يأمر الله تعالى المسلمات ألا يبدين من زينتهن إلا ما ظهر منها ، وهو الوجه والكفان ، وأن الإيمان السليم ، والإسلام الصحيح ، والخلق الكريم ، كل ذلك يريد للمرأة إجلالاً لها واحتراماً – أن تنأى بنفسها وتسمو بكرامتها عن أن تعتبر نفسها سلعة تعرض نفسها شبه عارية فى الشوارع والمجتمعات على أنظار المارة والمجتمعين .

وما من ريب فى أن المرأة العاقلة تأبى عليها عزتها ، ويأبى عليها دينها ، أن تضع نفسها متعمدة موضع الخسة بكشفها ما حرم الله أن يكشف ، وأن تعرض نفسها فى غير كرامة إلى أن تصب عليها لعنة الله والملائكة وصالح المؤمنين .

ومما لا شك فيه أن الشبان فضلاً عن الرجال يحتقرون ويزدرون هذه السلع من الفتيات والنساء اللاتى يعرضن أجسادهن رخيصة مهينة وأن الملاحظة العابرة عن الملاحظة المتروية ترشد فى صورة واضحة إلى أن احترام الشبان والرجال إنما هو للمحتشمات فى الطرقات والمواصلات .

يقول الله تعالى : (يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) .

فى شرح حديث

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »

* * *

فما هو التطبيق الواجب لهذا الحديث بالنسبة للاعتداءات الإسرائيلية على الأماكن المقدسة وأرض العرب .

التطبيق الواجب لهذا الحديث هو أن على المسلمين أن يعلموا أن الجهاد واجب مقدس على كل مؤمن ومؤمنة كل فيما يخصه ، وللجهاد مقدمات تحرز له النصر وتنأى بالمجاهدين عن الهزيمة .

تلك المقدمات هى قيام كل مؤمن ومؤمنة بواجب السمع والطاعة : (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) سورة الأنفال آية ٢٤ .

والنصر الذى يريده كل مجاهد من الله لا يأتى إلا بمعونته ومدده وهما لا يكونان لمن انحرف عن صراط الله الذى أمرنا به قال تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون) ، سورة الأنعام .

ولأنه جل جلاله جعل نصره للمؤمنين مترتباً على نصر المؤمنين لدينه قال تعالى : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) . سورة محمد .

وقال تعالى : (ولينصرن الله من ينصره) ، ولانحراف بعض المحاربين فى جيش رسول الله يوم حنين حلت الهزيمة بالمسلمين أولا ، ولما ثابوا إلى رشدهم أنزل الله عليهم سكينته وأمدهم بجنده وتوّجهم بنصره .

قال تعالى : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً) . . إلى قوله (جزاء الكافرين) . سورة التوبة .

فمها استعد المسلمون بالسلاح والرجال فإنهم لن يحرزوا نصراً ، ولن يأتيهم مدد الله عز وجل بالملائكة وغيرهم إلا إذا استمسكوا بدينهم وجعلوه الشعار لهم فى كل شىء فحسبنا فى هذا قول الله تعالى : (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) . . . إلى (شديد العقاب) : سورة الأنفال . ويقول النبى ﷺ ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) . سورة الأنفال .

وذكر الله فيه الصلوات وغيرها من الفرائض وينتظم الذكر المعروف الذى هو تنزيه الله وتهليله وحمده وهذا النوع من الذكر لا يستعصى على المجاهد فى سبيل الله ، بل إن الصلاة نفسها يستطيع أن يؤديها المجاهد وهو يقود الطائرة والدبابة والسيارة ، ويصوب المدفع إلى صدر عدوه ، ويستطيع أن يؤديها وهو يمشى على رجليه ، وذلك بأن يشير برأسه إلى الركوع والسجود وغيرهما من أركان الصلاة قال تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالا أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله) . سورة البقرة .

وإسرائيل التى نعانى منها لا تستطيع الصمود أمام قوم آمنوا بربهم فأمدهم بجنده وأيدهم بنصره وعليهم أن يستكملوا عدة الجهاد من أنواع السلاح كافة ، ثم ينطلقوا بجحافلهم إلى تلك البقاع المقدسة غير مستجيبين لنداءات مجلس الأمن وهيئة الأمم فإنها لم تنشأ لخدمة الإسلام بقدر ما أنشئت لخدمة المطامع الاستعمارية .

إن هذا الحديث الشريف يساير القرآن الكريم والروح الإسلامية كلها ، ويشرح ما يجب أن يكون عليه المسلمون فى حياتهم من الاجتماع على الإيمان واتخاذه أساساً للوحدة والأخوة ، فالحديث الشريف يبدأ بقوله « المؤمن للمؤمن » ومعنى ذلك أن الانطلاق نحو الأخوة والمحبة والوحدة وجمع الشمل إنما يكون قائماً على الإيمان فإذا كان الإيمان أساساً أتى حتماً ما يترتب عليه من أن يشد المؤمن أزر المؤمن وأن يكون معه كالبنيان المتماسك الذى تكون كل لبنة فيه مستندة إلى أخرى وساندة لها .

وإذا اتخذ الإيمان أساساً انتهى التفرق والخلاف ، وتحقق فى العصر الحاضر ما تحقق فى الماضى الذى عبر الله عنه بقوله تعالى : (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) .

ولابد من هذه الوحدة ، لابد منها لمصلحة العرب أنفسهم من أجل أوطانهم ، ولابد منها دينيًا فالله سبحانه وتعالى يقول :

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) .

ويقول سبحانه : (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين) .

والواقع أن الصهيونيين يعملون جاهدين بكل الوسائل على التفرقة بين المسلمين فى كل مكان ، كان هذا ومايزال دأبهم وديدنهم وحادثة شاس بن قيس مشهورة .

لقد مر على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم فغاظه صلاح ذات بينهم وقال فى نفسه ، قد اجتمع فلان وفلان قبله فى هذه البلاد ونالنا معهم إذا اجتمع مَلَؤُهم بها من قرار ، وأمر شابًّا من اليهود كان معهم أن ينتهز فرصة يذكرهم فيها بيوم بعاث ، ذلك اليوم الذى انتصر فيه الأوس على الخزرج .

وتكلم الغلام وأنشدهم ما قيل فى ذلك اليومين من أشعار ، فذكر القوم ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا ، وقال بعضهم لبعض إن شئتم عدنا إلى مثلها ، وبلغ رسول الله ﷺ ذلك الأمر فخرج إليهم فيمن معه من الأنصار والمهاجرين ، فذكرهم بما ألف الإسلام بين قلوبهم وجعلهم إخواناً متحابين وكان مما قال « أدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية » ومازال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضاً واستغفروا الله جميعاً ، فما رئى يوم أقبح أولا وأحسن آخراً من ذلك اليوم ، وماكانت هذه المؤامرة الأولى أو الأخيرة من مؤامرات اليهود ضد الأخوة العربية ولقد تغلب عليها العرب بمبدأ الأخوة التى غرسها الإسلام منهم .

وإذا كان هذا المبدأ قد نجح فى الماضى فهو لا محالة ناجح فى العصر الحاضر . ومما لاشك فيه أن الصهيونية تعمل جاهدة على غرس بذور العداوة بين الدول العربية حتّى يفشلوا وتذهب ريحهم ولكن السلام الوحيد الذى يجب أن نتحصن به دائماً لرد باطلهم الخبيث إنما هو التمسك بالأخوة .

فى شرح الحديث

«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تذكركم بالآخرة » .

* * *

فأباح ﷺ بذلك زيارة القبور ، وعلل السبب فى ذلك وهى تذكر أمور الآخرة ، وما يتصل بها من الموت وعذاب القبر .

ويماثل هذا الحديث ما رواه أحمد ومسلم وغيرهما عن زيارة النبى ﷺ ، لقبر أمه وقوله فزوروا القبور ، فإنها تذكر بالموت .

هذا بالنسبة للرجال :

أما بالنسبة للنساء : فإن كثرة زيارة القبور بالنسبة لهن ممنوعة ، لما روى من أنه ﷺ لعن زوّارات القبور . .

قال القرطبى : هذا اللعن إنما هو للمكثرات من الزيارة ، لما تقتضيه الصيغة من المبالغة . . ولعل السبب ما يفضى إليه ذلك من تضييع حق الزوج . وما ينشأ منهن من الصياح ونحوه .

فإذا خفت زيارتهن . . ولم تقترن بسوء من كشف عورة أو قول قبيح ونحو ذلك فلا حرج منها لما روى من أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عما تقول إذا زارت القبور فقال :

قولى : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين . . يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين . . وإنا إن شاء الله بكم لاحقون .

وعلى ذلك فزيارة القبور مندوبة للرجال جائزة للنساء وبشرط ألا يقترن بها ما يتنافى مع الغرض منها وهو التذكير بالموت والتذكير بالآخرة .

فى الشرك الخفى

الشرك الخفى مرادف للنفاق ، وذلك لأن النفاق أن يظهر المرء خلاف ما يبطن ، فيبدو المنافق فى صورة المؤمن وهو فى حقيقتهمن الكافرين ، أنه يستر شركه ويخفيه ولكنّ الله تعالى يكشفه بعلاماته ، ويبرز أهم صفاته فى كثير من الآيات القرآنية التى تحدد منابع الإيذاء فى هذا الشرك ، وأسباب التنفير منه ، ومواطن الخطر الناتجة عنه ، يقول تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله

وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) .

وتتابع الآيات فى كشف صفاتهم وتمثيل حالهم بأظهر صورة ، وأبلغ تعبير . وينتج عن هذا الشرك الخفى أو النفاق شرور كثيرة تلفح المؤمنين بأذاها ، وتلسعهم بشرورها ، ومن هذه الشرور المؤذية الرياء ، ويتحدث القرآن عن ذلك فيقول : (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) .

وينتج عن الرياء أن يعطى المسلم ثقة للمرائى ، فيستغل هذه الثقة فى إيذائه وإيصال الشرور إليه ، ومن هنا قال الرسول ﷺ .

« إياكم وشرك السرائر ، قالوا : وما شرك السرائر يا رسول الله ؟ قال الرياء » . ومن الشرور المؤذية للشرك الخفى الحسد ، لقد كان المنافقون يفرحون لمصيبة المسلمين ويحزنون لما يسرهم ، يقول تعالى : (إن تُصِبْكَ حسنةٌ تسُؤْهم وإن تُصِبْك مصيبةٌ يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون) .

وأظهر هذه الشرور المؤذية تثبيط الهمم ، والعمل بالقول والفعل على إطفاء نور الإسلام والقضاء على المسلمين ، ويتمثل ذلك فى وضوح فيما حدث فى غزوة الأحزاب ، لقد كان الرسول ﷺ ، يبشر بالفتح وكان المنافقون يقولون : هذا محمد يعدنا بكنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن على بيته بالمدينة ، ويصور القرآن ذلك فيقول :

(وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) . ويجمع صفات المنافقين فى وضوح ، وشركهم الخفى المانع للخير الجالب للشر ، قوله سبحانه : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدَّقنَّ ولنكوننَّ من الصّالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولّوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقَوْنه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذِبُون) .

أما الطريقة المثلى للتخلص من هذا الشرك وآثاره ، فتتمثل فى العمل بقول الله سبحانه : (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثُقفوا أخذوا وقُتِّلوا تقتيلا . سُنَّة الله فى الذين خلَوْا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

فى شرح الحديث

« مَن لم تنهه صلاته »

* * *

للعمل المقبول علامات ودلائل تدل عليه ، وترشد إلى بلوغ القصد به ومنه ، وقد حدد القرآن وحددت السُّنَّةُ كثيراً من هذه العلاقات والدلائل ، يقول تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقًّا) . ويقول : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) . ويقول ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ولا يعنى ذلك أن المخطئ لا تقبل له صلاة ، لأن الإنسان فى حرب مع الشيطان ومهما كان تسلحه وتيقظه ، فقد تعتريه غفلة أو فترة فيتمكن الشيطان منه فيقع فى المعصية . . ولكن إيمانه القوى وعمله الصالح سرعان ما يعود به إلى ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن ويجد من عفو الله ومغفرته ما يتيح له السير من جديد فى طريق الخير والصلاح . . وقد يقف المرء على حافة المعصية فيؤذن المؤذن فيدخل إلى الصلاة ، وما يكاد يفرغ منها حتى يجد نفسه وقد هدأت ، وغرائزه وقد استسلمت ، ويقينه وقد استيقظ . فيحس بأثر الصلاة إحساساً فى غاية القوة والظهور . وحديث : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » رجح الحافظ ابن كثير أنه من كلام بعض الصحابة لا من كلام الرسول ﷺ .

وليس من شك فى أن الصلاة التى يداوم عليها المؤمن فلا تؤثر فى سلوكه وقوله وعمله هى صلاة غير كاملة ، لأنها غير مؤثرة ، وعلى المؤمن إذا ما واجه المنكر ، أو قابل الفحشاء أن يتذكر موقفه بين يدى الله فى الصلاة ليرتدع عن ذلك .

فى محاربة اكتناز الأموال وحبسها

قال رسول الله ﷺ : « يهرم ابن آدم وتشب معه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر .

ما يجب شرحه :

١ – اثنتان : خصلتان سيئتان .

٢ – لماذا كان الحرص على المال والحرص على العمر ؟

ما يراعى عند الحديث :

١ – كنز المال وعدم استثماره وحرمان المجتمع من الانتفاع به منهى عنه شرعاً فى سبيل الحد من ضخامة الأموال أوجب الإسلام الصدقات ، وفرض الزكاة ، وجعلها ركناً من أركان الدين ، وأوجب المساهمة فى نفقات ما يعرض للأمة وما يجب لها من عدة الدفاع لحفظ الأمن والنظام أو المساهمة فى أعمال البر .

٢ – الآيات التى تتعرض للموضوع .

(ليس البرّ) البقرة آية ١٧٧

(وأنفقوا فى سبيل الله) البقرة آية ١٩٥

(والذين يكنزون الذهب والفضة) التوبة آية ٣٤

٣ – آفة الحرص على العمر .

٤ – الإسلام يدعو إلى بذل الروح رخيصة فى سبيل الله والوطن .

فى عدد الرسل من السنة

لم يرد فى عدد الأنبياء والمرسلين أثر صحيح إلا ما روى عن أبى ذَرٍّ رضى الله عنه ، وبسند قيل إنه مقبول ، وفيه . قلت يا رسول الله : كم الأنبياء ؟ . . قال ، مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا ، قلت : يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ – قال ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير كثير طيب . قلت : فمن كان أولهم ؟ – قال : آدم قلت : أنبى مرسل . . قال : نعم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسواه قبيلا ثم قال : يا أبا ذر . . أربعة سريانيون « آدم وشيث وخنوخ وهو إدريس وهو أول من خطَّ بقلم ، ونوح . . وأربعة من العرب ، هود وشعيب وصالح ونبيك يا أبا ذر . . وأول أنبياء بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى . وأول الرسل آدم وآخرهم محمد . فالذين كلفوا برسالة من الأنبياء بحسب هذا الحديث الذى قيل إنه مقبول ثلثمائة وثلاثة عشر ، والأنبياء الذين لهم

علاقة بمكة من حيث بناؤها أو النشأة فيها الذين ذكرهم القرآن الكريم هم إبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام . والرسل الذين ينتمون إلى العرب من هؤلاء كما فى الحديث : هود وشعيب وصالح ومحمد عليه الصلاة والسلام .

أما الرسل والأنبياء الآخرون الذين لهم علاقة بمكة والأنبياء الآخرون الذين ينتمون إلى العرب فلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه .

وهذا الذى ذكرناه هو أقرب الآراء إلى الصحة .

فى حرمة العود فى الهبة

قال ﷺ فيما روى البخارى : (العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه) .

أى لا ينبغى لنا معشر المؤمنين أن نتصف بصفة ذميمة يشابهنا فيها أخس الحيوانات فى أخس أحوالها .

قال تعالى : (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى) . ومن هنا حرم الإسلام على المرء الرجوع فى هبته ولم يجز له هذا الرجوع ولو دفع ثمن هبته لمن وهبها له فى سبيل الحصول عليها .

روى البخارى بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « حملت على فرس فى سبيل الله فأضاعه الذى كان عنده ، فأردت أن أشتريه منه وظننت أنه بائعه برخص ، فسألت عن ذلك النبى ﷺ فقال : لا تشتره وإن أعطاكه بدرهم واحد ، فإن العائد فى صدقته كالكلب يعود فى قيئه » .

لقد أعطى عمر رضى الله عنه رجلا فرساً ليحارب عليه فأهمل الرجل العناية بالفرس أو رغب فى بيعه بثمن بسيط وأراد عمر شراءه فمنعه النبى ﷺ من ذلك لأنه لا يحل .

فمن أسدى إلى شخص معروفاً يحرم عليه الرجوع فيه ، وإذا تصرف المهدى إليه فى هذا المعروف فلا رجوع لصاحب المعروف عليه . وحجه بهذا المعروف نافذ ، ورجوع صاحب المعروف فيه لا يبطل الحج .

وثواب صاحب المعروف على ذلك مستمر حيث لم يحصل على ما رغب الرجوع فيه من المعروف وإن قل عن الثواب قبل الرغبة فى الرجوع ، حيث دلت تلك الرغبة على ضعف عاطفة الخير عنده .

فى السُّنَّةِ الحسنة والسُّنَّةِ السيئة

« مَن سَن سُنة خير فاتبع عليها فله أجره ومثل أجور من اتبعه غير منقوص من أجورهم شيئاً ومن سَن سُنة شر فاتبع عليها كان عليه وزره ومثل أوزار من اتبعه غير منقوص من أوزارهم شيئاً » .

* * *

إن أعمال الخير يُثاب عليها مَن فعلها ومن اقتدى به فى فعلها ، وإن ثواب المبتدئ بفعلها يزيد بزيادة عدد من اقتدى به فيها ، إذْ له مثل أجر من اقتدى به ، ولكن هذه الزيادة بسبب اقتداء الناس به لا تؤثر فى أجر المقتدى ، فلا يتوهمن إنسان أن زيادة أجر الدّاعى إلى الخير أو من ابتدأ العمل الصالح تكون بالتنقيص من أجر التابع وضمه إلى أجر الداعى .

إن الأمر ليس كذلك بل للتابع أجره كاملا وللمتسبب الأصلى أجر دعوته إلى الخير بفعله أو بقوله فضلا عن أجر عمله للخير إذا فعله ولهذا عظم شأن الفقيه الداعى المنذر حتى فضل على العدد الكثير من العبادِ ، لأن نفعه يعم الأشخاص والعصور .

وإذا كان هذا العمل الصالح فالأمر فى العمل غير الصالح على العكس ، إن من دعا إلى ما يخالف الدين يحمل وزر عمله ، وإذا اقتدى به غيره فيه تحمل المقتدى وزر عمله ، وتحمل المتسبب وزر التسبب فى هذا العمل .

ومما ينبغى أن يفهم أن قوله ﷺ : ومثل أجور من اتبعه ، لا يستلزم المساواة فى قيمة الأجر بل المثلية تتحقق بمجرد حصول الأجر لكل منهما وإن اختلفت قيمة الأجر على العمل عنها عن التسبب فى العمل ، والأمر بالعكس فى العمل السيئ .

ومن هنا يمكننا أن نفهم قيمة القدوة وأهمية الوظائف العليا أو مراكز التوجيه والتأثير وما يتحمل أصحابها من مسئوليات تجلب لهم الخير إن أصلحوا وتوقعهم فى الشر المستمر إذا أساءوا أو انحرفوا .

والأمثلة كثيرة ، ففرق بين من يدعو إلى الله على بصيرة ومن يدعو إلى طريق الشيطان والهوى على أساس من العمى والضلال ، وفرق بين من تربى أبناءها على الدين ومن تربيهم على الاستهتار بتعاليمه ومبادئه فى الزى والخلق والسلوك : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

عن سفيان بن عبد الله الثقفى رضى الله عنه قال :

« قلت يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » ما معنى هذا الحديث ؟ .

الإسلام يقوم على دعامتين أساسيتين : الإيمان والعمل الصالح ، فعبر الرسول ﷺ فى هذا الحديث عن الإيمان بقوله : قل آمنت بالله ، فإذا كان المرء مؤمنا فإن المراد بقوله ﷺ : قل آمنت بالله ، جدد شعورك بها وردد كلمة التوحيد بلسانك ، وعايشها بكيانك .

ثم عبر عن العمل الصالح بقوله ثُم استقم ، أى الزم الطاعات واجتنب المخالفات ، ولازم الأعمال الصالحات ، قال تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نُزُلا من غفور رحيم) . والاستقامة عرفها بعضهم بأنها المتابعة للسنن المحمدية ، ومع التخلق بالأخلاق المرْضية وهى كما قال القشيرى ، درجة بها كمال الأمور وتمامها وبوجودها حصول الخيرات ونظامها .

وهى تستلزم مراقبة الأعمال ومتابعة الشرع وعدم الخروج على حدوده بحال .

ومن هنا كان دعاء المؤمنين فى كل صلاة عدة مرات : (اهدنا الصراط المستقيم) فعلى المسلم أن يتبين طريقه على أساس من الدين ، وأن يتجنب الانحراف ، فالخير فى الاتباع ، والشر فى كل ابتداع .

فى إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

ولقد كان رسول الله ﷺ ، أحسن الناس خلقاً ، لقد ربط حسن الخلق بالإيمان ، فقال فى حديث صحيح رواه الترمذى .

« أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً »

وفى حديث آخر رواه أبو داود ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : سمعت النبى ﷺ يقول : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » والخلق الإسلامى الأول الذى من أجله كانت الرسالة الإسلامية نفسها إنما هو خلق الرحمة ، ولقد روت الأحاديث أن أعرابيًّا دخل على رسول الله ﷺ ، فوجده يقبِّل أحد حَفَدته فاستغرب الأعرابى وقال : « أتقبِّلون أبناءكم ؟

إنّ لى عشرة من الأبناء ما قبلت أحداً منهم قط ، فقال رسول الله ﷺ : « أو أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك ؟ » .

وفى موقف آخر مثل هذا قال رسول الله ، لأعرابى آخر : « ابتعد عنى لا تحرقنى بنارك » ويقول رسول الله ﷺ : « لا تُنزع الرَّحمةُ إلا من قلب شقى » .

بل إن رسول الله ﷺ ، لم يقبل تفسير الرحمة على أنها خاصة بالأهل والعشيرة ، مقتصرة عليهم ، فقد قال فى وجه من فسر الرحمة بذلك : « أنا أعنى الرحمة العامة » .

فمن أساء لأبنائه ، فقد نزعت الرحمة من قلبه ، ودخل بذلك فى عداد الأشقياء وقطع رحمه ، ودخل بذلك فى عداد هؤلاء الذين قال الله فيهم :

(أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم) .

وذلك أن هذه الآية ، نزلت فى الذين يفسدون فى الأرض ويقطعون أرحامهم . ولقد كان رسول الله ﷺ ، ذا رحمة بالحيوانات ، وهو القائل : الشاة إن رحمتها رحمك الله .

فعلى كل إنسان بصورة عامة أن يتحلى بصفة الرحمة حتى يدخل فى نطاق قوله ﷺ : الراحمون يرحمهم الله ، ارحموا مَن فى الأرض يرحمكم من فى السّماء .

فى حق التوكل على الله

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيما رواه الإمام الترمذى وحسّنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً » .

فإن الطير تذهب أول النهار ، كما يقول الإمام النورى خماصاً ، أى ضامرة البطون من الجوع ، وترجع آخر النهار بطاناً أى ممتلئة البطون ، والواقع أن الحديث الشريف يوجه الأذهان إلى أن الطير تصبح فتذهب للبحث عن رزقها ، تصبح جائعة فتعمل وتجتهد فى طلب الرزق وبعد رحلة عمل مستمر ساعات تعود إلى عشها ممتلئة البطن شبعاً وريّا .

ورسول الله ﷺ لم يقل : إن الله يرزقها وهى ساكنة فى عشها ، وقد كان رسول الله ﷺ إمام المتوكلين ، وكان إمام المجاهدين المكافحين الآخذين بالأسباب ، وسيدنا « أبو بكر » رضى الله عنه حينما بويع بالخلافة ، أصبح ذاهباً إلى السوق ، يتجر كعادته ، فتكاثر عليه المسلمون قائلين كيف تفعل ذلك ، وقد أقمت لخلافة النبوة ؟ فقال لهم : « لا تشغلونى عن عيالى ، فإنى إن

أضعتهم كنت لما سواهم أضيع » حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين.

لقد كان كبار الصحابة رضى الله عنهم ، يعملون ، ويكتسبون ، وكانوا مع ذلك من كبار المتوكلين ، ومما ينبغى التنبيه له أن أنبياء الله ورسله لم يبلغوا الدعوة وهم فى مساكنهم آمنين مطمئنين ، وإنما جاهدوا فى سبيلها جهاداً مستميتاً وكانوا فى جهادهم مثلا كريمة للمتوكلين يقول الله تعالى على لسان سيدنا هود عليه السلام :

(إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم) .

أخذ « هود » عليه السلام يعمل على نشر الحق الموحَى إليه ، الحق الذى دعا إليه كل نبى ورسول ، والذى يتلخص فيما قال هود عليه السلام .

فى شرح حديث زيارة المريض وتشييع الجنازة

عن أبى سعيد رضى الله عنه – فيما رواه الإمام أحمد : أن النبى ﷺ قال : « عُودوا المريض وامشوا مع الجنازة ، تذكركم الآخرة » . وقول رسول الله ﷺ : « مع الجنازة » لا يوجب تقدماً ولا تأخراً وإنما فى معنى الإباحة فى المشى فى المقدمة أو خلف الجنازة .

ومن أجل ذلك يقول أنس بن مالك رضى الله عنه .

« الراكب يسير خلف الجنازة ، والماشى يمشى خلفها وأمامها ، ومن يمينها وعن يسارها ، قريباً منها .

وكان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما يمشيان أمام الجنازة ، وكان على رضى الله عنه يمشى خلفها ، ويقول رسول الله ﷺ : الراكب يمشى خلفها .

والواضح من كل ذلك أن الماشى بالخيار فى سيره مع الجنازة أما الراكب فإنه لا يسير إلا خلفها .

وسواء أكان الماشى مع الجنازة أمامها أم خلفها فإن من السنّة ألا يرفع صوته بقراءة أو بذكر وعليه أن يتدبر الموت ويعتبر به ، فإن أراد ذكراً فليذكر فى نفسه .

ومن السنّة ألا يقعد مشيع الجنازة حتى توضع ، فقد روى أبو سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : إذا رأيتم الجنازة فقوموا ، فمن تبعها فلا يقعد حتى توضع ، ومن السنة ألا يتبع الجنازة نساء ، فقد روى ابن ماجه وروى الحاكم عن على رضى الله عنه قال : خرج النبى ﷺ ، فإذا

نسوة جلوس فقال : ما يجلسكن ؟ قلن : ننتظر الجنازة قال : هل تغسلن ؟ قلن لا : قال هل تحملن ؟ قلن : لا : قال : هل تدلين فيمن يدلى ؟ قلن : لا قال : فارجعن مأزورات غير مأجورات .

فى شرح حديث السبعة الذين يظلهم الله فى ظله

السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله ورد ذكرهم فى الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى ومسلم بسندهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظلّ إلا ظله » :

إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه .

وأما بدؤه ﷺ بالإمام العادل : فلأن العدل من جوهر شريعة الله سبحانه وتعالى : إذ به يرتفع الجور والظلم من الأرض ، وبه ينتشر الأمن والطمأنينة بين الناس ، يأمنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، فلا قتل ولا اغتيال للأنفس ، ولا سلب ولا اختلاس ولا اغتصاب للأموال ، ولا تعدّى ولا انتهاك للأعراض والحرمات .

ويطمئنون على أرزاقهم – فى اليوم والغد والمستقبل – جادين فى السعى لتحصيلها مما أحله الله لهم فى أرضه الواسعة ، وكفله لعباده من النعيم فى الدنيا إن هم أقاموا ما أمرهم الله وانتهوا عمّا نهاهم عنه سبحانه ، وكل ذلك لا يتحقق ولا يتم إلا بإقامة العدل فى الأرض ، ولا يتأتى هذا إلا أن يقوم به رجل موفق يرجو الآخرة ويرجو رحمة ربه ويعمل على الخير على تحقيق الخلافة فى أرض الله بإقامة شرائعه .

ذلكم هو الإمام العادل الذى ائتمر بأمر ربه : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان . .) والقائل : (وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) لذلك كانت له البشرى فى الحديث بأن يكون فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ، وبأن يكون مقدماً فى الذكر .

وقد توالت عليه البشريات فى الدنيا والآخرة (إن الله يحب المقسطين) . والرسول ﷺ يقول : « خياركم أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم . . وشراركم أئمتكم الذين تبغضونهم

ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » . كما يقول ﷺ أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى مسلم وعفيف متعفف ذو مال .

وهذا وغيره كثير يوجب على أئمة المسلمين أن يحققوا العدل فى الأرض ويحكموا بين الناس بما أنزل الله .

وذكر هؤلاء السبعة : لا يعنى أن الأمر مقصور عليهم ، إذ العمل بأمر الله فرائض ونوافل وقربات . . والانتهاء عما نهى عنه مع الإخلاص وصدق النية فى كل عمل يجعل من الإنسان وليًّا يحظى بالقرب والحب الإلهى : ومن حظى بالقرب والحب لم يقتصر الأمر معه على أن يكون فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله وحسب ، بل له فى الدنيا البشرى وله فى الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وانظر إلى قوله تعالى : فى وضوح واضح عن أوليائه الذين ائتمروا بأمره وانتهوا عما نهاهم عنه (ألا إنّ أولياءالله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم .) وقوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما توعدون . نُزلا من غفور رحيم) .

فى وعظ الرجال والنساء يوم العيد

عن جابر بن عبد الله قال :

قام النبى ﷺ يوم الفطر ، فصلى ، فبدأ بالصلاة ، ثم خطب فلما فرغ نزل ، فأتى النساء ، فذكّرهن ، وهو يتوكأ على يد بلال ، وبلال باسط ثوبه ، يلقى فيه النساء الصدقات . . .

قال ابن جريج : قلت لعطاء : زكاة يوم الفطر ؟ قال : لا : ولكن صدقة تتصدقن حينئذ تلقى فيحها[149] ويلقين . قلت : أترى حقًّا على الإمام ذلك ، ويذكرهن قال : إنه لحق عليهم ، وما لهم لا يفعلونه .

وفى الحديث من الفوائد :

استحباب وعظ النساء وتعليمهن أحكام الإسلام ، وتذكيرهن بما يجب عليهن ويستحب

(١٤٩) الفيح : الخاتم العظيم يلبس فى الرجل أو الخاتم العظيم بلا فص .

حثهن على الصدقة ، وتخصيصهن بذلك فى مجلس منفرد – ومحل ذلك كله إذا أمن الفتنة والمفسدة .

وفيه خروج النساء إلى المصلى .

عن أم عطية قالت : قال رسول الله ﷺ « ليخرج العواتق وذوات الخدور ، والحيض ، وتعتزل الحيض المصلى ، وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين » . .

قال ابن حجر : وفيه استحباب خروج النساء إلى شهود العيدين ، سواء كن شواب أم لا . . ذوات هيآت أم لا .

وعن أم عطية قالت : أمرنا أن تخرج العواتق وذوات الخدور .

وعنها قالت : أمرنا أن نخرج ، فتخرج الحيض والعواتق وذوات الخدور .

فى السيدة سارة زوجة الخليل إبراهيم عليه السلام

السيدة سارة زوجة الخليل إبراهيم كانت مصاحبة له حين قدم إلى مصر ، وكان ملكها وقت ذاك من الطغاة الذين يحلو لهم أن يستحوذوا على ما يعجبهم من زوجات الآخرين فأوصاها سيدنا إبراهيم أن تخبر هذا الطاغية حين يسألها عن صلتها بإبراهيم بأنها أخته ويقصد بذلك أنها أخت فى الدين ، فليست سارة أختاً لإبراهيم من النسب بل هى زوجته وأخته فى الإسلام .

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ : قال : « لم يكذب إبراهيم النبى عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات ، اثنتين فى ذات الله قوله : (إنى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وواحدة فى شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبّار ومعه سارة ، وكانت أحسن الناس فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختى فى الإسلام فإنى لا أعلم فى الأرض مسلماً غيرك وغيرى – فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى لها أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها فأتى بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين ، فقال ادعى الله أن يطلق يدى فلك الله لا أضرك ففعلت فأطلقت يده ودعا الذى جاء بها فقال إنك إنما آتيتنى بشيطان ولم تأتى بإنسان فأخرجها من الأرض وأعطاها هاجر . . إلخ »

الحديث الذى أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء وأخرجه مسلم فى الفضائل وورد مثل ذلك

فى حديث الشفاعة فى فصل القضاء يوم القيامة وفيه أنهم جميعا يأتون إبراهيم عليه السلام يطلبون منه الشفاعة ، يقول لست لها إنى كذبت ثلاث كذبات . . (قوله إنى سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله لامرأته أخبريه أنى أخوك) .

فالصحيح أن السيدة سارة زوجة سيدنا إبراهيم لم تكن أخته من النسب بل هى أخته فى الإسلام ، والكذب المنسوب لسيدنا إبراهيم لا يقدح فى النبوة لأنه ليس كذباً على سبيل الحقيقة بل هو من قبيل المعاريض وإبراهيم عليه السلام قد صرح بذلك ، إذ قال إنك أختى فى الإسلام وحينئذ فليس فيه نسبة الكذب حقيقة إليه وامتناعه فى الشفاعة عن الشفاعة لأنه يرى أنه وإن لم يرتكب خطأ فقد ارتكب ما هو فى صورة الخطأ .

فى الحديث رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد

فقد روى الخطيب جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قدمتم خير مقدم ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

إن الظروف التى قيل فيها هذا الحديث الشريف تلقى بالضوء على المعنى الذى أراده الرسول ﷺ : وذلك أنه بينما كان الرسول ﷺ راجعاً من إحدى الغزوات قال : قدمتم من الجهاد الأصغر : أى من الجهاد الحربى وهو جهاد فى سبيل الله قد يشوبه عند بعض الناس ما يشوب النفس التى لم تخلص بعد إخلاصاً كاملا لله سبحانه وتعالى ، ومثل ذلك ما رواه أبو داود بإسناد جيد عن أبى أمامة قال :

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ، ما له ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا شىء له » فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ « لا شىء له » ثم قال ﷺ « إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه » .

ومعنى الذكر فى الحديث الشريف أن هذا الرجل يلتمس مع الأجر والثواب أن يتحدث الناس على شجاعته وأن يمدحوه ، وأن يكون من أصحاب الشهرة والثناء فيما بينهم ، ومثل هذا لم تخلص نيته لله وحده .

أما الجهاد الأكبر فإنه جهاد النفس حتى تتزكى وتطهر ؛ فإذا ما تزكت النفس وتطهرت ، فإن

صاحبها يهب نفسه خالصة فى سبيل الله فهو يجاهد الجهاد الحربى بروح لا تبالى على أى جنب كان فى الله مصرعها ، ويجاهد الجهاد الحربى بإيمان قد وضح فى عناصره أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، ويجاهد الجهاد الحربى وقد تشبع بالمبادئ الإسلامية فى الحرب وفى قوله تعالى مخاطباً المؤمنين مبيناً لهم ما يجب عليهم عند اللقاء والتحام الصفوف .

(يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) . سورة الأنفال الآيات ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ومن ذلك نتبين أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر لأنه الأساس لكل خير ، فهو الأساس للأمن فى المجتمع وهو الأساس للثبات والصبر والنصر على الأعداء فى الجهاد الحربى .

يقول الله سبحانه : (قد أفلح من زكاها) . . . .   (سورة الشمس) .

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ
فِي الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ

فى الذكر

لقد حث الله سبحانه وتعالى على الذكر فى كثير من آيات القرآن وأمر به ورغّب فيه ، وأعد للذاكرين الله كثيراً مغفرة لذنوبهم ، وأجراً عظيماً فى آخرتهم ، فضلا عن الاطمئنان النفسى الذى يصاحبهم دائماً فى حياتهم ، قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً، وسبحوه بكرة وأصيلا) . وقال : (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) .

وقال : (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) . ولقد ذكر الرسول ﷺ من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، رجلا ذكر الله خالياً ففاضت عيناه .

وروى البيهقى فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب : قال الله عز وجل : من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين .

وروى البخارى ومسلم وغيرهما بإسناد صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : « أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

وذكر الله هو حياة النفوس والقلوب كما ورد عن ابن عباس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « مثل الذى يذكر الله والذى لا يذكر الله مثل الحى والميت » إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الكثيرة التى تشير إلى فضل الذكر وأجر الذاكرين ، وليس الذكر محصوراً فى عدد معين بل هو متروك يأتى منه كل محب للاستزادة من الخير بقدر الوسع والطاقة ولا يغفل أى لحظة من لحظاته عن ذكر الله واستشعار عظمته ، كما ورد عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال :

إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله ﷺ أن قلت : أى الأعمال أحب إلى الله قال : أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله .

وكما روى الترمذى أيضاً : عن عبد الله بن بسر رضى الله عنه ، أن رجلا قال : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ فأخبرنى بشىء أتشبث به قال : لا يزل لسانك رطباً من ذكر الله .

وما زاد على السبعين يعد فى العرف من الذكر الكثير .

عن أبى موسى الأشعرى قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة فجعلنا نصعد شرفاً – مكاناً عالياً – ولا نغلو شرفاً ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال : فدنا منا فقال : يأيها الناس أربعوا على أنفسكم (اشفقوا بأنفسكم) فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً ، إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته .

أخرجه الإمام أحمد والإمامان : البخارى ومسلم .

وفى هذا الحديث نلمح المراد من الآية الكريمة . . أنها دعوة إلى التأدب فى الدعاء وترك الجهر الزائد بالصوت فيه لقوله تعالى : (ادعوا ربكم تضرعاً وخُفية إنَّه لا يحب المعتدين) . والآية تبين السبب فى ذلك ، إن الله تعالى قريب قرباً معنويًّا من الداعين ، إنه أقرب إلى الإنسان من كل ما يتصور ، يقول تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .فعلى الإنسان أن يستشعر قرب الله تعالى وأن يتوجه إليه بكل جوارحه ومشاعره وأن ينزل به حاجاته فهذا هو السبيل الوحيد للنجاح .

والآية بعد هذا وقبله تدعو المؤمنين إلى الدعاء ، وتحمل رحمة ربانية مباركة من الله إلى عباده حيث ندبهم إلى عبادته ودعائه ، ووعدهم بالثواب العظيم والإجابة وذلك وحده طريق الرجاء .

وهذه الآية الكريمة تتوسط آيات الصيام ، وذلك أن الله سبحانه جمع آيات الصيام فى مكان واحد من سورة البقرة ويتلو الإنسان هذه الآيات فيفاجأ بهذه الآية الكريمة : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب . .) تتوسط آيات الصيام ولله سبحانه وتعالى حكمة فى ذلك ، إنه سبحانه يشير بذلك إلى أن استجابة الدعاء تتحقق بتقوى الدّاعى ، وأنه لابد للاستجابة من التقوى ، وذلك أن حكمة الصوم هى أن يقود الصوم الإنسان إلى التقوى (يأيها الذين آمنوا كُتِب عليكم . . . . إلى (تتقون) .

فالصيام إذاً من وسائل استجابة الدعاء ، وإذا قاد الصيام الإنسان إلى التقوى تحقق ما قاله الله تعالى فى آية الدعاء كشرط من شروط استجابته .

(فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) .

فى الدعاء بالأسماء الحسنى

يقول الله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ويقول تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) فى هذه الآيات الكريمة يبين الله سبحانه أنه شرع الدعاء بأسمائه الحسنى . ويقول سبحانه : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الدَّاع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) . وقد بين سبحانه فى هذه الآية وفى غيرها أنه يجيب دعوة الداعى ، وأنه يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ولقد بين الله سبحانه – بما لا لبس فيه ، أن الاستغفار من أسباب السعة فى الرزق ومن أسباب زيادة القوة فضلا عن فوائده فيما يتعلق بالمغفرة والرحمة ، وقد ورد فى الأخبار الصحيحة قراءة الفاتحة من أجل شفاء المريض ، وورد فى الأخبار الصحيحة نصيحة رسول الله ﷺ لبعض المرضى باستشارة الأطباء ونصح بعضهم الآخر بشرب عسل النحل . ولكن لم يرد فى الأخبار الصحيحة كتابة أسماء الله الحسنى فى لوح ثم غسله بالماء وشرب الماء طلباً للرزق أو كشفاً عن الأمراض ، ولم يرد ذلك عن رسول الله ﷺ من طريق صحيح .

ومع ذلك فإنه لم يرد ما ينهى عن ذلك فى القرآن ولا فى السنة الصحيحة ، وقد ورد قوله تعالى : (وننزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) فالقرآن شفاء بأوسع معانى الشفاء ، ورحمة بأوسع ما فى الرحمة ، فإذا كتب بحبر طاهر غير مضر بالبدن وغسل بماء نقى غير مضر بالبدن وشرب فإن ذلك غير محرم ، ولا يأثم فاعله ولم يرد ما يحرمه ، ولعل حالة المريض النفسية تتأثر بذلك فيكون مساعداً على الشفاء كما هو معروف عند علماء النفس من أن للحالات النفسية صلة مؤكدة بالأمراض .

فى الشكر فى الجو الإسلامى

معنى الشكر فى الجو الإسلامى يتكون من جملة عناصر .

أولها : معرفة النعمة ، وأنها من الله سبحانه (وما بكم من نعمة فمن الله) .

ثانيها : استعمال النعم فيما أحبه الله وقصده بها .

ثالثاً : حمد الله سبحانه وتعالى عليها باللسان .

فإذا ما تمت هذه العناصر كان الشكر ، وما من شك فى أن الإنسان مغمور بنعم الله تعالى ، يقول سبحانه : (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) ، وأن هذه النعم إنما أتت للإنسان عن طريق وسائط مسخرة لله تعالى .

وأفضل الشاكرين هو رسول الله ﷺ .

وإذا كانت حقيقة الشكر هى استعمال النعم فيما أحب الله سبحانه فإن الحمد هو التعبير اللسانى عن الشكر ، والحمد كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق .

والإنسان بإزاء النعمة على أنواع :

ومن هذه الأنواع : أن يتلقى النعمة فيفرح بها لذاتها ، كما يفرح التاجر بالمكسب ، لأنه مال أتاه ولأنه زيادة فى ثروته ولأن تجارته ستصبح بهذا المكسب أوسع ، ولا ينظر فى كل ذلك إلى مصدر النعمة ولا إلى مانحها وموهبها الذى لو شاء لأمسك ولو شاء لمنع ، وهذا ليس له فى الشكر نصيب ، حتى ولو لم يستعمل هذا المكسب فى المعاصى ، لأن نظره لم يتعد النعمة ويتجاوزها إلى المنعم .

ومن هذه الأنواع أيضاً : أن يتلقى الإنسان النعمة فينظر إليها على أنها دليل رضا من الله سبحانه ، وينظر إليها على هذا الوضع ويشكر الله سبحانه وتعالى عليها وهذا داخل فى معنى الشكر . بيد أن الشكر التام الكامل أن يضيف الإنسان إلى فرحه بالنعمة كدليل على رضاء الله استعمالها فيما أحب الله وفى القرب منه سبحانه ، فإذا ما نظر الإنسان إلى النعمة على أنها من الله سبحانه وتعالى وحده وإذا ما استعملها فيما يرضى الله ورسوله ويقرب منهما فإنه ينطبق عليه المعنى الحقيقى .

فى فائدة الشكر بالنسبة للفرد

إن شكر الله سبحانه وتعالى إنما يكون على نعمه وقد وعد الله الشاكرين وعداً مؤكداً أن يزيدهم من نعمه إذا شكروه سبحانه عليها ، يقول سبحانه : (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

وقد وعد الله سبحانه الشاكرين ، الجزاء الحسن فقال تعالى : (ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين) ، أى جزاء كبيراً حسناً ، ويقول سبحانه : (وسيجزى الله الشاكرين) :

سيجزيهم سبحانه بالزيادة فى الدنيا فيزداد الغنى الشاكر غنىً ويزداد القوى الشاكر قوة وهكذا . . . وسيجزيهم خيراً ورضاً فى الآخرة .

فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : ينادى يوم القيامة ليقم الحامدون ، فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة ، قيل ومن الحمّادون ؟ قال الذين يشكرون الله على كل حال :

ففائدة الشكر بالنسبة للفرد ليست مقصورة على الدنيا دون الآخرة ولا على الآخرة دون الدنيا : وإنما هى فى الدنيا والآخرة .

فى فائدة الشكر بالنسبة للمجتمع

فائدة الشكر بالنسبة للمجتمع ظاهرة ظهوراً واضحاً من تعريف الشكر : وذلك أن جوهر الشكر هو استعمالُ نعم الله فيما أحب الله .

فإذا استعمل المنعَمُ عليهم النِّعم فيما أحبَّ الله فإننا نرى فى المجتمع التاجر الصدوق ، والعامل المتقن ، والصانع يراعى الله فى صنعته ، والغنى يؤدى حق الله فى ماله من زكاة ومن صدقة ، وصاحب الجاه ينفق من جاهه عوناً للمظلومين يبتغى بذلك شكر الله على نعمة الجاه .

ونرى المدرس مربيًّا لا مُعلِّماً فحسب ، والحاكم أباً للجميع لا طاغية متحكماً ، والرئيس أخاً لمرءوسيه ، والمرءوسين متعاونين من رئيسهم لمصلحة العمل والوطن .

ونرى كل راع يتحمل المسئولية بالنسبة لرعيته شكراً لله على أن استرعاه وجعل له ثواباً على حسن الرعاية .

ثم نرى نتيجة الشكر فى المجتمع وهى زيادة النعم : (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

فى ما هو مفهوم العبارتين : لا حول ولا قوة إلا بالله ولا إله إلا الله وما أثر مفهومها على الإنسان وتصرفاته ؟

مفهوم لا حول ولا قوة إلا بالله ، أى لا تحوّل من حال إلى حال ولا انتقال من فعل إلى فعل ولا قدرة لعبد على عمل من الأعمال إلا بالله سبحانه ، فهو سبحانه الذى يعينه وهو الذى يتمم له عمله ، ويبلغ به نهاية تمامه ، وهو كنز من كنوز الجنة . قال ﷺ : لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة ، وإذا ما أكثر الإنسان منها أشعرته عدم الغرور بنفسه ، فلا ينسب إليها شيئاً مما تفضل الله به عليه من توفيق ، فيتواضع ويلجأ إلى الله فى كل صغيرة وكبيرة . ولهذه العبارة

أثرها الضخم فى الشجاعة الأدبية والشجاعة الحسية ، لأن مَن كان شعاره : لا حول ولا قوة إلا بالله لا يخاف ولا يجبن وهى من غراس الجنة .

ولقد روى الإمام أحمد وغيره ، عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به مرَّ على إبراهيم ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، فقال : من معك يا جبرائيل ؟ قال هذا محمد ، فقال له إبراهيم ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام : يا محمد مُرْ أمتك فليكثروا من غراس الجنة ، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة ، قال : « ما غراس الجنة » ؟ قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وروى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من قال لا حول ولا قوة إلا بالله كان دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهمّ .

أما لا إله إلا الله فمعناها لا معبود بحق إلا الله ، فكل عبادة لغيره باطلة .

ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذى وحسّنه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : ما قال عبد لا إله إلا الله قطُّ مُخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى إلى العرش .

فى الإذن بالذكر

بعض أنواع الذكر لا يحتاج إلى تلقين أو إذن من ذلك الاستغفار لقوله تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) وقوله تعالى (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) .

ومن ذلك ، الذكر بلا إله إلا الله ، لقوله صلوات الله عليه : أفضل ماقلته أنا والنبيون من قبلى « لاإله إلا الله » .

ومن ذلك الصلاة على النبى صلوات الله تعالى وسلامه لقوله تعالى (إنّ الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا) .

ومن ذلك نعلم أن دلائل الخيرات لاتحتاج إلى تلقين ولاإلى إذن ، إذا كان الإنسان يجيد القراءة ، لأنها صلوات على رسول الله ﷺ ، وقد أمرنا الله تعالى فى كتابه الكريم بالصلاة عليه والسلام .

فى الذكر بصوت مرتفع

إن عادة قيام الناس بالذكر بصوت مرتفع فوق مساجد القاهرة يوم الجمعة وليلتها كما يقول السائل عادة غير شائعة . ولو وجد ذلك لكان جائزًا ، بل أمرًا محبوبًا ماداموا يذكرون الله تعالى ، فالله تعالى يأمر بالذكر فى قرآنه الكريم فإذا كان ذلك فى بيوته وفوق بيوته الطاهرة لكان حَسنًا ، وإذا كان فى ليلة عيد المسلمين يوم الجمعة لكان أكثر حُسْنًا . فالذاكرون هم أولو الألباب الذين قال تعالى فيهم : (إن فى خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار).

هذا إذا لم يؤذ الذكر أحدًا من الناس ، ولم يكن سببًا فى مضرّة بعض المجاورين للمسجد ، أما إذا كان فيه ضرر لبعض الناس الذين يكدحون مثلا طيلة النهار فيؤرقهم الذكر ويمنعهم من النوم والرّاحة فإنه يتحتم أن يكون الذكر فى هذه الحالة بصوت منخفض . والله سبحانه وتعالى يسمع الذاكرين على أى وضع كانوا ، ويثيبهم على قدر إخلاصهم ونياتهم .

فى الذكر بلفظ « أ هـ » وبلفظ « هو »

فى هذا الموضوع لَبْسٌ هو سبب الجدل ، فإذا ما أزيل هذا اللبس انتهى – فيما أظن – النقاش فيه والجدل :

إن لفظ « أهـ » ولفظ « هو » من أسماء الله تعالى الواردة فى صراحة صريحة ، والمتعبد إنما يردد اللفظ الأول باعتباره معبرًا عن الندم والحزن على مافات من أيام مضت ليست على مايحب ، وهو فى أثناء هذا الترداد : متذكر لله ، خائف منه ، مستغيث برحمته ، وهذه الحالة التى يجتمع فيها التأوه الحزين مع تذكر الله إنما هى نوع من التوبة ، وهى على هذا الوضع عبادة ، وهى على هذا الوضع ذكر ، فما الذكر إلا التذكر وهو حاصل فى هذه الحالة ، وهذه الحالة لاينبغى لإنسان أن يقول عنها إنها محرمة .

أما المتعبد الذى يردد اللفظ الثانى فتصوير حاله على ماينبغى أن يكون هو أنه يقدر عظمة الله وجلاله ، ويقف موقف المستشعر الرهبة منه سبحانه فلا يجرؤ على النطق باسمه وإنما يعبر عنه بلفظ

(هو) أى بالضمير الذى يشير ولايصرح ، فلفظ هو وإن لم يكن من أسماء الله سبحانه فإنه فى ذهن العابد وفى ضميره يراد منه الله سبحانه ، وهذه الحالة من الخشية التى تغمر العابد فترة من الزمن فتجعله لايجرؤ على النطق باسم الله الصريح . إنما هى من أسس الشعور الدينى ، ولاينبغى لأحد أن يحرمها .

والواقع أن الجهل الذى يسود جو المتخاصمين فى هذه المسائل مثبتين كانوا أو منكرين هو الأساس فى إثارة الجدل ، وهو الأساس فى استمرار النزاع .

والبيان الذى بيناه فى هذا الموضوع كفيل برد الأمر إلى نصابه ، وكفيل إذا حسنت النوايا برفع الجدل فى هذا الموضوع .

فى صيغ الصلاة على الرسول ﷺ

إن الله سبحانه وتعالى وضع مقاييس للنجاة فى الآخرة ، ولرضائه فى الدنيا والآخرة .

وهذه المقاييس ذكرها فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة الشريفة ذكرها موجزة أحياناً ومطولة مستفيضة أحياناً أخرى .

من ذلك مثلا قول الله تعالى : (من عمل صالحًا مِن ذكرٍ أو أنثى) الآية . ومن ذلك قوله : (ومن يتق الله يجعل له مخرجًا)

وقد اشترط الله سبحانه وتعالى دائمًا الإيمان والعمل الصالح أو الإيمان والتقوى .

وتبتدئ التقوى بالتوبة الخالصة النصوح ، والإخلاص الكامل لله فى الأعمال وفى النية ، وحديث النية مشهور (إنما الأعمال بالنيّات . . . . إلخ) . . . ومع التوبة الخالصة النصوح الأعمال :

والأعمال فروض وواجبات وسنن مستحبة وأوامر الله سبحانه وتعالى ليست فروضًا فحسب ، وإنما هى نواهٍ أيضًا ، إن الإسلام حدد الفضيلة والمعصية ، والتقوى التى اشترطها الله سبحانه وتعالى للنجاة هى بعد الإيمان ، العمل بالفضيلة واجتناب الرذيلة ، فمن اتبع ذلك نجا ، ومن انحرف عن ذلك وخالفه دخل النار بنسبة انغماسه فى الرذائل وتركه الفضائل .

ولو كانت صيغة واحدة فى الصلاة على الرسول ﷺ تكفى فى النجاة مهما عمل الإنسان فإن ذلك يكون هدفًا لجميع قوانين الله سبحانه وتعالى وشرائعه .

وكل من يقول بمثل هذه المزاعم التى تلغى الشرع وتبطل الأعمال التى حددها الدين فإنه يكون

آثمًا ، وعلى ذلك فإن من قال صيغة من صيغ الصلاة على رسول الله مَنْ قالها مرة فى عمره لم تمسه النار ، هذا الكلام غير صحيح ومن يقوله يكون مرتكبًا للمعصية وللإثم .

ومامن شك فى أن الصلاة على الرسول ﷺ لها ثوابها الحسن وفوائدها الكثيرة ولكنها على أى صيغة لاتلغى الفروض والواجبات التى هى سبب النجاة .

فى دعاء الرسول ﷺ

استفتاح الدعاء واسم الله الأعظم :

عن عبيد الله بن بريده عن أبيه رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله ، لاإله إلاّ أنت الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، فقال :

لقد سألت الله بالاسم الأعظم الذى إذا سُئل به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب رواه الترمذى وحسنه ، وقال الحافظ أبو الحسن المقدسى : إسناده لامطعن فيه ، ولم يرد فى هذا الباب حديث أجود إسنادًا منه .

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : سمع النبى ﷺ رجلا وهو يقول : « ياذا الجلال والإكرام » .

فقال : «قد استُجيب لك فَسلْ» رواه الترمذى .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : مرَّ النبى ﷺ بأبى عبّاس زيد بن الصامت الزّرقى ، وهو يصلى ويقول .

اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لاإله إلاّ أنت ، ياحنّان ، يامنّان ، يابديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، ياحى ياقيوم .

فقال رسول الله ﷺ :

لقد سألت الله باسمه الأعظم الذى إذا دُعىَ به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « دعوة ذى النون إذْ دعاه وهو فى بطن الحوت لاإله إلاّ أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له . . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد . هـ

فى قول الله تعالى

(وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أُجيب دعوة الدّاعِ إذا دعان)
وقوله تعالى : (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) .

* * *

هذه الآيات وغيرها فى القرآن الكريم لم تحدد وقتًا معينًا للدعاء أو مكانًا ، له وإنما أطلقت إطلاقاً ، والواقع أن الدعاء مستحب فى كل الأوقات ، لأنه تضرع إلى الله ورجوع إليه فى الاستعانة وتحققاً بقوله تعالى : (إيّاكَ نستعين) ، والأوقات التى بعد الصلاة من الأوقات الشريفة التى يُرجَى استجابة الدعاء فيها . عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قيل يارسول الله أى الدعاء أسمع ؟ قال جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبات ، وهذا الحديث الشريف الذى رواه الإمام الترمذى يحث على انتهاز الدعاء بعد الصلوات المفروضة ، لأنه أرجى فيما يتعلق بالإجابة فعلى المسلم أن يدعو الله كلما شرح الله صدره للدعاء ، وخصوصًا فى أجوف الليل وفى دبر الصلوات المكتوبات .

فى ظروف وأمكنة الدعاء

يقول الله تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أُجيب دعوة الدّاع إذا دعان) ، وقوله سبحانه : (ادعونى أستجب لكم) .

ولإجابة المطالب ظروف ، وأمكنة تُهَيَّأُ لها ، فرحمة الله قريب من المحسنين ، والإحسان إذًا من الحالات التى تكون أرجى لقبول الدعاء والله تعالى إنما يتقبل من المتقين ، والتقوى من هذه الحالات التى تكون أرجى لإجابة الدعاء ويقول الرسول صلوات الله عليه : أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء فقمن (أى جدير) أن يُستجاب لكم . . وقد ورد أن الأزمنة التى يكون الدعاء فيها أقرب إلى أن يُستجاب هى : مابين الأذان والإقامة ، وفى السفر ، وعند نزول المطر ، وعند الإفطار من الصيام ، أما الأمكنة التى تهيئ للاستجابة أيضًا فهى الأمكنة الظاهرة كالمسجد الحرام ، والحرم النبوى ، وفى رحاب الصالحين أحياء كانوا أم أمواتا .

أما فيما يتعلق بالنذور فالإنسان فى هذه الحالة الظاهرة يستشفع إلى الله بإحسانه وبتقواه وبعمله

الصالح على وجه العموم ، ويقدم النذور لله سبحانه وتعالى : فالنذور لغيره لاتجوز ، وهذه النذور التى توضع فى صناديق الأضرحة إنها صدقة للفقراء والمساكين ، يجب أن تصرف إليهم ، وهى أساس قوى لإزالة كثير من البلاء ولإجابة الله سبحانه وتعالى مطالب الخير : يقول صلوات الله عليه ، حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة ، وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع .

فى صيغ الدّعاء من السنة الشريفة

عن أبى هريرة رضى الله عنه – فيما أخرجه الحاكم ، والإمام أحمد ، والترمذى – عن النبى ﷺ قال :

« ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ، ونور السموات والأرض » وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ :

(وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) .

وروى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « الدعاء مخ العبادة » رواه الترمذى : وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ماعلى الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلاّ آتاه الله تعالى إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ، مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم » . فقال رجل من القوم :

« إذن نكثر » ! فقال : الله أكثر » رواه الترمذى والحاكم وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مامن مسلم ينصب وجهه لله عز وجل فى مسألة إلا أعطاها إيّاه ، إما أن يعجلها له ، وإما أن يدخرها له فى الآخر » رواه أحمد رضى الله عنه وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « عبدى إنى أمرتك أن تدعونى ووعدتك أن أستجيب لك فهل كنت تدعونى – فيقول نعم يا رب » ! .

فيقول : أما إنك لم تدعنى بدعوة إلاّ استجبت لك ، أليس دعوتنى يوم كذا وكذا لغمّ نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك ؟ فيقول نعم يارب .

فيقول : إنى عجلتها لك فى الدنيا .

ودعوتنى يوم كذا وكذا لغمّ نزل بك أن أفرّج عنك فلم تر فرجًا ؟ قال : نعم يارب : فيقول : إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا ، ودعوتنى فى حاجة أن أقضيها لك فى يوم كذا وكذا فقضيتها فيقول : نعم يارب .

فيقول : إنى عجلتها لك فى الدنيا :

ودعوتنى يوم كذا وكذا فى حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها ، فيقول نعم يارب : فيقول إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا ، قال رسول الله ﷺ :

« فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلاّ بيّن له : إما أن يكون عمل له فى الدنيا وإما أن يكون ادّخر له فى الآخرة ، قال : فيقول المؤمن فى ذلك المقام :

« ياليته لم يكن عجّل له شيء من دعائه :

وإذا أردت استجابة الدعاء فابدأ :

١ - بالتوبة الخالصة النصوح .

٢ - وتحرّ الحلال .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما فيما أخرجه الحافظ بن مردويه ، تليت هذه الآية عند النبى ﷺ : (يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبًا) .

فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة .

فقال : « ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه مايُتقبل منه عمل أربعين يومًا ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والرّبا فالنار أوْلى به » .

ومن صيغ الدعاء المباركة التى دعا بها رسول الله ﷺ مانقلته كتب السنة الشريفة :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » رواه مسلم .

وعن بن حوشب قال : قلت لأم سلمة رضى الله عنها ، يا أم المؤمنين ماكان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك ؟

قالت : كان أكثر دعائه .

يامقلّب القلوب ثبّتْ قلبى على دينك .

وعن أبى الفضل العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : قلت : يارسول الله : علمنى شيئًا أسأل الله تعالى : قال : سلوا الله العافية فمكثت أيامًا ثم جئت فقلت يارسول

الله : علمنى شيئًا أسأله الله تعالى قال لى : عباس ياعم رسول الله سلوا الله العافية فى الدنيا والآخرة .

رواه الترمذى .

فى الذكر والدعاء بغير المأثور

ويصح الذكر والدعاء بغير المأثور والأحاديث التالية دليل على ذلك فى جانبى الذكر والدعاء ، عن أنس رضى الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ جالسًا فى الحلقة ، إذْ جاء رجل فسلم على رسول الله ﷺ والقوم ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد الرسول ﷺ . وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

فلما جلس الرجل قال : « الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، كما يحب ربنا أن يُحمَد وينبغى له » . فقال رسول الله ﷺ ، كيف قلت ؟ فرد عليه كما قال . فقال : النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لقد ابتدرها عشرة أملاك ، كلهم حريص على أن يكتبها فما دروا كيف يكتبونها حتى رفعوها إلى ذى العزة ، فقال اكتبوها كما قال عبدى » رواه أحمد ورواته ثقات ، والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه إلا أنهما قالا : كما يحب ربنا ويرضى(١٥٠)

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فيما رواه الإمام أحمد وابن ماجه ، أن رسول الله ﷺ :

« حدثهم أن عبدًا من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك »

لم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا إلى السماء ، فقالا : ياربنا إن عبدك قد قال مقالة لاندرى كيف نكتبها ؟

قال الله ، وهو أعلم بما قال عبده ، ماذا قال عبدى ؟

قالا : يارب إنه قال : « يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك » فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها .

---

(١٥٠) انظر الترغيب والترهيب (كتاب الذكر والدعاء) .

فى آداب الدعاء

يذكر الإمام الغزالى آدابًا للدعاء منها : أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة : كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل ، قال تعالى : (وبالأسْحارِ هم يستغفرون) .

وقال ﷺ :

« ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل : من يدعونى فأستجيب له ؟ : من يسألنى فأعطيه ؟ « من يستغفرنى فأغفر له » ومنها أن يغتنم الأحوال الشريفة . قال أبو هريرة رضى الله عنه : إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف فى سبيل الله ، وعند نزول الغيث ، وعند إقامة الصلوات المكتوبة فاغتنموا الدعاء فيها .

وقال مجاهد : إن الصلاة جعلت فى خير الساعات ، فعليكم بالدعاء خلف الصلوات .
وقال ﷺ الدعاء بين الأذان والإقامة لا يُردّ وقال ﷺ أيضًا : (الصائم لاترد دعوته)
ويتابع الإمام الغزالى حديثه فيقول .

وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضًا ، إذْ وقت السّحر وقت صفاء القلب وإخلاصه ، ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتمادى القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل .

فهذا أحد أسباب شرف الأوقات ، سوى مافيها من أسرار لايطّلع البشر عليها ، وحالة السجود أيضًا ، أجدر بالإجابة قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال النبى ﷺ :

أقرب ما يكون العبد من ربه عزَّ وجلَّ وهو ساجد ، فأكثِروا فيهْ من الدعاء ، وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال :

« إنى نُهيت أن أقرأ القرآن راكعًا وساجدًا ، فأما الركوع فعظموا فيه الرّب ، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فَقِمن أن يُستجاب لكم » .

١

فى كيف يدعو الإنسان ربه لأنه تعالى يقول

(وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الدّاعِ إذا دعان)

أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالدعاء والابتهال والتضرع إليه فى كل وقت وحين ، ووعدهم على ذلك بالإجابة فقال : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أُجيب دعوة الدّاعِ إذا دعان) وقال : (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : الدعاء مخ العبادة ، ومن لم يسأل الله يغضب عليه ، والدعاء له آداب ينبغى على الدّاعى أن يراعيها ليكون دعاؤه أرجَى للقبول ، ومن هذه الآداب :

١ - أن يتحرى الحلال فى مأكله ومشربه ، لقول سعد بن أبى وقاص : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال : ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة .

٢ - استقبال القبلة إن أمكن .

٣ - تحرى الأوقات الفاضلة كيوم عرفة ، وشهر رمضان ، ويوم الجمعة والثلث الأخير من الليل ، والسجود ، وبين الأذان والإقامة ، وعقب الصلوات ، فإن هذه أوقات يستجاب فيها الدعاء .

٤ - رفع اليدين إلى الله سبحانه وتعالى ، فإن الله لايردها خائبتين .

٥ - حضور القلب وإظهار الخشوع والضراعة والتذلل إلى الله عز وجل ، مع خفض الصوت كما قال تعالى : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لايحب المعتدين)

٦ - البدء بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، لقول النبى ﷺ إذا صلى - أى دعا - أحدكم فليبدأ بتحميد ربه عز وجل والثناء عليه ثم يصلى على النبى ﷺ ثم يدعو بما شاء .

٧ - أن يدعو الإنسان بغير إثم أو قطيعة رحم وألا يستبطئ الإجابة ، وأن يختار المأثور من القرآن والسنة النبوية الشريفة ، مثل قوله تعالى :

(ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

وقوله ﷺ : اللهم إنى أسلك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

فى هل يجب أن يُقرأ الدعاء بعد صلاتى الفجر والمغرب

مذهب الشافعية أن القنوت فى صلاة الصبح بعد الركوع من الركعة الثانية سنة رواه الجماعة إلا الترمذى عن ابن سيرين ، أن أنس بن مالك سئل :

هل قنت النبى ﷺ فى صلاة الصبح فقال : نعم . . فقيل له : قبل الركوع أو بعده ؟ قال : بعد الركوع . ولما رواه أحمد والبزار والدارقطنى والبيهقى والحاكم وصححه عنه قال : مازال رسول الله ﷺ يقنت فى الفجر حتى فارق الدنيا . أما فى صلاة المغرب فلا قنوت فيها إلا عند النوازل ، فإنه شرع القنوت فيها وفى غيرها من الصلوات .

روى أبو داود وأحمد عن ابن عباس قال : قنت الرسول ﷺ شهراً متتابعاً فى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح فى دبر كل صلاة إذا قال : سمع الله لمن حمده ، من الركعة الأخيرة يدعو عليهم ، على حى من بنى سليم : على رعل وذكوان وعصبه ويؤمن من خلفه ، وكان قد أرسل إليهم جماعة من الصحابة يدعونهم إلى الإسلام فقتلوهم .

أما الأحناف فإنهم يقنتون فى الوتر فى الركعة الثالثة قبل الركوع لما رواه الإمام أحمد وغيره بإسنادهم عن الحسن بن على رضى الله عنه قال . علمنى رسول الله ﷺ ،.كلمات أقولهن فى الوتر .

« اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فإنك تَقضى ولا يُقضى عليك ، وإنه لا يذِلُّ من واليت ، ولا يعِزُّ من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، وصلى الله على النبى محمد .

فى دعاء الوالدين

دعاء الوالدين مستجاب إذا صدر بسبب عقوق من الولد أو إساءة أدب أو ما إلى ذلك ، فإذا أدَّى الولد حق أبيه ، فلا شىء عليه بعد ذلك ، دعا الوالد له أو دعا عليه ، لأن الله سبحانه وتعالى : قد وضع لنا مقاييس الخير ومقاييس الشر ، وعلى أساس هذه المقاييس يكون الحساب .

وقد يخطئ بعض الناس فى استغلال حقه فيسئ إلى من أحسن إليه أو لا يقنع بما يقدم إليه . . ومثل هذا لا يستجيب الله له دعاء على مَنْ أحسن إليه ، بل قد يتحول دعاؤه على غيره إلى دعاء عليه ، يصيبه شره ولا يتحقق له عن طريقه أى خير .

والدعاء على « الغير » لا يقبل إلا إذا كان صادراً عن إحساس بظلم صادر منه ، لأن الله تعالى عدلٌ لا يقبل الظلم ، وقد أنذر الظالمين وفتح للمظلومين باب الانتصار بالقول والفعل وبالدعاء ، وفى الحديث الصحيح : ثلاثة لا تردُّ دعوتهم . وذكر الرسول ﷺ منهم دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويقول : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين ، والسائلة تعلم من نفسها إذا كان دعاء والدها له سبب مقبول أم لا : فإن كانت تسىء إلى حقه أو تقصر فيما يجب عليها نحوه فعليها أن تتوب إلى الله من ذلك ، وأن تستسمح والدها ، وأن تسرى عنه وتطلب منه الدعاء لها .

وإن لم يكن منها شىء من ذلك استمرت فى أداء واجبها نحوه ولا عليها بعد ذلك دعا أم لم يدعُ . لأنها أدت حق الله عليها . .

وحق الوالدين معلوم من الدين بالضرورة ، ولهما الحق أحياءً وأمواتاً . . ومن الممكن بوسائل المقدرة تفريج همومها والوصول إلى حبهما ، والابتعاد عن كل ما يسبب غضبهما .

وعلى كل فالمدار على حسن المعاملة والوفاء بالحق والواجب ، والسير على أساس من الخوف من الله ، والرغبة فى الوصول إلى رضاه .

فى التوبة هل تمحو الذنوب كلها

نعم فإن رحمة الله بعباده التائبين واسعة والله تعالى يقول : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) ويقول سبحانه : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) .

غير أن التوبة لابد أن تكون نصوحاً ، عسى الله أن يقبلها فيكفِّر الذنوب ويعفو عن السيئات .

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا ، إنكَ على كل شىء قدير) .

ومن شروط التوبة النصوح الندم ، والإقلاع عن المعاصى كلها ، وردّ الحقوق لأصحابها وعدم العودة بما يغضب الله سبحانه ، والإكثار من الأعمال الصالحة صلاة وذكرًا وصومًا وصدقة ، وأداء الفرائض كلها ، وتقربًا إلى الله بالنوافل وألا يراه الله حيث نهاه ، وأن يفقده حيث أمره ، فعسى الله أن يقبله ويبدل سيئاته حسنات ، والله تعالى يقول : (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) ويقول سبحانه : (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحًا

فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ،وكان الله غفورًا رحيمًا . ومن تاب وعمل صالحًا فإنه يتوب إلى الله متابًا . . .)

فى التوبة والشباب

إذا خلصت منه النية وصح منه العزم وكانت توبته الأخيرة توبة نصوحًا وذلك بالندم على ما فعل وعدم العودة إليه والإكثار من طاعة الله ، والإقلاع عن جميع المعاصى صغيرها وكبيرها والإخلاص لله فى العبادة ، ومراقبته فى السر والعلن فإنا نرجو أن يقبل توبته وأن يعفو عن سيئاته ، قال تعالى : (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) ، وقال تعالى : (إن الحسنات يذهبن السيئات) وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحًا ، عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير) .

هذا ونكرر النصح لشبابنا ، ونهيب بهم أن يقلعوا عن ممارسة « العادة السرية » فإنها مقيتة تودى بالصحة ، وتضعف الدين ، وتعقب الندامة ، وهى كما قررنا فى مقالة سابقة يشملها التحريم المأخوذ من قوله تعالى : (والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) .

وعلى الشباب الذين لا يستطيعون الزواج أن يصرفوا ما عندهم من الطاقة فى طاعة الله سبحانه وتعالى – صلاة وصيامًا وذكر الله وتسبيحاً ، وعليهم أن يتساموا بغرائزهم فيصرفوها فيما يعود عليهم وعلى وطنهم بالنافع المفيد .

فى ماذا يفعل الإنسان الذى يبتليه الله بمصائب ومتاعب مع أن سلوكه طيب ويفعل الخير

الحياة الدنيا دار ابتلاء بالمتاعب والمصائب ، ولم يسلم من ابتلائها أحد حتى الأنبياء ، وليس ذلك دليلا على غضب الله أو عدم رضاه عن العبد ، لأن الله جعل المصائب اختباراً أو امتحاناً ، قال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصّابرين ونبلو أخباركم) وعلى الإنسان الذى

يُبتلى فى حياته أن يصبر لينال أجر الصابرين ، قال تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)

ومن كان يفعل الخير ويُؤدى الطاعات وهو مُبتلًى – مع ذلك – بالمصائب قد يكون ذلك على محبة الله تعالى له ورضائه عنه كما روى فى الحديث : « إذا أحب الله عبدًا ابتلاه حتى يسمع تضرعه » .

ولقد مدح الله أيوب على صبره على ابتلاء الله ، وقال فيه :

(إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أوّاب) وقال عليه السلام : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل :

وليس هناك من باب للفرج وإزالة البلاء إلا باب الله سبحانه ، وإلا الالتجاء إليه والدعاء ، وقد ذكر رسول الله ﷺ أن الدعاء يرفع البلاء ، وأنه ينفع فيما نزل من البلاء ، وفيما لم ينزل ، والتضرع إلى الله سبحانه باب عظيم من أبواب الفرج .

فى هل الصدقة والدعاء والقراءة تنفع الميت

إنَّ الصدقة والدعاء والاستغفار للميت ينفعه ، وكذلك العلم الذى تركه بالإجماع ، وأما تلاوة القرآن فالأحسن فيها الدعاء للميت والترحم عليه والاستغفار له .

قال ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث صدقة جارية ، وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له» رواه مسلم .

فى ماحكم الدعاء للميت بعد الصلاة عليه وقبل دخوله إلى القبر

إن الدعاء للميت قبل الصلاة عليه وقبل دخوله القبر وبعد دخوله القبر جائز ، بل مستحب ، لأن الميت إنْ كان مُذْنِبًا وهو من المسلمين فهو محتاج إلى الدعاء ليغفر الله له ذنوبه ، ويعامله بلطفه ، ويسبغ عليه من رحمته ، وقد دعا الأنبياء للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات – أحياءً وأمواتًا – وقال تعالى فى سورة نوح :

(ربِّ اغفر لى ولمن دخل بيتى مؤمناً ، وللمؤمنين والمؤمنات) بل إن الله سبحانه وتعالى ، أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالاستغفار للمؤمنين أحياء وأمواتًا فقال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلاّ الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلّبكم ومثواكم) . سورة محمد : ١٩

وهذه الآية الكريمة تعليم للأمة وتوجيه لها إلى الدعاء لموتاها المؤمنين تأسيا برسول الله ﷺ . فالدعاء للميت – مطلقًا وفى أى وقت كان – جائز بل مستحب .

فى أدعية تفريج الكرب وجلب الرزق وسداد الديون

هناك أدعية لتفريج الكرب وجلب الرزق وتسديد الديون وماإلى ذلك . وفيما أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه كان يقول : اللهم إنى أسألك الهدى والتقى ، والعفاف والغِنى .

وكان ﷺ يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجاءة نقمتك ، وجميع سخطك » .

وصفات عباد الرحمن فى القرآن الكريم يعبر عنها قول الله سبحانه : (والذين يقولون ربنا هَبْ لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرّة أعين واجعلنا للمتقين إمامًا) ويرى بعض الناس أن هذه الأدعية الصحيحة ومايماثلها يمكن للإنسان أن يجعلها فى حرز مانع من القماش أو الجلد ، وأن يعلقها على جسمه فيقوم تعليقها مقام الدعاء بها .

وقد روى أحمد والحاكم والطبرانى – رجاله ثقات – أن رسول الله ﷺ قال : من علق ودعة فلا ودع الله له ، ومن علق تميمة فلا تمم الله له ، والودعة شىء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين ، والتميمة خرزات تعلق على الأولاد بحمايتهم من ضرر العين. قال ابن حجر : محل ماذكر من الخير وماقبله تعليق ماليس فيه قرآن ونحوه ، أما مافيه ذكر الله ونحوه فلا نهى عنه ، فإنه إنما جُعل للتبرك والتعوذ بأسمائه . وعلى ذلك فلاشىء فى تعليق مافيه ذكر وقرآن إذاكان فى حِرْز مانع من قماش أو جلد بقصد استجلاب الرزق ، وأما إن كان فيه شىء غير الذكر فلا يجوز تعليقه وسيكون سببًا فى تحصيل مايخالف الغرض المقصود منه .

فى الدعاء على « الغير » دون حق

إن الدعاء على « الغير – دون حق ولاسبب – غير مقبول ، ولايستجاب لفاعله ، بل إن فاعله بفعله هذا اكتسب خطيئة ومعصية واحتمل بذلك بهتانًا وإثمًا . يقول الله سبحانه : (ومَن يكسب خطيئةً أو إثمًا ثم يرم به بريئًا فقد احتمل بُهتانًا وإثما مبينًا) فالدعاء على « الغير » دون

سبب – إثم وقطيعة رحم كما أخبرنا بذلك الشّارع المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لا يزال يُستجابُ للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » .

وحسب الداعى على غيره دون سبب من الشرّ والإيذاء رجوع الدعاء إليه واستعجال نزول العقوبة به ، فعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

إن العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللعنة إلى السماء فتُغْلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها . ثم تأخذ يمينًا وشمالا ، فإذا لم تجد مساغًا رجعت إلى الذى لعن ، فإن كان أهلا لذلك ، وإلا رجعت إلى قائلها ، رواه أبوداود .

وكما أنه كان من محض عدل الله سبحانه أنه لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها فإن من محض عدله تعالى أيضًا أن جُعل ظهيرًا وعوْنًا للمظلوم .

فعن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن رجلا قال يا رسول الله : إن لى قرابة أَصِلُهُم ويَقْطَعُوننى ، وأُحسن إليهم ويُسيئون إلىَّ ، وأحلم عنهم ويجهلون علىَّ ، فقال : لئن كنت كما قلت فكأنما تُسِفّهم الملَّ ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك . رواه مسلم .

فى سؤال يقول : يقول الله سبحانه

(وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الدّاعِ إذا دعانِ) وأنا أدعو الله ولايُستجاب لى فكيف ذلك ؟

يقول الله سبحانه وتعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الدّاعِ إذا دعانِ) وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ليس شيء أكرم على الله من الدعاء ، بل إن للدعاء دخلا فى تلطيف القضاء أو تخفيفه ، أو عفو الله سبحانه ، فلقد روى الترمذى عن سيدنا سَلْمان الفارسى : أن رسول الله ﷺ قال : لايردّ القضاء إلا الدعاء ، ولايزيد فى العمر إلا البرّ .

إذن فالدعاء مطلوب وعلى كل مسلم أن يضرع إلى الله سبحانه ويتجه إليه وحده .

فهو الذى يعطى ويمنع ويجيب المضطر إذا دعاه .

ولأجل أن يكون الدعاء مقبولا ومستجابًا لابد من :

١ – التوبة الخالصة النصوح .

٢ – ولابد من تحرّى الحلال .

٣ – عدم الدعاء بما فيه إثم أو قطيعة رحم .

٤ – والشرط الأساسى هو أن يحقق الإنسان العبودية لله سبحانه ، فإذا تحققت هذه الشروط من الداعى فلاريب أن الدعاء يستجاب منه ويعطى سؤاله .

علينا أن نتدبر الحديث التالى : عن ابن عباس – قيل أخرجه ابن مردويه – تُليت هذه الآية عند النبى ﷺ : (يٰأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا) ، فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال : يا سعد : أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف الحرام فى جوفه مايُتقبل منه أربعين يومًا ، وأيُّما عبد نبت لحمه من السُّحْت والرِّبا فالنار أوْلى به .

ولقد بين رسول الله ﷺ : فيما يرويه عن ربه الشروط التى إذا تحققت كانت استجابة الدعاء مضمونة ، وكانت مؤكدة ، فعلى مَن يريد استجابة دعائه أن يحققها فيضمن الاستجابة .

فى عدم اهتمام بعض الأئمة والعلماء بالدعاء

الدعاء ليس له وقت من الأوقات وإنما يكون فى أى ساعة من النهار أو الليل ، مثل قبل الصلاة وبعدها .

وليس له صيغة معروفة وإنما أى لفظ يؤدى إلى المعنى المراد به الدعاء على شرط أن يكون مستوفيًا للشروط التى تشترط فى الدعاء ، من الأكل الحلال ، والمطعم الحلال ، والملبس الحلال ، فالله سبحانه وتعالى يستجيب هذا الدعاء يقول الله تعالى فى محكم كتابه : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) وقال تعالى : (قل مايعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) .

ويقول : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) وقال تعالى (واسألوا الله من فضله) وإن الذين يقولون عليك بالدعاء وحدك فى بيتك مخطئون .

والدعاء يكون بالجماعة والواحد سواء والجماعة أفضل ليعلم الجاهل رأى الدين الإسلامى فى ذلك أن الدعاء عام للجميع ، فى البيت ، والمصنع ، والمزرعة ، والعمل ، وفى كل شىء ، فالدعاء مطلوب ويستحب وهو مخ العبادة .

في هل تقبل توبة المذنب وهو على فراش الموت

نعم تقبل التوبة عن المذنب وهو على فَراش الموت مالم يُغَرْغِرْ ، إذا كانت توبته نصوحًا اجتمع فيها الأمر برد المظالم إلى أهلها ، والندم على مافرط منه ، والعزم على ألاّ يعود إلى معصيته أبدًا إن كان ذنبه بسبب اغتصاب حق لآدمى ، أمّا إن كان ذنبه يتعلق بحق من حقوق الله فشروط توبته الإقلاع عن معصيته ، والندم على مافرط منه ، والعزم على ألاّ يعود إلى ما ارتكبه من الذنوب أبدًا . قال تعالى (قل ياعبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إنّ الله يغفر الذنوب جميعًا إنَّهُ هو الغفور الرّحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أنْ يأتيكم العذاب ثم لاتُنصرون) وقال رسول الله ﷺ : « من كان آخر كلامه من الدنيا لاإله إلاّ الله دخل الجنة » .

وَسُئِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الفِقْهِ

فى الدين هاد للعقل

القضية أن الدين نزل هاديًا للعقل ، إننا – جميعًا نؤمن بهذه القضية ، الدين نزل هاديًا للعقل ، لكن حينما نقول : الدين نزل هاديًا للعقل ، يتساءل كثير من الناس ، فى أى المجالات ؟ ونحن لانريد أن نقول نزل هاديًا للعقل فى مجال الماديات فالدين أطلق للعقل الحرية الكاملة فيما يتعلق بالبحث والكشف فى مجال الماديات فى السماء وفى الأرض ، وفيما بين السماء والأرض ، وفقط قيده بأن يكون ذلك فى خير الإنسانية ، إنه مادام الأمر ، فيما يتعلق بمجال الماديات والبحث والكشف فيها – فى خير الانسانية – فللعقل الحرية الكاملة فى هذا ، بل إن أسلافنا رضوان الله عليهم – كانوا يسمون هذه العلوم المادية الطبيعة ، والكيمياء ، والفلك ، والأحياء – كانوا يسمونها علوم الكشف عن سنن الله الكونية ، ومادامت ، كشفًا عن سنن الله الكونية فهى كشف عن بعض صفات الله سبحانه وتعالى ، مادام الأمر كذلك فهى عبادة من هذا الجانب – العلم بالماديات – الكشف عن سنن الله الكونية فى الماديات زيادة إيضاح لصفات الله تعالى ، وهو عبادة ، لكن الأمر فيما يتعلق بـ « نزل الدين هاديًا للعقل » إنما هو فى أمور المجتمع ومجالاته . العقيدة : نزل الدين هاديًا فيها ، الأخلاق نزل الدين هاديًا فيها ، نظام المجتمع نزل الدين هاديًا فيه ، التشريع نزل الدين هاديًا فيه أيضًا .

هذه الهداية – فيما يتعلق بالتشريع أحيانًا تكون مفصلة تفصيلا دقيقًا ، كالميراث مثلا وككتابة الدَّيْن ، وأحيانًا تكون كليات تضم تحتها جزئيات كثيرة ، ولاريب فى أنه نزل الدين هاديًا للعقل فى جميع مبادئ التشريع ، لكن فى وسائل التشريع – أحيانًا – يكون مفصِّلا لها ، إن رسائل المبادئ أحيانًا يكون الدين مفصِّلا لها ، وأحيانًا يتركها للعقل الإنسانى يتصرف فيها بحسب الظروف ، مثلا الشورى : مبدأ من المبادئ التى أقرّها الإسلام وسيلة الشورى : تركها الإسلام للعقل الإنسانى ، يحددها بحسب ظروفه وبحسب أمكنته ، وأزمنته أما مبدأ الشورى فهو مبدأ لا يتغير ....

وحينما نقول نزل الدين هاديًا للعقل ، فإنما نعنى بذلك أن العقل لايتحكم فى الدين إنما يهتدى به .

ومعنى أيضًا نزل الدين هاديًا للعقل : أن العقل يفهمه وينقله ، ولايتناقض أو يتعارض هو والعقل ، لأنه نزل هاديًا له .

ولأنه نزل هاديًا له ، ولأننا نؤمن بأن الدين مِن قِبَلِ الله سبحانه وتعالى ، فهناك القضية التى تتلو ذلك وهى : أن هذه الهداية معصومة ، لأنها من قبل الله ، ومادامت معصومة لأنها من قبل الله فلابد من اتباعها ، لامناص من اتباعها .

من أجل ذلك كانت الآيات التى تدل على وجوب الاتباع فى غاية الصرامة أو فى غاية القوة . قال تعالى : (ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) ويقول سبحانه : (ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) . ويقول : (ومَن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون) . ويقول أيضا : (فلا وربك لايؤمنون ، حتى يحكّموك فيما شجَر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حَرجًا ممّا قضيت ويسلموا تسليمًا) .

هذه الصرامة لماذا ؟

لماذا هذا التحديد ؟ وهذه الدقة فيما يتعلق بضرورة وجوب اتباع هذه المبادئ التى نزلت من السماء .

فى تناقض الفكر البشرى

أما عن ضرورة ذلك ، فإن كل من درس تاريخ الفكر البشرى – منذ أن كتب هذا الفكر فى الأزمنة القديمة إلى الآن – كل من درسه ، تبين له قضية فى غاية السهولة هى : أن هذا الفكر البشرى على تتابع الأزمنة ، بل فى العصر الواحد وفى القرن الواحد ، وفى الأمة الواحدة هذا الفكر البشرى متعارض ، متضارب متناقض مختلف .

أين هو الحق فيما يتعلق بهذا التضارب ، وهذا التعارض وهذا الاختلاف والتعارض ، والتضارب فى جميع المجالات الفكرية البحتة ؟

لسنا بصدد المجالات المادية لأن المجالات المادية تحكمها التجربة . فالتجربة فيصل ، ولكننا بصدد المجالات النظرية ، التشريع ، الأخلاق ، العقيدة ، نظام المجتمع أين هو الحق ، وأين هو الباطل فى الآراء البشرية الخاصة بهذه الموضوعات .

ليس هناك مقياس للحق والباطل ، كل المقاييس التى حاولت الإنسانية أن تخترعها منذ الأزمنة القديمة ، كل هذه المقاييس أثبتت فشلها وبطلانها .

من أوائل هذه المقاييس مثلا فى الفصل بين الحق والباطل ، فيما يتعلق بالآراء النظرية ، ومنها التشريع بطبيعة الحال ، من أوائل هذه المقاييس (منطق أرسطو) لقد أخفق إخفاقًا كاملا ، فى تمييز الحق عن الباطل .

ومنها مقياس (ديكارت) إنه أخفق إخفاقًا كاملا أيضًا ، فيما يتعلق بالتمييز بين الحق والباطل هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، مادام لاسبيل إلى القطع بأن هذا الرأى حق ، وهذا الرأى باطل ، كان هناك المجال المتسع الكبير لتزييف الآراء أو صناعة الآراء وفى علم الاجتماع وفى علم النفس كثير من المباحث التى تتحدث عن صناعة الرأى العام .

الرأى العام يُصنع عن طريق الصحف ، ويُصنع عن طريق الإذاعة ، ويُصنع عن طريق التكرار ، يُصنع بوسائل مختلفة ، ويصنع تزييفًا أو إحقاقًا — الرأى العام ومادام الرأى العام يُصنع فهناك هذه الوسائل التى تصنع الرأى العام .

هذه هى الوسائل التى تصنع الرأى العام ، هناك كثير من الناس استخدمها ، ولكن الذين استخدموها فى قوة ، هم اليهود استخدموا صناعة الرأى العام فى قوة بالنسبة لأغراضهم ، وهم يقولون مثلا فى تكييفهم الرأى العام بالنسبة لشخصيات معينة ونحن الذين رتبنا نجاح (كارل ماركس) يقولون هذا فى كتبهم ، ويقولون هذا فى كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » لقد رتبوا نجاحه ونجاح آخرين ، لماذا رتبوا نجاحهم ؟ لأنه هَدْمٌ ، لكل الأفكار الروحية ، وهم يريدون ألاَّ تسود الأفكار الروحية فى الإنسانية ويقولون أيضا عن (البروتوكولات) : نحن الذين رتبنا نجاح (دارون) صاحب نظرية (التطور) ، ونحن الذين رتبنا نجاح (نيتشه) صاحب نظرية الأخلاق .

إنه يرى أن ليس هناك فضيلة ولاشجاعة ، أو عفة أوكرم أو ماشاكل ذلك ، كل هذه الألفاظ اخترعتها الإنسانية ، من أجل حماية الضعفاء ، وتشبثوا بها من أجل حماية أنفسهم .

أراد اليهود أن تسود هذه الفكرة فى العالم لتتحلل الأخلاق ، ولينتهوا من تحلل الأخلاق إلى السيادة فى العالم .

نعود فنقول : هناك صناعة لآراء . ماهو المقياس الذى نفصل به بين الحق والباطل ؟

ليس هناك هذا المقياس . ولقد حاول — فى مواجهة الوحى الإلٰهى ، وفى مواجهة التشريع الإلٰهى — حاول بعض الناس عمل نظم اجتماعية . حاول مثلا (أفلاطون) أن يكوِّن جمهورية على ماينبغى بأدق مايمكن أن يكون من تفكير فلسفى ، وألَّف (أفلاطون) جمهوريته . كتبها ونسقها ودرسها ، وعقد فيها ندوات كثيرة ، ودُعِيَ (أفلاطون) لتحقيق جمهوريته فى جمهورية

صغيرة ، وذهب (أفلاطون) إلى هذه الجمهورية وقيل له إنك مفوّض تفويضًا مطلقًا فى تحقيق جمهوريتك ، وحاولَ (أفلاطون) أن يحقق جمهوريته فأخفق إخفاقًا كاملا ، وبعد عشرين سنة بعد فترة من النضج دُعِىَ مرة أخرى لتحقيق جمهوريته بعد التجربة وبعد هذا الإخفاق الذى ناله ، وبعد أن اكتسب معرفة وخبرة فأخفق إخفاقًا كاملا مرة أخرى . أما الإسلام فقد طُبِّقَ ، طُبِّقَ فى جمهورية ، أو فى دولة أو فى أمّة . إن هذه الألفاظ اللفظ المستعمل فيها إسلاميًّا – هو كلمة أمّة .

(إن هذه أمّتكم أمّة واحدة) .

طُبِّقَ الإسلام فى أمّةٍ ، وانتهى هذا التطبيق بأن انتقل الإسلام من النظرية إلى الواقع ، لقد أصبح واقعًا فى أمّة تمتد من كذا إلى كذا : لا تكاد تغرب الشمس عنها ، طُبِّق بالفعل ، وانتقل من النظرية إلى الواقع ، لكن كل الآراء التى قيلت – فيما يتعلق بالأنظمة التى اختِرعت ، أو ابتدعتها البشرية كلها – عرضت وأخفقت وَوُجهت بالنقد الذى أثبت تعارض بعضها مع بعض .

ولتوضيح ذلك نقول : النظام الرأسمالى اختراع بشرىّ فى أمريكا ، يتعارض تعارضًا كاملا مع النظام الشيوعى الذى هو اختراع بشرى فيما يتعلق بروسيا ، ولكن أى هذين النظامين حق ؟ لاسبيل مطلقًا إلى أن تثبت أن هذا أحق من هذا نظريًّا بالدليل والبرهان ، وكل ما يُقام من أدلة أو براهين فى أمريكا ، تنقده روسيا ، وكل مايقام من أدلة أو براهين فى روسيا تنقده أمريكا .

إذن من هذا كانت الصرامة فيما يتعلق بالدعوة إلى اتخاذ الإسلام أساسًا ومن هنا كانت هذه الآيات التى تتحدث عمن لايحكم بما أنزل الله ، بالظُّلم مرة ، وبالفسق مرة أخرى ، وبالكفر مرة ثالثة .

فى هداية الدين للعقل دائمة لاتتأثر بزمان ولامكان

ونزل الدين – كما قلنا هداية للعقل ، هذه الهداية للعقل ليست مقصورة على زمن دون زمن ، ولاعلى مكان دون مكان ، إنها فى الوضع الدينى الإلٰهى لكل المؤمنين تتبلور فى قضية ، نتحدث عنها فى كل وقت وفى كل آن ، هذه القضية هى أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وهذا هو منطق الدين ، خصوصًا حينما يكون هذا الدين هو آخر الأديان ، بإعلانه سبحانه وتعالى عن ذلك . (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا .) هى إذن صالحة لكل زمان ومكان ، هذه الكلمة أو هذه القضية صالحة لكل

زمان ومكان إذا كانت فى معناها السطحى أو الشكلى أو معناها اللغوى – واضحة فإن بعض الناس قد اتخذها أساسًا لتفسير منحرف كل الانحراف ، من هؤلاء مثلا من قال إنها صالحة لكل زمان ومكان ، لأنها تتكيف بحسب الزمان والمكان ، ثم انتقل نقلة أخرى فقال : إنها صالحة لكل زمان ومكان لأننا نكيفها بحسب الزمان والمكان .

كيف يكون التكييف ؟

قال بعضهم : وعمل على ذلك جاهدًا – نحن الآن فى بعض الأقطار نعمل فى بناء الدولة ، وبناء الدولة جهاد أكبر ، وإذا كان الجهاد الأصغر يبيح الإفطار فى رمضان فالجهاد الأكبر – وهو بناء – أولى أن يبيح الإفطار فى رمضان .

وحاول أن يطبق الإفطار فى رمضان على الدولة فأخفق ، لأن الناس كان شعورهم إيمانيًا دينيًا فلم ينصاعوا ، ولكنه حاول وبذل وجند الشرطة وجند كل شىء ، فيما يتعلق بتطبيق الإفطار فى رمضان ، فكان يقدم مثلا للمدارس الثانوية الداخلية ، وللجامعات ، والجيش ، ونحوها الوجبات العادية فى شهر رمضان ، بدلا من الإفطار والسحور ، ولكن فى النهاية – برغم كل مابذله من جهد – أخفق .

ونعود فنقول : نكيفها بحسب الزمان والمكان كيف . . نمنع تعدد الزوجات مثلا ! منع تعدد الزوجات وحصلت حادثة أمام سمعه وبصره ، حصلت حادثة : هذه الحادثة تتلخص فى أن شخصًا من الأشخاص متزوج وعنده أولاد من زوجته ، ثم أصبحت زوجته فى وضع غير صالح لاستمرار الزوجية ، من الناحية الجنسية ، فكان هو بين أمرين : إما أن يزنى وإما أن يتزوج ، والتعددممنوع فماذا يصنع ؟ امرأته الأولى لم تزن ، ليست مسئولة عمّا حدث لها ، هذا قضاء الله بالنسبة لها فماذنبها لتطلق ؟ ولم يطلقها ؟ إنها لم تسئ إليه ، ولم يطلق . وإنما ذهب وعقد عقدًا شرعيًا ، على امرأة وتزوجها بحسب الشرع ، وأسكنها فى مسكن ، وكان يذهب إليها ويبيت عندها . وبلغ عنه أنه تزوج امرأة أخرى ، والقانون فى هذه الناحية لايتساهل ، وذهبت الشرطة وضبطوه متلبسًا بالجريمة ، جريمة الزواج بامرأة أخرى ، وأتى به للتحقيق وقالوا له : هل تزوجت امرأة أخرى فقال كلاّ . . فقيل له : ولكنك كنت عندها قال : نعم : وتنفق عليها . . نعم وقد استأجرت لها هذا المسكن . . . نعم – وتبيت عندها . . وأبيت عندها . . ماذا تكون إذن ؟ إنها عشيقة . فقيل له ، تفضل اذهب لاملام عليك ، لالوم عليك ، حرموها زوجة وأباحوها عشيقة بقانونهم ! !

حدث هذا بالفعل والتحقيق . . تحقيق البوليس . ويأتى أيضًا فيما يتعلق بالتعدد أن « اتين

دينييه » مستشرق فرنسى كان قد ذهب إلى الجزائر فى عهد الفرنسيين ، وهو فرنسى أقام فى الجزائر فى بلدة اسمها « بوسعادة » استراح إلى الجو ، واستراح إلى الناس ، واستراح إلى الخلق ، وكلها أغرته : الجو : الطبيعة الصحراء ، الناس كلها أغرته بأن يقيم فى الجزائر ، فأقام ، أقام فى عهدين : عهد كان فيه التعدد مسموحًا به .

وعهد حدث فيه عدم التعدد ، أو الدعوة إلى عدم التعدد ، أو الإقلال من التعدد .

وبعد ذلك لاحظ ثلاث ملاحظات ، كتبها باللغة الفرنسية فى أحد الكتب ، كتب يقول : حينما منع التعدد والطلاق ، وجدت ظواهر ، لم تكن موجودة أيام كانت إباحة التعدد والطلاق .

ماهى هذه الظواهر التى وجدت عندما منع التعدد ؟

أولاً : «كثرة العوانس» هذا أمر .

الأمر الثانى : كثرة اللقطاء .

الأمر الثالث : كثرة الأمراض السرية .

هذه المسائل الثلاثة « حدثت بعد أن منع التعدد ، وبعد أن منع الطلاق ، وليس معنى إباحة التعدد أنه مفروض ، وليس معنى ذلك أنه لابد من التعدد . .

كلا : وأنتم تعلمون أنه مع إباحة التعدد الآن فى القاهرة يمكن أن يكون نصف فى الألف هم الذين يعددون الزوجات ، وإذا ارتفعت عن أكثر من الاثنتين يمكن أن يكون ربع فى الألف ، وهكذا الأمر ، نعنى يكاد يكون التعدد مع إباحته معدومًا .

ولكن من الوجهة النظرية ، لو فرضنا أن شخصًا من الأشخاص إما أن يتزوج وإما أن يزنى ، فيباح له أن يتزوج – هذا رأى الكاتب الفرنسى يقول ويستشهد بالتعداد وبالتجربة ، ماذا حدث ، وماذا كان . لكننا نتساءل الآن ما هو إذن المعنى الصحيح للقضية « الشريعة » صالحة لكل زمان ومكان ، أن الشريعة أنزلت للإنسان من حيث هو إنسان ، لا للإنسان من حيث هو مصرى ، أو من حيث هو فرنسى ، أو من حيث هو كذا وكذا فيما يتعلق بالوطن .

إنها نزلت للإنسان من حيث هو إنسان . ومادامت قد أنزلت للإنسان من حيث هو إنسان ، فإنها صالحة لكل زمان ومكان ، لاتتغير ، لأن الإنسان هو أينما كان ، الإنسان هو الإنسان فى عواطفه . وفى انفعالاته ، وفى سلوكه ، فى تصرفه ، فى عقله ، فى ذكائه ، فى إحساسه ، وأنزلت الشريعة إذن للإنسان من حيث هو إنسان ، فهى إذن صالحة لكل زمان ومكان ، صالحة فى مبادئها وصالحة فى وسائلها إذا حددت ، وكل خروج عليها إنما يكون انحرافًا .

فى الانحراف ودواعيه

لكن ماذا حدث عندنا فى مصر؟ الذى حدث عندنا نحن فى مصر أننا كنا نطبق نظام الشريعة الإسلامية ، ثم جاء الاستعمار ونسف الشريعة الإسلامية من القطر المصرى ، وأحل محلها القانون الوضعى ، واستقدموا قضاة ومستشارين من الأقطار العربية ، ثم رأى أن هذا النظام لايتأتى أن يستمر كثيرًا ، فأنشئوا مدرسة الحقوق ، وكانت تسمى مدرسة ، قبل أن تكون كلية فأنشأ مدرسة الحقوق لتخريج قضاة أو محامين أو مستشارين إلى آخره ليحكموا بالقانون الوضعى ، وكان لابد أن يكون المنهج ، والبرامج فيها هو القانون الوضعى . . وزال الاستعمار وحاولنا أن نتخلص من كل آثار الاستعمار ولكننا ألفنا كليات الحقوق ، وألفنا مدرسة الحقوق ، فخيل إلينا أن الأمر عادى ، ولكن الأمر فى حقيقته ليس بعادى ؛ إنه غاية الغرابة ، أن نقيم نحن – فى بلدنا وفى قطرنا – كليات للغزو الفكرى . لنتابع آثار الاستعمار ، ولنعمل على استمرار آثار الاستعمار ، ننفق عليها ، ونربى فيها أبناءنا ، ونضع أبناءنا فى جو ليغزوهم هذا الجو فكريًّا ليكونوا أوربيين أكثر منهم مسلمين أو أكثر منهم وطنيين ، لأن الوطنية تقتضى أيضًا أن نتخلص من الغزو الفكرى ومن آثار الاستعمار ، ولكننا ألفنا الأمر ذهبت إلى كلية حقوق عين شمس لإلقاء محاضرة وسألت : كم عدد المحاضرات فى الكلية فى الأسبوع؟ فقيل اثنتان وعشرون محاضرة .

كم منها للشريعة الإسلامية؟ درسان فى الأسبوع ، وعشرون درسًا للقوانين الوضعية لو كانت هذه الكلية فى فرنسا ، ماكانت تزيد على ذلك ، أو لو كانت فى إنجلترا ماكانت تزيد على ذلك وأحب أن أقول : إنه لو كانت فى إسرائيل أيضًا ماكانت تزيد على ذلك .

محاضرتان للشريعة الإسلامية فى بلد إسلامى ، محاضرتان فقط مقابل عشرين محاضرة لاستمرار الاستعمار ، أو لاستمرار آثار الاستعمار ، أو للغزو الفكرى فيما يتعلق بالاستعمار .

هذا لايتأتى أن يستمر طويلا ، ولكن لأننا ألفنا ، ولأننا لم نفكر فى الوضع ولأننا ألفناه كما ألف الناس التعارض والتناقض الفكرى ، ولكنهم ألفوه واستمروا عليه ، لم يفكر فيه أحد .

من أجل ذلك كانت الأمانة – الآن – موضوعة فى أعناقكم ، أنتم – إننى تحدثت عنها ، ولكن الحديث عنها كان فى مجالات ربما لاتتصل كثيرًا بمجالات القانون ، ولكن مجالات القانون حينما نفكر فى الأمر – وحينما نتبصر فى هذا الموضوع ، فإنه تصبح مسئوليتنا كبيرة ، ونحن مؤمنون ، ومن غير شك هنا مجموعة كبيرة ، إن لم يكن الكل من الصالحين المؤمنين ، كيف يتأتى

أن يسكت الصالحون المؤمنون وهم يسمعون (ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون) . (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم) يحكموك فى حياتك ، ويحكموك بعد مماتك – بسنتك – فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم – فى صدورهم – فى قلوبهم – حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا : نقول : أين القانون الذى تحكم به ؟ وهذا سؤال من أسخف الأسئلة . كيف وأنت مسلم تتحدث اللغة العربية تقول : أين القانون ؟ القانون أمامك فى الكتب ، موجود فى كتب الفقه ، وكتب التشريع الإسلامى .

هل يتأتى أن يكون شخص تخصص فى التشريع ، ثم لايفهم كتابًا فى التبشريع باللغة العربية ، وليس بلغة لاتينية ، ولاأعجمية ، أو شىء من هذا القبيل إنما هو باللغة العربية ليس فى ذلك حجة ، ليس فى ذلك مطلقًا ، أى مستند للدفاع عن تطبيق التشريع الإسلامى ومع ذلك فهناك هذه المقومات الكثيرة التى كتبت فيما يتعلق بالموضوع ، والتى تيسر كثيرًا فيما يتعلق بالموضوع ، وأحب أن أقول : إن مجمع البحوث الإسلامية وضع القانون المدنى كله ، على مذاهب مختلفة ، وقننه ، وكان فى لجانه المختلفة مستشارون من القانون ، وفيه علماء ، وفقهاء فى كل مذهب من المذاهب ، وهو الآن بصدد تقنين القانون الجنائى ، لكن مع ذلك أعتقد أنه عمل ماكان ينبغى أن يكون ، مع أنى أنا شخصيًا – الذى بدأت به والذى شرعت فيه ، لكن الآن ماكان ينبغى أن يكون ، لأنه مادامت كتب التشريع باللغة العربية ، ومادامت هى فى التشريع ، ومادامت فيها الفصول والأبواب والفقرات . فعلماء التشريع المشرعون المستشارون ، القضاة ، من السهل عليهم جدًا أن يستخرجوها من هذه الكتب باللغة العربية .

نعود فنقول : إن الدين نزل هداية للعقل .

ونعود فنقول : إنّ الآيات فيما يتعلق بهذا الموضوع صارمة .

فى الاجتهاد وموقعه

قد يتساءل إنسان : ماهو موقع الاجتهاد فيما يتعلق بهذا الموضوع ؟ أليس الاجتهاد فتحًا لباب التصرف عقليًا فيما يتعلق بالتشريع ؟ وعن هذه النقطة أتحدث الآن ، فيما يتعلق بالاجتهاد هناك فكرة ، فى الواقع ، خاطئة عند الكثيرين – حتى كبار المثقفين – أن الاجتهاد إما أن يكون فى أمر سبق فى عهد الرسول ﷺ ، وإما أن يكون فى أمر استحدث من بعده ، حدث فى العصر الحاضر مثلا .

ومعنى الاجتهاد : أن الأمور التى كانت فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام ينبغى أن يبذل الإنسان جهده وطاقته فى البحث ، ليصل عن طريق المراجع ، والكتب والسيرة والتاريخ ، والأحاديث النبوية ، وتفاسير القرآن إلى ماكان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام ليس فى ذلك ابتداع ولااختراع ، ولاتصرف عقلى ، ولاشىء من هذا القبيل ، وإنما هو يبحث ليصل إلى الحقيقة ومعنى الحقيقة عنده فيما بحثه أن يصل إلى ماكان عليه الرسول ﷺ ، فإذا ما وصل إلى ماكان عليه الرسول ﷺ فقد انتهى البحث وسلم الأمر ، أما الاجتهاد فيما يتعلق بالمسائل التى لم تكن فى عهد الرسول ، وإنما حدثت فى العصر الحاضر ، فليس معناه مطلقًا ابتداع ، أو اختراع أيضًا ، وإنما معناه بذل الجهد لوضع هذا النمط الحديث ، أو المشكلة الحديثة أو المسألة الحديثة ، فى موضعها ، تحت قاعدة كلية ، من القواعد القرآنية أو النبوية تحريمًا أو تحليلا .

يعنى مثلا مسألة « الحشيش » لم يكن موجودًا الحكم فيه ، والمجتهد فيما يتعلق بأمر الحشيش يبذل جهده ، ليضع الحشيش تحت قاعدة كلية من قواعد الدين ، إما تحريمًا وإما تحليلا ؛ لأنه فى المبدأ لايدرى إن كان هذا الأمر محرّمًا أو حلالا ، فيبذل جهده ليضع هذا الأمر تحت قاعدة كلية .

(البيرة) مثلا لم تكن موجودة ، وكل هذه الأنواع من الخمور (ويسكى) وغيره لم تكن موجودة ، ماهو موقف المجتهد ، فيما يتعلق بالحكم فى هذه المسألة أو تلك ؟

موقفه هو أن يبذل جهده مع التقوى ، مع الإخلاص ، مع النزاهة الكاملة ، يبذل جهده مع عدم التحيز ، يبذل جهده ليضع هذه المسألة أو تلك تحت القاعدة الكلية المحرِّمة ، أو المحلِّلة ، فإذا أدّى به اجتهاده إلى أنها توضع فى قاعدة كلية تحرِّم ، يصبح الحكم مُحرّمًا ، وإذا أدى به اجتهاده – مع الإخلاص مع التقوى ، مع النزاهة – إلى أن هذه المسألة تدخل فى قضية محللة تدخل تحت التحليل أو الحل ، هذا هو الاجتهاد .

فى مقدمات الاجتهاد ووسائله

لكن هذا الاجتهاد أيضاً له مقدمات ، وله وسائل ، هذه المقدمات بديهية ، ليس فيها شىء من التعقيد .

معرفة اللغة العربية : إن من أوائل الشروط فيما يتعلق بالمجتهد معرفة اللغة العربية معرفة تمكنه أو تصل به إلى مستوى فهم القرآن العربى المبين .

معرفة الأحاديث النبوية : ولابد من معرفة الأحاديث ومن الإلمام بها إلمامًا يجعله على معرفة فيما يتعلق بجو الأحاديث النبوية ، لأنه يجوز أن يفتى ، ويكون هناك حديث من الأحاديث ، معارض أو مخالف لفتواه .

معرفة السيرة النبوية : لمعرفة الواقع الذى كان عليه الرسول ﷺ ، ومادام الدين قد طُبِّقَ عمليًا وطبق فى فترة طويلة من الزمن ، طبقه الرسول ﷺ ، وطبقه الصحابة رضوان الله عليهم فى عهد الخلفاء الراشدين ، وتحدث عنه الصحابة ، وتحدث عنه الرسول – مادام قد طُبِّق ، فإننا اختلفنا فى أمر من الأمور لانلجأ إلاّإلى التطبيق .

ماهو الواقع الذى كان فى عهد الرسول ﷺ ؟ ماذا كان ؟ النتيجة التى أريد أن أنتهى إليها وبها تكون الخاتمة :

ماهو الموقف ؟

الموقف لخصه أحد الصحابة فى كلمة تشبه أن تكون إعجازًا ، يقول : « اتبعوا ولاتبتدعوا فقد كُفيتم » فقد كفيتم هذه برهان كامل على : « اتبعوا » وهى أيضا برهان كامل على و « لاتبتدعوا » اتبعوا فقد كفيتم ، ولاتبتدعوا فقد كفيتم . لأن من يبتدع إنما هو الشخص الذى لايكون عنده الكفاية ، ونحن عندنا الكفاية منذ : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا) .

عندنا الكفاية ، إذن الخاتمة أو النتيجة التى نحب أن ننتهى إليها هى « اتبعوا ولاتبتدعوا » فقد كفيتم ، إذا اتبعنا ولم نبتدع ، ماهى النتيجة ؟

النتيجة هى : ماتحدث الله سبحانه وتعالى عنه ، وضمنه لمن اتبع شريعته ، ضمن له السعادة فى الدنيا والآخرة ، وضمن له الفوز ، وضمن له النصر ، وضمن له سعة الرزق ، وضمن له كفالته ، وعنايته سبحانه ورعايته . ضمن له كل هذه النواحى ، ووعْد الله سبحانه وتعالى لايتخلف .

خاتمة

وأريد أن أختتم بواقعة حدثت فى الأيام الأخيرة ، حدث فى هذه الأيام الأخيرة أن وفدًا من أوربا ، من كبار علماء أوربا من فرنسا ، وفيه واحد من إيطاليا ، وواحد من إنجلترا وفدًا على مستوى رفيع جدًّا ، ذهب إلى السعودية ، ذهب بالفعل ، وقبل أن يذهب تكاتب وتراسل هو

ووزير العدل السعودى ، ووزير العدل السعودى رجل نابه متطور متفتح الأفق ، راسلوه واتفقوا على أن هذا الوفد الأوربى يذهب إلى السعودية ، ليتحدث مع علماء السعودية فيما يتعلق بحقوق الإنسان فى الإسلام ، وذهب الوفد ، والتقى هو والوفد العربى : كان وزير العدل وكان مستشار الملك (معروف الدواليبى) وكان (محمد بن مبارك) من سوريا وكان بعض علماء السعودية ، وأخذوا يتحدثون فيما يتعلق بحقوق الإنسان فى الإسلام.

وانبهر الوفد الأوربى وما كان متصورًا مطلقًا أن هذا الذى يقال هو حقوق الإنسان فى الإسلام ، وصل الإسلام بحقوق الإنسان إلى مالم تصل إليه أوربا ، وفى نهاية الجلسة التى تعددت طبعًا عدة مرات ، وفى نهاية الأبحاث سأل الوفد الأوربى : ولكن ماذا عن قطع يد السارق ؟ وأجاب (معروف الدواليبى) الذى كان رئيس الوزراء سابقًا فى سوريا ، وقد كان مستشارًا لجلالة الملك وكانوا فى الرياض ، قال له : انظر إلى الصحراء ، يمكن إذا كنت فى الوسط واتجهت يمينًا تجد ألف كيلو متر ، ويسارًا ألف كيلو متر ، وأمامًا ألف كيلو متر ، وخلفًا ألف كيلو متر وتصور أن سيارة قامت من الرياض ، وهذه السيارة محملة بالذهب والفضة قامت من الرياض لتذهب إلى مكان على بعد عشرين كيلو متر ، لايتأتى مطلقًا أن يتعرض لها متعرض فى هذه الصحراء التى لابلدة فيها ، ولاشرطة ، ولاحرس ، ولابوليس ، لاشىء من هذا القبيل فى هذه الصحراء الشاسعة تقوم سيارة محملة بالذهب والفضة ، لتذهب من الرياض إلى هذه المدينة الأخرى ولايتعرض لها متعرض لماذا ؟ لأننا نطبق الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بقطع يد السارق ، لكن انظر الآن إلى بلد مثل (نيويورك) التى يقولون عنها إنها وصلت إلى قمة الحضارة ، كم فيها من القتلى فى ساعة واحدة من أجل السرقة ؟ وكم فيها من القتلى فى اليوم الواحد ، فى أربع وعشرين ساعة بسبب السرقة ؟ قتلى وجرحى وقطع أكباد ، وقطع أمعاء بالسكاكين ، وضرب بالنار وبكل شىء ، فى أربع وعشرين ساعة ، ثم تعال إلى المملكة العربية السعودية بأكملها كم قطعنا من يد فيها فى مدة عشرين سنة ؟ قطعنا أيدى تعد على أصابع اليد الواحدة ، وتقولون بعد ذلك إن الإسلام قاس فيما يتعلق بقطع يد السارق ، هناك القتل ، والذبح ، والسحل ، وكل ما يتأتى أن يكون من أجل السرقة ، وهنا لاشىء قطع يد السارق أوعدد من السارقين فى مدى عشرين سنة.

وأجمع الوفد الأوربى أن هذا أحكم نظام فيما يتعلق بمنع السرقة ، وقالوا لوطبقناه لكان الأمن على كل حال ، وفى النهاية أهيب بأعضاء مجلس الشعب فى جمهورية مصر العربية ، أن يعتصموا بالإيمان ويقرروا العودة إلى تطبيق التشريع الإسلامى ليؤدوا الأمانة ويفوزوا بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، والله تعالى ولى التوفيق ، وهو الهادى إلى أقوم طريق.

فى الاجتهاد

إن باب الاجتهاد لم يغلق ، ولم يغلقه أحد ، ولايتأتى أن يغلقه أحد ، ولم يقل عالم من العلماء المستنيرين إن باب الاجتهاد قد أغلق ، بيد أن هذا الموضوع يحيط به كثير من اللبس فى أذهان الكثيرين من الناس . . وذلك لأن الاجتهاد ينصبُّ على أمرين .

أحدهما : الاجتهاد فى المسائل التقليدية المذكورة فى كتب الفقه ، من عبادات ومعاملات وهذا معناه أن يَبْذل المجتهد مايستطيع ليصل إلى الوضع الحقيقى الذى كان عليه الرسول ﷺ - فى هذه المسألة أو تلك ، فهو فى بحثه هذا يجب عليه أن يتخلى من كل فكرة شخصية فى الموضوع ، وأن يسير موطِّنًا النفس على أن يستجيب لنتيجة البحث ، فيقرر النتيجة التى وصل إليها فى تحقيق ماكان عليه الرسول ﷺ فى المسألة التى يبحث عنها .

إن المجتهد فى هذا الموضوع لايبتدع ولايخترع ، ولايقول من عنده شيئًا ، وإنما دوره الوحيد هو التثبّت ممّا كان عليه الرسول ﷺ ، فإذا ماوصل إليه انتهى دوره ومن أجل ذلك يقول كل متدين ، كما قال أئمة المذاهب : إذا صح الحديث فهو مذهبى وليس لأحد أن يقول برأى شخص إذا كان للرسول ﷺ فى الموضوع حديث من الأحاديث .

والأمر الآخر : من الاجتهاد ، فهو الاجتهاد فيما لم يَرِد فيه نص من الأمور المستحدثة التى أحدثها التطور الزمنى ، والمجتهد فى هذا مهمته محددة ، إنها بذْل كل مايستطيع من جهد فكرى لربط هذه المسألة بقاعدة عامة من قواعد الدين الكلية تحريمًا أو تحليلاً ، وذلك لأن كثيرًا من المسائل الجزئية التى تحدث بتطور الزمن تندرج تحت قاعدة كلية من القواعد الموجودة فى الدين .

فمثلا : هذه الأنواع الكثيرة من المسكرات أو الأنواع الكثيرة من المخدرات لم تكن فى الصدر الأول ، وعمل المجتهد الحكم بالنسبة لها أن يربطها بقاعدة كل مسكر حرام بالنسبة لأنواع الخمور بقاعدة كل مُفَتِّرٍ حرام بالنسبة لأنواع المخدرات .

ولقد قال أئمة الفقه الذين اجتهدوا فى مثل هذه المسائل بالنسبة للمخدرات إنّ مَنْ شَرِبَ الحشيش مُسْتَحِلا له فقد كفر ، لايصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين .

المجتهد فى الأمور المستحدثة التى أحدثها التطور الزمنى لايبتدع ، إذْ هو الآخر لايأتى بشىء من عنده ، وإنما هو يجتهد فى الربط بين الجزئيات المستحدثة والقواعد الكلية ، لأن هذه الجزئيات تندرج تحتها .

وليس هناك نوع ثالث من أنواع الاجتهاد وإذا كان بعض الناس يظن أن الاجتهاد اختراع وابتداع وإتيان بالرأى الشخصى ، ومحاولة تغيير الدين بحسب التطور الزمنى فإنه مخطئ .

والواقع أن الذين يظنون أن الاجتهاد اختراع وابتداع كثيرين حتى فى كبار المثقفين من الحقوقيين ، ففى بعض اللجان التى تضم حقوقيين وعلماء دينيين ، يأتى بعض الحقوقيين مكونًا رأيًا معينًا فى الطلاق أو تعدد الزوجات أو الميراث ، ويعلق رأيه فى اللجنة ، فإذا اعترض على رأيه بعض علماء الدين قائلين إنه غير موافق للشرع ، يقولون لهم : اجتهدوا ، ومعنى هذا بكل بساطة غيروا الدين ليتفق مع رأينا أو افهموا النصوص الدينية فى ضوء مانقول ، ومن يقول اجتهدوا بهذه الكيفية يكفينا منه هذا التقول أنه لايصح أن يكون فى لجنة من اللجان التى تدرس أمورًا متعلقة بالدين ، وذلك أنه فى مظهره وفى أقواله لايعبأ بالدين ، ويظن أن رأيه هو الصحيح .

فى الدين هاد للعقل

ولقد نزل الدين هاديًا للعقل وقضية الدين هاد للعقل يؤمن بها كل متدين ، وذلك أنه لو كان القائد فى العقيدة أو فى التشريع هو العقل لما كان من ضرورة للدين .

الدين إذًا من أمور العقائد وفى أمور التشريع هو القائد للعقل ، والله سبحانه تعالى أعلم بالصالح للإنسان ، ورسمه سبحانه فى الوحى عقيدة وتشريعات .

ويجب على المؤمن أن يستجيب استجابة كاملة للوحى :

وإذا كان الأمر كذلك فلا يتأتى أن يقول إنسان يزعم أنه مسلم ، اجتهدوا حينما يقال له إن رأيك مخالف للدين ودولة الإيمان لاتخرج عن الوحى فى أحوال المسلمين الشخصية المتصلة بالدين ، كالزواج والبطلان ، ونظام الأسرة على وجه العموم ، وإلا أصبحت الأسرة تقوم على أساس محرم ، وأصبحت العلاقات الأسرية تسير على نسق لاديني وهذه هى المعارضة التامة ، بل هذا مناقض لوجوب تحقيق دولة الإيمان .

وإذا كان الاجتهاد مفتوحًا على النسق الذى قلنا ، فإن للاجتهاد شروطًا يجب أن تتوافر منها ثلاث : معرفة اللغة العربية معرفة دقيقة ، لقد كان الإمام الشافعى مثلا يعتبر أديبًا من كبار الأدباء لقد كان يحفظ شعر الهذليين على كثرته ، وأسلوبه نفسه ينبئ عن فحولة فى الأدب يندر وجودها ، وهكذا كان بقية الأعلام ، وذلك أنهم اتصلوا عن قرب بالقرآن الكريم حفظا وفهماً ، واتصلوا بآلاف الأحاديث فى أسلوبها العالى ، أسلوب النبوة ، أسلوب جوامع الكلِم .

إن معرفة اللغة العربية معرفة عميقة شرط مهم من شروط الاجتهاد .

والشرط الثانى : هو حفظ القرآن وفهمه حفظًا وفهمًا فى الدرجات العليا للحفظ والفهم ، يتمكن معهامن استحضار النصوص القرآنية المتصلة بموضوع البحث ، ومعرفة أسباب النزول ، وذلك أن آيات القرآن الكريم قد نزل الكثير منها فى مناسبات ، ويزيد فهم الإنسان لها حينما يعرف أسباب النزول ، وقد ألَّف أسلافنا كتبًا كثيرة فى أسباب النزول ، وهى متداولة معروفة وحفظ الأحاديث النبوية الشريفة المتصلة بالأحكام عبادات ومعاملات ، أو التمكن من الأحاديث المتصلة بموضوع الاجتهاد .

أما الشرط الأخير للمجتهد ، وهو شرط لايتوافر للكثيرين ، فهو الذكاء وذلك لأن المجتهد يربط بين المواضيع مستنبطًا ومستنتجًا فإذا لم يكن عنده الذكاء الكافى لذلك فإنه لايتأتى أن يستنتج ويستنبط فى إحكام ودقة .

فإذا توافرت هذه الشروط ، فإن لصاحبها أن يجتهد ، وسيكون مُوفَّقًا بإذن الله إذا أخلص النية وإذا أراد بعمله وجه الله . . . .

فى الغصب والسرقة واللقطة

الغصب هو أَخْذُ شىء له قيمة بغير إذن المالك ورغماً عنه ، وحكمه : على الغاصب رد العين المغصوبة ما دامت قائمة . لقوله عليه السلام « على العبد ما أخذ حتى يرد » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يحل لأحد أن يأخذ متاع أخيه لاعباً أو جادًّا فإن أخذه فليرده عليه وإن نقص فى يده ردَّ ما نقص أو ردّ ثمنه .

أما السرقة فقد قال الله تعالى :

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم)

وهذا الحكم صريح لا لبس فيه ، فمن سرق تقطع يده ، وإذا كان هذا محل اتفاق فإن الفقهاء اختلفوا فى المقدار الذى تقطع فيه اليد .

فذهب الجمهور تقطع يده إذا سرق نصاباً ، إلا أنهم اختلفوا فى قدره ، فعند الإمام مالك النصاب ثلاثة دراهم فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه وجب القطع .

واحتج فى ذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع فى مِجَنّ ثمنه ثلاثة دراهم .

وقال مالك رحمه الله : وقطع عثمان رضى الله عنه فى أترجة قومت بثلاثة دراهم .

وقال مالك : وهو أحب ما سمعت فى ذلك . وذهب الشافعى رحمه الله إلى أن الاعتبار فى قطع يد السارق ربع دينار أو ما يساويه ، والحجة فى ذلك ما أخرجه الشيخان من طريق الزهرى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : تقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعداً .

أما اللقطة : فإن نافعاً رضى الله عنه يروى أن رجلا وجد لقطة فجاء إلى ابن عمر فقال . إنى وجدت لقطة لما تأمرنى فيها . فقال ابن عمر عرِّفها أى أعلن عنها قال قد فعلت قال : زِدْ . قال : قد فعلت قال : آمرك أن تأكلها لو شئت لم تأخذها وهذه الإجابة من ابن عمر رضى الله عنه مظهر من مظاهر ورعه وتقواه يقول الإمام محمد بن أبى الحسن :

« من التقط لقطة تساوى عشرة دراهم فصاعداً عرَّفها حوْلا ، فإن عرفت وإلا تصدق بها ، فإن كان محتاجاً أكلها ، فإن جاء صاحبها خيره بين الأجر « أى الثواب من الله » وبين أن يغرمها له » أى يرد قيمتها عند مقدرته على ذلك .

فى الزِّنى

لا يثبت الزِّنى إلا باعتراف الزَّانى أو رؤية أربعة شهود عدول ، أو بإتيان المرأة للولد مكتملا فى أقل من ستة أشهر .

ويجب فى حالة ثبوت الزِّنى أن يُرْجَم الزانى إن كان محصناً ، ويُجلَد إن لم يكن محصناً ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين يقول الله تعالى : (الزانية والزَّانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) أما الرجم فقد ثبت بالسنة كما فى قصة ماعز والغامدية والذى يقوم بالحد هو الإمام أو نائبه لا الزوج ، حتى لا يكون المجتمع فوضى إذا اقتص كل إنسان ممن أساء إليه ، أما فى الحالة التى ذكرها السائل — فى حالة رؤية الزوج وحده — لا يثبت الزِّنى من الوجهة القضائية الشرعية ، ما دام الزانى لم يعترف ، وبذلك لا يصح قتله ، فإن قتله الزوج فقد اعتدى وظلم وخالف الشرع . وفى هذه الحالة يقدر القاضى العقوبة التى يراها والتى توجبها الظروف والملابسات ، ويجوز أن تكون هذه العقوبة قتل القاتل إذا رأى القاضى أنه كاذب ، أو الأشغال الشاقة المؤبدة أو السجن فترة من الزمن تطول أو تقصر بحسب ما يرى القاضى من صدق القاتل أو الريبة فى أمره والحكم الذى صدر لا يعارضه الدين ما دام قد تبين للقاضى الظروف المخففة .

فى حد الزّنى

يعمل دين الإسلام على صيانة الأعراض ، وعلى حماية الأسرة مترابطة قوية ، وهو فى نفس الوقت يدرأ الحدود بالشّبهات كما قال ﷺ ادرءوا الحدود بالشبهات وخاصة فيما يهدم الكرامة إلى الأبد كالزنى وهو لهذا شدد فى إثبات جريمة الزّنى لخطورة حكمها وسمعتها وبيّن أن الزنى لا يثبت إلا بأربعة شهداء رأوا حقيقة الزنى وحدُّ الزنى للمتزوج وللمتزوجة الرجم حتى الموت ولغيرهما الجلد مائة جلدة لا فرق فى ذلك بين مسلم وغير مسلم ، وهذا إذا كان برضا الزّانى والزانية ، وإذا أُكرِه أحدهما إكراهاً حقيقيًّا سقط عنه الحد . قال تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) وقال : (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذْ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون)

على أن الرجم للمحصَن — رجلا كان أو امرأة — والجلد لغير المحصَن — رجلا كان أو امرأة — إنما هو شريعة الأديان كلها .

ومن المعروف أن النصارى يتبعون فى شريعتهم التوراة ، والتوراة تقول بالرجم ، وكتب السيرة تروى القصة التالية .

زنى يهوديان من خيبر ، وكانا محصنَيْن ، وكره اليهود رجمهما لشرفهما فيهم ، فبعثوا رهطاً منهم يسألون النبى ﷺ فأمرهم برجمهما ، فأنكر اليهود حكم الرجم فى التوراة . فبين ابن صوريا — وكان أعلمهم باعترافهم كذبهم ، وأثبت أن حكم الرجم موجود فى التوراة ثم أسلم ، يقول سبحانه : (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولّوْن من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين) .

فى شروط قبول التوبة رد الحقوق لأصحابها فما الحكم إذا كان صاحب الحق قد مات ؟

إن الله سبحانه وتعالى أمر بالتوبة وحث عليها الرسول ﷺ وأجمعت الأمة على وجوبها على كل مسلم ومسلمة فقال سبحانه وتعالى : (وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) وعن الأغر بن يسار رضى الله عنه فيما رواه الإمام مسلم قال : قال رسول الله ﷺ : يأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه ، فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة ، وقد استعمل القرآن واستعملت السنة

الشريفة مختلف الأساليب المؤثرة ، وذلك لقيادة النفوس إلى الله بالتوبة مفتاح كل خير وباللبنة الأولى فى طريق الله . .

ولا ريب أن التوبة المتحدَّث عنها إنما هى التوبة الخالصة النصوح ، التوبة تنبعث من قلب تفجرت فيه ينابيع الهداية ، فاتجه إلى الله فى إخلاص مستغفراً مُنيباً .

والتوبة من هذا النوع تستتبع حتماً ردّ الحقوق بقدر الاستطاعة ، إنها تفى أن يبرأ التائب من الحقوق التى عليه .

فإن كانت مالا أو نحوه رده إلى صاحبه ، وإن كانت حد خلاف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها ، أما إذا استحال رد الحقوق أوكان أشبه بالمستحيل بالنسبة للتائب فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، فإذا بذل التائب جهده فى رد الحق ثم لم يتمكن من رده فقد أبرأ ذمته أمام الله سبحانه وتعالى ، وفى هذه الحالة نرجو الله سبحانه أن يتقبل توبته ، وأن يتجاوز عما استحال تحقيقه .

فى عقد القران بعد زِنى العروسين

إن العقد فى هذه الحالة صحيح ما دام قد استوفى الشروط من المهر والوكالة والشهود ، أما الحياة التى قبل العقد والزواج فإنها حياة سفاح وإثم ومعصية ، وكلا الشخصين آثم وإثمهما — لا شك — وعقابهما هو إثم الزانى والزانية .

أما الولد الذى أنجباه ، فهو ولد سفاح والقوانين الوضعية تبيح الاعتراف به ، وتعطيه الحقوق التى يُعْطاها الولد الشرعى .

ولكن الدين لمحافظته دائماً على الطهر والعفاف والحياة الفاضلة لا يقر هذا الاعتراف ، لأنه يكون إقراراً لشرعية الثمرة التى نتجت عن الزّنى ، وهذا مالا يتأتى أن يقره الدين .

فى سيدة وضعت يوم الخميس والزوج توفى يوم الجمعة مباشرة فكيف تكون عِدَّة هذه السيدة

عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام ، وهذه السيدة التى ذكرت فى السؤال توفى عنها زوجها بعد الولادة فينطبق عليها هذا الحكم .

وربما التبس على السائل أن الحامل عدتها وضع الحمل ، ولكن هذه لم تكن حاملا عند الوفاة ، فقد توفى عنها زوجها بعد أن وضعت لا قبل أن تضع :

قال تعالى : (والذين يُتَوفَّوْنَ منكم ويذرون أزواجاً يتربصْن بأنفسِهنَّ أربعة أشْهر وعشراً ، فإذا بلغْنَ أجلُهنَّ فلا جُناح عليكم فيما فَعلْن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير) .

ولو توفى عنها زوجها قبل أن تلد ثم ولدت بعد وفاته بيومين أو أكثر أو أقل فعدتها تنتهى بالوضع ، يقول تعالى : (وأولاتُ الأحمال أجلهنَّ أن يضعن حَمْلَهُنَّ) .

فى نشوز الزوجة

هذا الامتناع إما أن يكون لعذر من مرض ونحوه أوْلا ؛ فإن كان لعذر فعلى الزوج أن يعالجها ما استطاع فإن كان عيباً مانعاً من الجماع أو الاتصال بها مما نصَّ الفقهاء على أن يُفسخ به النكاح فسخ ، ولها جميع حقوقها الزوجية .

وإن كان العيب مما يرى برؤه عالجها من مالها أو من ماله وأما إن كان الامتناع نشوزاً أو إباءً منها فقد أرشد القرآن الكريم والسنة الشريفة إلى العلاج ، قال تعالى : (واللاتى تخافون نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ واهجروهنَّ فى المضاجع واضْربوهنَّ ، فإن أطَعْنَكُم فلا تبغُوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عَليًّا كبيراً ، وإن خِفْتم شِقاقَ بينهما ، فابعثوا حَكَماً من أهلِهِ وحكَماً مِن أهلِها إن يريدا إصلاحاً يُوفِّق اللهُ بينهما ، إنّ الله كان عليماً خبيراً) .

قال العلماء : ليس للمرأة التى تمتنع عن زوجها إذا طلبها نفقة ولاحق حتى ترجع عن هذا النشوز ، فإن أطاعت ورجعت إلى الحق وإلا انفصلت عنه بلا حقوق ، ونذكر فى هذا المجال قوله ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ولم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح » (متفق عليه) .

وقوله : لوكنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها .

رواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

فى حكم زيارة القبور

زيارة القبور مطلوبة شرعًا لما رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن النبى ﷺ قال : «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تذكركم الآخرة »

وكان ذلك فى بدء الإسلام حيث كان النبى ﷺ قد نهى عنها أولا ثم أمر بها .

وبعد أن اطمأنت القلوب بالإيمان أصبحت الزيارة مطلوبة إلى الآن لأخذ العبرة والعظة منها والاستعداد والتذكر للدار الآخرة .

فى حكم من أفتى بغير علم

الإسلام يكره الادّعاء والتدخل فيما لا يحسنه الإنسان وليس من شأنه ، لأن ذلك فيه إضلال للناس وتضليل لهم .

والإسلام يدعو إلى إسناد الأمور إلى أهلها ، قال تعالى : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) .

فمن سئل عن شىء لا يحسنه يجب عليه ألاّ يتجرّأ على الكلام فيه خوفاً من الخطأ والزلل الذى يترتب عليه ضياع الحقوق وفساد الأحكام .

وقد ورد فى الأثر أجرؤكم على الفُتْيا أجرؤكم على النار ، وجاء أيضاً ، من أفتى بغير علم فقد ضل وأضل .

ويجب على من يريد أن يستفتى عن شىء من الدين أن يتوجه بسؤاله دائماً إلى من يتقن ذلك ، كما ورد فى الآية السابقة ، ويبتعد عن الأدعياء الذين لا يحسنون القول فى هذه الأمور إن كان يريد الوصول إلى الصواب .

والناس دائمًا يستفتون أهل العلم الصادقين ، وليس للفُتْيا طريق غير هذا .

فى الفروق والمميزات بين الرجل والمرأة

هناك فروق ومميزات بين الرجل والمرأة من حيث التكوين الجسمى والنفسى ، ومن حيث الخصائص الطبيعية المميزة لكل منهما .

ولقد راعى الإسلام كل هذه الخصائص والمميزات التى يختلف فيها الرجل عن المرأة والذكر عن الأنثى ، وجعل لكل دوره ومجاله مصداقاً لقول الرسول ﷺ «كل ميسر لما خُلِقَ له » .

فجعل التزين ولُبْس الحرير والتحلى بالذهب مما تختص به الأنثى فى ملبسها وزينتها لكى تتفق مع رسالة الأنوثة ، التى خُلقت من أجلها .

أما الجهاد والنضال والعمل والسعى ومجاهدة الأعداء ومغالبة الشدائد فقد جُعلَتْ كلُّ هذه الخصائص والخصال للرجال .

وحتى لا يتشبه الرجل بالمرأة ولا ينحرف عن مميزاته واختصاصاته حرم الله عليه لبس الحرير واستعمال الذهب عن على رضى الله تعالى عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ أخذ حريراً فجعله فى يمينه ، وذهباً فجعله فى شماله ثم قال : « إنّ هذين حرام على ذكور أُمَّتى » رواه أبو داود بإسناد حسن .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « حُرِّم لباس الحرير والذهب على ذكور أمّتى ، وأُحل لنسائهم » .

وعن علىّ رضى الله عنه قال : « نهانى رسول الله ﷺ عن التختُّم بالذهب » . يحرم الشرع إذن على الرجال لبس الذهب ، وكذلك الفضة .

أما من حيث استعمال الذهب والفضة فإن الإسلام يحرم استعمالهما على الرجال والنساء على السواء ، فيحرم اتخاذ الآنية من الذهب والفضة ، فلا يحل لرجل مسلم ولا لامرأة مسلمة أن تأكل فى آنية من الذهب أو الفضة . عن أم سلمة زوج النبى ﷺ : قالت : إن رسول الله ﷺ قال « الذى يشرب فى آنية الفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » .

وما من شك فى أن استعمال الذهب والفضة فى الأكل والشرب ترف وإسراف يتنافيان مع الوضع الاقتصادى السليم الذى تقره الأديان وتدعو إليه .

فى الميراث

إن الله سبحانه وتعالى حينما شرع نظام الميراث فإنما شرعه لحكمة علمها سبحانه ، ولقد أراد من الذين آمنوا بالله ورسوله أن يتبعوا نظامه فى الميراث كما يتبعون نظامه فى غيره ، والمؤمن الصادق الإيمان هو الذى يستجيب لله ورسوله فى الصغير من أمور الدين والكبير منها ، فإذا ما أراد تغيير ذلك بنحو من الأنحاء فإنه يدل بعمله على أنه غير مطمئن القلب للتشريع الإلهى .

يقول تعالى : (يٰأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تحشرون) .

ومن المعروف أن الهبة قبل الوفاة صحيحة شكلا ، فإن كان الهدف منها حرمان بعض الورثة فإنها حرام من ناحية جوهر الموضع ، فإذا لم يكن هناك ورثة فالهبة لا بأس بها ، أما إذا وجد ورثة فعلى الإنسان أن يتبع الوضع الإسلامى السليم ، وهو ترك الأمر لنظام الميراث الإسلامى .

فى الثمن المؤجل

لقد أباح جمهور الفقهاء أن يكون الثمن المؤجل أعلى من الثمن المدفوع فوراً ، وذلك لأن الثمن المدفوع فوراً يمكن الانتفاع به فى معاملات تجارية أخرى ، أما الثمن المؤجل فإنه لا يتأتى فيه ذلك .

وهذا النوع من المعاملات ليس داخلا فى نطاق الرِّبا .

ومع ذلك يجب أن يراعى أن تكون المعاملات التى من هذا النوع معاملات سليمة تجاريًّا وأخلاقيًّا ، فلا يجوز أن تستغل حاجة المشترى ، فيرفع البائع الثمن كما يريد مُضاعِفًا المكسب أضعافاً مُضاعفة ، فإن ذلك فضلا عن كونه إثماً من وجهةَ النظر الأخلاقية ، لا يجوز شرعاً .

وأن التاجر الذى يراعى حق الله ويراعى واجبات الخُلق الكريم ينعم بالبشرى التى أعلنها الرسول ﷺ فى قوله : التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصدِّيقين والشهداء .

فى نجاة صاحب الكبيرة

يرى بعض العلماء عدم نجاة صاحب الكبيرة كالزانى ، سبق له الزواج أوْ لم يسبق ، وكذلك الزانية إذا ماتا بغير توبة ، للأحاديث الواردة فى كفر صاحب الكبيرة بحسب الظاهرة ومن ذلك قوله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

وجمهور المسلمين على جواز الغفران لها فى الآخرة لقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفِرُ ما دون ذلك لمن يشاء) .

وقد قرن الله تعالى الزِّنى بالشرك وقتل النفس ، وبين أن عباد الله حقًّا لا يزنون ، وأن الزّانى خارج عن نطاق العبودية فقال تعالى فى وصف عباد الرحمن : (والذين لا يَدْعُون مع الله إلٰهًا آخر ولا يقتلونَ النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلْقَ أثاماً ، يُضاعَفْ له العذاب يوم القيامة ويخلُدْ فيه مُهاناً إلاَّ مَنْ تاب) .

وأمرُ الغُفران فى غير الشرك موكولٌ إلى الله سبحانه وتعال : (إن شاء غفر وإن شاء عذب) .

ولكن الذى ينبغى أن يُعرف هو أن الاعتماد على الغفران مع ارتكاب المعاصى لا يجوز لقوله تعالى : (فلا يأمن مَكر الله إلاَّ القوم الخاسِرُون) .

والندم على المعصية والخوف من العذاب عليها والعزم على عدم العودة إليها شرط لقبول التوبة منها .

فعلى الزّانى والزانية الإقلاع عن غيِّهما والمبادرة بالتوبة والتضرع إلى الله تعالى ، واستيفاء شروط التوبة الصحيحة .

فإن حالت ظروف بينهم وبين التوبة مع عزمهما عليها وقصدهما إليها كان احتمال المغفرة أكبر .

وإن تهاونا بالتوبة وفرطا فى المبادرة إليها كان احتمال العقاب أشد ، وفى النهاية لا يسعنا إلا أن نذكر قوله تعالى : (ولا تقربوا الزِّنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) .

فى تولى المرأة القضاء

لا يجيز مذهب من مذاهب المسلمين تولى المرأة القضاء ، ويخطئ كثير من الناس الحقيقة أو لا يفهمون الأمر على وجهه الصحيح حينما يقولون : إن مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه يجيز تولى المرأة القضاء ذلك أن أبا حنيفة مثله كمثل الإمام مالك والإمام الشافعى والإمام أحمد ابن حنبل لا يجيز تولى المرأة القضاء .

وتوضيحاً للأمر نقول : إن مذهب الإمام أبى حنيفة يرى : أن المرأة لا تصلح للقضاء وليست أهلا له ، ولا يجوز أن يوليها الوالى منصباً من مناصبه ، ولكن لو فرضنا أن الوالى أقدم على المحرم ولم يُبال بالممنوع شرعاً فولاها القضاء آثماً بذلك ومخالفاً للشرع فهل فى هذه الحالة ينفذ حكمها وقضاؤها أو لا ينفذ ؟

ويرى الإمام أبو حنيفة أن حكمها : ينفذ فيما عدا الجنايات ، أما المذاهب الأخرى فإنها ترى أن حكمها لا ينفذ لا فى الجنايات ولا فى غيرها .

ليس الخلاف إذن بين المذاهب فى جواز تولية المرأة القضاء ، فذلك ممنوع بالإجماع ، ومن يولها القضاء آثم بالإجماع ومخالف للشرع بالإجماع والخلاف ينحصر فى أنه إذا وقعت جريمة توليتها القضاء هل ينفذ حكمها أو لا ينفذ . . هذا هو رأى الشرع وكل متبصر مستنير مخلص فى تولى المرأة القضاء .

وفى حكم من يخون الأمانة

يقول الله تعالى فى آية صريحة وفى أمر واضح : (إن الله يأمركم أن تؤدُّوا الأمانات إلى أهلها) ولقد بين رسول الله ﷺ وضع خائن الأمانة أنه منافق ، يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

أما الذين يؤدون أماناتهم فإن الله سبحانه وتعالى يذكرهم فيمن أفلح من المؤمنين فيقول : (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) .

ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد : « أدِّ الأمانة إلى من ائتمنكْ ، ولا تخن من خانك » .

والأمانة التى أحب الله سبحانه وتعالى أن تُؤدى هى :

أولا : أمانة الإنسان بالنسبة إلى نفسه هو شخصيًّا ، فلا يتدنس بإثم ولا يتلوث بمعصية ولا يعمل عملا يشينه فى المجتمع ولا يسعى مسعى لا يليق بالكرامة الإنسانية .

وثانياً : هى أمانة الرجل بالنسبة لأسرته ، فإن عليه رعايتها والعناية بها من تهذيب وتربية وتعليم ، عليه بالسعى لكفاية رزقها .

والأمانة ثالثاً : هى أمانة حقوق العباد التى اؤتمن عليها كالودائع وصيانة السر ، وذلك أن السر أمانة وإفشاءه خيانة للأمانة .

والأمانة بالنسبة للمجتمع هى ألاّ يخون الوطن بأى نوع من أنواع الخيانة .

والأمانة من قبل ذلك ومن بعده هى مراعاة ما أمر الله سبحانه وتعالى به ، وذلك بأدائه على وجهه ، وفى الوقت الذى أحب الله سبحانه وتعالى أن يؤدَّى .

وخيانة الأمانة إنما هى خيانة لله ورسوله ، يقول الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) فخائن الأمانة منافق أغضب الله ورسوله إنه آثم فهو فى النار .

فى تركة المتوفى

إذا مات إنسان وله تركة فإن أول شيء يؤخذ من التركة إنما هو تكاليف دفن الميت ، ثم يؤخذ منها الدَّين ثم ينظر بعد ذلك فى نصيب كل وارث من التركة فإذا لم يسدد الورثة الدَّين من التركة فالتبعة عليهم .

ومع ذلك فإن الميت يناله نصيب من المسئولية إذا كان قد ماطل فى سداد الدين ، وإذا عاجله القدر قبل سداده فالتبعة كلها على الورثة ، وقد بين رسول الله ﷺ فى صراحة لا لبس فيها ، عظم جريمة المماطلة فى سداد الدين ، والتباين فى أمر حقوق الناس حتى لقد ورد فى صحيح مسلم عن ابن قتادة – رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قام فيهم فذكر أن الجهاد فى سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال فقام رجل فقال : يا رسول الله أرأيت إن قُتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال : رسول الله ﷺ نعم إن قتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر . ثم قال رسول الله ﷺ : كيف قلت ؟ قال : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال له رسول الله ﷺ : نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلاّ الدَّين فإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك – رواه مسلم .

والحديث الذى أشار إليه السؤال حديث وارد ، ولما وضحت خطورة إثم المماطلة فى الدَّين وضوحاً سافراً لا لبس فيه كان رسول الله ﷺ يهتم بمن مات وعليه دَين يحاول أن يسدَّ عنه دينه بوسيلة من الوسائل الكريمة .

فى العلم بالعبادة

إن العبادة لابد فى صحتها من العلم الصحيح بورودها ولابد من العلم الصحيح بكيفيتها عن طريق الشرع الذى أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ فلا يعبد الله إلاّ بما شُرع ، على الكيفية التى شرعها ، لأنه وحده العالم بما يليق به ، فهو وحده الذى يرسم طريق الوصول إليه فمن جهل ذلك لا تصح عبادته ، فالعابد الجاهل بالعبادة لا عبادة له ، بل إنه فى الوضع الصحيح . ليس بعابد فلابد إذن من تصحيح العبادة بالعلم بها وبكيفيتها ، وأما العالم الذى لا يعمل بعلمه فإنه من الذين أضلهم الله على علم ، وعلمه حجة عليه ، والذى يعلم ولا يعمل أسوأ حالاً من الذى لا يعلم ولا يعمل .

وأما من ناحية المقارنة بينهما فقد قيل لأحد الأثرياء – وكان عنده خادمان أى خادميك شر ؟ فقال : هذا ثم هذا . وإن العابد الجاهل بالعبادة والعالم الذى لا يعمل بعلمه ، كلاهما شر .

والصوره التى يريدها الإسلام ، إنما هى صورة العالم العامل .

(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) .

فى الخلاف بين الأئمة

من المشاهد أن ثمّة اختلافاً بين العلماء المجتهدين فى كثير من مسائل الأحكام مما لم يرد فيه نص صريح أو واضح الدلالة على المراد ، أو ما ورد فيه بصور مختلفة تبيح جواز العملَ على عدة وجوه .

وكل من الأئمة مصيب فى اجتهاده ، حيث بذل وسعه وكان مستكملا لوسائل الاجتهاد ، ولكن المتأخرين تعصبوا لمذاهبهم ، وظنوا أن مذهب إمامهم هو السنة ، وما يخالفه لا أساس له . . ومنهم من يدفعه إلى ذلك قصر العلم عن إدراك أدلة الأئمة ومكانتهم من العلم والدين ، والسائل هنا يظن أن تكرار الله أكبر فى الأذان أربع مرات هو السنة لا غيره وأن إفراد كلمة قد قامت الصلاة فى إقامة الصلاة هو السنة لا غير . وكذا ترك قراءة البسملة فى الفرض هو السنة دون سواه .

ولكن هذه الأمور التى ظنها مخالفة للأحاديث النبوية ، قد وجدت فى كتب الحديث المعتمدة بأسانيد موثوق بها .

ووجودها لا يعنى التضارب بين المذاهب أو التعارض بين نصوص الدين ، إذ هذه الأمور ليست من الأمور التى تتناقض فيها الآراء أو تتصادم فيها الأفكار ، والرسول ﷺ لم يحدد لها صيغة معينة لا يجوز غيرها . بل أجاز فيها هذه الوجوه التى وردت فى المذاهب ، ورأى بعض الصحابة وجهاً فحمله عنه غيره ، ووصل الأمر إلى هذا الإمام فعمل به ، ورأى بعض الصحابة وجهاً آخر فحمله عنه من بعده حتى وصل إلى إمام آخر فعمل به ، ويجوز لكل مكلف العمل بأى وجه أراد .

وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على يسر الدين ورفع الحرج منه ، وعلى عناية المسلمين بكل ماصدر عن النبى ﷺ من أفعال ، وعملهم بالوجوه المتنوعة لكل عمل من الأعمال فى عهد

الرسول ﷺ وعلى المسلم ألاّ يتعصب لمذهب من المذاهب دون سواه إلاّ بعد تعرف وجوه الأدلة والنظر فى كتب الحديث المعتمدة ومعرفة أساس الحكم من النصوص قبل الحكم بمخالفة النصوص .

فى إذا دخل اللص المنزل بقصد السرقة وقتله صاحب المنزل فما حكم القتل شرعاً فى هذه الحالة ؟

روى البخارى بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قُتل دون ماله فهو شهيد .

وقال ابن بطال عن هذا الحديث : إن للإنسان أن يدفع عن نفسه وماله ولا شىء عليه ، فإنه إذا قُتل فى ذلك كان شهيداً فلا قَوْد (قصاص) عليه ولا دية إذا كان هو القاتل . وهذا كله كان من قصد أخذ ماله ظلماً له ، ولم يكن سلطاناً أو حاكماً ، روى أبو داود والترمذى أن رسول الله ﷺ قال : « من أُريد ماله بغير حق فقاتل فقتل فهو شهيد » وفى رواية لابن ماجه « من أريد ماله ظلماً فقتل فهو شهيد »

• إن كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه ، وظلم المسلم حرام .

والدفع عن النفس والمال والعرض واجب قال ابن المنذر والذى عليه أهل العلم : أن للرجل أن يدفع عن ماله إذا أُريد ظلماً بغير تفصيل ، إلا أن كان من يحفظ عنه من علماء الحديث كالمجمعين على استثناء السلطان للآثار الواردة بالأمر بالصبر على جوْره وترك القيام عليه .

وقد وقع حديث أبى هريرة عند مسلم أن رجلا قال لرسول الله ﷺ أرأيت إن جاء رجل يريد أخْذ مالى ؟ قال فلا تعطه قال : أرأيت إن قاتلنى ؟ قال : فاقتله ، قال أرأيت إن قتلنى ؟ قال : فأنت شهيد . قال : أرأيت إن قتلته قال فهو فى النار .

أى وأنت لا شىء عليك لأنه ظالم مفتر ، والله لا يحب الظالمين وهذا هو فصل المقام فى الجواب عن هذا السؤال .

فى النيَّة

يقول الله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)

ولكن مما يجب التنبيه له أن النية محلها القلب ، وأنه لا ضرورة مطلقاً للنطق بها باللسان ، إنها القصد القلبى للشىء فإذا قصد الإنسان بقلبه ، ولم ينطق بلسانه كان ذلك كافياً .

يقول الإمام ابن القيم عن النية :

النية هى القصد والعزم على الشىء ومحلها القلب لا تعلق لها باللسان أصلا ، ولذلك لم ينقل عن النبى ﷺ ولا عن الصحابة فى النية لفظ بحال ، وهذه العبارات التى أحدثت عندافتتاح الطهارة ، والصلاة قد جعلها الشيطان معتركاً لأهل الوسواس يحبسهم عندها ويعذبهم فيها .

ويوقعهم فى طلب تصحيحها فترى أحدهم يكررها ، ويجهد نفسه فى التلفظ ، وليست من الصلاة فى شىء .

فى الرهن

رأى الدين الإسلامى فى الرهن أن منفعة العين المرهونة لمالكها الأصلى أى الراهن ، لا المرتهن .

وعلى هذا فعمرو الذى يملك عمارة ثم رهنها لزيد ، فإن عَمْراً المالك الأصلى هو الذى يأخذ إيجار هذه العمارة كله ، وليس لزيد حق الانتفاع بالعمارة : لا يأخذ إيجارها ولا يستغلها بأى وجه من الوجوه ، ولا يسكنها .

وليس لأحد أن يقول : ما فائدة الرهن إذن ؟

وذلك أن فائدته إنما هى ضمان وصول الحق إلى صاحبه ، فالرهن ضمان السداد إذا رغب عن قرض الضمان ، هذا فضلا عن الثواب والأجر العظيم من الله سبحانه وتعالى فى فك الكربات فضلا عن تقوية العلاقات بين المجتمع حيث تكون الألفة والمحبة والمروءة التى يحرص الشرع الكريم على غرسها فى النفوس وتعويد الثقة بين الأفراد والجماعات ، وإنجاز المشاريع التى تقام بتلك المبالغ التى يأخذها صاحب العين المرهونة كالمؤسسات والمصانع . . .

فإذا استولى صاحب المال على العين المرهونة بقصد الانتفاع بها فى أخذ الإيجار ونحوه كان

ما يأخذه رباً وتنطبق عليه هذه القاعدة ، (وكل قرض جر نفعاً فهو ربا) . وقد حرم الله تعالى الرّبا حيث قال سبحانه وتعالى : (وأحلّ الله البيع وحرم الربا) .

مع أن الاستيلاء على العين والانتفاع بها مخالف للمروءة ومعطل للمشاريع ومورث للأحقاد التى تملأ القلوب بين الراهن والمرتهن حتى فى ذريتهما لأنه كثيراً ما يجبر التضييق على الراهن إلى بيع العين المرهونة فيراها أولاد الراهن وأقاربه ويتحسرون على ضياعها ، ويلعنون من تسبب فى هذا الضياع ، وهذا كله فضلا عن الوزر الذى يرتكبه المرتهن بأخذه الفائدة وأكله الربا . إذن . . يحرم أخذ إيجار العين المرهونة عمارة كانت أو غيرها .

فى ثبوت النسب

من المقرر شرعاً أن الولد يثبت نسبه ما دام الفراش بين الزوجين قائماً ، لقوله ﷺ « الولد للفراش وللعاهر الحجر » كما يثبت النسبة بالبينة الشرعية بالإقرار . وقرر الفقهاء أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وأكثرها سنتان لقوله تعالى : (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) وقوله فى آية الرضاع : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) إلخ قالوا : فإذا كان للفصال أى الفطام سنتان فإنه يبقى الحمل ستة أشهر وهى أقل مدة الحمل ، وفرعوا على ذلك ما يأتى :

جاء فى باب ثبوت النسب من كتاب الهداية وفتح القدير من كتب الحنفية ما نصه . إذا تزوج الرجل امرأة فجاءت بولد أقل من ستة أشهر منذ يوم تزوجها لم يثبت نسبه ، لأن العلوق سابق على النكاح ، فلا يكون منه وإن جاء به بعد تسعة أشهر فصاعداً ثبت نسبه منه اعترف به الزوج أو سكت لأن الفراش قائم والمدة تامة .

وفى نفس المصدر ما نصه : « وإن كان لها زوج وزعمت (أى ادعت) أنه ابنها منه وصدقها الزوج فهو ابنها وإن لم تشهد امرأة ، لأنه التزم نسبه فأغنى ذلك عن الحجة »

وفى حادثة السؤال : فإن الزوجية كانت قائمة بين الزوجين فى المدة التى كانت تنسب الأولاد فيها إلى أبيهم والفراش قام بينهما تلك المدة والزوج صدق زوجته فيما كانت تدعيه أو على الأقل سكت ولم ينف نسب أحد من هؤلاء الأولاد إليه ، فيكون مقرًّا بالنسب .

فنسب الأولاد فى هذه الحالة ثابت بالفراش ، وثابت بالإقرار فضلا عن ثبوته بشهادة الميلاد ، وهى ورقة رسمية وحجة فى ثبوت نسب الولد إلى أبيه ما لم يطعن عليها بالتزوير – وما دام الأمر كذلك فإن نسب الأولاد – موضوع السؤال – إلى أبيهم صحيح شرعاً ولهم الحق فى ميراث أبيهم .

أما مسألة أن ميراثهم ظلم للأولاد الآخرين فليس بظلم ، فذلك مترتب على واقع الأمر وحقيقته ، فإن كان هؤلاء أولاداً للرجل حقيقة فلا ظلم فى ميراثهم ، بل هو حق فرضه الله لهم ، وإن لم يكونوا فى واقع الأمر وحقيقته أولاداً له كان ميراثهم – عند الله تعالى – أكلا لأموال الناس بالباطل ، ووزر ذلك واقع على من زعمت نسبتهم إلى هذا الرجل والله سبحانه وحده هو العليم بأسرار الناس وحقائق أمورهم ، وهو سبحانه سيجازيهم عليها .

ورسول الله ﷺ : يحث الناس على تحرى الحق فيما يدعون ، ومراقبة ربهم ودينهم فيما يقدمون من حجج وبراهين ، فيقول ﷺ : « إنكم لتختصمون إلىَّ ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، وإنما أنا بشر أقضى بما أسمع فمن قضيت له من مال أخيه شيئاً بغير حقه فإنما أقطع له قطعة من النار » ويقول ﷺ : أنا أقضى بالظاهر والله يتولى السرائر .

فى الوصية

الأصل فى إجازة الوصية بثلث المال قوله ﷺ : « إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم عند وفاتكم زيادة فى حسناتكم ليجعلها لكم زيادة فى أعمالكم » .

والحكمة التى يهدف إليها الشارع الحكيم من ذلك هى تدارك ما فات المالك من تقصير فى حياته لمن كان يجب عليه رعايته ، ومساعدة بعض ذوى الحاجة – أجنبيًا كان أو قريبًا – تقرباً إلى سبحانه وتعالى .

ولهذا المعنى أجاز القانون رقم ٧١ لسنه ١٩٤٦ فى المادة ٢٢٧ الوصية بثلث المال للوارث وغيره ، وتنفذ من غير حاجة إلى إذن الورثة ، كما أجاز الوصية بأكثر من الثلث ولا تنفذ فيما زاد على الثلث إلا إذا أجازها الورثة بعد وفاة الموصى .

وبناء على ما ذكر فإنه يجوز للسائل أن يوصى بثلث تركته لبنيه ، وتنفذ من غير حاجة إلى إجازة باقى الورثة ، غير أن الوصية التى أباحها الإسلام تقرباً من الموصى إلى الله سبحانه بسد حاجة ذى القربى يجب أن يراعى فيها ألاّ تكون سبباً فى أحقاد أو ضغائن بين الأولاد وأبيهم وبين بعض الإخوة وبعضهم الآخر بسبب تفضيل بعض الورثة أو هضم لحقوق البعض الآخر ، فإن أدت الوصية إلى إثارة الكراهية والبغضاء بين الإخوة وأبنائهم من بعدهم فالأفضل تركها وإبقاء التركة لتوزيعها على الوجه الذى فرضه الله وقدره لكل وارث حسب حكمته السامية فى محكم كتابه حفاظاً على صلة الرحم ومنعاً لقطعها .

فى فوائد التقسيط

المبالغ التى ستدفع زيادة على ثمن الأرض فى صورة فوائد بعد أن تم الاتفاق على دفع الربع ثم تقسيط المبانى بدون فوائد هذه الزيادة ربا ، والربا حرام بصريح القرآن الكريم ، كما أن الفوائد التى تدفع على القروض ربا وأنها حرام كذلك ، وقد قرر المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية أن فوائد القروض ربا ، والربا حرام كله بنص القرآن الكريم وليس لأحد - فردًا أو هيئة -- أن تقرض المال بالربا .

ولا يجوز لأحد أن يقترض بالفائدة إلا للضرورة إذ الضرورات تبيح المحظورات ، غير أن الضرورة تقدر بقدرها وكل إنسان موكول لدينه وضميره فى تقدير ضرورته وهو المسئول عن ذلك أمام ربه .

فى فوائد البنوك

الفوائد على السلف والقروض ربا كما قلنا فى الإجابة على السؤال السابق ، سواء كانت هذه الفوائد يأخذها البنك من العملاء على السلف أو يأخذها العملاء على أموالهم المودعة فى البنوك .

أما المرتبات التى يتقاضاها الموظفون بالبنوك فهى حلال لأنها أجر على الأعمال التى يقومون بها ، فالمال الذى يأخذه الموظف نظير عمله بالبنك مال حلال فإن كان للموظف سهم فى فوائد السلف والقروض كان هذا المال المأخوذ من هذه الفوائد المحرمة ، أو يتصدق به على الفقراء لأنه مال حرام ، والمال الحرام سبيله الصدقة .

فى أسرار العبادات فى الإسلام

إن الفقه الإسلامى هو مواد السلوك للمسلم ، إنه يتناول حياته فى الصغير منها والكبير ، وينظم سلوكه الأخلاقى بأوسع ما تتضمنه كلمة : أخلاق منذ أن يصبح إلى أن يمسى ، ومنذ ميلاده إلى أن تنتهى به الحياة ثم ينظم شئون ميراثه إن كان له ميراث -- بعد حياته .

إنه ينظم سلوكه مع نفسه ويشرح له من ذلك ما خفى وما ظهر .

وينظم سلوكه مع الله فيبين له ما ينبغى أن يتحلى به حتى يصير ربانيًّا وينظم سلوكه مع إخوانه فى المجتمع سلباً وإيجاباً ، قولا وفعلا .

إنه القانون الذى يبين أنواع السلوك من حيث كونه جائزاً أو واجباً أو مستحبًّا ومن حيث كونه حراماً أو مكروهاً وذلك فى ميادين الحياة .

لقد تتبع الأحاديث النبوية تتبعًا دقيقاً ونسقها ، فأصبح بذلك صورة واضحة لحياة المسلم وتغلغل بذلك فى جميع الميادين ، حتى تلك ما كان الإنسان يظن أنه ينتبه إليها ، أو يتجه نحوها .

خذ مثلا مسألة الروائح الزكية أو العطرة ، نجده يذكر عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من عرض عليه طيب فلا يرده فإنه خفيف المحمل طيب الرائحة » .

وعن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال فى المسك « هو أطيب طيبكم » .

ويذكر فى الفرق بين التزين والكبر :

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمص الناس » .

ومن هذا الوادى – وادى التزين والروائح الطيبة – عن جابر أن النبى ﷺ قال : « من أكل الثوم والبصل والكراث ، فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » – متفق عليه .

ويتحدث الفقه عن الذهب والحرير والأقمشة المحلاة بالتصاليب فيذكر : عن أبى موسى ، أن النبى ﷺ قال « أُحِلَّ الذهب والحرير للإناث من أمتى ، وحرم على ذكورها » (رواه أحمد) والنسائى والترمذى وعن حذيفة قال : « نهانا النبى ﷺ أن نشرب فى آنية من الذهب والفضة ، وأن نأكل فيها ، وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليه » – رواه البخارى .

وعن أنس : « أن النبى ﷺ ، رخص لعبد الرحمن بن عوف ، والزبير فى لبس الحرير ، لحكة كانت بهما » .

وعن عائشة أن النبى : ﷺ ، لم يكن يترك فى بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه رواه البخارى .

وأبو دواد وأحمد ولفظه : « لم يكن يدع فى بيته ثوباً فيه تصليب إلا نقضه » .

ويتحدث الفقه عن نواحى التحفظ الصحى فيذكر : عن جابر عن النبى ﷺ : « أنه نهى

أن يبال فى الماء الراكد » رواه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه » .

وعن جابر بن عبد الله فى حديث له أن النبى ﷺ قال : « أوك سقاءك واذكر اسم الله وخمر إناءك واذكر اسم الله ، ولو أن تعرض عليه عوداً » متفق عليه ، ولمسلم ، أن رسول الله ﷺ قال ، غطوا الإناء وأوكوا السقاء فإن فى السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس فيه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلاَّ نزل فيه من ذلك الوباء .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « اتقوا اللاعنين ، قالوا : وما اللاعنان يا رسول الله . قال : الذى يتخلى فى طريق الناس أو فى ظلهم » أى الذى يقضى حاجته فى الطريق الذى يسير فيه الناس أو تحت الأشجار التى يستظلون بها » . رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

أما عن التبرج والتخنث فإنه يشرح :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد : نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، على رءوسهن أمثال أسمنة البخت المائلة لا يرين الجنة ولا يجدن ريحها ، ورجال معهم سياط كأذناب البقر ، يضربون بها الناس » رواه مسلم وأحمد .

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ : « لعن الرجل يلبس لبس المرأة والمرأة تلبس لبس الرجل » رواه أحمد وأبو داود .

والحديث عن التبرج والتخنث يجر إلى الحديث عن كشف العورة : عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده قال : قلت يا رسول الله ، عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ، قال : احفظ عورتك إلاَّ من زوجتك ، أو ما ملكت يمينك ، قلت : فإذا كان القوم بعضهم فى بعض قال : إن استطعت ألايراها أحد فلا يرينها ، قلت إذا كان أحدنا خالياً ، قال : فالله تبارك وتعالى أحق أن يستحيا منه .

وعن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تبرز فخذك ولا تنظر إلى فخذ حى ولا ميت » رواه أبو داود وابن ماجه .

وعن محمد بن جحش قال : مر رسول الله ﷺ على معمر وفخذاه مكشوفتان فقال « يا معمر : غط فخذيك فإن الفخذين عورة » رواه أحمد والبخارى فى تاريخه .

وعن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « الفخذ عورة » رواه الترمذى وأحمد ولفظه : « مر رسول الله ﷺ ، على رجل وفخذه خارجة ، فقال غط فخذيك فإن فخذ الرجل من عورته » .

وعن يعلى بن أمية : أن رسول الله ﷺ ، رأى رجلا يغتسل فى فضاء مكشوف ، فصعد المنبر فحمدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال : « إن الله عز وجل حيى ستير يحب الحياء والستر ، فإذا اغتسل

أحدكم فليستتر» – رواه أبو داود والنسائى .

ويأخذ الجانب الأخلاقى شأناً كبيراً فى الفقه نذكر منه على سبيل المثال :

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن النبى ﷺ مرَّ بقبرين فقال إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » رواه أصحاب الصحاح ، وفى رواية للبخارى والنسائى ، وما يعذبان فى كبير » ثم قال : « بلى كان أحدهما . . » وذكر الحديث .

ويصل الأمر إلى تنظيم كيفية الأكل والشرب ، وما يقوله الإنسان عند خروجه من البيت وعند دخوله وعند ركوبه وعند نزوله وفى الملابس مثلا :

عن أبى هريرة قال : «كان رسول الله ﷺ ، إذا لبس قميصاً بدأ بميامنه .

وعن أبى سعد ، قال كان رسول الله ﷺ ، إذا استجد ثوباً سماه باسمه ، عمامة أو قميصاً أو رداء ، ثم يقول : « اللهم لك الحمد ، أنت كسوتنيه أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » رواهما الترمذى .

وما كان الفقه فى يوم من الأيام خاصًّا بجانب من الحياه الاجتماعية دون جانب .

لقد كان يتضمن الأخلاق ويتضمن التشريع كان يشتمل على العبادات والمعاملات : بيعاً وشراءً وجهاداً وقتالاً وسلاماً ، نكاحاً وميراثاً ، لقد كان الفقه يشرع للإنسان فى جميع أقطاره وزواياه .

وكانت الطريقة المثلى للتأليف فى الفقه هى الطريقة التى اتبعها السلف الصالح رضى الله عنهم . لقد اعتقدوا اعتقاداً موفقاً ، هو أن مهمتهم إنما هى : جمع الأحاديث فى كل مجال وتنسيقها وتبويبها وتقسيمها إلى فصول وإلى فقرات تنتظم جميعها تحت وحدة متحدة هى الحياة الإسلامية .

والحياة الإسلامية لا تنقسم إلى ميادين لتفصل وتعدد ، إنها وحدة متماسكة ومن هنا كانت هذه الكتب الأولى فى « الحياة الإسلامية » تبدأ بالحديث عن الوحى وعن الإيمان وعن العلم . وإذا تصفحت كتاباً مثل الموطأ للإمام مالك ، رضى الله عنه – وهو كتاب فقه – برغم كل ما يمكن أن يقال ، بل هو فى نظرنا كتاب الفقه المثالى : فإنك تجد فيه فصلا عن حسن الخلق وفصلا يطول عن صفة الرسول ﷺ ، للتأسى به ، ومتابعته فى أخلاقه وسلوكه ، وفصلا عن الرؤيا ، وتجد فصلا عن العلم ، وفصلا عن أسمائه ﷺ .

كان الفقه الإسلامى صورة كاملة لحياة المسلم على صورتها الصحيحة ، وفى ترابطها الذى لا انفصام له ولا انفكاك .

لقد كان شرحاً للإسلام وتفصيلا للإيمان ، والإسلام هو تصوير للحياة التى أحبها الله لمن كانوا خير أمة أخرجت للناس ، والإيمان الإسلامى تعبير عن الحياة الإسلامية الخالصة المخلصة .

والإيمان فى وحدته التامة شعَبٌ كثيرة .

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان » .

وحينما بين سادتنا العلماء المحققون ، الذين أخلصوا لله ورسوله ، تلك الشعب عن طريق الأحاديث الشريفة التى وضحت الإيمان ، وعن طريق الآيات القرآنية الكريمة ، التى تحدثت عن الإيمان قسموا تلك الشعب إلى ما يختص منها بالقلب وما يختص باللسان وما يختص بالبدن أى أن الإيمان يغمر الكيان الإنسانى كله اعتقاداً وقولا ، وفعلا .

ومن الأحاديث الشريفة نتبين أن الحب فى الله ، والبغض فى الله من الإيمان وأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن الذى يؤذى جاره ليس بمؤمن من شبع وجاره جائع . وأن الجهاد من الإيمان ،يقول صلوات الله عليه وسلامه : « انتدب الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا إيمان بى ، وتصديق برسلى ، أن أرجعه بما نال من أجر وغنيمة ، أو أدخله الجنة ، ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ، ولو ددت أن أُقتل فى سبيل الله ثم أحيا ، ثم أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل » .

ومنها نتبين أيضاً أن : قيام ليلة القدر من الإيمان ، والإنصاف من النفس من الإيمان ، وبذل السلام للعالم من الإيمان . والإنفاق – من الاقتدار – من الإيمان ، وتطوع قيام رمضان من الإيمان ، والصلاة من الإيمان ، بل لقد عبر الله تعالى ، عنها بالإيمان فى قوله تعالى :

(وما كان الله ليضيع إيمانكم) ويتغلغل الإيمان فى الحياة الاجتماعية حتى يصل إلى السهل من أمرها والميسور فتكون إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان ، ويكون إفشاء السلام – تعارفاً وتودداً : من الإيمان .

وإذا ما تغلغل الإيمان فى النفس وجد المؤمن حلاوة الإيمان وهو لا ينعم بحلاوة الإيمان إلا أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلاّ لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار .

لقد كان الفقه بياناً للحياة الإسلامية حسبما رسمها الرسول ﷺ وكان يلبى حاجات المجتمعات

فيما يتعلق بالأحكام الاسلامية كلما أحدثت المجتمعات جديداً من الأمر أو ابتدعت شأناً من الشئون .

لقد كان الصحابة يلجئون إلى الآيات الكريمة يستلهمونها الصواب ، وإلى الأحاديث النبوية يستمدون منها الرشد .

ما كان الفقه فى يوم من الأيام وما كانت هذه المواد التى تنظم الحياة آراء بشرية إنها ليست نتيجة منطق بشرى أو تفكير إنسانى يصدر عن الذات الإنسانية ، فيختلف فيه الناس من فرد إلى فرد ومن بيئة إلى بيئة ومن زمن إلى آخر كما يختلفون بحسب ذلك ، فى كل ما هو نتاج بشرى .

كلا : إن الفقه الإسلامى إنما هو ميراث النبوة إنه شرح للوحى ، أو بتعبير أدق إنه ترجمة للوحى واستنتاج من قواعده العامة واتباع سلوك الرسول ﷺ باعتباره المسلم الأول ، (أنا أول المسلمين) .

أو باعتباره المطبق الدقيق لما أوحاه تعالى على قلبه رسالة إلى الإنسانية لهدايتها إلى الصراط المستقيم .

إن الفقه الإسلامى : اتباع وليس ابتداعاً وأنه محاولة جاهدة لكشف الآثار النبوية والتزامها وليس اختراعاً يؤلفه بشر .

ولقد كان أئمتنا ، رضى الله عنهم ينبهون بأقوالهم ونزعاتهم وسلوكهم إلى هذا الأمر البدهى عند ذوى الشعور الدينى .

لقد كان شعار أئمتنا جميعاً رضى الله عنهم « إذا صح الحديث فهو مذهبى » .

إنما أنا متبع لا مبتدع ، كل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلاّ صاحب هذه الروضة الشريفة وصاحب هذه الروضة الشريفة هو وحده الإمام وكان الإمام لأنه الكائن الوحيد الذى اجتباه الله رسولا خاتماً للرسل ونبيًّا خاتماً للأنبياء .

وكل ما أتى به قرآناً كان ، أو حديثاً قدسيًّا أو حديثاً نبويًّا شريفاً إنما هو مقدس ، لأنه ما ينطق عن الهوى ، ولأنه يدعو إلى الله على بصيرة ، ولأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن اتبعه فقد أحبه الله .

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) كان سلفنا الصالح ينزعون هذه النزعة . نزعة الخضوع المطلق لما جاء به رسول الله ﷺ لقد كانوا ، يسجدون للنص ، يسجدون له بجوارحهم وقلوبهم وأرواحهم ، وعقولهم ، لقد كانوا يخضعون عقولهم للنص ويجعلونه القائد الحكم المهيمن .

وكانوا يعرفون أن إدخال شخصيتهم فى النص ، إنما هو انحراف يعظم أو يقل بحسب مدى التدخل البشرى فى النص ، وكانوا يعرفون أن الوحى جاء هادياً للعقل ، قائداً له فى الأمور التى لا يتأتى للعقل أن يلج ميادينها أو يقتحم حماها ، أو يدلى فيها برأى يتفق عليه الناس .

وهذه الميادين هى الدين وما دام الدين ليس رأياً بشريًّا لأنه تنزيل من حكيم حميد فإن كل موقف من الشخصية البشرية تجاه النص الإلٰهى إنما هو موقف لتبديل الدين من أن يكون إلٰهيًّا إلى أن يكون بشريًّا .

ولو كان يستقيم الأمر على ذلك – أى على التبديل لما كان هناك من حاجة إلى الدين . يروى أبو داود والدارقطنى عن سيدنا على رضى الله عنه قال : لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، لقد رأيت رسول الله ﷺ ، يمسح على ظاهر خفيه .

إن الدين ليس رأياً وليس بالرأى ، وانظر إلى الحديث التالى : إنه معبر أقوى ما يكون التعبير ، ودقيق فى مغزاه دقة بالغة .

عن البراء بن عازب ، رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « إذا أتيت مضجعك ، فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى نزلت ، ونبيك الذى أرسلت فإن مت فى ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به » .

يقول البراء بن عازب : فرددتها على النبى ﷺ « أى أخذت فى إعادتها عليه ﷺ فلما بلغت : آمنت بكتابك الذى أنزلت قلت : ورسولك ، قال : لا ونبيك الذى أرسلت » رواه الستة .

وزاد البخارى والترمذى : « فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة وإن أصبحت أصبحت خيراً » .

إن الصحابى الجليل البراء بن عازب رضى الله عنه أبدل كلمة بكلمة نسياناً منه لقد قال : رسولك « بدل أن يقول « نبيك » وكلمة رسول « تتضمن معنى النبوة فهى إذن فيها المعنى وزيادة وبحسب منطقنا ، وبحسب عقلنا تكون صالحة . . ولكنها فى منطق الحق لم تكن صالحة .

إننا لا نرى بعقلنا ومنطقنا إلاَّ الشكل والظاهر أما بواطن الأمور وأسرار الكلمات وحكمة الأوضاع المحددة واكتناه خفايا التقديرات الإلٰهية – كل ذلك إذا لم يكشف الله عنه أو عن بعضه – فإننا لا نصل إليه بمنطق البشر .

إنا كل شىء خلقناه بقدر ، بمقدار محدد وتقدير معين . واكتناه سر هذا القدر أو هذا التقدير ، اكتناهاً تامًّا لا يصل إليه الإنسان ، بل لا تصل إليه الملائكة .

(وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم) .

إن العلم الصحيح الصادق فى عالم الهداية الإلهية والتربية الربانية إنما هو من الله سبحانه وكل ابتعاد عنه ، أو خروج عليه ، أو تغيير فيه إنما هو ضلال .

وما من شك فى أن الإنسان منذ أن وجد على ظهر الأرض يحاول أن ينزع نزعة بشرية بحتة ، ويتصرف فى الوحى الإلهى نقصاً وزيادة وبترًا وإضافة وتغييراً وتبديلا يحاول أن يقيم كل ذلك على قواعد يزعمها صحيحة .

فيقول مثلا : إن الحكمة فى تحريم شرب الخمر إنما هى المفاسد التى تنشأ من الشخص الشارب فإذا ما انتفت تلك المفاسد ، فلا مانع من شرب الخمر ويقول إن التكاليف الدينية إنما جاءت لإصلاح الضمير ، فإذا كان الضمير صالحاً فلا لزوم للتكاليف الدينية ويقول إن أعمال العبادة إنما هدفها التقرب إلى الله فإذا حصل القرب فلا حاجة إليها ، وهكذا يخرج الإنسان بأهوائه – ولا نقول بعقله – لأن كل ذلك أهواء يصورها الشيطان كأنها منطق معقول – عن الدين – كما خرج إبليس قديماً بأهوائه التى تمثلت لذهنه منطقاً عن الدين .

والإمام الغزالى رضى الله عنه : يمثل لنا ذلك بمثال معبر ، فيذكر قصة رجل بنى له أبوه قصراً على رأس جبل ، ووضع فيه شجراً من حشيش طيب الرائحة ، وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ألاّ يخلى هذا القصر من هذا الحشيش طول عمره ، وقال : « إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه ، فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين ، وطلب من البر والبحر أو تاداً من العود والعنبر والمسك ، وجمع فى قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح .

« فقال لا شك أن والدى ما أوصانى بحفظ هذا الحشيش إلاّ لطيب رائحته ، والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته ، فلا فائدة فيه الآن إلاّ أن يضيق على المكان ، فرماه من القصر .

« فلما خلا القصر من الحشيش ظهر من بعض ثقوب القصر حية هائلة وضربته ضربة أشرف بها على الهلاك ، فتنبه حيث لم ينفعه التنبه أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ، وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان :

أحدهما : انتفاع الولد برائحته وذلك قد أدركه الولد بعقله .

والثانى : اندفاع الحيات المهلكات برائحته ، وذلك مما قصرت عن إدراكه بصيرة الولد ، فاغتر الولد بما عنده من العلم ، وظن أنه لاسر وراء معلومه ، ومعقوله كما قال تعالى : (ذلك مبلغهم من العلم) ، وقال : (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) .

والمغرور من اغتر بعقله ، فظن أن ما هو منتف عن عمله فهو منتف فى نفسه »

وما من شك كما يروى كتاب : إحصاء العلوم – فى أن آراء الملل وكل ما فيها من الأوضاع ليس سبيلها أن يمتحن بالآراء والروية والعقول الإنسية ، لأنها أرفع رتبة منها ؛ إذ كانت مأخوذة من وحى إلٰهى لأن فيها أسراراً إلٰهية تضعف عن إدراكها العقول الإنسية ولا تبلغها ، وأيضاً : فإن الإنسان سبيله ، أن تفيده الملل بالوحى ممّا لا يدركه بعقله ، وما يخور عقله عنه ، وإلا فلا معنى للوحى ولا فائدة إذا كان إنما يفيد الإنسان ما يعلمه وما يمكن – إذا تأمله – أن يدركه بعقله . ولو كان كذلك لوكل الناس إلى عقولهم ، ولما كانت بهم حاجة إلى نبوة ولا إلى وحى لكن لم يفعل بهم ذلك فلذلك ينبغى أن يكون ما تفيده الملل من العلوم ما ليس فى طاقة عقولنا أن يكون ما تفيده عقولنا إدراكه ثم ليس هذا فقط ، بل ما تستنكره عقولنا أيضاً . .

وذلك أن التى يأتى بها الملك – مما تستنكره العقول وتستبشعه الأوهام – ليست هى بالحقيقة منكرة ولا محالة بل هى صحيحة فى العقول الإلٰهية .

فإن الإنسان وإن بلغ نهاية الكمال فى الإنسانية : فإن منزلته – عند ذوى العقول الإلٰهية ، منزلة الصبى والحدث والغمر عند الإنسان الكامل .

وكما أن كثيراً من الصبيان والأغمار . يستنكرون بعقولهم أشياء كثيرةً مما ليست فى الحقيقة منكرة ولا غير ممكنة ، ويقع لهؤلاء أنها غير ممكنة ، فكذلك منزلة من هو فى نهاية كمال العقل الإنسى عند العقول الإلٰهية .

وكما أن الإنسان من قبل أن يتأدب ويتحنك يستنكر أشياء كثيرة ويستبشعها ويخيل إليه فيها ، أنها محالة ، فإذا تأدب بالعلوم واحتنك بالتجارب ، زالت عنه تلك الظنون فيها وانقلبت الأشياء التى كانت عنده محالة ، فصارت هى الواجبة ، وصار ما كان يتعجب منه قديماً فى حد ما يتعجب من ضده .

كذلك الإنسان الكامل الإنسانية ، لا يمتنع من أن يستنكر أشياء ، ويخيل إليه أنها غير ممكنة ، من غير أن تكون فى المحافظة كذلك .

ويشرح الشيخ الجليل أبو سليمان المنطق ، كل ذلك فى دقة دقيقة ، وفى أسلوب جميل ،

فيقول : إن الشريعة مأخوذة عن الله عز وجل ، بوساطة السفير بينه وبين الخلق عن طريق الوحى ، وباب المناجاة وشهادة الآيات وظهور المعجزات ، وفى أثنائها ، مالاسبيل إلى البحث عنه ، والغوص فيه ، ولابد من التسليم المدعو إليه والمنبه عليه ، وهناك يسقط « لم » ويبطل « كيف » ويزول « هلا ؟ » وتذهب « لو » وليت فى الريح ، ولوكان العقل يكتفى به ، لم يكن للوحى فائدة ولاغناء على أن منازل الناس ، متفاوتة فى العقل ، وأنصباءهم مختلفة فيه ، فلوكنا نستغنى عن الوحى بالعقل ، كيف كنا نصنع ، وليس العقل بأسره لواحد منا ؟ فإنما هو لجميع الناس .

ولو استقل إنسان واحد بعقله فى جميع حالاته ، فى دينه ودنياه ، لاستقل أيضًا بقوته فى جميع حاجاته فى دينه ودنياه ، ولكان وحده يفى جميع الصناعات والمعارف ، وكان لايحتاج إلى أحد من نوعه وجنسه ، وهذا قول مرذول ورأى مخذول) اهـ .

يقول هذا الشيخ الجليل : إن منازل الناس متفاوتة فى العقل ، وأنصباءهم مختلفة فيه ، ومعنى ذلك أن هذا الذى يروق لشخص عقليًا ، ربما لايروق لغيره عقليًا ، ويجب من أجل ذلك ألاّ يتدخل العقل فى الدين وإلا لاختلف الناس فيه اختلاف عقولهم ، وادعى كل : أن ماعليه إنما هو الحق وماعليه غيره هو الباطل ونتج عن ذلك اتباع كل أهواءه (أرأيت من اتخذ إلٰهه هواه) فتتفرق الأمة وتخرج على ماأحبه الله وأمر به . (واعتصموا بحبل الله جميعًا ولاتفرقوا) .

وإذا تساءلت الآن : ماهو إذن موقف العقل من الدين ، وموقف الدين من العقل فإننا نجمل الموضوع فى النقط الآتية .

أنزل الدين هاديًا للعقل فى جميع الأمور التى لو ترك العقل وشأنه فيها ضل السبيل ، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة وهذه الأمور هى :

(ا) العقائد فى فيما وراء الطبيعة .

(ب) المبادئ الأخلاقية إجمالا وتفصيلا .

(جـ) التشريع فى قواعده العامة وفى بعض تفصيلاته وقواعده العامة تتضمن الجزئيات على مر الزمن وعلى اختلاف البيئات .

أما الطبيعة والكون . من سمائه ، وأرضه ، ومن جباله ، وبحاره ، ومن كواكبه ، وأقماره وشموسه . . .

أما المادة والطاقة ، أما أعماق البحار وآفاق السماء ، فإن كل ذلك قد تركه للإنسان يدرسه فى مصنعه ومعمله بآلاته وأدواته ، وحثه على أن يجول فى ذلك مااستطاع إليه سبيلا – حتى يكتشف

سنن الله الكونية ونواميسه الطبيعية ، ويرى صنع الله الذى أتقن كل شىء ، ولم يحجر الدين على الإنسان فى هذا المجال ، اللهم إلا الواجب الذى ينبغى أن يكون شعاره دائمًا . وهو أن يكون هدفه من كل ذلك الخير .

ونزل الدين ليقود الإنسان نحو الكمال الروحى ، والإنسان إنسان بالجانب الروحى منه ، وكلما سما الإنسان روحيًا كان أسمى فى معنى الإنسانية .

والمعنى الروحى ووسيلة المعنى الروحى ، لاسبيل إلى تحديدهما من الإنسان نفسه وإنما تحديدهما مرده إلى الله سبحانه ، والقرب من الله ، أو بتعبير أدق ، تقريب الله للإنسان ، إنما مرجعه – هدفًا ووسيلة – هو الله نفسه ، وكل من حاول أن يتخذ طريقًا آخر فإنما يجرى وراء سراب ، والغاية والوسيلة حددهما فى كتابه الكريم . إنه حددهما بالأسلوب الإلٰهى نفسه ، أى أن التعبير عنهما – التعبير نفسه إنما كان من الله ، سبحانه ، ومن فضل الله على المسلمين ، وعلى اللغة العربية ، أن كانت وسيلة فهم الإسلام ، كما أنها التعبير الإلٰهى ، التعبير الإلٰهى بما فيه من دقة كاملة وجمال معجز ، وكمال غير منقوص ومادام الأمر كذلك فليس للعقل إلا التسليم والخشوع والخضوع ، أو بتعبير أدق السجود . وهو ليس سجودًا تسفيًا أو تحكميًا ، وإنما هو سجود مصدره الإيمان اليقينى بأن هذا من عند الله ، ومادام من عند الله ، فإنه لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد ، ولأنه أحكمت آياته ، ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير . من ذلك نتبين أن الدين هاد للعقل ، وأن العقل يجب أن يخضع ويسجد للوحى الالٰهى . بيد أن ذلك يسلمنا إلى سؤال آخر أو مشكلة أخرى هى أن القرآن يطالب دائمًا بالتفكير والتدبر . (فاعتبروا يا أولى الأبصار) .

(إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) . وينعى على المشركين التقليد ، ويتهكم بهم فى اتباعهم آباءهم فيتساءل (أَوَلَوْ كان آباؤهم لايعقلون شيئًا ولا يهتدون) وكثيرًا مانجد الآيات تختم بـ (أفلا تعقلون) (أفلا تفكرون) (أفلا تبصرون) .

وكل ذلك يدل على أن القرآن يدفع الناس إلى استعمال العقل والواقع الذى لاشك فيه هو أن القرآن الكريم لا يستشير الملائكة ولا بنى الإنسان فى أية قضية من القضايا التى جاء بها الوحى ، ولا يحتكم إلى الإنسان باعتباره حكمًا فى أى مبدأ من مبادئه ، ولايطلب منه مشورة فى أية قاعدة من القواعد التى شرعها الله ، بل هذه الأوهام تدور بخلد المتدينين فقط ، ذلك أن الوحى نزل على أنه رسالة السماء النهائية إلى العالم ، ونزل يبلغ أن هذه الرسالة صدق كلها ، ليس فيها جملة زائفة ولاكلمة ليست فى غير موضعها ، ولا حرف كان يحسن ألا يوجد ، كلا ، إنها الحق الخالص ،

ومن اتبعها فقد اهتدى ، ومن حاد عنها انحرف ، ومن ابتغى الهدى فى غيرها أضله الله ومن تركها من جبار قصمه الله ، لأنها صراط الله المستقيم ونوره اللألاء وكل ماذكره تعالى من التفكر والنظر والتدبر ، إنما أراد به الاعتبار ، وأراد أن يقول : تفكروا لتروا أن ذلك هو الحق ، انظروا لتعلموا أن ذلك هو الخير ، أما إذا رأيتم غير ذلك فإنما العيب فى بصركم ، أو فى بصيرتكم ، أو فيهما معًا ، إذا رأيتم غير ذلك فاعلموا أن فطرتكم فسدت ، وأن قلوبكم ران عليها الإثم فضلت ، وأن عقولكم قد صدأت فأصبحت لاترى الحق حقًّا ولا الخير خيرًا ، وأصبحت من الضلال بحيث ترى الخير شرًّا والشر خيرًا ، وأصبح أصحابها كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، كل ذلك لانحرافكم عن الصراط المستقيم صراط الله . إن الله ، فى عظمته وجلاله ، سبحانه ، لايلقى برسالته ليبحثها الإنسان ويبدى فيها رأيه ، نفيًا وإثباتًا ، سلبًا وإيجابيًا ، كلا ، بل كل من توهم ذلك فإنه لايقدر الله حق قدره ، وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ، وإنما ألقاها سبحانه لتُتَّبع ، ولتتبع فى خضوع وسجود ، ولتتبع دون حرج يحيك فى الصدر ، أو شك يجول فى النفس (فلا وربك لايؤمنون حتى يُحكِّموك فيما شَجَر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا) .

وكل من وجد فى نفسه حرجًا من قضايا الدين ، وكل من لم يسلم تسليمًا كاملا مطلقًا تامًّا ، كل من كان كذلك فإنه يحسن به أن يرجع إلى إيمانه ليصححه ، وليتوب إلى الله توبة نصوحًا ، وباب الله مفتوح للتائبين آناء الليل وأطراف النهار ، وفى كل نَفَس ، وفى كل لحظة ، يقول أبو عمر ومحمد بن إبراهيم الزجاجى النيسابورى . كان الناس فى الجاهلية يتبعون ماتستحسنه عقولهم وطبائعهم ، فجاء النبى ﷺ فردهم إلى الشريعة والاتباع فالعقل الصحيح هو الذى يستحسن محاسن الشريعة ويستقبح ماتستقبحه .

ومسألة أخرى هى مسألة تعليل الأحكام ، وأن الحكم يدور مع العلة وجودًا وعدمًا وهى مسألة ترتبط بما قدمنا ارتباطًا وثيقًا ، ذلك أن التعليل ذو صلة وثيقة – عادة – بالمنهج فى فهم الدين ، وهذه المسألة لابد فيها من التفصيل .

أولا : إذا كان الشارع سبحانه ، قد حدد العلة وحصرها ، فإن لنا أن نقول : إنها الحكمة من القاعدة التى شرعت ، ومادام الشارع هو الذى حددها فإن الحكم يدور معها وجودًا وعدمًا .

ثانيًا : إذا كان الشارع قد ذكر علّة دون أن يذكر حصرًا ، فإنه ليس لنا أن نقوم نحن بالتحديد والحصر ، وإنما موقف المسلم هو أن يؤمن بالحكمة التى ذكرها الشارع من إيمانه بأنه يجوز أن تكون هناك حكمة أخرى .

ثالثًا : إذا لم يذكر الشارع حكمة للحكم ، فإن لنا أن نلتمس – إذا شئنا – حكمة ، ولكن

يجب علينا ألاّ نزعم أنها الحكمة الحقيقية التى أرادها الشارع ، ويجب علينا ألاّ نزعم أنها الحكمة الوحيدة .

وكل ذلك أن العقل البشرى لايحيط بالأسرار الإلٰهية ، وأن حكمة الشارع فى أحكامه أسمى من أن يحيط بها البشر إحاطة تامة .

وَسُئِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الغُسْل

فى صحة الغسل دون النية

يقول رسول الله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

يدلنا هذا الحديث الشريف على أن صحة الأعمال الصالحة إنما هى بالنية الخالصة لله ورسوله .

والواقع أنه ليس الأمر أمر النية فحسب ، وإنما الأمر أيضاً خلوص النية فى أعمال الخير كلها ، ومعنى خلوص النية أن يريد الإنسان بالعمل الصالح وجه الله وحده .

وعن الضحاك بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى يقول أنا خير شريك ، فمن أشرك معى شريكاً فهو لشريكى » ثم يقول رسول الله ﷺ : « يأيها الناس أخلصوا أعمالكم ، فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ، ولا تقولوا : هذه لله وللرحم ، فإنها للرحم وليس لله منها شىء ، ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم فإنها لوجهكم وليس لله منها شىء» ويقول الله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا) .

والغسل بغير نية لا يصح ولكن مما يجب التنبه له أن النية محلها القلب ، وأنه لا ضرورة مطلقاً للنطق بها باللسان . إنها القصد القلبى للشىء فإذا قصد الإنسان بقلبه ولم ينطق بلسانه كان ذلك كافياً .

يقول الإمام ابن القيم عن النية : النية هى القصد والعزم على الشىء ومحلها القلب ، لا تعلق لها باللسان أصلا ، ولذلك لم ينقل عن النبى ﷺ ولا عن الصحابة فى النية لفظ بحال ، وهذه العبارات التى أحدثت عند افتتاح الطهارة والصلاة جعلها الشيطان معتركاً لأهل الوسواس يحبسهم عندها ويعذبهم فيها ، ويوقعهم فى طلب تصحيحها ، فترى أحدهم يكررها ويجهد نفسه فى التلفظ وليست من الصلاة فى شىء .

فى غسل رسول الله ﷺ

روى البخارى بسنده عن أنس بن مالك قال :

« كان النبى ﷺ يدور على نسائه فى الساعة الواحدة من الليل والنهار » . وروى مسلم فى صحيحه عن أنس أن النبى ﷺ كان يطوف على نسائه بغسل واحد .

وفى رواية لمسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذ أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعود فليتوضأ » .

وهذه الأحاديث ظاهرة فى أنه يجوز للجُنب أن يجامع قبل الاغتسال ، وأنه يستحب له أن يتوضأ .

وقد ثبت هذا بقول النبى ﷺ وفعله .

وثبت فى بعض روايات أبى داود أن النبى ﷺ طاف على نسائه ذات ليلة يغتسل عند هذه وعند هذه ، فقيل : يا رسول الله – ألا تجعله غسلا واحداً ؟ . فقال : هذا أزكى وأطيب وأطهر .

وحمل العلماء ذلك على الندب .

وعلى ذلك فيكفى الغسل مرة واحدة من هذه المباشرة ، أما كيفية الاغتسال ، فيبينها ما رواه مسلم فى صحيحه بسنده عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا اغتسل من الجنابة يبدأ فيغسل يديه ، ثم يفرغ بيمينه على شماله ، فيغسل فرجه ، ثم يتوضأ وضوء الصلاة . . ثم يأخذ الماء فيخلل أصابعه فى أصول الشعر حتى إذا رأى أن قد استبرأ حفن على رأسه ثلاث حفنات ثم أفاض على سائر جسده ثم غسل رجليه .

قال العلماء : والمستحب أن يبدأ بناحية اليمين قبل الشمال ، وبأعلى بدنه قبل أسفله ، وأن يقول بعد الفراغ من الغسل وترك مكان الاستحمام ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً رسول الله .

ولابد من أن ينوى بالغسل التطهر من الجنابة .

فى المبيت على طهارة

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال :

« من بات طاهراً بات فى شعاره ملك فلا يستيقظ من ليل إلا قال الملك : اللهم اغفر لعبدك كما بات طاهراً »(١٥١)

والشعار : الثوب على الجسد . . ومعنى الحديث ، أن من بات على طهارة لاَزَمهُ فى نومه ملك يحرسه ويقوم على رعايته ، ويستغفر له كلما تنبه من نومه ، تحقيقاً لبركة الطهارة وتكريماً للمتطهرين .

وقد ندب سبحانه وتعالى المؤمنين إلى الطهارة وحثهم عليها وجعلها شرطاً للصلاة ولا تصح إلا بها ولا تتم بدونها . يقول تعالى :

(يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين . . وإن كنتم جُنباً فاطَّهَّروا ، وإن كنتم مَرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتمَّ نعمته عليكم لعلكم تشكرون) .

وفى حديث جامع يرويه الإمام مسلم بسنده ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان » . أى تنظيف الأعضاء الحسية بالماء ، وتنظيف السلوك والأفعال الخارجية للإنسان بما يتفق مع الدين نصف الإيمان » .

أما النصف الآخر فهو : النوايا الطيبة والمشاعر الكريمة والطهارة الداخلية التى هى أساس السلوك .

وعن عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يبيت على طهر ثم يتعارَّ من الليل فيذكر الله ويسأل الله خيراً من خير الدنيا والآخرة إلا آتاه الله إيَّاه »(١٥٢) .

وهذه الطهارة : إما طهارة من الجنابة بالاغتسال ، أو طهارة من الحدث الأصغر– ما ينتقض الوضوء – بالوضوء .

ولكن البرد قد يكون شديداً ، وقد يتكاسل الإنسان عن الطهارة فماذا يكون الجزاء ؟ لقد

(١٥١) رواه البزار والطبرانى فى الكبير .
(١٥٢) أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط وإسناده حسن مجمع الزوائد ج ١ ص ٢٢٣ .

وردت عدة أحاديث تحذر من البقاء على الجنابة بلا اغتسال أو التباطؤ فى تحقيق الطهارة.

فعن عمار بن ياسر رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « إن الملائكة لا تحضر جنازة الكافر بخير – أى منكر الجميل – ولا المتضمخ – أى – المتلطخ بزعفران ولا الجنب » .

وروى البزار بسند صحيح عن ابن عباس قال :

« ثلاثة لا تقربهم الملائكة : الجنب ، والسكران ، والمتضمخ بالخلون » أى ما فيه صفرة من الطيب وهو مثل الزعفران » .

والسبب فى ذلك : أن الجنابة تمنع من الصلاة كما ذكرنا ، وتمنع من قراءة القرآن وتمنع من إقبال الملائكة حيث تجذبهم الطهارة والروائح الطيبة وتبعدهم النجاسات والأقذار.

ولكن الدين يسر وما جعل الله على الناس فيه من حرج . . . وربما لا يتيسر الغسل بالليل لتعب أو برد أو نحو ذلك ، فما هو موقف الدين حينئذ ؟

لقد خفف الله عنا . وأباح لنا النوم على وضوء بدلا من الغسل .

وعن شداد بن أوس الصحابى رضى الله عنه قال :

إذا أجنب أحدكم من الليل ثم أراد أن ينام فليتوضأ فإنه نصف غسل الجنابة ولكن لابدّ للإنسان من التطهر قبل شروق الشمس وذلك من أجل صلاة الصبح .

ونخلص من ذلك إلى أن غسل الجنابة مطلوب . . ويتأكد طلبه عند حلول وقت الصلاة ويستحب عند النوم . جلباً للملائكة وطرداً لكل المؤذيات والمسلم . إذا صار جنبًا لا يصير بذلك نجسا .

لقد قطع الرسول ﷺ هذا الوهم – فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ لقيه فى بعض طرق المدينة فانخنس – أى تهرب منه فذهب فاغتسل ثم جاء فقال :

أين كنت يا أبا هريرة ؟ قال :

كنت جُنباً فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة .

فقال ﷺ : سبحان الله . إن المسلم لا ينجس .

إن الطهارة نور لمن أراد النور ، وكمال لمن ينشد الكمال ، وسبب لجلب البركات والخيرات لكل من داوم عليها .

وإذا ما حضر وقت الصلاة . . تأكد الأمر بها وحرم تأخيرها . . إذ إن هذا التأخير سوف يخرج بالصلاة عن وقتها . . . وما أدى إلى الحرام فهو حرام .

وبعد ، فلو لم تكن الطهارة ديناً لكانت دنيا ، والتنظف بعد الجماع بالوضوء مما دعا إليه الطب ، وحذر من التكاسل عنه أو التهاون فيه .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : أن عمر استفتى النبى ﷺ : هل ينام أحدنا وهو جنب ؟ قال : نعم ، ليتوضأ ثم لينم حتى يغتسل إذا شاء . . » .

فى وجوب غسل الجنابة

يجب الغسل من الجنابة لقول الله عز وجل :

(يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم جنباً فاطهروا) .

وقد ورد النهى من رسول الله ﷺ : عن قراءة القرآن من كل من الجنب والحائض والنفساء .

وشأن المؤمن الصادق الإيمان لزوم الطهارة ، فقد صح من رسول الله ﷺ أنه قال :

« الطهور شطر الإيمان »

وقد ورد أنه ﷺ قال لبلال : رضى الله عنه : أخبرنى بأرجى عمل عملته منذ دخلت الإسلام ؟

فقال بلال : لماذا يارسول الله ؟ قال : لأنى سمعت دف نعليك بين يدى فى الجنة ، قال : يارسول الله . . ما أحدثت حدثاً إلا وتطهرت وصليت بذلك الطهور ما شاء الله أن أصلى .

وكفى بهذا الشرف باعثاً على الطهارة من الأحداث والأنجاس كلها ، والمحافظة عليها ، ما أمكن

فى فرائض الغسل المطلوبة

(ا) فرائض الغسل ثلاثة أشياء :

الأول : النية ، لقول النبى ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

والثانى : إزالة النجاسة إن كانت على شىء من بدنه .

الثالث : تعميم الماء إلى جميع أجزاء الجسم ، ومنبت الشعر

(ب) الوضوء قبل الغسل سنة ، ولقد كان رسول الله ﷺ ، إذا اغتسل من الجنابة توضأ وضوءه للصلاة . . رواه الشيخان .

(جـ) ومبطلات الغسل : كل ما أوجب الغسل من خروج المنى ، أو الاتصال الجنسى ، أو الحيض والنفاس .

فى المبيت على جنابة

واضح أن السائل يريد أن يعرف حكم العودة إلى الجماع فى الليلة الواحدة ، هل يجوز قبل الاغتسال من الجنابة أو لابد من الاغتسال بعد كل جماع ؟ وعلى السائل أن يعرف أن الجنابة توجب الاغتسال لقوله تعالى : (وإن كنتم جُنباً فاطَّهَّروا) ، وقوله ﷺ إذا التقى الختانان وجب الغسل ، نزل أو لم ينزل – غير أنه لا يحتم عليه الاغتسال فور الجنابة فوقت الوجوب موسع ، أى أنه يغتسل وقتما يشاء إلا إذا أراد الصلاة أو قراءة القرآن أو مس المصحف أو غير ذلك مما يحرم على الجنب فعله ، فحينئذ يلزمه أن يغتسل حتى لم يبق من الوقت إلاّ ما يسع للطهارة أو الصلاة ، فيجب عليه أن يتطهر ، أما إذا جامع زوجته وأراد الأكل أو النوم أو العودة إلى الاجتماع بها فلا يلزمه الاغتسال بل يستحب له الوضوء فقط .

فعن ابن عمر أن عمر قال : يارسول الله ، أينام أحدنا وهو جنب قال : « نعم إذا توضأ » وعن عائشة قالت : «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن ينام وهو جنب غسل فرجه وتوضأ وضوء الصلاة » رواهما الجماعة .

ولأحمد ومسلم « إذا كان جنباً فأراد أن يأكل أو ينام توضأ » وعن عمار بن ياسر أن النبى ﷺ رخص للجنب إذا أراد أن يأكل أو يشرب أو ينام أن يتوضأ وضوء الصلاة . رواه أحمد والترمذى وصححه .

وفى استحباب الوضوء عند إرادة العودة إلى الجماع روى عن ابن سعيد عن النبى ﷺ قال : « إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعود فليتوضأ » رواه الجماعة إلاّ البخارى ، ورواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وزادوا « فإنه أنشط للعود » .

وهذه الزيادة تصرف الأمر فى الحدث (فليتوضأ) من الوجوب إلى الندب – ومما ورد فى ترك الوضوء ما روى عن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يجامع ثم يعود ولا يتوضأ .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : «كان النبى ﷺ إذا أراد أن يأكل أو يشرب وهو جنب يغسل يديه ثم يأكل ويشرب» . رواه أحمد والنسائى .

وعنها أيضاً قالت : «كان النبى ﷺ إذا كان له حاجة إلى أهله أتاهم ، ثم يعود ولا يمس ماء» رواه أحمد – ولأبى داود والترمذى عنها كان رسول الله ﷺ ينام وهو جنب ولا يمس ماء ، فهذه الروايات الواردة بترك الوضوء للجنب عند الأكل أو الشرب أو النوم أو العود للجماع تدل على أن الأمر بالوضوء فى الروايات الأخرى للندب لا للوجوب .

أما أن الغسل يكون بالصابون والليفة فالواجب أن يكون بالماء الطاهر المطهر ، ولم يقل أحد بوجوب استعمال الصابون والليفة ، غير أنه لا مانع منهما لإزالة الأقذار عن الجسم ، بل إن ذلك مستحب بإزالة الأقذار فقط ، وليس لإزالة الحدث ، فالحدث يزول بالماء الطهور ، وفى حديث ميمونة : المبين لصفة غسل النبى ﷺ فى الإجابة عن السؤال السابق ثم أفرغ بيمينه على شماله فغسل مذاكيره ثم دلّك يده بالأرض « ما يدل على استحباب ما يزيل الأقذار عن الجسم » .

فى جواز الصلاة بعد الغسل مباشرة

نعم يجوز للإنسان أن يصلى بعد الغسل مباشرة بدون وضوء جديد إذا كان الغسل مستوفياً للشروط الشرعية المطلوبة فيه .

ويجمع هذه الشروط كلها أن يزيل المرء النجاسة عن جسده بماء طاهر ثم يتوضأ ، ثم يغسل رأسه فذراعيه فجانبه الأيمن مع الرجل اليمنى فجانبه الأيسر مع الرجل اليسرى ، كل ذلك بماء طاهر ، ويراعى وصول الماء إلى سائر أجزاء الجسم وتخليل أصابع الرجل وتخليل الشعر .

فإذا لم ينتقض وضوءه بعد هذا الغسل بأن لم يخرج منه شىء ولم يمس ذكره ونحو ذلك . كفاه هذا الغسل عن إحداث وضوء جديد للصلاة .

فى الطهارة هل هى شرط من شروط صحة العقد

هذا الذى حدث لهذا الرجل لا يبطل عقد القران حتى لو كان هذا السائل لزجاً وكانت له رائحة ، فليست الطهارة شرطاً من شروط صحة العقد ، وليس عقد الزواج من الأمور المحرمة على المحدث حدثاً أصغر أو أكبر ، ماذا يفعل فإن الواضح من السؤال أن هذا الخارج (مذى) وليس (منيًّا) فإن كان كذلك فلا شىء عليه إلا أن يغسل عضوه وموضع إصابة المذى من جسمه

وملابسه ويتوضأ إن أراد أن يكون على طهارة ، أو أراد الصلاة أو فعل ما لا يحل للمحدث عمله كمس المصحف مثلا .

فقد روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : «كنت رجلاً مذّاء فاستحييت أن أسأل رسول الله ﷺ – فأمرت المقداد بن الأسود فسأله . . .» .

فقال : « فيه وضوء » أخرجه البخارى ومسلم ، ولمسلم : يغسل ذكره وأنثييه ويتوضأ .

فى الفرق بين الاستحمام والاغتسال

لا فرق بين الاستحمام والاغتسال فهما اسمان لمسمى واحد وهو غسل جميع البدن ، وهو واجب للطهارة من الحدث الأكبر (الجنابة) والحيض والنفاس ، والواجب فيه غسل البدن كله وماكان غائراً فيه إذا كان لا يضر غسله كالسرة والقلفة التى لا عسر فى فسخها والمضمضة والاستنشاق ، وذلك بعد إزالة ما يكون ببدنه من نجاسة وغسل فرج ، كما يكون فى الاستحمام الاستنجاء ، ثم الوضوء وهو قبل الغسل سنة . فإن لم يتوضأ فعليه أن يتمضمض و يستنشق ، لأنهما فرض فى الاغتسال ثم يفيض الماء على بدنه ، والأفضل أن يبدأ بغسل رأسه ووجهه ثلاثاً مع تخليل شعر الرأس حتى يطمئن إلى أن الماء وصل إلى منابت الشعر ، ثم على بدنه ، والغسل مرة واحدة هو الفرض والتثليث سنة – ويلاحظ تأخير غسل الرجلين إن كان يقف فى محل يجتمع فيه الماء .

وقد جاء فى صفة الغسل ما روى عن عائشة رضى الله عنها – أن النبى ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة يبدأ فيغسل بدنه ثم يفرغ بيمينه على شماله فيغسل فرجه ثم يتوضأ وضوء الصلاة ، ثم يأخذ الماء ويدخل أصابعه فى أصول الشعر ، حتى إذا رأى أن قد استبرأ حفن على رأسه ثلاث حفنات ثم أفاض على سائر جسده ثم غسل رجليه ، وفى رواية لهما : ثم يخلل بيديه شعره حتى إذا ظن أنه قد أروى بشرته أفاض عليه الماء ثلاث مرات . وعن ميمونة قالت : وضعت للنبى ﷺ ماء يغتسل به فأفرغ على يديه فغسلهما مرتين أو ثلاثاً ، ثم أفرغ بيمينه على شماله وغسل مذاكيره ، ثم دلّك يديه بالأرض ثم مضمض واستنشق ثم غسل وجهه ويديه ثم غسل رأسه ثلاثاً ، ثم أفرغ الماء على جسده ثم تنحى من مقامه فغسل قدميه ، قالت : فأتيته بخرقة فلم يردها وجعل ينفض الماء بيده ، رواه الجماعة وليس لأحمد والترمذى نفض اليد ، نيل الأوطار للشوكانى – باب صفة الغسل .

فى كى شعر المرأة

والحكم فى هذا لا غموض فيه من ناحية الشرع ، ولا يمكن أن يمارى فيه أحد ، وهو أن المرأة لا يجوز لها أن تسلم رأسها إلى رجل يجول بيده فى شعرها كما تشاء له مهنته .

ونحن نحسن الظن بالسائلات ، فإنهن يسألن عن أمور دينهن ، ونفترض أن الذى يكوى الشعر امرأة مثلهن ، وعلى أساس من هذا الغرض الطبيعى فيمن يسأل عن أمور دينه . نقول : لا فرق بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بوجوب تخليل الشعر حتى يظن الإنسان أنه قد أروى بشرته ثم يفيض على رأسه الماء بعد ذلك .

ولقد روى الإمام البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا اغتسل من الجنابة غسل يديه وتوضأ وضوءه للصلاة ثم اغتسل وخلّل بيده شعره ، حتى إذا ظن أنه قد أروى بشرته ، وأفاض عليه الماء ثلاث مرات ، ثم غسل سائر جسده .

ويروى يحيى عن مالك ، بأنه بلغه أن عائشة رضى الله عنها سئلت عن غسل المرأة من الجنابة فقالت : لتحفن على رأسها ثلاث حفنات ماء ، ولم تقتصر السيدة عائشة رضوان الله عليها على ذلك ، بل أضافت ، ولتضغث رأسها بيديها .

وفى المعنى تضغث رأسها بيديها يقول ابن الأثير :

الضغث معالجة شعر الرأس باليد عند الغسل ، كأنها تخلط بعضه ببعض ، ليدخل فيه الغسول والماء .

وروى الإمام مسلم بسنده عن السيدة عائشة أن أسماء سألت النبى ﷺ عن المحيض ، فكان فيما قال ﷺ :

« ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكاً شديداً حتى تبلغ شئون رأسها ، ثم تصب عليها الماء معناه : أصول شعر رأسها .

فى نسيان الغسل من الجنابة

على من نسى الغسل من الجنابة لمدة معينة أن يعيد ما صلّاه بعد هذه الجنابة وقبل الغسل لقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا

برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم جُنباً فاطَّهَّروا) وقوله ﷺ : « لا تقبل صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » .

أما النسيان المرفوع فى مثل قوله ﷺ : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ، فالمراد رفع إثم التأخير بسبب هذا النسيان ، أما رفع الفرض نفسه كالصلاة وعدم وجوب إعادتها فلا . .

وعلى المؤمن أن يكون مستيقظاً فى عبادته متحرزاً من كل شبه تفسد صلاته ، ولعل فى توجيه الإسلام إلى الاغتسال يوم الجمعة ونحوه ما يمنع من آثار هذا النسيان .

ذلك لأن مكانة الصلاة كبيرة ، وفضلها عظيم ، والمحافظة على أدائها بشروطها مطلوبة ، قال تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

وقال : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) .

وقال ﷺ : « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » رواه مسلم وقال : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » رواه الترمذى وقال حسن صحيح . وروى الإمام مسلم بسنده عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة وذلك الدهر كله » .

فى هل يشترط الطهارة فى انعقاد اليمين

ليست الطهارة من الجنابة موطاً لانعقاد اليمين ، فاليمين صحيحة ومنعقدة سواء كان الحالف طاهراً أو غير طاهر ، غير أنّ مس المصحف يحرم على من ليس على طهارة لقوله تعالى : (لا يمسه إلاّ المطهرون) فإذا كان السائل وضع يده على المصحف أو مسّه أو لمس شيئاً منه فى أثناء الحلف فقد ارتكب إثماً مضاعفاً إلى ما ارتكبه من ذنوب وآثام فى حق الله ، وفى حق نفسه ومجتمعه .

وإذا كان السائل يريد أن يتوب إلى الله تعالى فبابه سبحانه مفتوح لكل من قصده ليلا أو نهاراً ، فهو سبحانه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، وسبحانه القائل : (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) .

وإذا كان السائل يريد راحة ضميره واستقرار النفس فعليه بالتوبة إلى الله والإقلاع عن هذه الرذيلة وعدم العودة إليها ولا إلى غيرها من المعاصى ، وأول الطريق إلى التوبة أن يكفِّر عن اليمين

اللذين حنث فيهما وكفّارة كل يمين إطعام عشرة مساكين أوكسوتهم ، فإن لم يستطع فصيام ثلاثة أيام ، قال تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان ، فكفّارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أوكسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفّارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون) .

وعلى السائل وغيره أن يجلّ وينزه كتاب الله الكريم عن الحلف على الصغيرة والكبيرة حتى يظل لله ولكتابه مقام الجلالة والتقدير ، قال تعالى : (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) .

وعلى السائل بعد الكفّارتين أن يتوب إلى الله توبة صادقة خالصة ، وأن يقلع عن المعاصى ، وأن يكثر الطاعات مؤديا الفرائض ومتقرباً إلى الله بالنوافل مكثراً من العبادة والذكر والاستغفار مبتعداً عن كل ما يثير مما يقرأ أو يشاهد .

والله يوفقه إلى سواء السبيل .

فى هل يكفى أن ترش المرأة شعرها بدل أن تغسله فى أثناء غسل الجنابة

لقد أنعم الله سبحانه وتعالى بنعم كثيرة ظاهرة وباطنة ، من بين هذه النعم نعمة الطهارة من الأنجاس والأخباث .

فالطهارة فى الإسلام ، أو الطهارة للمسلم لها هدفها الأسمى من جهة كونها وسيلة وغاية ، أما هدفها من كونها وسيلة فهى تلبس الإنسان ثوب الجمال والحسن والحشمة والوقار والزينة والبهاء وتحليه بمظاهر الشيم ومكارم الأخلاق .

وأما هدفها من كونها غاية فهى التى تزن عبادة المرء وتجعلها فى التجارة الرابحة التى تقرب العبد من ربه ، ويكون جليساً للملائكة ، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً .

وما من شك فى أن أطيب الطيبات طهارة القلوب والأبدان ، لذلك أمر الإسلام بالطهارة وحث بالحرص عليها ، والقرآن حافل بالكثير من الآيات الكريمة التى تبين ما للطهارة من قيمة حتى يكون المتطهر حبيباً لله سبحانه . . يقول تعالى :

(وإن كنتم جنباً فاطهروا . .) الخ ، ويقول : (إنّ الله يحب المتطهرين) . ويقول : (والله يحب المتطهرين) ، وغير ذلك كثير من الآيات التى تتضمن الحث على الطهارة والأمر بها .

ومن ذلك فلا يتأتى لمسلم ولا مسلمة ، ولا يجوز لامرأة أن ترش شعرها بالماء بعد الجنابة بدلا من الغسل ، فقد قرر بعض علماء الفقه عليهم رضوان الله ، أن المرأة تنقض ضفائر شعرها حتى يصل الماء إلى منبت الشعر فى حالة الغسل .

فى تطهير الميت فى صحراء لا ماء فيها

من مات فى صحراء لا ماء فيها يُممَ وجوباً عند الأئمة الأربعة ، لأن الغسل تطهير لا يتعلق بإزالة نجاسة ، فيجب الانتقال عن الماء عند عذر وجوده إلى التيمم .

والمقصود من الغسل ليس مجرد التنظيف وإنما هو التطهير الشرعى من الحدث المتوقع غالباً باسترخاء الجسد عند الموت وزوال العقل .

وإذا كانت حياة الميت بالروح دون الجسد فذلك لا يمنع من التطهير ، إذ إن الأمور الشرعية لا تفرق بين روح وجسد وإنما تتعلق بالإنسان ككل ، هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فإن الإنسان يوم البعث سيرد إلى جسده الذى تحلل أو ذاب ، والطهارة هى التى تليق بالمؤمن فى هذا المجال ، مجال الحساب والثواب أو العقاب .

هذا وفى الغسل احترام للمؤمن وإظهار لأخوة الإسلام ورعاية المسلمين حق أخيهم حتى بعد الوفاة .

وسئل رضي الله عنه في الوضوء

فى فروض الوضوء وسننه

إنّ سادتنا الفقهاء حينما يتحدثون عن الوضوء فإنهم يبينون فروضاً وسنناً ، أما الفروض فإنها تستند إلى الآية القرآنية الكريمة : (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم للصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) سورة المائدة ٦ .

ويضاف إلى ما تضمنته هذه الآية الكريمة من فروض أربعة فرض خامس هو النية ، وليس من شرط النية أن ينطق بها الإنسان وإنما يكفى فيها الاتجاه القلبى .

أما سنن الوضوء ويصح أن نسميها آدابه المستحبة فهى أولا التسمية أى بسم الله الرحمن الرحيم ، والتسمية مطلوبة من المسلم فى ابتداء كل عمل من أعمال الخير يشرع فيه .

ومن سنن الوضوء (السواك) روت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال : عليكم بالسواك فإنه مطهرة للفم ومرضاة للرب .

ومن سنن الوضوء الدعاء ، ومن المأثور عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول فى ختام الوضوء : « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » ، وكان يقول أيضاً : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » .

وروى أيضاً أنه كان يقول : فى ختام الوضوء ما حدَّث به أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ بوضوء فتوضأ فسمعته يقول : « اللهم اغفر لى ذنبى ، ووسع فى دارى ، وبارك فى رزقى » ، فقلت : يانبى الله سمعتك تدعو بكذا وكذا قال : « وهل تركن من شىء » ؟ .

فى الآداب الواجبة فى أثناء الوضوء

قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) . سورة المائدة .

الوضوء : نوع من أنواع الطاعات يلتزم المتوضئ منه النية والتسمية عند غسل أول جزء ، واستحضار عظمة الله عز وجل ، واستقبال القبلة إن تيسر ذلك ، وأن لا يتكلم فى أثناء الوضوء بأى كلام حتى ينتهى من الوضوء ، ثم يقول بعد الوضوء أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . لقد صح عن رسول الله ﷺ أن من قالها فتحت له أبواب

الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء .

وورد استحباب قول المتوضئ قبل الوضوء أو فى أثنائه أو بعده :

« اللهم اغفر لى ذنبى ، ووسع فى دارى ، وبارك لى فيما رزقتنى ، وقنعنى به ولا تفتنى بما زويت عنى » .

فى الوضوء من البرك الراكدة

هذه البرك الراكدة إذا لم تلق فيها نجاسات تغير طعمها أو لونها ورائحتها فلا مانع من الوضوء منها ، خاصة أن مياه المطر النقية تغذيها وتحرك ركودها .

والماء طهور لا ينجسه إلا ما غيَّر لونه أو طعمه أو ريحه بغير مقره ، أو ما يرد عليه بواسطة ريح ونحوها من الأشياء الطاهرة .

وعلى ذلك . . . فمثل هذه المياه ينبغى على الأهالى المحافظة على طهارتها وعدم إلقاء النجاسات فيها .

وإنه من الدين ومراعاة لقواعد الصحة تنزيه مثل هذه المياه عن النجاسات والأقذار .

فى نواقض الوضوء على حسب مذاهب العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

أشار القرآن الكريم إلى نواقض الوضوء بقوله : (أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء) .

وقد أجمع المسلمون على انتقاض الوضوء بما يخرج من السبيلين من غائط وبول وريح ومذى لظاهر الكتاب ، ولتظاهر الآثار بذلك .

روى البخارى بسنده : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقبل صلاة مَن أحدث حتى يتوضأ » وقد اختلف العلماء فيما تدل عليه هذه الآثار : فعند أبى حنيفة وأصحابه والثورى وأحمد وجماعة أن كل نجاسة تسيل من الجسد وتخرج منه يجب منها الوضوء كالدم ، والرعاف الكثير ، والفصد ، والحجامة ، والقيء ، إلاّ البلغم عند أبى حنيفة ، وقال أبو يوسف من أصحاب أبى حنيفة : إنه إذا ملأ الفم ففيه الوضوء ولم يعتبر أحد من هؤلاء اليسير من الدم إلا مجاهد .

وعند الشافعية أن كل ما خرج من السبيلين ناقض للوضوء من أى شىء خرج ، من دم أو حصاة أو بلغم ، وعلى أى وجه خرج ، سواء أكان خروجه على سبيل الصحة أم على سبيل المرض .

وعند المالكية : أن ما ينقض الوضوء كل ما خرج من السبيلين ما هو : معتاد خروجه من البول والغائط والمذى والوَدْى والريح إذا كان خروجه على وجه الصحة ، ولم يروا فى الدم والحصاة والدود يخرج من أحد السبيلين وضوءاً ولا فى السلس .

ومما اختلف فى نقضه الوضوء النوم ، فقيل ينتقض الوضوء بقليله وكثيره وقيل لا يجب منه الوضوء إلا إذا تيقن من الحدث أو شك فيه ، وقيل يفرق بين النوم القليل الخفيف ، والكثير الثقيل ، فلا ينتقض الوضوء إلا من الثقيل وأما عن لمس النساء والسلام عليهن فيمكن تفصيل مذاهب العلماء كما يلى :

١ – يرى الحنفية عدم انتقاض الوضوء من لمس النساء .

٢ – ويرى الشافعية الفرق بين اللامس والملموس فيجب الوضوء على اللامس دون الملموس وقيل يجب على الاثنين ، وقيل يجب الوضوء من لمس الزوجة دون ذوات المحارم .

٣ – وللمالكية تفصيل جميل فى اللمس ، إن قصد اللذة ووجدها فعليه الوضوء وإن وجد ولم يقصد فيه فعليه الوضوء ، وإن قصد ولم يجد فعليه الوضوء وإن لم يقصد ولم يجد فلا وضوء عليه .

هذا وفيما يتصل بالسلام على السيدات –كان رسول الله ﷺ لا يصافح السيدات وقد روت عائشة رضى الله عنها قالت :

« ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط فى المبايعة ، ما بايعهن إلاّ بقوله قد بايعتك على ذلك ، رواه البخارى وغيره .

وروى أحمد والترمذى وصححه عن أميمة بنت رقيقة قالت :

« أتيت النبى ﷺ فى نساء لنبايعه فأخذ علينا ما فى القرآن . . . . قلنا ألا تصافحنا ؟ قال : إنى لا أصافح النساء » .

هذا وبالله التوفيق .

فى الريح الذى ينقض الوضوء

هذا الهواء الذى يخرج من فرج السيدة السائلة هو ما يسميه الفقهاء بالريح ، والريح ينقض الوضوء بإجماع الفقهاء إذا خرج من الدُّبر (مكان خروج البراز) أما إذا خرج من القُبُل فإنه

لا ينقض الوضوء عند الحنفية ، سواء كان خروجه من ذكر الرجل أم من فرج المرأة .

وعبارة كتب الحنفية : ينقض الوضوء كل ما خرج من السبيلين إلا ريح القبل فإنه من ذكر الرجل اختلاج ، أى حركة تنبعث من الذكر لا شيء فيها من المرأة ريح لا تنبعث عن محل النجاسة فإن كانت المرأة مفضاة أو اختلط سبيلاها استحب لها الوضوء لاحتمال أن يكون هذا الريح من الدبر ، وروى عن محمد وجوب الوضوء للمفضاة ، وقيل عنه : إن كانت منتنة وجب الوضوء وإلا فلا يجب .

وعن الإمام الشافعى والإمام أحمد رضى الله عنهما ومحمد بن الحكيم من أصحاب مالك : الريح الخارج من القبل من الرجل أو المرأة ينقض الوضوء كالريح الخارج من الدبر .

وعند الإمام مالك رضى الله عنه وجل أصحابه : كل ما خرج من السبيلين مما هو معتاد خروجه ، وهو البول والغائط والمذى والودى والريح إذا كان خروجه على وجه الصحة من غير مرض فهو منقض للوضوء .(١٥٣)

هذا : والأخذ بمذهب الحنفية دفع الحرج الذى تشكو منه السائلة فإن شاءت الأخذ بمذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه فعليها أن تتوضأ كلما خرج منها هذا الهواء إذا أرادت الصلاة وغيرها مما لا يحل لغير المتوضئ ، فإن كان هذا الهواء قد استمر معها وقتاً كاملاً من أوقات الصلاة بحيث لم ينقطع زمناً يتسع للوضوء أو الصلاة فإنها حينئذ تكون معذورة والمعذور يتوضأ لوقت الصلاة ويصلى بوضوئه ما شاء من الفرائض النوافل وينقض وضوءه بخروج الوقت ما لم ينتقض بناقض آخر غير العذر الذى تشكو منه ، ويجدد وضوءه كلما دخل وقت من أوقات الصلاة ، ويظل العذر قائما حتى ينقطع سببه وقتاً كاملاً من أوقات الصلاة فيعود صاحبه صحيحاً ويأخذ حكم الأصحاء فى الوضوء . والله سبحانه وتعالى أعلم .

فى نواقض الوضوء

اتفق الفقهاء على أن ما خرج من السبيلين – القبل أو الدبر – ناقض للوضوء .

النوم على غير هيئة المتمكن .

زوار العقل بالسكر أو المرض .

أما ما عدا ذلك فقد اختلف الفقهاء فيه ، وللإنسان فى اختلافهم سعة وفى اختلافهم رحمة .

---

(١٥٣) راجع نواقض الوضوء فى الهداية وفتح القدير وابن عابدين من كتب الحنفية وكتاب الأم للإمام الشافعى رضى الله عنه ، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد من كتاب المالكية ، وكتاب الفقه على المذاهب الأربعة .

فى حكم بول الصبى هل ينقض الوضوء

لا ينقض بول الصبى الوضوء ، لأن الوضوء لا ينقضه إلا ما خرج من الشخص نفسه كالبول ، أما إذا أصاب بول آخر جسد المتوضئ أو ثوبه أو نحو ذلك فلا ينقض وضوءه ، وعليه إذا أراد الصلاة أن يطهر موضع النجاسة بالماء المطهر ، وفيما يتصل بتطهير النجاسة من البول إذا أصابت ثوب الشخص أو بدنه .

اختلف العلماء فى بول الصبى على ثلاثة مذاهب :

أولها : إن بول الصبى إذا وقع على الثياب يرش موضعه بالماء الطاهر ولا يغسل ، وأما بول البنت الصغيرة فيغسل ، والمراد بالصبى والصبية مَن لم يستغن عن اللبن الذى يرضعه فى غذائه ، وروى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « أتى رسول الله ﷺ بصبى فبال على ثوبه فدعا بماء فأتبعه إيّاه » .

وعن أم قيس بنت حصن أنها أتت بابن لها لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ ، فأجلسه رسول الله ﷺ فى حجره ، فبال على ثوبه فدعا بماء فنضحه ولم يغسله .

وثانيها : يكفى نضح الماء أى رشه من بول الصبى والصبية .

وثالثها : هما سواء فى وجوب الغسل من بولها .

والحكمة فى ذلك – فيما قال العلماء – أن الصبى أقرب إلى قلب أهله ، وكثيراً ما يحملونه فيبول فيتعذر تطهير الثوب من بوله .

إن الإسلام بذلك ييسر على الآباء أعباء التربية ، ويخفف فى مقابل العناية بالأطفال بعض مشقات التطهير ، وهى لفتة لطيفة تبين مدى عناية الإسلام بالأجيال الناشئة ، ورعايته لما تتطلبه تربيتها من مشاق . .

فى ما يحرم على المحدث حدثاً أصغر

أولا : ما يحرم على المحدث حدثاً أصغر هو الصلاة فرضاً أو نفلا ، وكذلك صلاة الجنازة ، لأن الطهارة من الحدث شرط فى صحة الصلاة، لقوله ﷺ ؛ «لا تقبل صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » . ومن ذلك مجرد التلاوة ومجرد الشكر ، لأنه فى معنى الصلاة . كما يمنع

الحدث من الطواف بالبيت فرضاً أو نفلا لقوله ﷺ : « الطواف بمنزلة الصلاة إلاّ أن الله قد أحل فيه المنطق فمن نطق فلا ينطق إلا بخير » .

وقال الحنفية من طاف محدثاً صح طوافه وإن كان آثماً ، لأن الطهارة من الحدث واجبة للطواف وليست شرطاً فى صحته .

ويمنع الحدث كذلك من مس المصحف كله أو بعضه ولو آية : لقوله تعالى (لا يمسه إلا المطهرون) .

ثانيًا : يزاد على ذلك بالنسبة للجنب أنه يحرم ، وقال المالكية يجوز مس المصحف وحمله للبالغ الحدث ولو حائضاً إذا كان معلماً أو متعلماً .

لأن عليه قراءة القرآن ودخول المسجد كما لا يجوز ذلك للحائض والنفساء ، إلاّ أن تكون هناك ضرورة داعية لدخول المسجد ، وقال المالكية : يجوز للجنب قراءة اليسير من القرآن إذا قرأه للتحسن أو الاستدلال .

وقال الحنفية : يجوز للجنب إذا كان معلماً أن يلقن المتعلم القرآن كلمة كلمة بحيث يفصل بينهما ، كما يجوز له أن يفتح أمراً من الأمور ذات البال بالنسبة ، وأن يقرأ الآية القصيرة بقصد الدعاء أو الثناء ، ومثل الجنب فى ذلك الحائض والنفساء .

أما الصيد والذبح فلا يحرمان على الجنب ، وليس فى القرآن آية تحرم الصيد أو الذبح على الجنب .

فى التنزه عن البول

يأمر الإسلام بالنظافة ويحث عليها ويرغب فيها ، ولذا جعل الطهارة شرطاً من شروط صحة الصلاة .

ولقد أمر الرسول ﷺ بالتنزه عن البول بقوله : « تنزهوا من البوْل فإن عامة عذاب القبر منه . وقد مر صلوات الله وسلامه عليه بقبرين فقال : « إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله وأما الآخر فكان يمشى بين الناس بالنميمة » .

من كل ذلك نعلم أنه يجب على المسلم أن يتنزه عن البول ويتحرز أن يصيب ثوبه أو بدنه ، ومن آداب البول الجلوس .

لكن إذا كان الإنسان محتاطاً لنفسه من إصابة البول مستبرئاً منه يجوز له أن يبول قائماً ، ولا إثم عليه ولا عقاب ، والمهم هو الاحتياط ، بحيث لا يصيب الإنسان رذاذ من بوله ، وبحيث يستبرئ من البول ويتنزه منه .

فى صلاة الفرائض جميعها بوضوء واحد

هل يجوز لشخص أن يصلى جميع الفرائض الخمسة طوال اليوم بوضوء واحد دون الاستنجاء ؟ الإجابة : لا تقبل الصلاة ولا تصح إلا بشرط الطهارة لقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم جنباً فاطَّهَّروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتمَّ نعمته عليكم لعلكم تشكرون) .

فتى كان الإنسان متوضئاً فقد تحقق فيه شرط صحة الصلاة ، وله أن يصلى بهذا الوضوء ما شاء من الصلوات مادام لم يحصل منه ناقض للوضوء ولو بقى طوال اليوم وصلى خمس الصلوات بالوضوء الواجب .

والاستنجاء ليس واجباً إلا إذا خرج من أحد السبيلين نجس يحتاج إلى التطهير .

فى المسح على الباروكة

إن الله تعالى يقول فى الحديث عن الوضوء : (وامسحوا برءوسكم) .

والباروكة ليست الرأس ، فالمسح عليها باطل ، وليس لمن مسحت على الباروكة وضوء .

فى الوضوء على طلاء الأظفار

إن الوضوء على طلاء الأظفار باطل ، وذلك أنه لا يتمثل فى طلاء الأظفار عذر شرعى .

إن الطلاء طبقة على الأظفار تحجبت وصول الماء إليها ، وهو طبقة متعمدة ، ومعروف عند فاعلتها أنه طبقة حاجبة ، وهى طبقة لا تدعو إليها ضرورة ولا حاجة ماسة .

إذن وضوء من يتخذ الطلاء باطل ، وكل ما قيل عن قياسه بأشياء أخرى لا يصح .

فى كىّ المرأة شعرها هل ينقض الوضوء

كىّ شعر المرأة لم يذكر فى نواقض الوضوء عند الفقهاء ، ما دامت المرأة هى التى تكويه بنفسها ، والأمر الهام فى كىّ الشعر ليس هو أن ينقض الكى الوضوء ولا ينقضه ، وإنما هو الكىّ نفسه . . هل تستسيغ الشريعة أن تكوى المرأة شعرها أوْ لا تستسيغه ؟ عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون فى آخر أمتى رجال يركبون الخيل يركبون على سرج كأشباه الرجال ، وينزلون على أبواب المساجد ، نساؤهم كاسيات عاريات ، على رءوسهن كأسنمة البخت العجاف « العنوهم فإنهن ملعونات » .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

« لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، والمغيرات خلق الله » والوشم هو الدق ، والتنمص هو اقتلاع الشعر ، والتفلج الأخذ من الأسنان تحديداً أو ترقيعاً .

فلما قال ذلك عبد الله بن مسعود قامت امرأة تعترض مستفسرة ؟

فقال رضى الله عنه : « وما لى لا ألعن مَن لعنه رسول الله ﷺ وقد قال الله فى كتابه : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

من هذه الأحاديث ومن غيرها نأخذ أن ضياع الوقت فى كىّ الشعر أمر لا تستسيغه الشريعة . . أما إذا ذهبت المرأة إلى صالون الحلاق وأسلمت نفسها إلى الرجل يجول فى شعرها بيديه فإن ذلك حرام ناقض للوضوء .

فى الوضوء من أكل لحم الجزور

عن جابر بن سمرة رضى الله عنه أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : « أنتوضأ من لحوم الغنم : قال إن شئت توضأت ، وإن شئت فلا تتوضأ . قال أنتوضأ من لحوم الإبل قال نعم : توضأ من لحوم الإبل : قال أصلى فى مرابض الغنم قال : نعم : قال : أصلى فى مبارك الإبل قال لا » رواه أحمد ومسلم .

ويرى الخلفاء الأربعة أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى رضى الله عنهم أن أكل لحم الجزور لا ينقض الوضوء ، وليس هذا رأى الخلفاء الأربعة فقط وإنما هو رأى جمهور الصحابة والتابعين والفقهاء .

بيد أنه ورد أن رسول الله ﷺ قال : « من أكل لحم جزور فليتوضأ » ويبدو أن الأمر بالوضوء فى هذه الأحاديث ليس للوجوب وإنما هو للاستحباب والندب ، ومن أجل ذلك سار الجمهور على عدم نقض الوضوء بأكل لحم الجزور ، أى لحوم الإبل .

ولحم الجزور هو لحم الإبل ولا يدخل فيه لحم البقر ولا الغنم .

فى استحباب الوضوء لمن أراد النوم

جاء فى كتاب استحباب الوضوء لمن أراد النوم ، نيل الأوطار الجزء الأول : عن البراء ابن عازب قال : « قال رسول الله ﷺ إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم أسلمت نفسى إليك ، رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت ، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به » قال : فرددتها على النبى ﷺ فلما بلغت اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت، قلت ورسولك قال : لا ونبيك الذى أرسلت .

رواه أحمد والبخارى والترمذى .

فى إلقاء السلام على من يتوضأ

الأولى عدم إلقاء السلام على من يتوضأ ، لأنه مشغول فى كل حركة من حركات الوضوء بالذكر المناسب له ، وقد حدث أن ألقى السلام أحد الصحابة على الرسول ﷺ وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى انتهى من وضوئه .

والأصل فى إلقاء السلام : أنه سنة ، ولكن رده واجب .

ويستحب كما يقول الإمام النووى أن يقول المبتدئ بالسلام : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيأتى بضمير الجمع وإن كان المسلَّم عليه واحداً ، ويقول المجيب : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فيأتى بواو العطف فى قوله وعليكم .

وفيما رواه البخارى وغيره : أن رسول الله ﷺ قال :

« يسلم الرّاكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير » .

وعن أبي أمامة رضى الله عنه :

« قيل يا رسول الله : الرجلان يلتقيان ، أيهما يبدأ بالسلام ؟ قال صلوات الله عليه : أولاهما بالله تعالى .

فى مصافحة المرأة الأجنبية دون الشعور بشهوة والمسلم متوضئ

إنّ من توضأ ثم صافح امرأة أجنبية دون أن يقصد بالمصافحة اللذة ، ودون أن يشعر بها فإن وضوءه لا ينقض .

والإنسان بالنسبة للمصافحة له حالات يختلف الحكم فيها بالنسبة لاختلافها ، وهو إذا قصد بالمصافحة اللذة فإن وضوءه ينقض ، سواء شعر باللذة أو لم يشعر ، ويكون الوضوء بالنسبة له نوعاً من التطهر النفسى لهذا القصد الذى قصده .

وإذا صافح الإنسان امرأة دون قصد اللذة ولكنه شعر فى المصافحة باللذة فعليه الوضوء أيضاً .

أما إذا لم يقصد الإنسان بالمصافحة اللذة ولم يشعر بها فى أثناء المصافحة فليس عليه إعادة الوضوء .

وسُئِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ فِي الصَّلَاةِ

فى أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ

روى الشافعى فى الأم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أمّنى جبريل على باب الكعبة مرتين فصلى الظهر حين كان الفئ مثل الشراك ، ثم صلى العصر حين كان كل شىء بقدر ظله ، وصلى المغرب حين أفطر الصائم ، ثم صلى العشاء حين غاب الشفق ، ثم صلى الصبح حين حرم الطعام والشراب على الصائم ، ثم صلى المرة الآخرة الظهر حين كان كل شىء قدر ظله ، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شىء مثليه ، ثم صلى المغرب القدر الأول لم يؤخرها ، ثم صلى العشاء الآخرة ، حين ذهب ثلث الليل ثم صلى الصبح حين أسفر ثم التفت فقال يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك فما بين هذين الوقتين » .

ورواه أبو داود بنحوه عن ابن عباس أيضاً .

وفى هذا الحديث ما يدل على أن أول صلاة من الصلوات المفروضة صلّاها الرسول ﷺ هى صلاة الظهر .

ويجب أن نعلم أن أولية الصلاة لا تعنى فضلا ما لها على سواها .

ومما لا شك فيه أن تحديد أول صلاة أمّ فيها جبريل النبى ﷺ يدل على حرص كامل من النبى ﷺ فى تسجيل تفاصيل هذا الركن العظيم من أركان الإسلام ، وبيان التوجيه الإلهى الحميد ، والعناية الإلهية الكريمة بهذا الركن (الصلاة) ، حيث فرض من أرفع مكان ليلة الإسراء فى أرفع موقف للرسول ﷺ (قاب قوسين أو أدنى) وتولى جبريل بالتدريب العملى تعليم الرسول ﷺ هيآته وأوقاته .

فى صلاة رسول الله ﷺ

من المتفق عليه أن الصلاة المعهودة فرضت على رسول الله ﷺ ليلة الإسراء ، عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : « فرضت على النبى ﷺ ليلة أسرى به الصلاة خمسين ، ثم نقصت حتى جعلت خمساً ، ثم نودى يا محمد : إنه لا يبدل القول لدى ، وإن لك بهذه الخمس خمسين » . أخرجه أحمد والنسائى والترمذى وقال حسن صحيح

وقد وردت أحاديث كثيرة فى صفة صلاة الرسول ﷺ ، منها ما رواه الترمذى وقال حسن صحيح عن أبى حميد الساعدى قال : «كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة اعتدل قائماً ورفع يديه حتى يحاذى (يقابل) بهما منكبيه ، فإذا أراد أن يركع رفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه

ثم قال الله أكبر وركع ثم اعتدل فلم يصوب رأسه (يخفضه) ولم يقنع ووضع يديه على ركبتيه ثم قال : سمع الله لمن حمده ورفع يديه واستدل (أرخى يديه) حتى يرجع كل عظم فى موضعه معتدلا ثم هوى إلى الأرض ساجداً ثم قال : الله أكبر حتى جـافى (بعد) عضديه عن إبطية وفتح (ألان وأرخى) أصابع رجليه ثم ثنى رجله اليسرى وقعد عليها ثم اعتدل حتى يرجع كل عظم فى موضعه معتدلا ، ثم هوى ساجداً ثم قال الله أكبر ثم ثنى رجله وقعد واعتدل حتى يرجع كل عظم فى موضعه ثم نهض ثم صنع فى الركعة الثانية مثل ذلك حتى إذا قام من السجدتين كبر ورفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه كما صنع حين افتتح الصلاة ثم صنع كذلك حتى كانت الركعة التى تنقضى فيها صلاته أخر رجله اليسرى وقعد على شقه متوركاً ثم سلم » .

وهناك صفات أخرى لصلاته ﷺ لا فرق بينها إلا فى بعض الهيئات كقبض اليد على جسده وإرسالها حال الوقوف ونحو ذلك ، وكل من الأئمة اعتمد ما رجح عنده والخلاف هنا ليس خلافاً مُضِرًّا وإنما هو من باب التوسعة وكل صحيح .

فإذا قبض المصلى يديه فى أثناء الوقوف فصلاته صحيحة ، وإذا أرسل يديه فى أثناء الوقوف فصلاته صحيحة ، ويجب ألا تفرق أمثال هذه الأمور بين طوائف المسلمين ، وذلك أنه لم يقل إمام من أئمة المسلمين قط : إن من أرسل يديه فسدت صلاته ، ولم يقل أحد من أئمة المسلمين قط : إن من قبض يديه فسدت صلاته . إن الصلاة صحيحة قبض المصلى يديه أو أرسلها .

فى شروط الصلاة

لا يشترط فى الصلاة أن تكون فى المسجد أو فى مكان معين ، بل تصح فى كل مكان ما دامت شروطها من الطهارة واستقبال القبلة قد توفرت . وذلك لقول الرسول ﷺ : « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما عبد أدركته الصلاة فعنده طهوره ومسجده » .

وقد ورد فى الصحيح أن الرسول ﷺ كان يصلى حيث أدركته الصلاة ، فالصلاة فى المدينة التى ليست بها مساجد جائزة فى أى مكان منها بشرط طهارته .

وهذا من فضل الله على المسلمين وقدسية الإسلام الرحبة التى لا تحتم على المسلم أن لا يصلى إلاّ بين الجدران – بيد أن من حكمة المساجد أن يؤذن للصلاة فيها حتى يجتمع المسلمون فيستأنس بعضهم ببعض ، ويتعارف بعضهم على بعض فيتعارفوا . ولذلك ينبغى على أهل المدينة من المسلمين أن يتآزروا ويتعاونوا على بناء مسجد يجمع شملهم ويوحد جمعهم ، ومع ذلك فإن

الصلاة تجوز فى أى مكان توافرت فيه شروط الطهارة واستقبل فيه المصلى القبلة .

والشروط التى يلزم توافرها لصحة الصلاة ويجب على المصلى أن يأتى بها ، بحيث لو ترك شيئاً منها تكون صلاته باطلة هى :

١ – العلم بدخول الوقت بأى سبب من الأسباب التى يتأتى بها العلم ولو بغلبة الظن .

٢ – الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر .

٣ – طهارة البدن والثوب والمكان الذى يصلى فيه من النجاسة الحسية متى قدر على ذلك .

٤ – ستر العورة . وحدّها فى الرجل ما بين السرة والركبة ، وفى المرأة جميع البدن ما عدا الوجه والكفين .

٥ – استقبال القبلة : لقوله تعالى : (فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) .

٦ – أداء الصلاة على وجهها : أى العلم بكيفية الصلاة من قيام وقراءة وركوع وسجود وتشهد ، فمتى توافرت هذه الأمور صحت الصلاة وإن فقد شىء منها لا تصح الصلاة .

فى شروط ملابس المصلى

قال الله تعالى فى محكم كتابه : (وثيابك فطهر)

ظاهر الآية يدل على أن تطهير الثياب من النجاسات واجب فى الصلاة محبوب فى غيرها . وذلك بغسلها وبحفظها عن النجاسة بتقصيرها ، مخافة جر الذيول فيها وهو أول ما أمر به من رفض العادات المذمومة .

وعلى هذا الأساس يجوز أن يصلى بثياب عليها بقعة من العسل مع خلاف الأولى ، والأفضل أن يزيلها ، لأن بقاءالعسل فى الثوب يجمع عليه الذباب ، وقد يعلق بالثوب بعض التراب ، لأن العسل أقرب إلى أخذ التراب والأشياء الأخرى ، هذا إن قدر على إزالتها .

أما إذا لم يقدر على إزالتها صلى بها ولا إعادة عليه[١٥٤] .

وإذاكان الإنسان يستنكف أن يقابل عظيماً من الناس بثوب مثل ذلك فالمثول بين يدى الله عز وجل يجب أن يكون على الهيئة اللائقة بجلال الله .

والشروط التى يجب توافرها فى الملابس فى أثناء الصلاة :

أولا : أن تكون طاهرة فى أثناء الصلاة .

(١٥٤) ص ٢١٩ من فقه السنة للأستاذ سيد سابق .

ثانياً : أن تكون ساترة للعورة .

ثالثاً : ألا تكون طويلة بحيث تجر على الأرض ، وإنما تكون مرتفعة قليلا .

رابعاً : ألا تكون الثياب من الحرير الخالص .

خامساً : ألا يكون على الثياب صور تماثيل تصرف بعض الناس إلى النظر مثل صور حيوانات أو تماثيل لكراهة النبى ﷺ ذلك . .

فى الصلاة على الأرض الطاهرة

أجمع الفقهاء على صحة الصلاة على الأرض الطاهرة ، فيستطيع الرعاة أن يصلوا فى مكان عملهم ، وبجوار أغنامهم مادامت الأرض طاهرة ، يقول ﷺ : « جعلت لى الأرض مسجداً والتراب طهوراً » ، فيصلى المسلم حيث وجبت الصلاة غير مقيد ببيت أو مسجد ، وليست هناك ضرورة تلجئ راعى الغنم فى مثل هذه الحالة إلى تأخير الصلاة عن وقتها أو الذهاب بغنمه إلى البيت لأداء الصلاة فيفوت وقت الرعى على الأغنام ، ويستطيع أن يصلى الظهر فى آخر وقته ويصلى العصر فى أول وقته ، وبذلك يؤدى الصلاة فى وقتها ولا يفوته من رعايته لغنمه وقت طويل .

فى الأوقات التى تكره فيها الصلاة

الأوقات التى تكره فيها الصلاة ثلاثة :

١ – عند طلوع الشمس حتى ترتفع .

٢ – عند استوائها فى وسط السماء حتى تزول .

٣ – عند اصفرارها حتى تغرب .

هذه الأوقات الثلاثة نهى الرسول ﷺ عن الصلاة فيها ، وأخذ الأحناف من ذلك عدم جواز الصلاة فى هذه الأوقات إلا عصر اليوم ، فإنه يصلى مع الكراهة وكره غيرهم الصلاة فى هذه الأوقات .

والشافعية : أجازوا الصلاة التى لها سبب فى هذه الأوقات الثلاثة مثل تحية المسجد ، وعلى ذلك إذا دخل إنسان المسجد فى الأوقات الممنوعة له أن يصلى تحية المسجد عند الشافعية من غير كراهة ، لأنها صلاة لها سبب وهو دخول المسجد .

فى النقطة الهابطة

إن كثيراً من الناس – طلبة وموظفين وعمالا – يسألون فى هذا الموضوع ، يتوضأ الواحد منهم وفى نهاية الوضوء أو فى أثناء الصلاة يحس بقطرة ماء تنزل منه دون أن يكون عنده المقدرة على إمساكها ، ودون أن يكون له اختيار فى عدم نزولها ، ويعيدون الوضوء ويعيدون الصلاة ويكون عندهم قليل أو كثير من القلق فيما يتعلق بنجاسة الثوب . إلى كل هؤلاء وأولئك نقول : إن كتب بعض الفقهاء تتحدث فى هذا الموضوع تحت عنوان (النقطة الهابطة) .

وكانت النتائج التى وصلوا إليها أن هذه النقطة الهابطة لا تنقض وضوءاً ولا تبطل صلاة ولا تنجس ثوباً وأن من أحس بها هابطة فى أى وضع كان فعليه ألاّ يعيرها التفاتاً وهذا من يسر الإسلام ومن تخفيفه على المسلمين ، حتى لا يكون عليهم فى الدين من حرج .

فعلى المسلم أن يتطهر تطهيراً كاملا ، ثم إذا هبطت منه بعد التطهر الكامل قطرة ما من ماء بعد الوضوء فلا يلتفت إليها . . وليس عليه إعادته ، وإذا هبطت فى أثناء الصلاة فليكمل الصلاة وليس عليه إعادتها .

وهى لا تمنع من مس المصحف ، وذلك لأن هذه النقطة لا تنقض الوضوء ، فمن هبطت منه فتوضأ يفعل كل ما يفعله المتوضئ من صلاة ومن مس المصحف ومن العبادة الصادقة بجميع ألوانها .

فى الأذان

حين قدم الرسول صلوات الله عليه المدينة كان الناس يجتمعون إليه للصلاة فى مواقيتها بغير دعوة ، وحينما انتشر الإسلام فى أطراف المدينة فكر الرسول صلوات الله عليه فى وسيلة لإعلام المسلمين ودعوتهم لحضور الصلاة ، وبينما هو فى مشورة مع الصحابة فى ذلك ، قدم عبد الله ابن ثعلبة يقص على النبى ﷺ رؤيا ، فقال له : « يا رسول الله إنه طاف بى هذه الليلة طائف ، مر بى رجل عليه ثوبان أخضران ، يحمل ناقوساً فى يده ، فقلت له : يا عبد الله أتبيع لى هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قال : قلت : ندعو إلى الصلاة قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قال : قلت : وما هو ؟ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أنّ محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ،

حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله . فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتاً منك ، فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب ، وهو فى بيته ، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه ، وهو يقول : يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول الله ﷺ : فلله الحمد على ذلك .

أما حكم الأذان فهو سنة مؤكدة . . .

فى إضافات الشيعة للأذان

ليس مما أضافه الشيعة فى الأذان من قولهم : أشهد أن عليًّا ولىّ الله أصل مقبول أو وجه جائز ، وليس لقولهم فى الأذان حى على خير العمل – أصل إلا ما رواه الطبرانى فى الكبير بسند فيه عبد الرحمن بن عمار بن سعد ضعفه ابن معين – عن بلال : « أنه كان يؤذن للصبح فيقول : حى على خير العمل ، فأمر رسول الله ﷺ أن يجعل مكانها « الصلاة خير من النوم (ويترك) حى على خير العمل » .

والأذان فعل شرعى تواترت الأدلة على وقوعه وعلى صيغته وعلى ما فيها من اختلاف فى أعداد التكبيرات ، وترجيع الشهادة ونحو ذلك .

ولا يجوز الزيادة فيه أو عليه ، لأن فى ذلك افتئاتًا على الشارع وخروجاً عن حدوده . . وهو بوقته وصيغته وحدوده . يجب التزامه على ما ورد ولا يجوز أى تغيير فيه .

وعلى ذلك فلا حكمة لتلك الزيادات إلا المخالفة للسنة والافتئات على الشارع استناداً إلى روايات قد تكون مكذوبة وقد تكون ضعيفة .

ومثل هذه الأمور المخالفة للسنة يعتبر الإصرار عليها كبيرة من الكبائر ، وإن كانت فى أمر غير واجب ، لأنها تفرق بين الأمة ، وتثير اضطراباً وبلبلة بين المسلمين .

وليس الأذان من الأمور السرية أو الأمور الخفية ، لقد كانوا يؤذنون فى عهد الرسول ﷺ وعهد خلفائه الراشدين فلم يرد عنهم أى زيادة من هاتين الزيادتين أو التزامها ، وعلى فرض ثبوت الحديث الذى ذكرناه فإن « حى على خير العمل » قد استبدل بها (الصلاة خير من النوم) فلم يبق لها وجود .

فى فضل الصلاة وفى عقوبة الترك والتهديد عليه

وكيف ينسى الإنسان صلاة سنة كاملة ويدع هذا الفضل الوافر الذى جعله الرسول ﷺ لها ، والخير الذى جعله الله سبحانه جزاء عليها ؟

قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾

وقال جلّ شأنه : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً إلاّ المصلين . . . ﴾ وقال ﷺ :

« خمس صلوات كتبهن الله على عباده ، فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد ، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة » .

وكيف يترك المسلم الصلاة ، أو يتغافل عنها وقد ورد التحذير على تركها بقوله ﷺ « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » ولما أوشك بصر ابن عباس أن يذهب قيل له : نداويك وتدع الصلاة أياماً ؟ قال : لا : إن رسول الله ﷺ قال : « من ترك الصلاة لقى الله وهو عليه غضبان » وآثر ذهاب بصره على ترك الصلاة .

فى المحافظة على الصلاة

يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيما رواه الإمام مالك : لاحظَّ فى الإسلام لمن ترك الصلاة .

وإن من الأدب النبوى الكريم أن يُؤمر الأولاد بالصلاة لسبع وأن يُضْرَبوا عليها لعشر ، ذلك ليرتاض الإنسان عليها ويحيط بها عن طريق المران علمًا وعملا . وعلى من ترك الصلاة فترة من الزمن أن يبادر فى غير تردد ولاتوان إلى تعلمها وإلى أدائها ، لايحول بينه وبين ذلك خجل من الناس أوحياء ، ويمكنه أن يتعلمها ممن لايعرفه ، والمسلمون بحمد الله تعالى على استعداد تام لتعليم الصلاة ومايتصل بها بكل سهولة ويسر لمن لايعرفها ، وكل كتاب من كتب الفقه به باب لشرح : أوقاتها وكيفيتها .

ومن خير الكتب فى ذلك وأسهلها « كتاب إحياء علوم الدين » للإمام الغزالى .

فإذا تعلم الإنسان الصلاة وتاب إلى الله توبة نصوحًا وقضى مافاته بأن يصلى مع كل صلاة ماوفقه الله لأدائه أو يقضى فى كل يوم صلاة يوم أو أيام ، ذلك أرجى لمغفرة الله له .

فى القصد من الصلاة

مَن صلى الصلاة على أنها حركات رياضية تفيد البدن ، فقد خرج بها عما شرعت له وماقصدت به .

فالحركات الرياضية متعددة ومتنوعة وليست محددة بشروط خاصة من طهارة وإخلاص ووقت محدد وشروط خاصة ، وقد لايستطيع القيام بها الرجل الكبير أو الطفل الصغير .

ولكن الصلاة فى حقيقتها عبادة تعبر عن الإيمان وتدل على الصدق فيه ، وشروطها الإخلاص فيها لله وحده فلا يقصد بالطهارة نظافة الظاهر فقط ولايقصد بحركات الصلاة تنشيط الجسم وهكذا ، ولاينصرف عما يتلوه من قرآن أو ينطق به من ذكر .

ومع ذلك فهل فى الصلاة حركات رياضية .

الواقع أن الصلاة – مع مافيها من عبادة الله تعالى وقيام بما أوجب فيها -- تنشيط للجسم ، وأن حركاتها – فيما يرى العارفون بتركيب الأعضاء وألوان الحركات – من أعظم الحركات فائدة لجسم الإنسان فى كل مراحله .

وكأنما أراد الله تعالى أن تكون الصلاة جامعة لفائدة الجسم والنفس وخير الدنيا والآخرة ونظرة الناس للصلاة تختلف : مَن يهتم بالآخرة وصلاح النفس والمشاعر ورضا الله – لايرى منها سوى الجانب التعبدى .

ومن يهتم بالدنيا وصلاح الجسد ، ولايهتم بالآخرة ورضا الله – لايرى منها سوى الجانب الرياضى أو الحركى .

والرسول ﷺ يقول :

مثل الصلوات الخمس كمثل نهرٍ جارٍ عذب على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فما يبق بعد ذلك من الدنس ؟ .

وعلى ذلك فإنه يجب أن يقصد بالصلاة أداء الفرض الذى أوجبه الله تعالى على جميع البالغين العقلاء ، مرضاة لله ورغبة فى ثوابه ، أما ماعدا ذلك من الفوائد فإنها تأتى تبعًا ، وتأتى لاعلى أنها هدف أو غاية ، فغاية الصلاة أداء الفرض ومرضاة الرب ،

فى الصلاة طريق للوصول إلى الله تعالى

الطاعة ومنها الصلاة كانت ولاتزال منذ الأزل ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين – طريقًا للوصول إلى الله تبارك وتعالى والقرب منه جلَّ وعلا وللطاعة الموصلة إلى الله تبارك وتعالى شروط لاغنى عنها ، وهى منها بمنزلة الروح من الجسد .

تلك الشروط هى :

١ – أداؤها على الوجه الصحيح الذى صحت به عن رسول الله ﷺ .

٢ – أداؤها فى الأوقات المحددة لها : إن كانت ذات وقت وإن فات وقتها لعذر شرعى قضيت ولاتترك ، لأنها دين على مؤديها لله تعالى لاخلاص له منه إلاَّ بأدائها .

٣ – تخليصها من شوائب الهوى المستتبع مصلحة دنيوية أوحالا من الأحوال التى اشتهر بها بعض الصالحين من الكشف ونحوه ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ (قل الله أعبد مخلصًا له دينى) .

٤ – التخلص عن المذام كلها بالإقبال على الله وترك المحرمات والمكروهات والرفق بالناس فى حدود ما أمر الله .

متى فرضت الصلاة

الصلاة فرضت ليلة الإسراء والمعراج ، وقبل ذلك كان المسلمون يصلون ركعتين ركعتين ، وقد علَّم جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ كيف يصلى ، ثم علَّم رسول الله (ﷺ) أصحابه وانتقلت إلينا كيفية الصلاة بالتواتر .

فى فرض الصلوات كلها فى وقت واحد

قال الله تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا) أى فرضًا مؤقتًا بأوقات محددة .

وقال أيضًا : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفًا من الليل) .

أخذ العلماء من الآية عدد الصلوات ، فطرفا النهار : الصبح فى أوله ، والظهر والعصر فى آخره ، وزلفًا من الليل : المغرب والعشاء .

وقال رسول الله ﷺ : « خمس صلوات كتبهن الله على العباد » رواه أحمد وروى البخارى

ومسلم : أن أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ ثائر الشعر فقال : يارسول الله أخبرنى مافرض الله علىّ من الصلوات ؟ فقال : الصلوات الخمس وقد فرضت هذه الصلوات الخمس فى وقت واحد ولم تفرض متفرقة الواحدة بعد الأخرى .

أما كيف فرضت هذه الصلوات ، فإنها فرضت فى ليلة المعراج حينما تجاوز صلوات الله وسلامه عليه السماوات سماءً سماء وحينما فتحت له السماوات : سماوات المعرفة ، وسماوات المكانة ، والسماوات المادية فى تلك الليلة المباركة التى وصل فيها رسول الله ﷺ إلى سدرة المنتهى وهى الحد الفاصل بين عالم المادة وعالم الروح ، ثم تجاوز ذلك إلى مرتبة أعلى هى ماسماها الله سبحانه وتعالى بقوله (قاب قوسين أو أدنى) فأوحى الله إليه ماأوحى وكان مما أوحاه الله إليه فى تلك الليلة : الصلاة ومن أجل ذلك كانت الصلاة معراج المؤمنين ، يناجون فيها ربهم ويتقربون بها إليه .

فى تعويد الأولاد على الصلاة

يهتم الإسلام اهتمامًا كبيرًا بإعداد المسلم وتعويده على مطالب الإسلام وتأديبه بآدابه والصلاة من أهم أركان الإسلام وآيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ متعددة ومتنوعة فى الأمر بإقامتها والتحذير من التهاون فيها ، قال تعالى : (وأقيموا الصلاة) وقال : (اتلُ ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ولأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولأنها صلة بالله سبحانه ، ولأنها معراج المؤمن إلى الله سبحانه فقد عمل الرسول ﷺ على أن يغرسها المسلمون فى أبنائهم منذ الصغر وللصلاة شروط وأركان وآداب وتحتاج الصلاة إلى إيمان راسخ وعزم قوى .

وتعويدهم عليها وتعليمهم إيّاها بل ضربهم عليها ، وحدد السن الملائمة للتربية بالحسنى والموعظة الطيبة والسن المتطلبة للضرب والتعنيف . .

روى أبو داود وأحمد والحكم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع ، فأدنى سن يجب علينا فيه تعليم الولد الصلاة سن السابعة ، ويستمر ذلك التعليم والتهذيب ثلاث سنوات كاملة ، فإذا لم تثمر تلك الطريقة فى حمل الصبى على الصلاة وتعويده ضربناه على ذلك وسنه عشر سنوات ، وهو أسلوب تربوى جميل ، يثمر كل خير ويدفع كل شر ، ولايستطيع كشف

علمى أن يعارضه قال الشاعر :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ماكان عوده أبوه

ويقول ﷺ : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ثم يقول : « والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، ومن رعيته أولاده ، خصوصًا إذا كانوا من الصغار ، فيجب تعويدهم منذ الطفولة على الصلاة ، حيث تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، وفى ذلك خير كثير .

الصلاة تفرّق بين المؤمن والكافر

بين الكافر والمسلم هوترك الصلاة ، أما أعمال الخير التى يؤديها المسلم فله ثوابها ، لأن الله لايضيع أجر المحسنين ، ولكنها مهما كثرت لاتغنى عن الصلاة ولاتسد مسدها ، وقد يكون الخير الذى يعمله نافلة لايعاقب على تركها ، ولكن الصلاة فريضة يعاقب الله تعالى عليها من لم يؤدها كاملة . وأما حفظ القرآن فليس فرضًا على كل مسلم ، ولكن لابد أن يحفظ كل مسلم منه آيات يستعملها فى صلاته .

فى جواز قراءة المصلى القرآن نظرًا من المصحف

يجوز للمصلى أن يقرأ من المصحف نظرًا وهو فى الصلاة مالم تبلغ حركاته ثلاث حركات متواليات فى الركعة الواحدة عند الشافعية .

وعند المالكية لاتبطل الصلاة بالحركات مادامت الحركات لاتشعر بخروج المصلى من صلاته .

فى الحكم فى الصلاة فى مسجد به الوطواط

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد / فنفيد بأن هذا مما تعم به البلوى ، ويشق الاحتراز عنه فيعفى عنه بشرط ألاّ يتعمده بالوقوف أو السجود عليه . .

واشترط بعضهم ألاّ يكون الزرق رطبًا أو القدم مبتلة . وبمقتضى القاعدة الفقهية « المشقة تجلب التيسير وعدم اشتراط ذلك .

فى الصلاة فى منزل من ليس مسلماً

لا مانع من الصلاة فى منزل من ليس مسلماً إذا تحققت الطهارة وخلا من الهياكل أو الصلبان ، وما إلى ذلك من كل ما يخالف تعاليم الإسلام .

والدليل على ذلك ما رواه البخارى عن عمر أنه قال : إنّا لا ندخل كنائسكم من أجل التماثيل التى فيها الصور ، وكان ابن عباس يصلى فى البِيعة إلا بيعة فيها تماثيل .

وأخرج ابن أبى شيبة عن بكر قال : كتب إلى عمر من نجران أنهم لم يجدوا مكاناً أنظف ولا أجود من بيعة ، فكتب : انضحوها بماء وسدر - أى (وصلّوا فيها) .

والمهم فى الصلاة أن تكون على وقتها ، وأن تتحقق شروطها من ستر العورة وطهارة البدن والثوب والمكان ، فقد سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أحب إلى الله فقال : الصلاة على وقتها وحذر رسول الله ﷺ من تأخير الصلاة عن وقتها ، وبين أن ذلك من دلائل الابتداع .

على أن الصلاة فى منزل من ليس مسلماً قد تكون سبباً فى تفتح قلبه على الإسلام .

وبصفة خاصة إذا كانت الصلاة نابعة من قلب نقى وصادرة عن إيمان عميق .

عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : أتيت المدينة والنبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، أى (سورة الطور) ، وذلك أول ما وقر الإيمان فى قلبى ، وكان جبير هذا من أسارى بدر . فمن الممكن أن تكون الصلاة المستكملة لشرائطها وسيلة من أنجح الوسائل للدعوة إلى الإسلام وإظهار محاسنه ، وهذا ما ينبغى أن يحرص عليه المسلمون .

فى الصلاة فى السوق

إن الصلاة فى السوق صحيحة متى استوفت شروطها من دخول الوقت والوضوء والطهارة يقول رسول الله ﷺ : « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .

بيد أن من المعروف أن الصلاة مناجاة قلبية ولسانية بين العبد وربه ، وكلما كانت هذه المناجاة واعية صافية كانت الصلاة أكثر قبولا وأكثر تحقيقاً لأهدافها التى منها النهى عن الفحشاء والمنكر .

والسوق عادة مليء بالحركة ومليء بالضجيج ومليء بكثير مما يصرف المصلى عن هذه المناجاة ويجعل الذهن مشتتاً وموزعاً بين الصلاة والأحوال التى تجرى فى السوق ، ومن أجل ذلك كره بعض الفقهاء الصلاة فى السوق ، ولكن هذه الكراهة لا تؤدى إلى بطلانها .

وإذا كان رسول الله ﷺ يقول ما معناه « ليس للإنسان من صلاته إلا ما عقل » فإن من الخير للمسلم أن يتلمس من أجل الصلاة الجو الذى يناسب صفاء المناجاة ، ومع استكمال تعقله لكل حركة أو فعل أو قول تتضمنهْ الصلاة ، وبذلك تتوفر أهداف الصلاة كاملة تامة .

ولا يفوتنا فى النهاية هذه الإجابة أن نذكّر أهل الأسواق من تجار وعمال بقوله تعالى : (يٰأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة . .) إلى قوله خير الرازقين .

فى من تذكر فى أثناء الصلاة أن وضوءه ناقص

من تذكر وهو فى صلاة الجماعة أنه نسى فرضاً من فرائض الوضوء فإن صلاته باطلة ، وعليه أن يخرج من الصلاة إذا تيسر له الخروج ، دون أن يمر أمام أحدٍ من المصلين ، ودون أن يتضرر به فى خروجه أحد من المصلين فى أثناء الصلاة ، وإن لم يتيسر له الخروج ظل فى مكانه من الصف بلا صلاة حتى تنتهى الصلاة ثم يذهب فيتوضأ ويحسن الوضوء ويصلى بعد ذلك .

قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم . . .) إلخ الآية . وقال ﷺ « الطهور شطر الإيمان » ، فكل صلاة بوضوء ناقص فرضًا من فروضه فهى صلاة باطلة .

فى صلاة الأغلف

تصح صلاة الأغلف وليس فى ذلك شىء من الكراهية أو عدم الصحة ، ذلك لأن الختان سنة ، وتارك سنة مثل سنة الختان ما دام ليس مستهتراً بالسنة أو مستنكفاً عن الاتباع لا مانع يمنع من قبول صلاته .

وليس من شروط صحة الصلاة الاختتان . . وليس من صلة بين الصلاة والاختتان .

والصلاة كما هو معلوم – ركن هام من أركان الدين ، وأساس راسخ من أسس الإيمان لا تسقط عن أحد من المسلمين إلا بالموانع الشرعية كما حددها الإسلام فى وضوح .

فعلى هذا الأغلف أن يختتن اتباعاً للسّنة واقتداءً برسول الله ﷺ ، وإن لم يختتن فعليه الصلاة وهى صحيحة منه وليس فيها شىء ينزل بها عن درجة صلاة المختتنين . .

فى إعفاء الشيخ الطاعن السن من أداء الصلاة باعتباره ضعيفاً لا يستطيع أداءها

الصلاة هى الركن الثانى من أركان الإسلام ، يقول عليه الصلاة والسلام : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » .

وللصلاة أهمية كبرى فى الإسلام ، وذلك أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، يقول الله تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وهى تذهب السيئات وهى عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، وهى الفارقة بين المؤمن والكافر . ومن يسر الإسلام وسماحته أنه خفف على المريض والضعيف فى أداء الصلاة فمن عجز عن القيام صلى قاعداً ، ومن عجز عن الركوع والسجود صلى بالإيماء ولا تسقط عنه الصلاة بحال من الأحوال ، لأنه يستطيع أن يؤديها بأى كيفية ، إلا إذا لم يستطع الإيماء ولا الحركة فإنه تؤخر عنه الصلاة . فإذا دام عجزه أكثر من خمس صلوات سقطت عنه .

يقول تعالى : (أقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات) ويأمر الله سبحانه وتعالى أمراً صريحاً جازماً بالمحافظة على الصلاة فيقول : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) ويقول ﷺ : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر » .

فى حكم من صلى قبل أن يقيم الإمام الصلاة

إذا كان المراد من السؤال من صلى منفرداً بعد الأذان وقبل أن يقيم الإمام الصلاة فصلاته صحيحة ، غير أنه آثم لتركه السنة المؤكدة ، وهى الصلاة مع الجماعة .

أما إذا كان المراد أنه دخل فى صلاة الجماعة متابعاً للإمام قبل أن يصلى الإمام أى قبل أن يدخل فى الصلاة فصلاته باطلة ، لأن من شروط صحة صلاة الجماعة ألاّ يسبق المأموم الإمام وهذا قد سبقه بتكبيرة الإحرام .

فى التلفت فى أثناء الصلاة

إن التلفت فى الصلاة مكروه ، وذلك لاشتغال المصلى بغير الله عز وجل. وقوله تعالى : (قوموا لله قانتين) أى خاشعين متبتلين وجلين من ألا تقبل الصلاة .

والصلاة التى يحبها الله ورسوله إنما هى صلاة الخاشعين ، والخاشع فى الصلاة مستغرق فى أدائها على خير وجه فلا يتأتى أن يتلفت يميناً أو يساراً ولقد قال رسول الله ﷺ فى رجل غير هادئ فى الصلاة : « لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » . وكان ذلك ذمًّا له والعبد فى صلاته واقف بين يدى ربه والمؤمن الصادق يلتزم الأدب بين يدى الله سبحانه ، فهو حينما يقول بادئاً الصلاة : الله أكبر ، فإنه ينصرف عن كل ما عدا الله سبحانه ، ويستغرق فيما يؤديه على ما يحب الله ورسوله . . .

فى البصق فى أثناء الصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين :

الصلاة يجب فيها الخشوع والخضوع وعدم الإتيان بما يتنافى مع الآداب ، لأن المصلى بين يدى ربه ، وهو منذ أن يقول : « الله أكبر » يجب أن يكون ذلك شعاره بالفعل ، ويجب عليه منذ افتتاح الصلاة أن يلزم منتهى الأدب مع من هو واقف بين يديه ، وهو الله سبحانه ، ولذا يكره البصق فى أثناء الصلاة ، لأن الإنسان لا يفعله مع رئيس أو غيره إن كان واقفاً بين يديه ، لأن فيه إساءة أدب مع من يتحدث معه .

بيد أنه إذا غلبه ذلك ولم يجد مفرًّا منه فيأخذه بطرف ثوبه أو منديله ، ومن المعروف أن من آداب الإسلام عدم البصق تجاه القبلة فى الصلاة ، وعدم البصاق فى المسجد .

فى من تذكر صلوات سنة فاتت

لا تبطل الصلاة التى يقوم بها (بأدائها) من تذكر صلوات سنة كاملة فاتته ، وقد ورد فى مثل ذلك عن ابن عمر قال : « من نسى صلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام فليتم صلاته ، فإذا فرغ

منها فليصل التى نسى ثم ليعد التى صلاها مع الإمام » أخرجه مالك والطحاوى والدار قطنى وغيرهم .

وعليه أن يقضى هذه الفوائت بمجرد تذكرها لحديث أنس أن النبى ﷺ قال : « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك ، فإن الله تعالى قال : (أقم الصلاة لذكرى) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

أما كيفية قضاء هذه الصلوات : فإن على من يريده أن يبادر إليه ، فى كل وقت يتمكن فيه من ذلك ويترك النوافل ما عدا ركعتى الفجر والشفع المتصل بالوتر ، ويجوز أن يقضى مع كل صلاة مثلها أو صلاتين مثلها تيسيراً له . .

وترك هذه الصلوات المتعددة لا يسقط أداءها بل هى معلقة بذمة صاحبها . . على أننا نستبعد أن ينسى الإنسان صلوات سنة كاملة ، فالأذان يذكر وطلوع الشمس وغروبها وتبدل الليل والنهار وغير ذلك مما يدل على وقت الصلاة . . ومن هنا فإن على من يترك الصلاة سنة كاملة إذا قضى هذه الصلوات إثم التأخير .

فى صلاة المسلم وبجواره فاسق أو فاجر

لا يبطل الصلاة أن يصلى الإنسان وبجواره فاسق أو فاجر أو حتى كافر ، فإنه ليس من شروط الصلاة أن يصلى الإنسان وبجواره رجل صالح .

بيد أنَّ على المصلى الصالح واجباً اجتماعيًّا ودينيًّا ، وهو واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو واجب الإرشاد والهداية .

ولأن يهدى الله به رجلا خير من الدنيا وما فيها ، فعلى المصلى المستقيم أن يبين للمصلى المنحرف حكم الله فى انحرافه ويبين له الضرر الذى يعود عليه وعلى المجتمع من أذى الانحراف .

يقول رسول الله ﷺ من رأى منكراً فليغيره . . . إلخ .

فى مَنْ رفعت عنه الصلاة

يقول رسول الله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث : عن الصبى حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق » .

فالصبى قبل البلوغ لا تجب عليه الصلاة ، أما قوله – صلوات الله عليه – حاثًّا على الصلاة

« مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم لعشر » . فإن الرسول صلوات الله عليه يهدف من وراء ذلك إلى فرض التعود على الصلاة منذ الصغر ، حتى تصبح مألوفة متعودة عند البلوغ ، لأن التعوّد مما يسهل الأعمال ، وفترة الصبى إذن لا تكليف فيها ، ولذلك فإنه يجب قضاء ما فاته منها ، وعلامة البلوغ الذى يوجب التكليف إنما هى الاحتلام عند الذكر ، والحيض عند الأنثى كما هو معروف فى كتب الفقه .

فى أمر الأولاد بالصلاة

أهم أركان الإسلام وأولها هى الصلاة ، فهى عماد الدين . وقد شرعت للمسلمين قبل أن تشرع الأركان الأخرى وطبقاً لحديث رسول الله ﷺ يؤمر الأولاد بالصلاة وهم فى سن السابعة ليتعودوا عليها ، فإذا بلغ الناشئ العاشرة ولم يصلٍّ ضربه ولى أمره كى يؤدى الصلاة ، وهو فى هذه السن – طبعاً غير مكلف – ولكن يضرب عليها حتى يتعودها ويدرك أهميتها ، والطفل فى سن العاشرة لا يصوم لمشقة الصيام عليه ولكنه يصلى .

فى كيفية الصلاة

إذا دخل الإنسان فى حضرة مولاه – أعنى : فى الصلاة – فينبغى ألا يشغل بشىء من النوافل أو الفرائض الأخرى التى شرعها الله سبحانه وسنها رسوله ﷺ سوى الصلاة .

لأننا مأمورون بالتأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله لا سيما لأنه أمرنا أن نؤدى فريضة الصلاة كما أداها فقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

ولم يؤثر عنه – ﷺ – أنه صلى على نفسه أو أمر أحداً من أصحابه أن يصلى عليه ويسلم فى الصلاة فى غير التشهد .

والعبادات المشروعة سنة متبعة يجب ألا يدخلها ما ليس منها ، وألا يتأول فى ذلك لتبقى على هيئتها كما أخذت عنه ﷺ .

وليس لأحد من المجتهدين أن يتأول وأن يشرع فى الصلاة غير ما شرع الله تعالى وسن رسوله ﷺ ، وهذا ما عليه الجمهور غير أنه صلّى وسلم على رسول الله – ﷺ – فى الصلاة فى غير التشهد الأخير ، والتشهد الأول عند الشافعى رضى الله عنه فإن ذلك لا يفسد الصلاة ، وعلى المصلى أن يلتزم بما نص عليه الشارع ليكون مناسباً برسول الله ﷺ فى ذلك المشهد العظيم ،

مشهد الصلاة ، ولا يكون كالذى يرى نقضاً فيما شرع الله سبحانه وسنّ رسوله ﷺ فتذل قدمه ، ولا يكون له ثبات فى طريق الله سبحانه .

أما خارج الصلاة فالصلاة على رسول الله ﷺ من خير ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل ، ولا سيما أن الله أمرنا بالصلاة عليه : (يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليماً) ، ويجب الصلاة على رسول الله ﷺ عند ذكر اسمه قال ﷺ : « أرغمَ الله أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ علىّ » ﷺ .

فى قراءة البسملة فى الصلاة

إن البسملة – بسم الله الرحمن الرحيم – من القرآن باتفاق الأئمة جميعاً ، وهى جزء من آية من سورة النمل بلا خلاف ، قال تعالى : (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) أما غير سورة النمل ففيها خلاف .

فعند الشافعية هى آية من كل سورة من سور القرآن الكريم ، أى أنها مائة وثلاث عشرة آية بعدد سور القرآن ما عدا سورة براءة ، فليست آية منها . وعند الحنفية أنها آية واحدة من جميع القرآن أنزلت للفصل بين السور .

ومن تركها فى الصلاة فقد ترك آية من الفاتحة التى هى ركن من أركان الصلاة عند الشافعية وعلى ذلك فلا تصح صلاته بدونها .

وعند الحنفية صلاته صحيحة لأنها ليست آية من سورة الفاتحة .

والخطب إذن فى أمر قراءتها وعدم قراءتها هين مادام الأئمة قد اختلفوا فيها ، فبأى الرأيين أخذ الإنسان فصلاته صحيحة ، غير أن الأخذ بتلاوة البسملة فى كل فاتحة فى الصلاة أولى للحيطة وللخروج من كل خلاف .

فى وضع اليدين على الصدر فى أثناء الصلاة

إن وضع اليدين على الصدر ، أو على ما تحت الصدر ، أو عدم وضعها لا يفسد الصلاة ، وذلك أن وضع اليدين على الصدر من سنن الصلاة ، إنه من السنن وليس من الواجبات أو الفروض ، ويستوى ذلك بالنسبة للرجل والمرأة على السواء ولقد قال الكمال بن الهمام وهو من أئمة علماء الفقه : لم يثبت عن النبى ﷺ ، حديث صحيح يوجب كون وضع اليدين تحت

الصدر أو على الصدر ، والحق أن وضع اليدين على الصدر أو تحته أو إرسالهما قد فعله الصحابة ، ولكن الأمر المهم فى ذلك بالنسبة للرجل والمرأة هو أنه إذا وضع الرجل أو المرأة اليد على الأخرى ، فإن اليمنى هى التى توضع على اليسرى ، فعن جابر رضى الله عنه فيما رواه الإمام أحمد قال :

«مرّ رسول الله ﷺ برجل وهو يصلى ، وقد وضع يده اليسرى على اليمنى ، فانتزعهما ووضع اليمنى على اليسرى» .

وللمرأة إذن أن تضع يديها على صدرها أو تحت صدرها أو ترسلهما .

فى ذهاب النساء لصلاة الجمعة

لا يجب على النساء الذهاب لصلاة الجمعة ، ويجوز لهن – إذا أمنت الفتنة عليهن – حضور الصلاة وأداؤها ، ويجزى ذلك عنهن ، لأن إسقاط الجمعة للتخفيف عنهن . فإذا لم تذهب النساء لحضور الجمعة ، أو إذا خيفت الفتنة من ذلك الحضور – فصلاة الجمعة بالنسبة إليهن هى صلاة الظهر أربع ركعات .

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام عناية الإسلام بحفظ كرامة النساء ، والعمل على منع ما يمكن أن يصيبهن من مضايقات ، وفى نفس الوقت حرصه على منع العبادة من أن يتطرق إليها ما يفسدها أو يخرج بها عمّا حدّ لها من حدود .

أليس فى ذلك ما يشير إلى وجوب احترام المرأة لتعاليم دينها وبعدها عن كل ما يسبب الخروج عن هذه التعاليم فى الزى أو السلوك أو الاجتماع أو الاختلاط .

ثم إن فيه أيضاً وجوب تجريد العبادة من كل خروج بها عن حدودها والابتعاد بها عن كل ما يشغل أو يبعد عن الجو المطلوب لأدائها على أكمل الوجوه .

فى صلاة المسافر فى القطار أو السيارة

إن كان المصلى يعلم بالجهة التى يتوجه إليها بالقطار أو السيارة فيستدير نحو القبلة ثم يكمل صلاته ولا إعادة عليه . أما إذا كان لا يعلم أن القطار أو السيارة وهو فى الصلاة قد غير جهة السير واستمر فى صلاته إلى آخرها ولم يسأل بعد ذلك فالصلاة صحيحة لعدم علمه ولا إعادة عليه ، وإذا استدار القطار أو السيارة إلى أى جهة غير جهة القبلة يستدير إلى القبلة حتى يتم صلاته مُستقبلاً القبلة ، ولو تحول عن القبلة لا تجزئ صلاته فى قولهم جميعاً .

فى صلاة الجنازة على المولود

المولود الذى مات بعد ولادته مباشرة يصلى عليه صلاة الجنازة ما دام قد نزل حيًّا من بطن أمه ، فقد أجمع أهل العلم على أن الطفل إذا عرفت حياته واستهل يُصلَّى عليه .

ومعنى الاستهلال : الصياح أو العطاس ، أو أى حركة يعلم بها حياة الطفل بعد ولادته .

روى الإمام أحمد وأبو داود عن المغيرة بن شعبة عن النبى ﷺ قال : « الراكب خلف الجنازة والماشى أمامها قريباً منها عن يمينها أو عن يسارها والسقط لا يُصلى عليه ويُدعى لوالديه بالمغفرة والرحمة » .

فى قصر الصلاة والفطر فى السفر الذى لا مشقة فيه

قال الله تعالى : (ومن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أُخر) .

هذه الآية تبيح للمريض والمسافر الفطر ، وذلك لأن السفر مظنة المشقة ، لذلك رخص الله للمسافر أن يفطر فيه .

روى مسلم عن حمزة الأسلمى قال : « يا رسول الله أجد منى قوة على الصوم فى السفر فهل علىّ جناح ؟ فقال : هى رخصة من الله تعالى فمن أخذ بها فحسن ، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه » .

والمسافة التى تسمى مسافة سفر هى ما يساوى اثنين وثمانين كيلومتر تقريباً ، وما بين مصر وطنطا أو بينها وبين أسيوط يعتبر مسافة سفر .

غير أن من لم يتضرر بالسفر ولم يجد فيه مشقة فصيامه أولى من فطره عملا بقوله تعالى : (وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون) . .

فى من يصلى وأولاده الصغار يحومون حوله .

من يصلى وأولاده الصغار يحومون حوله أو يتعلقون به صلاته صحيحة ما لم يكن بمن يتعلق به أو يحوم حوله نجاسة تبطل بها الصلاة ، فقد كان رسول الله ﷺ يصلى وهو يحمل حفيدته ابنة السيدة زينب فى أثناء صلاته ، حتى إذا ركع وضعها على الأرض فإذا رفع من الركوع احتملها

وقد ورد أن الحسن والحسين – رضى الله عنهما – كانا يتعلقان بالنبى ﷺ وهو ساجد ، فما كان يرفع من السجود رأسه حتى ينزلا .

وفى ذلك تأليف للأولاد وشفقة ورحمة بهم . . والصلاة فى حقيقتها خشوع لله سبحانه وتعالى ، وتهذيب للنفس وتكميل لها بجميع الفضائل التى يجب أن يتحلى بها المسلم فى كل شئونه فكيف يضيق المصلى بمن يحوم حوله من الأولاد وهو بين يدى مولاه الذى يحب منه أن يكون بالمؤمنين رءوفاً رحيماً ، وبأولئك الأولاد الصغار عطوفاً ودوداً .

فى أوقات الصلاة

للصلوات الخمس أوقات محدودة لابد أن تؤدى فيها لقوله تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

وقد حددت السنة هذه الأوقات روى عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ جاءه جبريل عليه السلام فقال له : « قم فصله فصلى الظهر حين زالت الشمس ثم جاءه العصر فقال : قم فصله فصلى العصر حين صار ظل كل شىء مثله ثم جاءه المغرب فقال : قم فصله فصلى المغرب حين وجبت الشمس ، ثم جاءه العشاء فقال : قم فصله فصلى العشاء حين غاب الشفق ، ثم جاءه الفجر حين برق الفجر أو قال سطع الفجر . ثم جاءه من الغد للظهر فقال : قم فصله فصلى الظهر حين صار ظل كل شىء ومثله ، ثم جاءه العصر فقال : قم فصله فصلى العصر حين صار ظل كل شىء مثليه ثم جاء المغرب وقتاً واحداً لم يزل عنه ، ثم جاءه العشاء حين ذهب نصف الليل أو قال ثلث الليل فصلى العشاء ثم جاءه حين أسفر جدًّا فقال : قم فصله فصلى الفجر ثم قال ما بين هذين الوقتين وقت » رواه أحمد والنسائى والترمذى وقال البخارى : هو أصح شىء فى المواقيت يعنى إمامة جبريل ، أما وقت الجمعة فهو وقت صلاة الظهر فلا تصح قبلها ولا بعدها .

فى جواز الاعتماد على الساعة فى أداء فريضة الصلاة

إن الإسلام فى بساطته ويسره ربط كثيراً من شعائره بالنسبة لأوقاتها بالمظاهر الطبيعية للكون ومن ذلك أوقات الصلاة ، وأوقات الصلاة التى حددها رسول الله ﷺ بحسب المظاهر الطبيعية هى كما حددها الحديث السابق .

وعن عقبة بن عامر ، أن النبى ﷺ قال : « لا تزال أمتى بخير أو على الفطرة ما لم يؤخروا

المغرب حتى تشتبك النجوم » وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « الشفق الحمرة ، فإذا غاب الشفق وجبت الصلاة أى صلاة العشاء » ولما اخترعت الساعات – وكان اختراعها فى الحضارة العربية حاول علماؤها تحديد وقت الصلاة بحسبها فعينوا الأزمنة والأوقات لكل فرض من الفروض متبعين فى ذلك توجيهات رسول الله ﷺ فالساعة تحديد للوقت بحسب الأصول الإسلامية فيجوز الاعتماد عليها فى أداء فريضة الصلاة .

فى السنة بعد تكبيرة الإحرام

السنة بعد تكبيرة الإحرام أن يتريث المصلى قبل قراءة الفاتحة فترة يتمكن فيها من افتتاح الصلاة لما صح عن رسول الله ﷺ أنه كان يفتتح الصلاة به من قوله : الله أكبر كبيراً ، ثلاثاً والحمد لله كثيراً ثلاثاً ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثاً ، وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا مسلماً وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين .

ثم يقرأ البسملة مع الفاتحة خروجاً من خلاف من اعتبرها آية مستقلة من الفاتحة وقال : بأن تركها يبطل الصلاة .

فى التشهد فى الصلاة

إن الصلاة من الله سبحانه وتعالى على أحد أفراد عباده إنما هى الرحمة تفيض منه سبحانه وتعالى على عبده .

ورحمة الله إنما هى رضاه وتجلياته ، وهذه التجليات لا تحد ولا نهاية لها ، وهى فياض باستمرار ، لأن الله كريم جواد والصلاة على إبراهيم عليه السلام هى رحمة الله وبركاته عليه وعلى أهل بيته ، وقد ورد فى القرآن الكريم بالنسبة لسيدنا إبراهيم قوله تعالى : (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) وفى قوله تعالى : (سلام على إبراهيم) وصلاة الله سبحانه وتعالى على إنسان هى كاملة بالنسبة لهذا الإنسان أى أنها تتناسب هى وما فطره الله عليه من خير وصلاح وإحسان ، ونحن حينما نقول اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فالمعنى اللهم صلِّ على محمد بما يناسب ما فطرته عليه من كمال ذاتى كما صليت على إبراهيم بما يناسب ما فطرته عليه من فطرة طيبة ، والمثلية هنا إذن ليست مثلية اتحاد

كمًّا وكيفاً ، وإنما هى مثلية تشابه فى الصلاة وإن اختلفت الصلاة على كل منهما كمًّا وكيفاً : كل بحسب ما يناسبه وما فطره الله عليه .

أما لماذا نصلى عليه نحن ولقد صلى الله عليه وصلت ملائكته عليه وليس بعد صلاة الله وملائكته من حاجة لصلاتنا نحن عليه فإنما ذلك من أجل فائدتنا نحن ، فإننا كلما ارتبطنا برسول الله ﷺ بوساطة الصلاة عليه زادنا الله نوراً وأكرمنا ، ففائدة الصلاة عليه تعود علينا نحن ، لقد أراد سبحانه أن يوثق صلتنا برسول الله ﷺ . .

فى هل يجوز عند المذاكرة الجمع فى الصلوات

لا يجوز ذلك فليست المذاكرة عذراً مبيحاً للجمع عند القائلين به ، والجمع لا يجوز عند الحنفية إلاّ فى عرفة ومزدلفة للحاج فقد يصلى الحاج الظهر والعصر قصراً وجمعاً مع الإمام فى وقت الظهر ، أى أنه يصلى فى عرفة الظهر ركعتين ويصلى العصر بعده مباشرة ركعتين كذلك بلا سنة بينهما ، ويصلى المغرب والعشاء جمعاً وقصراً للعشاء فى وقت العشاء بمزدلفة ، والأول جمع تقديم والثانى تأخير وأباح الشافعية الجمع – تقديماً أو تأخيراً – بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء ، للمسافر القصر بشرط السفر عندهم يجوز جمعها جمع تقديم فقط بسبب نزول المطر ويشترط لذلك شروط مبسوطة فى كتاب فقه الشافعية .

غير أنه يجوز للطالب إذا ما ضاق وقته بسبب كثرة المذاكرة وقرب الامتحان مثلا أن يجمع بين هذه الصلوات جمعاً صوريًّا كأن يصلى الظهر فى آخر وقت الظهر ويصلى العصر فى أول وقت العصر وهكذا .

وبذلك يكون مؤديا كل فريضة فى وقتها ، وموفراً لنفسه زمناً يستغله فى مذاكرته والله الموفق .

فى معرفة أوقات الصلاة فى البلاد التى لا تظهر الشمس فى سمائها فى بعض شهور السنة

هناك بلاد لا تظهر فيها الشمس فى بعض شهور السنة ، وأهل هذه البلاد يؤدون الصلاة بحسب المواقيت فى أقرب البلاد المعتدلة إليهم .

والصلاة لا تسقط إذا ظهرت الشمس أو لم تظهر ، والله سبحانه وتعالى يقول : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

والصلاة هى الركن الثانى : من أركان الإسلام ، إنها الركن الذى يتلو شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله مباشرة ، وهى لا تسقط بأى حال من الأحوال سواء أشرقت الشمس أو لم تشرق ، وأمر تحديد مواقيت الصلاة فى هذه البلاد أصبح الآن أمراً ميسراً بفضل الوسائل العلمية اليسيرة التى تعين على ضبط الوقت وتحديده بحسب أقرب البلاد المعتدلة إلى الإقليم الذى لا تشرق فيه الشمس شروقاً عاديًّا . .

فى أداء الصلاة قبل الوقت

لا يجوز أداء الصلاة قبل الوقت ، ولا تصح إلاّ فى حالات خاصة محددة هى حالات جمع الصلاة جمع تقديم . وأجمع العلماء على أن الجمع بين الظهر والعصر فى وقت الظهر بعرفة سنة ، وهو جمع تقديم ، والجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة فى وقت العشاء سنة أيضاً وهو جمع تأخير ، وماعدا ذلك من ألوان الجمع غير جائز إلاّ فى وقت السفر فإنه يجوز جمع الظهر مع العصر والمغرب مع العشاء جمع تأخير ، لما أخرجه البخارى ومسلم عن أنس قال كان رسول الله ﷺ إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس – أى قبل حلول وقت الظهر أخر الظهر إلى وقت العصر – نزل فجمع بينهما ، فإن زاغت الشمس – أى حل وقت الظهر قبل أن يرتحل – صلى الظهر ثم ركب .

وما أخرجاه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : رأيت رسول الله ﷺ إذا أعجل السير فى السفر يؤخر المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء .

والسبب فى ذلك هو امتداد وقت الظهر والمغرب لما بعد العصر والعشاء إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

وعلى ذلك فتقديم الصلاة عن وقتها لا يجوز ، وتأخير الصلاة عن وقتها لا يجوز ، إلاّ فى يوم عرفة وفى السفر ، وحكم السفر فى تأخير الصلاة النوم الاضطرارى والنسيان والمرض المذهب للعقل طول الوقت ، وقد حذر الرسول ﷺ من تأخير الصلاة عن أول وقتها وبين أن فى ذلك خروجاً عن السنة وإقامة للبدعة .

ومع ذلك فإذا خرج وقت الصلاة وجب أداؤها متى تيسرت الفرصة ليسقط الفرض عن المصلى وعليه إثم التأخير إن لم يكن عذر دعا إليه . .

فى الشك فى الوضوء والصلاة

يكفى غلبة الظن بزوال آثار البول لإتمام الطهارة ولا يلزم بل يكره ، بل يحرم إعادة التطهر من النجاسة ، لأن ذلك استسلام للوسوسة ، وخروج عن حد الاعتدال ، وعليك إزالة هذا الشك من نفسك بقطع أسبابه ، وهو معاودة التطهر مرة بعد مرة .

وفى الوضوء يكفى غسل كل عضو مرة لتحقيق الطهارة ، ويندب تكرار الغسل ثلاث مرات لكل عضو ، وما عدا ذلك يعتبر إسرافاً عليك تجنبه . وإذا ما انتابك الشك فى غسل عضو ما . . أخذت بغالب الظن ، فإن غلب على ظنك عدم غسله أعدته وأعدت ما بعده ما دامت الأعضاء لم تجف ، وإلا أعدت غسل العضو الذى شككت فيه وحده أما إذا كان الشك فى وقوع الوضوء أو عدم وقوعه ، أخذت بما غلب على ظنك أو اعتمدت ما يناقض الشك ويقضى عليه .

وفى الصلاة إذا شككت فى أنك أتممت الصلاة أو بقيت ركعة أوصليت ركعتين أو ركعة بنيت على ما تيقنت أنك صليته وأكمل الصلاة ، فقد روى مالك ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا شك أحدكم فى صلاته ، فلم يدر كم صلّى ، أثلاثا أم أربعاً ، فليصل ركعة ، وليسجد سجدتين وهو جالس قبل التسليم ، فإن كانت الركعة التى صلّى خامسة شفعها بهاتين السجدتين وإن كان رابعة فالسجدتان ترغيم للشيطان » .

وعن ابن عمر رضى الله عنه قال :

« إذا شك أحدكم فى صلاته فليتوخ الذى يظن أنه نسى من صلاته فليصله ، ثم ليسجد سجدتى السهو وهو جالس » وروى مثله عن عبد الله بن عمرو على أن هذا الشك فى التطهر والصلاة بهذه الصورة لا يدل إلاّ على انصراف عن العمل وابتعاد عن التفكير فيه ، وعلى صاحبه محاولة القضاء عليه بإهماله والعمل على الظن . وجبر ما يمكن أن يكون من نقص فى الصلاة بسجود السهو كما فى الحديث .

ومما وصف لإزالة الشك قراءة المعوذتين قبل الصلاة ثلاث مرات ، وقراءة : (ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون) ثلاث مرات . وقد وصفت لإزالة الشك تكرار الصيغة التالية : « سبحان الملك الخلاق . إنْ يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » . .

فى وقت صلاة الصبح

وقت صلاة الصبح من طلوع الفجر إلى شروق الشمس ، فإذا طلعت الشمس مضى وقت صلاة الصبح أداءً . . . ووجب قضاؤها وتصلى على أنها قضاء . .

ولا يلزم الأذان على المرء لصلاة الصبح بعد طلوع الشمس ، وإنما عليه أن يقيم لها الصلاة ، ولو كانوا جماعة غلبهم النوع فعليهم الأذان والإقامة والصلاة جماعة لما رواه البخارى بسنده عن أبى قتادة قال : « سرنا مع النبى ﷺ ... فقال : بعض القوم لو عرَّست بنا يا رسول الله ! قال : أخاف أن تناموا عن الصلاة . . قال بلال : أنا أوقظكم فاضطجعوا وأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه فنام ، فاستيقظ النبى ﷺ وقد طلع حاجب الشمس ، فقال : يا بلال : أين ما قلت ؟ قال : ما ألقيت علىّ نومة مثلها قط ، قال : إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها عليكم حين شاء . . يا بلال : قم ، فأذن بالناس بالصلاة . . فتوضأ . . فلما ارتفعت الشمس قام فصلى » .

فى متى يمكن الجمع بين صلاتين ؟ ولماذا لا يجوز الجمع بين الصبح والظهر ولا بين العصر والمغرب ؟

يمكن الجمع بين صلاتى الظهر والعصر ، وبين صلاتى المغرب والعشاء جمع تقديم بصلاة الثانية فى وقت الأولى معها أى صلاة العصر مع الظهر فى وقت الظهر ، وصلاة العشاء مع المغرب فى وقت المغرب ، ويمكن الجمع بين كل من الصلاتين جمع تأخير بصلاة الظهر مع العصر فى وقته وصلاة المغرب مع العشاء فى وقت العشاء ، وذلك كله مشروط بالسفر ، فإذا كان وصوله إلى الجهة التى يقصد إليها بعد فوات وقت العصر أو العشاء جمع جَمْعَ تقديم قبل السفر ، وإذا كان سفره قبل حلول وقت الصلاة الأولى ووصوله فى وقت الثانية جَمَعَ جَمْعَ تأخير بعد الوصول ، وذلك عند مالك والشافعى وأحمد خلافاً لأبى حنيفة وقيل يجوز الجمع بين المغرب والعشاء للمطر ، لمن يصلى جماعة بمسجد يُقصد من بعد ، لئلا يتأذى بالمطر إذا عاد مرة ثانية لصلاة العشاء .

وهل يجوز الجمع للخوف ؟ قيل نعم . والراجح أن الجمع لا يجوز ، وننتهى من ذلك كله إلى أن الجمع للسفر هو الأساس ، والجمع للمطر يجوز أحياناً عند بعض العلماء .

أما الجمع المتفق على جوازه فهو الجمع بين الظهر والعصر فى أول وقت الظهر بيوم عرفة ، والجمع بين المغرب والعشاء فى وقت العشاء بمزدلفة بعد الوقوف بعرفة والانصراف منها إلى المشعر الحرام .

والأساس فى ذلك كله التيسير على المسلم والترخيص له فى تمام العبادة فى كل الظروف . أما الجمع الذى لا يجوز فهو ما لم يكن فى إطار ما قدمناه لمن يجمع الظهر مع العصر فى وقت العصر والمغرب مع العشاء فى وقت العشاء كسلا أو تراخيا ، لأن أول الوقت رضوان الله ولأن إقامة الصلاة الإتيان بها فى وقتها المحدد لها على ما شرعها الله .

أما صلاة العصر أو العشاء قبل وقتها فلا يجوز لأن العلم بدخول وقت الصلاة بالتعيين شرط فى صحة الصلاة .

فى تحديد القبلة فى الصلاة

إن استقبال القبلة أمر ضرورى للمصلى ، فهو شرط فى صحة الصلاة وقبولها ، والله سبحانه وتعالى يقول : (فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) ، ولابد من تحرى القبلة والوصول إلى العلم اليقينى ، فى ذلك من أجل أمر آخر أيضاً ، وهو أن يفرغ المصلى لتوجيه وجهه للذى فطره . فلا يكون موزع القلب بين صحة الصلاة وبطلانها ، وبين التفكير فيما إذا كان متجهاً نحو القبلة أو متجهاً إلى غير القبلة ، وأمر تحقيق القبلة الآن ميسور ، فقد وجدت الآلات التى تحدد اتجاه القبلة وهى أدوات خفيفة يمكن أن تحمل فى الجيب دون أن يكون فى ذلك إرهاق أو مشقة وقد تعددت اختراعات هذه الآلات وأصبحت متداولة بين الناس ،ولو فرضنا أنها ليست فى ميسور الطالب فيمكنه أن يشترى بوصلة ويذهب إلى أى مسجد من مساجد إنجلترا ويحدد على البوصلة فى المسجد اتجاه القبلة ، فإذا تعذر كل ذلك – ولا أظن أن يتعذر – فإنه يجتهد ما استطاع مسترشداً بآراء الآخرين ، ونحن إذ نحمد فى النهاية محاولة الطالب التحرى فى أمور دينه فإنا لنرجو له التوفيق .

فى الصلاة فوق القمر

تؤدى الصلاة ونحن فوق القمر كما نؤديها ونحن فوق الأرض ، مع مراعاة ما يحدث فوق الأرض من ظهور الفجر الصادق بالنسبة لصلاة الفجر إلى طلوع الشمس .

ومراعاة وقت الزوال وهو وقت تحول الشمس إلى جهة الغرب وتحول الظل إلى جهة الشرق إلى أن يصير ظل كل شيء مثله بعد ظل الزوال بالنسبة لصلاة الظهر . أما صلاة العصر فيدخل وقتها حين يصير ظل كل مثله بعد ظل الزوال إلى أن تغرب الشمس ، ووقت المغرب يبدأ من غروب الشمس إلى وقت ظهور الشفق الأحمر ، ووقت العشاء يبدأ من ظهور الشفق الأحمر إلى ظهور الفجر الصادق ، والجانب المظلم من القمر يراعى فيه بالنسبة للصلاة المقدار الزمنى فى كل وقت ، ويمكن للذى يريد الصلاة فوق القمر أن يتجه نحو القبلة بالاستدلال بالشمس والنجم القطبى والبوصلة .

فى الصلاة فى البيت

الصلاة المفروضة فى البيت جائزة ومجزئة ، غاية الأمر أن صلاتها فى جماعة أفضل من صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة أو سبع وعشرين درجة ، وصلاة المسجد أفضل من صلاة البيت وليس من المحتم على الرجل أن يؤدى الصلاة فى المسجد ، ماعدا الجمعة إلا فى مذهب أحمد لمن كان بجوار المسجد ، لحديث : لاصلاة لجار المسجد إلا فى المسجد ، لكن الحديث لم يصح ، غير أن أحمد رحمه الله كان يقدم الحديث الضعيف على رأى الرجال . . .

فى صلاة الفريضة فى المسجد

صلاة الفرض فى المسجد أفضل أجراً وأكثر ثواباً وأرفع درجة من الصلاة فى البيت . . وقد ورد فى فضل المشى إلى المسجد والرجوع منه ما بين هذا الفضل وذلك التفاوت فى الدرجات . . فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « من غدا إلى المسجد أوراح أعد الله له فى الجنة نزلا غدا أو راح » . وقال ﷺ « من تطهر فى بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطواته : إحداها تحط خطيئة ، والأخرى ترفع درجة » .

والسبب فى ذلك أن المساجد بيوت الله ، فإذا كان المرء منا يكرم من يزوره ويقدر ما تكبده من مشقة فى سبيل هذه الزيارة فالله تعالى أكثر كرماً وأعظم تفضلا على من يزوره فى بيوته الطاهرة – وهى المساجد .

ولقد كان الصحابة يسرون ببعد منازلهم عن المسجد لتكون خطواتهم إليه أكثر ومشيهم إليه أطول ، عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : «كان رجل من الأنصار لا أعلم أحدًا أبعد من

المسجد منه وكانت لا تخطئه صلاة . . فقيل له : لو اشتريت حمارًا لتركبه فى الظلماء وفى الرمضاء قال : ما يسرنى أن منزلى إلى جنب المسجد ، إنى أريد أن يكتب لى ممشاى إلى المسجد ورجوعى إذا رجعت إلى أهلى فقال رسول الله ﷺ : « قد جمع الله لك ذلك كله » وقال ﷺ لأناس أرادوا أن ينتقلوا قرب المسجد « دياركم تكتب آثاركم . . دياركم تكتب آثاركم » فقالوا ما يسرنا أنا كنا تحوّلنا أى انتقلنا من ديارنا البعيدة عن المسجد إلى ديار قريبة منه ، ويزداد فضل الصلاة فى المسجد إذا كانت فى جماعة كما هو معلوم . هذا وقد جعل النبى ﷺ من أسباب محو الخطايا ورفع الدرجات كثرة الخُطا إلى المسجد ، وجعل المشى إليها فى الظلمات سبيلا إلى النور التام يوم القيامة . فقل : « بشر المشّائين إلى المسجد بالنور التام يوم القيامة » وقال : إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان . .

موقف المسلم من قراءة الفاتحة وسورة بعدها فى الصلاة

إن موقف المسلم فى الصلاة بالنسبة لقراءة الفاتحة ، وسورة بعدها فلا يخلو حاله من أمرين :

أحدهما : أن يكون مقتدياً .

وثانيهما : أن يكون منفرداً .

فإن كان المصلى خلف الإمام ، وكانت الصلاة جهرية ، لا يجوز له القراءة مطلقاً ، لا الفاتحة ولا غيرها ، عملا بقوله سبحانه :

(إذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) .

أما فى الصلاة السرية فإنه يقرأ ما تيسر له من القرآن بعد الفاتحة . هذا بالنسبة للمقتدى .

أما بالنسبة للمنفرد فى صلاته فالواقع أن هناك شيئاً من التفصيل .

وذلك إما أن يكون المصلى ، يحسن القراءة ويحفظ شيئاً من القرآن أولا . فإن كان يحسن القراءة ويحفظ شيئاً من القرآن ، وجبت عليه قراءة السورة ، أو آية ، أو آيات بعد الفاتحة وإن ترك ذلك وجب عليه السجود للسهو .

وإن كان لا يحسن القراءة ولا يحفظ شيئاً من القرآن مطلقاً ، جاز له أن يكتفى بالفاتحة ، وصلاته على ذلك صحيحة .

فى قراءة القرآن فى أثناء الصلاة

افترض الله على المسلم أن يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلا .

وليس من الفرائض إجادة قراءة القرآن إلاّ بالقدر الذى تجوز به الصلاة ، فما دام المسلم يحفظ من القرآن الكريم ، ما تصح به صلاته فلا إثم عليه فى عدم إجادة ما عدا ذلك .

غاية ما هنالك أن قراءة القرآن عبادة مرغب فيها ولها ثوابها ، كما قال صلوات الله وسلامه عليه : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات ، لا أقول « ألم » حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » .

فإذا أراد المسلم أن يضاعف الله له الحسنات ويزداد قرباً من ربه فعليه بقراءة القرآن الكريم . .

فى الجمع والقصر فى صلاة السفر

السفر مظنة المشقة والتعب لذا كان من سماحة الشريعة الإسلامية ويسرها أنها رخصت فى تخفيف الصلاة على المسافر حتى لا يكون فى أدائها مشقة أو إرهاق له .

وصلاة السفر الصلاة الرباعية وهى الظهر والعصر والعشاء يؤديها المسافر ركعتين قصراً ، وله أن يصلى جمع تقديم الظهر والعصر فى وقت الظهر ، والمغرب والعشاء جمع تأخير فى وقت العشاء .

ليكون عنده من الوقت متسع لقضاء مصالحه ومهامه فى السفر وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك فى سفره وكذلك الصحابة من بعده ، وعليه إجماع المسلمين وهى رخصة من الله سبحانه وتعالى لعباده والرسول ﷺ يقول : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » والمسافر إذن يقصر ويجمع متى كان السفر أكثر من ثلاثة وثمانين كيلومتر ، والمسافر يفعل فى قيامه وركوعه وسجوده وقراءته كما يفعل المقيم ، والفرق بين المقيم والمسافر إنما هو فى إباحة جمع الظهر والعصر ، وأداء كل منهما ركعتين فقط ، وجمع المغرب والعشاء فى وقت واحد وأداء العشاء ركعتين فقط .

كيفية صلاة رسول الله ﷺ فى الليل

فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى سلمة قال : « سألت عائشة عن صلاة رسول الله ﷺ فقالت : كان يصلى ثلاث عشرة ركعة يصلى ثمانى ركعات ثم يوتر ثم يصلى ركعتين وهو جالس » .

قال النووى : الصواب أن هاتين الركعتين فعلهما النبى ﷺ بعد الوتر جالساً لبيان جواز الصلاة بعد الوتر وبيان جواز النفل جالساً ، ولم يواظب على ذلك ، بل فعله مرة أو مرتين أو مرات قليلة ، إذ الروايات المشهورة فى الصحيحين وغيرهما عن عائشة مع روايات خلائق من الصحابة فى الصحيحين تصرح بأن آخر صلاته ﷺ فى العمل كانت وتراً وفى الصحيحين أحاديث كثيرة مشهورة بالأمر بجعل آخر الصلاة بالليل وتراً . . منها . . اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً . . صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بواحدة وبعد : فالأفضل جعل آخر الصلاة بالليل وتراً .

ويجوز عند الضرورة صلاة نفل بعد الوتر فى الليل اغتناماً للخير وتحصيلا للبركة ، ومن يخاف غلبة النوم عليه أن يوتر قبل أن ينام ، ومن يتأكد أو يغلب على ظنه اليقظة قبل الفجر يؤخر الوتر بعد اليقظة .

فى السجود فى الصلاة

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب » وفى رواية : ولا يتبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب » .

وروى بسنده عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ إذا سجدت فضع كفيك وارفع مرفقيك .

وعن عبد الله بن مالك بن بحينة أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى فرّج بين يديه حتى يبدو بياض إبطيه . . وفى رواية :

كان رسول الله ﷺ إذا سجد يجنح فى سجوده حتى يرى وضح إبطه . . أى يباعد مرفقيه وعضديه عن جنبه .

وهذه الأحاديث تدل على أنه ينبغى للساجد أن يضع كفه على الأرض ويرفع ذراعيه عن

الأرض وعن جنبه، رفعاً بليغاً بحيث يظهر باطن إبطيه إذا لم يكن مستوراً .

وقال النووى : « وهذا أدب متفق على استحبابه فلو تركه كان مسيئاً ، والنهى للتنزيه ، والصلاة صحيحة ، » ولا يخفى أن متابعة السنة خاصة فى مثل هذا المظهر التعبدى أولى وآكد .

فى كيفية السجود

نعم هناك ما يمنع من بسط الذراع كلها على الأرض عند السجود فى أثناء الصلاة لما ورد فى النهى من ذلك وتقبيحه : فقد قال ﷺ :

« اعتدلوا فى السجود ، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب » وقال ﷺ : « إذا سجدت فضع كفيك وارفع مرفقيك » .

وكان ﷺ إذا سجد فرج ، أى وسّع بين يديه وجنبه حتى يبدو قريباً من إبطيه .

وفى ذلك كله ما يفيد أهمية رفع الذراعين والامتناع من بسطها على الأرض قال الإمام النووى : والمقصود من هذه الأحاديث أن يضع الساجد كفيه على الأرض ويرفع مرفقيه – أى ذراعيه – عن الأرض وعن جنبيه رفعًا بليغاً بحيث يظهر باطن إبطيه إذا لم يكن مستوراً ، وهذا أدب متفق على استحبابه فلو تركه كان مسيئا ، والنهى للتنزيه وصلاته صحيحه .

والحكمة فى هذا . أنه أشبه بالتواضع وأبلغ فى تمكين الجبهة والأنف من الأرض ، وأبعد من هيئات الكسالى ، فإن المنبسط يشعر حاله بالتهاون بالصلاة وقلة الاعتناء بها والإقبال عليها .

ومع ذلك فإنه لو بسط ذراعيه على الأرض فى السجود فإن ذلك لايفسد الصلاة وصلاته صحيحة ولكنه خلاف السنة .

فى قوله ﷺ سُبُّوح قُدُّوس فى سجوده

س : أسمع بعض الناس فى سجودهم يقولون : سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ فلا أفهم لها معنى فهل ذلك وارد فى الشرع وما معناهما ؟

جـ : سبوح : من صفات الله تعالى ، قال صاحب القاموس :

سبوح قدوس : من صفاته تعالى ، لأنه يُسَبَّحُ ويُقَدّسُ . وقال صاحب المختار : سبوح من صفات الله تعالى : وقال صاحب القاموس : وسبحان الله تنزيهاً لله من الصاحبة والولد معرفةٌ ، ونُصِبَ على المصدر أى أبرِّئُ الله من السوء براءة ، أوْ معناه السرعةُ إليه والخفة فى طاعته . هذا

كلام صاحب المختار وصاحب القاموس .

ولو نظرنا إلى أصل الاشتقاق لوجدنا أن كلمة سبوح تفيد معنيين :

الأول التنزيه . . والثانى السرعة . وهما بالنسبة إلى الله تعالى : يفيدان تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ، وسرعة الاتجاه والوصول إليه وعلى هذا فمعنى سبحان الله : أنزه الله تعالى عما لا يليق به ، وأتوب إليه وأتصل به مسرعاً .

وهل سبوح قدوس معناها أسبح الله وأنزهه عما لا يليق به ؟ سبوح قدوس أبلغ من أسبح الله وأنزهه عما لا يليق به ، لأن المعنى المصدرى يفيد التأكيد بخلاف الفعل فإنه لا يفيده . .

وفى صحيح مسلم : عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان يقول فى ركوعه وسجوده : سبوح قدوس رب الملائكة والروح .

هل ورد أن رسول الله ﷺ كان يقول فى سجوده شيئاً آخر ؟

ورد أنه ﷺ كان يقول : أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

ويصح أن يقول الإنسان الدعاء الذى علّمه رسول الله ﷺ لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه : وهو : « اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلاّ أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » .

فى سجود السهو

لا يجب سجود السهو عند نسيان سنة من سنن الصلاة كدعاء الاستفتاح وغيره من السنن ، ولا يجب السجود على مذهب الشافعية إلاّ فى حالة واحدة وهى ما إذا كان المصلى مقتدياً وسجد إمامه سهواً ففى هذه الحالة يجب عليه أن يسجد تبعاً لإمامه فإن لم يفعل عمداً بطلب صلاته ، ووجب عليه إعادتها ، إن لم يكن قد نوى المرافقة قبل أن يسجد إمامه ، ويكون السجود سنة فى حق المنفرد .

فى صلاة الصبح والفجر والضحى

س : ما هى صلاة الصبح وصلاة الفجر وصلاة الضحى ؟

جـ : صلاة الصبح هى الصلاة المفروضة المحدد وقتها بطلوع الفجر الصادق إلى طلوع

الشمس ، وهى ركعتان : القراءة فيها جهرية ومن السنة طول القراءة فيها وإتيانها فى جماعة لقوله ﷺ : « ولو يعلمون ما فى العتمة والصبح لأتوهما ولو حَبْواً » .

أما صلاة الفجر فهى سنة الصبح ، وهى ركعتان خفيفتان ، القراءة فيها سرية وتصلى قبل صلاة الصبح وبعد أذان الفجر – وقد وردت أحاديث صحيحة فى بيانها منها ، ما رواه الإمام مسلم بسنده عن عائشة قالت : «كان رسول الله ﷺ يصلى ركعتى الفجر إذا سمع الأذان ويخففها » وقد ورد ما يفيد هذا التخفيف فيهما ، روى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ فى ركعتى الفجر : (قل يٰأيُّها الكافرون) ، و (قل هو الله أحد) .

وقد حث الرسول ﷺ على هاتين الركعتين فقال :

« ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » وإذا كان هذا فى النفل فما بالك بالفرض ؟ . . هذا وقد شرف الله صلاة الفجر ووقته فأقسم بها . قال تعالى (والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر) .

وأما صلاة الضحى فهى صلاة تؤدى فى وقت الضحى أى وقت ارتفاع الشمس أول النهار ، وهى سنة ورد فيها فضل كبير وأجر عظيم قال ﷺ :

« يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » .

والسلامى العرق والمفصل ، ولن يستطيع الإنسان الوفاء بحق كل عرق ومفصل من الصدقات ، ومن هنا كانت أهمية صلاة الضحى ، إنها تكمل للإنسان ما لم يستطع تحقيقه من الصدقات ، وبدونها يكون مقصراً فيما طلب منه أداؤه والقيام به وقد أوصى الرسول ﷺ بصلاة الضحى أبا هريرة وأبا الدرداء ، وأقلها ركعتان ، وأكثرها اثنتا عشرة ركعة . . وأكثر ما نقل عن النبى ﷺ فيها أنه صلاها ثمانى ركعات .

فى صلاة الفجر

صلاة الفجر ركعتان بعد أذان الفجر ، والقراءة فيها سرية ، وهى نافلة الصبح وليست فرضاً .

وورد فى الترغيب فيها الكثير ، وهى بنص الأحاديث خير من الدنيا وما فيها . أما صلاة

الصبح فركعتان والقراءة فيها جهرية ، وهى الفرض المطلوب ، وإحدى الصلوات الخمس اللاتى كتبهن الله على العباد .

ووقت صلاة الفجر بعد أذان الصبح إلى طلوع الشمس ، وهو وقت صلاة الصبح الذى يحرم تأخير الصلاة عنه إلاّ لعذر ، والعذر المقبول يحدده قول الرسول ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ وعن المبتلى حتى يبرأ وعن الصبى حتى يكبر » وقوله : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

فإذا ما طلعت الشمس كانت صلاة الصبح قضاء ، ومع ذلك مسقطة الفرض عن صاحبه ، وصلاة الفجر تصلى إذا لم يحل وقت الظهر بعد صلاة الصبح .

فى فضل ركعتى الفجر

ذكر الإمام مسلم فى صحيحه جملة من الأحاديث فى فضل ركعتى الفجر والحث عليهما ومن هذه الأحاديث :

عن حفصة – رضى الله عنه – قالت : «كان رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر لا يصلى إلاّ ركعتين خفيفتين .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصلى ركعتى الفجر إذا سمع الأذان ويخففها ، وعنها رضى الله عنها أن النبى ﷺ لم يكن على شىء من النوافل أشد معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح ، وعنها أن النبى ﷺ قال : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » ، وفى هذه الأحاديث دلالة على فضل هاتين الركعتين وعلى أنهما من السنن الهامة التى يحرص عليها الإسلام .

وقد ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ صلى ركعتى الفجر بعد طلوع الشمس فيما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة قال ما معناه : عرسنا – أى نزلنا آخر الليل للنوم مع نبى الله ﷺ فلم يستيقظ حتى طلعت الشمس وأمر النبى ﷺ بالتأهب للرحيل ثم دعا بالماء فتوضأ ثم سجد سجدتين أى السنة – ثم أقيمت الصلاة فصلى الغداة – أى الصبح . وفى رواية لمسلم بسنده عن أبى قتادة أن النبى ﷺ استيقظ والشمس فى ظهره أى بعد أن طلعت وارتفع قرصها ، وفيه : فصلى رسول الله ﷺ ركعتين : أى السنة ثم صلى الغداة أى الصبح وعلى ذلك فعلى المسلم إذا استيقظ بعد طلوع الشمس أن يصلى ركعتى الفجر ثم يصلى الصبح كما فعل الرسول ﷺ .

فى حكم من ترك القنوت

ما حكم من ترك القنوت ؟

إن القنوت سُنة عند صاحبيها أبي حنيفة وأحمد ، وعند الشافعى ، وعند مالك مندوب ، وقد اختلفوا فى وقته .

وعلى كل فلا تبطل الصلاة بتركه ويسجد سجود السهو .

فى من أدرك ركعة من المغرب

من أدرك ركعة من المغرب – يقوم بعد تسليم الإمام فيصلى ركعة يقرأ فيها جهراً بالفاتحة وبعض آيات من القرآن ثم يتشهد فى هذه الركعة التشهد الأول للصلاة ، حيث إنها الركعة الثانية بالنسبة إليه شخصيًّا ثم يقوم من التشهد فيصلى الركعة الثالثة ويقرأ فيها جهراً بفاتحة الكتاب وبعض القرآن . . ويتشهد التشهد الأخير .

وبذلك يكون قد صلى ثلاث ركعات بثلاثة تشهدات : الأول اقتضته ضرورة متابعة الإمام ، والثانى والثالث التشهدان الأصليان فى الصلاة ، والقاعدة فى قضاء ما فات من الصلاة ، كما قال المالكية : أن يبنى على الأفعال فيعتبر نفسه حال القضاء كأنما كان يصلى ما صلى مع الإمام منفرداً ويبنى عليه ويكمل الصلاة ، ويقضى ما فاته بحسب الوضع العادى الطبيعى .

فى صلاة الشفع والوتر وركعتى الفجر

صلاة الشفع والوتر وركعتى الفجر حكمها أنها سنة مؤكدة فهى آكد السنن التى واظب عليها رسول الله ﷺ .

والشفع يكون بعد العشاء وهو ركعتان ، والوتر ركعة واحدة فتكمل ثلاث ركعات .

أما ركعتا الفجر فتصليان قبل صلاة الصبح ، وقد ورد فى الترغيب فيهما وفى فضلهما كثير من الأحاديث الصحيحة ومن ذلك ما رواه الشيخان وأحمد وأبو داود عن عائشة قالت : « لم يكن رسول الله ﷺ على شىء من النوافل أشد معاهدة من الركعتين قبل الصبح .

وروى أحمد ومسلم والترمذى عن عائشة أيضاً أن النبى ﷺ قال : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » .

فى سنة المغرب

سنة المغرب المؤكدة ركعتان بعده ، ويندب ست ركعات بعد صلاة المغرب خلاف السنة المؤكدة – وهذا عند الحنفية – وعند الشافعية ركعتان بعد المغرب سنة مؤكدة وركعتان قبل المغرب غير مؤكدة ، ويسن تحقيقها وفعلها بعد إجابة المؤذن لحديث : بين كل أذانين صلاة ، والمراد الأذان والإقامة ويقول المالكية : إن من السنة الراتبة ست ركعات بعد صلاة المغرب وهى مندوبة ندباً أكيداً .

فى صلاة الوتر

يجوز صلاة ثلاث ركعات من الوتر بسلام واحد عند الشافعى وأحمد ، والحنفيون يعتبرون هذه الصورة – من صور صلاة الوتر مع التشهد فى الوسط دون سلام كصلاة المغرب – أمراً لا يجوز سواه ، ويستدلون على ذلك بما روى عن علىّ أن رسول الله ﷺ كان يوتر بثلاث . . أخرجه أحمد والترمذى . واستدلوا أيضاً بما روى عن عائشة قالت : «كان رسول الله ﷺ يوتر بثلاث لا يسلم إلاّ فى آخرهن » .

وقال مالك : الوتر ركعة واحدة يسبقها شفع ، أى صلاة ركعتين فأكثر من الركعات المزدوجة لا المفردة .

ويمكن القول بأن الأدلة الصحيحة فيما يتصل بعدد ركعات الوتر قد تفاوتت وتعددت ، فروى أنه ركعة واحدة بعد ركعات مزدوجة ، وروى أنه ثلاث ركعات متصلة ، سواء سبقها نفل أو لا .

وروى أنه خمس ركعات متصلة متتابعة لا جلوس إلاّ فى آخرها قبل السلام ، وروى أنه سبع ركعات متصلة .

وكل هذه الروايات صحيحة صريحة وكلها سنة . والعمل بأيها على سبيل الاتباع يجزئ ولا ضرورة للاختلاف ما دام قد ثبت أن رسول الله ﷺ فعل هذه الصور ليبين للناس أنها كلها صحيحة ، وهى من السنة .

فى هل بعد الوتر صلاة ؟ وهل ورد شىء فى فضل صلاة الليل ؟

يسأل كثير من الناس فى هذا الموضوع :

والأصل فيه ما رواه الإمام مسلم عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من خاف أن يقيم من آخر الليل فليوتر أوله ، ومن طمع أن يقوم آخره ، فليوتر آخر الليل ، فإن صلاة الليل مشهودة وذلك أفضل . وكان للصحابة عادات فى ذلك معروفة ، فقد روى الإمام مالك عن سعيد بن المسيب أنه قال : «كان أبو بكر الصديق إذا أراد أن يأتى فراشه ، أوتر ، وكان عمر بن الخطاب يوتر آخر الليل» قال سعيد بن المسيب : فأما أنا ، فإذا جئت فراشى أوترت ، وقد يصلى بعض الناس الوتر فى أول الليل خشية ألا يستيقظ من آخره وينام بعد الفراغ من صلاته ثم يستيقظ فى أثناء الليل ، ويمنحه الله نشاطاً ويرزقه قوة على العبادة وانشراحاً للصلاة ، وعلى هذه الحالة له أن يصلى ما يشاء الله له ، وليس عليه أن يعيد الوتر ، يقول الإمام مالك : «من أوتر أول الليل ثم نام ثم قام فبدا له أن يصلى فليصل مثنى مثنى» ويقول صاحب بداية المجتهد : ذهب كثير من العلماء إلى أن المرء إذا أوتر ثم نام فقام يتنفل فإنه لا يوتر ثانية لقوله عليه الصلاة والسلام ، لا وتران فى ليلة .

أما عن فضل صلاة الليل فقد روى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أفضل الصيام بعد رمضان شهر المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى فضل صلاة الليل ، وهى تفسير وشرح لما ورد فى القرآن أمراً لرسول الله ﷺ باعتباره قدوة أو ورد وصفاً للصالحين ، ومن ذلك قوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) .

وقوله تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) .

فى أداء صلاة التراويح

لا تؤدى صلاة التراويح إلاّ فى ليالى رمضان فقط ، فإذا انقضت ليالى رمضان فقد انقضى وقت التراويح حتى للذين عليهم قضاء رمضان كله أو شىء منه والدليل على ذلك قول النبى ﷺ فيما رواه مسلم فى صحيحه : «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر الله ما تقدم من ذنبه» .

وقيامه هو صلاة التراويح ، أما الذين يصومون فى غير رمضان فليس لهم إلاّ قيام الليل ، فإنه

نافلة عامة فى جميع ليالى السنة كلها ، وردت بها نصوص الكتاب الكريم والسنة الصحيحة .

قال الله تعالى : (إنَّ المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل مايهجعون) .

وعن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل ، قال سالم فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام الليل إلا قليلا » متفق عليه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » رواه مسلم .

فى صلاة العيدين

صلاة العيدين سنة مؤكدة وليست واجباً أى فرضاً ، لأن الصلوت قد حددها الرسول ﷺ بخمس فى كثير من الأحاديث الصحيحة ، كحديث الأعرابى حينما أخبره ﷺ عن فريضة الخمس الصلوات فى اليوم والليلة فقال هل علىّ غيرها ؟ قال لا : إلاّ أن تطوّع ، وما ورد فى حديث الإسراء هن خمس أى فى العمل وهن خمسون أى فى الأجر.

ومن لم يدرك صلاة العيد يقضيها فى وقت من أوقات إباحة صلاة النفل . أمّا عن حكم القضاء فهو تابع لحكم صلاة العيد نفسها . من أنها سنة مؤكدة .

فى سن تعجيل صلاة عيد الأضحى وتأخير صلاة عيد الفطر

السبب فى ذلك أن يوم الأضحى يوم يضحى فيه المسلم بالذبائح والذبح يكون بعد الصلاة لا قبلها ، فلو تأخرت الصلاة لتوهم بعض الناس انتهاءها ، فبادر بالذبح قبل الصلاة ففسدت الأضحية ولم تؤد عن صاحبها ، وصارت لا تزيد على كونها لحماً لا يختلف عن اللحم المذبوح فى غير أيّام العيد ، لم يستوف شروط القربة ولم تجتمع فيها شروط القبول ، ومما يوضح ذلك ويقرره ما رواه البخارى بسنده عن البراء قال سمعت النبى ﷺ يخطب فقال : « إن أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلى ثم نرجع فننحر فمن فعل فقد أصاب سنتنا » . وفى رواية للبخارى عن البراء قال خطبنا النبى ﷺ يوم الأضحى بعد الصلاة فقال : « من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك ، ومن نسك قبل الصلاة فإنه قبل الصلاة ولا نسك له » فقال أبو بردة بن نيار

خال البراء : يا رسول الله إنى نسكت شاة قبل الصلاة وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب ، وأحببت أن تكون شاتى أول شاة تذبح فى بيتى فذبحت شاتى وتغديت قبل أن آتى الصلاة قال : « شاتك شاة لحم » .

أما تأخير صلاة عيد الفطر فذلك ليأكل قبل أن يخرج فيخالف عادة الصيام بالأكل بعد طلوع الفجر : عن أنس بن مالك فيما رواه البخارى قال : «كان رسول الله ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات ، ولم يكن الأكل قبل الخروج لصلاة عيد الفطر كثيرًا بل كان يسيرًا يشعر بالاستجابة لأوامر الله تعالى والشكر له ، ولو كان الأكل للقضاء على الجوع أو لمتابعة حاجة الجسد إلى الطعام لما اقتصر على الثمرات ولو قل بالطعام إلى حد الشبع .

وما ينبغى التنبيه إليه أن صلاة العيد لا تصلى قبل طلوع الشمس ولا عند طلوعها ، وإنما بعد طلوعها بوقت تحل فيه النافلة ، أى بعد أن ترتفع عن مطلعها قدر ذراع ، والفرق بين وقت صلاة عيد الأضحى وعيد الفطر ليس بكثير ..

فى تكبيرات صلاة العيد

تكبيرة الإحرام فى الافتتاح لصلاة العيد تكون بقول الله أكبر ، بعد نية صلاة العيد . والقيام لها وهى فى ذلك لا تختلف عن أى صلاة عادية .

ولكن صلاة العيد تتميز بتكبيرات أخرى عدا تكبيرة الإحرام فى الركعة الأولى وعدا تكبيرة القيام فى الركعة الثانية .

ويرى الشافعية : ومن وافقهم أن عدد التكبير فى صلاة العيد سبع تكبيرات فى الركعة الأولى غير تكبيرة الإحرام ، وخمس فى الثانية غير تكبيرة القيام .

ويرى المالكية ومن وافقهم أن التكبير فى صلاة العيد سبع فى الأولى بتكبيرة الإحرام وخمس فى الثانية غير تكبيرة القيام ويستحب الفصل بين كل تكبيرتين فصلا يتميز به العدد ويتمكن المأمومون من ترديد التكبير .

وقال الشافعى وأحمد : يستحب الذكر بين كل تكبيرة وأخرى بأن يقول : سبحان الله والحمد لله : ولا إله إلاّ الله والله أكبر .

والاختلاف فى التكبير إنما اختلاف فى عد تكبيرة الإحرام منها أو عدم عدها ، والصورتان صحيحتان وكل منهما جائز .

فى ذهاب النساء إلى صلاة العيد كما يذهبن إلى الجمعة

لا يجب على النساء الذهاب إلى صلاة الجمعة ويجوز لهن إذا أمنت الفتنة عليهن أوالفتنة بسببهن حضور الصلاة وأداؤها ولا يجوز لرجل منعهن من هذا الحضور.

وإذا كانت النساء فى هذا العصر قد تغلغلن فى كثير من شئون الحياة، ودخلن فى كثير من المجالات وأصبحن يحضرن فى أكثر الأماكن العامة – ولو كان مما يصرف عن الدين – كالسينما ونحوهما – فإن فى ذهابهن إلى المساجد لحضور صلاة الجمعة تدعيم لإيمانهن وتقوية لدينهن وزيادة فى عملهن بما يستمعن إليه من آيات الله وأحاديث الرسول ﷺ وتعاليم الدين الرشيدة فى خطبة الجمعة، ولهن الثواب على هذا الانتفاع، خاصة وقد اتسعت المساجد وتحددت فيها أماكن خاصة للسيدات بل لقد خصصت مساجد خاصة لصلاة النساء.

وقد ورد عن السلف ما يفيد ذلك، فقد ورد أن ابن عمر رضى الله عنه روى عن رسول الله ﷺ قال: لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، فقال ابن له: والله لنمنعهن فقال له: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول والله لنمنعهن؟ والله لا أكلمك أبدًا ولم يكلمه حتى مات.

إذا لم تذهب النساء لحضور الجمعة وإذا خيفت الفتنة من ذلك الحضور فصلاة الجمعة بالنسبة إليهن هى صلاة الظهر أربع ركعات، ويسقط بأدائها عنهن الفرض.

وواجب النساء فى الذهاب إلى صلاة الجمعة لبس الملابس السابغة الواسعة وأن يكون شعورهن فى الذهاب أداء الواجب الدينى، وقد كانت زوجة سيدنا عمر رضى الله عنها وعنه تذهب إلى المسجد على هذه الصورة وكان لا يمنعها.

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام عناية الإسلام بحفظ كرامة النساء والعمل على منع كل ما يمكن أن يصيبهن من مضايقات، وفى نفس الوقت حرصه على منع العبادة من أن يتطرق إليها ما يفسدها أو يخرج بها عمّا حُدَّ لها من حدود.

أليس من ذلك ما يشير إلى وجوب احترام المرأة لتعاليم دينها وبعدها عن كل ما يسبب الخروج عن هذه التعاليم فى الزى أو فى السلوك أو الاجتماع والاختلاط، ثم إنّ فيه أيضاً وجوب تجريد العبادة من كل خروج عن حدودها أو الابتعاد بها عن كل مالا يتوفر لها من أجواء.

صلاة العيدين تخرج النساء إليها ليتدعم الإيمان وتتم الفرحة، وروى البخارى وغيره عن أم عطية قالت: أمرنا أن نخرج العواتق وذوات الخدور أى البالغات من النساء والمحتجبات فى ذلك اليوم، وقد بين ﷺ علة ذلك فقال: يشهدن الخير ودعوة المسلمين، وزاد فى تأكيد خروج

النساء فى ذلك اليوم فقال : من ليس عندها جلباب تخرج به لتلبسها صاحبتها من جلبابها فيشهدون الخير ودعوة المسلمين .

وكل ذلك ما لم تخرج المرأة من حدود الشرع فى اللباس أو الوقار ، وإلا منعت من الخروج .

فى الزوجة التى خرجت متزينة لصلاة العيد

الزوجة التى خرجت لصلاة العيد فى أحسن ملابسها وطيبها لا إثم عليها ما دامت غير متبرجة لأمر النبى ﷺ بإخراج النساء العواتق وذوات الحيض يوم العيد يشهدن العيد والصلاة والتكبير واجتماع المسلمين فإن كانت متبرجة فهى آثمة ولاحقّ لها فى الخروج ولو بإذن زوجها .

فى صلاة العيدين من السنة أن يعود المصلون من طريق غير الطريق التى ذهبوا منها إلى المصلى . .

روى الإمام البخارى بسنده عن جابر قال :

كان النبى ﷺ إذا كان يوم عيد خالفَ الطريق . وأخرج أبو داود والبيهقى والحاكم (بسند رجاله الثقات) – عن ابن عمر أن النبى ﷺ أخذ يوم العيد فى طريق ثم رجع فى طريق آخر . .

السُّنَّة إذن هى المخالفة بين الطريقين ، وإن جاز عدم المخالفة لما رواه أبو داود والحاكم والبيهقى عن بكر بن مبشر الأنصارى قال :

كنت أغدو مع أصحاب رسول الله ﷺ إلى المصلى يوم الفطر ويوم الأضحى فنسلك بطن بطحان حتى نأتى المصلى فنصلى مع رسول الله ﷺ ثم نرجع من بطن بطحان إلى بيوتنا .

أما السبب فى تغيير طريق العودة أو الرجوع من المصلى فى العيد فيشمل وجوهاً متعددة منها :

١ – أنه فعل ذلك ليشهد له الطريقان ، وسكانهما من الجن والإنس .

٢ – وقيل ليسوى بينهما فى مزية الفضل بمروره فيهما أو فى التبرك به أو ليشم رائحة المسك من الطريق التى يمر بها لأنه كان معروفاً بذلك .

٣ – إن ذلك كان لإظهار شعار الإسلام فى الطريقين برفع الصوت بالذكر وإظهار الشكر لله على العيد .

٤ – ومن أسباب ذلك عموم السرور به ﷺ فى هذا اليوم والتبرك بمروره ورؤيته والانتفاع به

فى قضاء حوائجهم فى الاستفتاء والتعلم والاقتداء والاسترشاد والصدقة على المستحقين والسلام عليهم وغير ذلك .

٥ - ويمكن أن يضم إلى ذلك التفاؤل بتغير الحال إلى تمام الرضا وكمال المغفرة .

وأجمل ما قيل فى ذلك قول أبى جمرة رحمه الله : هو فى معنى قول يعقوب لبنيه : (لا تدخلوا من باب واحد) فأشار إلى أنه فعل ذلك حذر إصابة العين .

وقد كان الرسول ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما .

ويمكن أن نضم إلى ما تقدم أن الناس كانوا يسيرون خلفه ، فلم يكن ليشق على نفسه وعليهم بالنفاذ من بينهم ، وتحويل اتجاههم ، ولذلك كان يسير فى طريق آخر باعتباره امتداداً لطريق القدوم بدلا من إعادة تنظيم السير ، والعودة إلى الخلف . . . .

فى صلاة الاستخارة

روى الإمام البخارى بسنده عن جابر رضى الله عنه قال :

كان النبى ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كالسورة من القرآن إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم يقول : « اللهم أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم . فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم ، وأنت علاّم الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ، ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال : فى عاجل أمرى وآجله - فاقدره لى . . وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال فى عاجل أمرى وآجله - فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به ويسمى حاجته » .

والمقصود فى هذه الاستخارة أساساً هو الدعاء ، وهذه الصلاة تهيئة وتمهيد لهذا الدعاء .

وأفاد النووى أنه يقرأ فى الركعتين (الكافرون والإخلاص) أى لما فيها من الإخلاص والتوحيد مما يعين على صحة الاستخارة .

قال العراقى : ومن المناسب أن يقرأ فيهما مثل قوله : (وربك يخلق ما يشاء ويختار) وقوله : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) .

وقال ابن حجر : الأكمل أن يقرأ فى كل ركعة السورة مع الآية .

وهذا كله يدل على أن المرء فى الصلاة والدعاء ينبغى أن يكون طالباً من الله أن يختار له الخير ، وأن يهيئ له أسباب السعادة والتوفيق . . .

فى سجدة التلاوة

عن أبى هريرة رضى الله عنه فيما رواه مسلم قال : قال رسول الله ﷺ « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى ويقول : ويله أمر بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار » .

وفى القرآن الكريم بضع عشرة آية ذكر فيها السجود أو الركوع ، وشرع عند تلاوتها أو سماعها السجود من التالى والسامع طاعة للأمر واقتداء بالصالحين ورمزاً لتقديس الله وتعظيمه والخضوع له ، وذكراً لجلاله ، وشكراً لنعمه ، وابتغاء لرحمته وخشية لعذابه .

والسجود من أعمق الإشارات لمعانى العبودية والتذلل والخضوع لله العلى الكبير ويلزم لسجود التلاوة ما يلزم للصلاة من الطهارة فى البدن والثوب والمكان واستقبال القبلة ونحو ذلك ، غير أنه لا تشهُّد له ولا تسليم .

وقد نص بعض الفقهاء أن سجدة التلاوة لا تجب عند السماع من الصدى . . فلعل سماعها من المذياع كذلك حكاية للصوت الملتقط المختزن وبناء على ذلك يرجح أن من سمعها من المذياع أو التليفزيون من المتكلم نفسه ساعة نطقه .لا من الشريط الذى يستعاد -- فإنه يكلَّف بالسجود ، ومن تلاها فى الصلاة سجد هو والمقتدون به ، ثم عاد إلى حيث كان من الصلاة . .

فى جهر المرأة عند قراءتها فى الصلاة

جهر المرأة عند قراءتها فى الصلاة -- ينبغى أن يكون بحيث تسمع نفسها أو نفسها ومن يليها ، أما رفع الصوت كالرجال فمكروه ، وصوت المرأة ليس بعورة .

وهناك نوعان من الكلام : الكلام العادى الجادّ الذى لا تكسّر فيه ولا تمطيط ، بحيث يسمعه السامع فلا يستشعر غرابة ولا يجد فيه مظهراً من مظاهر التكلف .

وهناك الكلام المرقق الممتلئ بالتكلف وإظهار نغمات الصوت المثير للأحاسيس والغرائز .

وقراءة القرآن للمرأة إذا لم تكن عالمة بأحكامها كثيراً ما تخرج عن اللون المتوازن إلى اللون غير المتوازن فيثير الصوت ما لا ينبغى إثارته ، ويخرج بجوها عن جو الصلاة .

وقد أرشد الله سبحانه إلى الفرق بين النوعين فى قوله :

(يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفاً) .

قال القرطبى : أمرهن الله أن يكون قولهن جزلا وكلامهن فصلا ، ولا يكون على وجه يظهر فى القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين ، كما كانت الحال عليه فى نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه ، مثل كلام المربيات والمومسات فنهاهن عن مثل هذا .

فى شرائط صلاة الجمعة

يقول الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا نُودِىَ للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) .

ويقول سبحانه وتعالى : ناصحاً ومحذراً : (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، والله خير الرازقين) .

فالغرض من يوم الجمعة هو صلاة الجمعة فى وقت الظهر على من استكمل شرائطها وهو أن يكون مقيماً خالياً من الأمراض وأن يكون بالغاً عاقلا ولا يكون على ثغر من ثغور المسلمين مجاهداً فى سبيل الله ، فإن المجاهد فى سبيل الله لا جمعة عليه إذا كان عدم وجوده يضر بالمسلمين ووجوده فى حراسة ما لابد من حراسته يجوز معه ترك الجمعة وأداؤها ظهراً ، فمن استكمل شرائط الجمعة ولم تكن لديه أعذار شرعية مانعة وجب عليه صلاة الجمعة لا يعفيه عنها أى شغل ويجب على المسئولين عن العمل أن يهيئوا الفرصة لصلاة الجمعة ، وأن يعوضوها بوقت آخر فهى لا تعد أن تكون ساعة كل أسبوع وتركها معصية .

فى طهارة المكان الذى تؤدى فيه الصلاة

من شروط صحة الصلاة طهارة المكان واستقبال القبلة ، فمتى كان المكان طاهراً واستقبال القبلة متحققاً صحت الصلاة فى أى مكان ولو كان ذلك المكان بَيْتَ مسيحىٍّ قال عليه الصلاة والسلام : « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » فأيما عبد مسلم أدركته الصلاة فليصل ولا حرج فى ذلك وربما كانت الصلاة فى بيت المسيحى داعية له إلى التأمل فى وقوف المسلم بين يدى ربه على طهارة كاملة مستقبلا القبلة يناجيه بكلامه ويوحده ولا يشرك بعبادته أحداً من خلقه ربما كان ذلك داعياً له إلى التأمل فيما هو عليه ، والمقارنة بين هذه العبادة فى بساطتها وصحتها فى أى مكان وبين الطقوس التى لا يجوز له أن يؤديها إلا فى الكنائس وبواسطة القسيس ، فيهديه بذلك إلى الطريق الحق ويرشده إلى الصواب فى العبادة ويفتح له باب الخير والسعادة .

فى شد الرّحال إلى المساجد

روى أحمد والبخارى ومسلم : وغيرهم من أصحاب الكتب المعتمدة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال :

« لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد :

المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » والسبب فى ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ قال : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلاّ المسجد الحرام » .

وما عدا ذلك من المساجد هل يوجد تفاضل بينهما يبيح للمسلم أن يترك أحدها إلى غيره .

يروى البخارى وغيره عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يأتى مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً فيصلى ركعتين .

واستدل بعض العلماء بذلك على أن أفضلية المساجد بحسب القدم ، فالقديم أولى من غيره بالصلاة فيه .

ولكن زيارة الرسول ﷺ لمسجد قباء إنما تفيد الجواز ولا تفيد التفضيل وإلا لداوم على ذلك .

وقيل أفضل المساجد ماكثر جمعه ، وقيل ما بعد لكثرة الأجر ، وقيل ما قرب لعدم العسر .

والذى نراه أن ذلك أمر جائز بشرط ألاّ يكون مَن يترك المسجد الذى يوجد فى الحى إماماً يحتاج إليه أهل حيه ، وبشرط ألا يحدث ترك المسجد تشويشاً على إمام المسجد أو على المصلين ، يتركه شخص يزعم أن الصلاة فى غيره من المساجد البعيدة عن الحى أفضل .

فى أداء صلاة الجمعة فى جماعة

نؤدى – نحن المسلمين – صلاة الجمعة فى جماعة لأن الجمعة لهم بمثابة عيد أسبوعى يجتمعون فيه لله وللتوجه إليه والتشاور فى أمورهم ، ولهذا شرعت لها الخطبة ، ومن لم يدرك صلاة الجمعة فى جماعة فلاحظ له فى الجمعة ولا يصليها ركعتين بل يؤديها ظهراً ، ومن تعمد ترك الجمعة واكتفى بصلاة الظهر بدلا منها فهو آثم والله أعلم .

فى صلاة الجمعة فى المذهب الشافعى

لا يجمع بين صلاة الجمعة والظهر فى المذهب الشافعى إذا لم تزد المساجد التى تقام فيها الجمعة عن حاجة البلد الذى تعددت فيه المساجد ، فقد كان الإمام الشافعى بالعراق لا يصلى الظهر بعد الجمعة لعدم زيادة المساجد عن حاجة البلد .

أما لو زادت المساجد التى تصلى فيها الجمعة فى البلد الواحد عن حاجة أهل ذلك البلد فإنه لا بد حينئذ من صلاة الظهر ، لأن صلاة جمعة من تأخروا عن غيرهم فى الركعة الأولى باطلة ، وهو أمر غير معروف للمصلين جميعاً فتعاد صلاة الظهر بعد الجمعة فى البلد الذى تعددت مساجده لغير حاجة احتياطاً .

فى خطبة الجمعة

خطبة الجمعة موعظة وتذكير للمسلمين فى أمور دينهم وبيان للوضع السليم فى كل ما يحدث فى المجتمع من انحرافات وإذا كانت الغالبية العظمى من المصلين لا تفهم اللغة العربية فإن فائدة الخطبة تضيع ويصبح إلقاؤها عبثاً ومن أجل ذلك فإنه على الخطيب الذى يخطب الجمعة فى مجتمع لا يفهم اللغة العربية أن يلقى أولا كلمة موجزة كل الإيجاز ، يبدؤها بحمد الله والصلاة على رسول الله ﷺ ، ويوصى بتقوى الله ، ويقرأ شيئاً من القرآن ويدعو للمسلمين . ويكفى مقدار أربع دقائق مثلا لذلك ، وفى هذا من الفائدة أن يذكّر الناس ثم يبدأ فى إلقاء خطبة تامة بلغة القوم الذين يخاطبهم ، فيؤدى بذلك جميع ما يتطلبه الموقف الشرعى من قراءة القرآن باللغة العربية فى الخطبة التى بدأ بها ومن الموعظة والنصيحة بلغة القوم فيما تحدث به بعد ذلك .

أما كون خطبة الجمعة فرضا أم سنّة فقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أنها فرض ، وهى شرط فى صحة الصلاة وركن من أركانها .

فى حكمة فرض الجمعة

إن من حكمة فرض الجمعة أموراً منها : الاجتماع للتعارف والتآلف ، والمودة والتشاور بين المسلمين بعضهم لبعض ، والتعاون فيما بينهم ، ومنها الاجتماع فى فترة من فترات الأسبوع على ذكر

الله ، ومنها سماع خطبة الجمعة ، وخطبتها موعظة وعبرة وتذكير بالله ، وخطبة الجمعة فى الوضع السليم درس أسبوعى من فوق المنبر ، إنها تعليم للجاهل ، وتبصرة للمسترشد ، وتذكير للغافل .

ولابد أن ينصرف الناس قسراً لتجديد الإيمان عن طريق درس بصورة جبرية هو خطبة الجمعة ، لابد من صرفهم عن الانغماس فى المادة بصورة اضطرارية ليسمعوا ما يذكِّرهم بالدار الآخرة وما يبصرهم بأمور دينهم .

ولهذه المعانى وغيرها يؤدى المسلمون صلاة الجمعة جماعة .

وعن هذه المعانى وغيرها يقول الله سبحانه : (يٰأيها الذين آمنوا إذا نُودِىَ للصَّلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون) .

فى أداء صلاة الفريضة فى مسجد الجمعة الذى يجتمع فيه المسلمون

لا مانع من أداء صلاة الفريضة فى مسجد غير مسجد الجمعة الذى يجتمع فيه المسلمون ، ومن النعم الإلٰهية التى افتخر بها الرسول ﷺ وبين أنه فُضل بها على الأنبياء أن الأرض كلها جُعلت له مسجداً وطهوراً ، يصلى فى أيها شاء ما دام المكان طاهراً ، وما دام لم يرد نهى من الصلاة فيه أوكراهية لفعلها فوقه ، كالمقابر والمجازر وما إلى ذلك .

وما دام المسجد قد بنى للصلاة فيه حلت فيه صلاة الجماعة ، ووجب على المسلمين عمارته بالعبادة والأذان والصلاة فيه ، ولا يحل لهم هجره أو تخريبه تحت أى دعوى ومع أى شعار ، مادام المسجد لم يقصد به الإضرار بالمسلمين وتفريق كلمتهم وثلم وحدتهم .

على أن كثيراً من الأئمة قالوا بجواز صلاة الجمعة فى مسجد غير المسجد الجامع ، خاصة إذا كثر الناس وضاق بهم المسجد الجامع .

وما يحرص عليه الإسلام — قبل كل شيء وبعده — هو أداء الصلاة مستوفية شروطها والمحافظة على وحدة المسلمين الفكرية والعملية . وإزالة أسباب التفرق والشقاق بينهم .

ذلك : لأن العبادة الحقيقية هى التى تثمر إخاءً وتعاطفاً حقيقيًا بين المسلمين .

فى شروط الإمامة فى الصلاة

شروط الإمامة فى الصلاة أن يكون الإمام مسلماً فلا تصح إمامة الكافر إجماعاً ، وأن يكون عاقلا حال إمامته ، وأن يكون بالغاً عند البعض ، وتجوز إمامة الصبى عند البعض الآخر فى الفرض والنفل وأن يكون ذكراً فلا تصح إمامة المرأة ولا الخنثى للرجال ، وتجوز إمامة المرأة للنساء فى الفرائض والنوافل على الراجح . وأن يكون الإمام مستوفياً لشروط الصلاة ، سالماً من الأعذار إذا وجد من هو أصح منه .

ومن فقد شرطاً من هذه الشروط حرمت إمامته لتسببه فى فساد صلاة المأمومين إذا لم يعلموا بما هو عليه من فقد شروط الصلاة . .

والفرق بين صلاة الفرض والنفل والركوع والسجود غير موجود ، إنّ الركوع هو الركوع ، والسجود هو السجود بهيئته ولزومه فى الصلاة ، وعدم صحة الصلاة - فرضاً كانت أو نفلا - بدون واحد منها .

ومما لا يمكن التسامح فيه التنازع على منصب الإمام بحجة الفضل فى العلم أو القراءة أو السن أو الورع أو ما إلى ذلك . . فإن تقديم الأفضل فى ذلك أمر مندوب . . وليس بواجب ، فإذا ترتب عليه تنطع من غير الأفضل فلا تصح منازعته فى ذلك ما دام مستوفيا لشروط الإمامة والآداب الإسلامية ، يمكن الدعوة إليها بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد اتفق العلماء على جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل ما دام مستوفياً لشروط الإمامة .

فى إمامة الجمعة للمسافر

الحنفية : يجيزون إمامة الجمعة للمسافر .

فقد قالوا : يشترط فى الجماعة التى تصح بها الجمعة أن تكون بثلاثة غير الإمام ، وإن لم يحضروا الخطبة ، فلو خطب بحضور واحد ثم انصرف قبل الصلاة وحضر ثلاثة رجال بعد ذلك وصلى بهم صحت من غير أن يعيد عليهم الخطبة .

ويشترط فيهم أن يكونوا رجالا ، ولو كانوا عبيداً أو مرضى أو مسافرين أو أميين أو بهم صمم ، لأنهم يصلحون للإمامة فى الجمعة إما لكل أحد وإما لمثلهم فى الأمى والأخرس بعد أن يخطب واحد غيرهم ، إذ لا يشترط أن يكون الخطيب هو الإمام للجمعة فصلاحيتهم للاقتداء

لغيرهم أولى ، بخلاف النساء أو الصبيان ، فإن الجماعة فى الجمعة لا تصح بهم وحدهم لعدم صلاحيتهم للإمامة بمثلهم فيها .

الشافعية : تجوز إمامة المسافر فى صلاة الجمعة إذا كان زائداً على الأربعين الذين تنعقد بهم الجمعة ، فإن كان منهم فلا تجوز إمامته .

فقد قالوا : من شروط الخطبة (١) أن يكون الخطيب ذكراً (٢) أن تصح إمامته للقوم ، فإن كان من الأربعين الذين تنعقد بهم الجمعة إذ لا تنعقد عندهم بأقل من أربعين ، فيشترط فى الإمام ما يشترط فى المأمومين بأن يكونوا أحراراً ذكوراً مكلفين متوطنين بمحل واحد ، فلا تنعقد بالعبيد والنساء والصبيان والمسافرين .

وإن كان الإمام زائداً على الأربعين صح أن يكون صبيًّا أو عبداً أو مسافراً .

المالكية : يشترطون فى إمامة الجمعة أن يكون ممن تجب عليه الجمعة ولو كان مسافراً نوى الإقامة أربعة أيام ، لكن بشرط أن تكون الإقامة بغير قصد الخطبة ، فإن أقام بقصد الخطبة فلا يصح أن يكون إماماً ، ويشترط المالكية أن يكون الإمام هو الخطيب فلو صلى بهم غير من خطب فالصلاة باطلة إلا إذا منع الخطيب من الصلاة مانع يبوح له الاستخلاف كرعاف ونقض وضوء — فيصح أن يصلى غيره إن لم ينتظر زوال عذره فى زمن قريب وإلا وجب انتظاره .

الحنابلة : يشترطون أن يكون الخطيب ممن تجب عليه الجمعة بنفسه فلا تجزئ خطبة عبد أو مسافر ولو نوى إقامة مدة ينقطع بها السفر ، فيشترطون فيه ما يشترطونه فى الجماعة الذين تنعقد بهم الجمعة وهم :

١ — أربعون ولو بالإمام .

٢ — أن يكونوا ممن تجب عليهم الجمعة بأنفسهم — وهم الأحرار الذكور البالغون — المستوطنون بالمحل الذى يصح أن تقام فيه الجمعة .

فلا يصح أن يكون من جماعة الجمعة رقيق ولا أنثى ولا صبى ولا مسافر ولا مقيم غير مستوطن ولا مستوطن بمحل خارج عن بلد الجمعة .

فى صلاة النافلة فى أثناء خطبة الإمام

لقد حث الله سبحانه وتعالى على التقرب إليه بفعل الطاعات وأرشد رسوله صلوات الله وسلامه عليه على الإكثار من النوافل ليكون ذلك جبرًا للإنسان عما سبق من تقصير أو خطأ .

وعلى الرغم من أن النافلة زيادة عما فرضه الله سبحانه وتعالى على عباده فإنها تجبر الإنسان وتزيده قرباً من الله تعالى ، لذلك أمر بها الله سبحانه وحث عليها نبيه ﷺ غير أن الأمر لم يكن على طريق الفرض أو الوجوب .

أما من دخل المسجد والخطيب فوق المنبر فإن السادة الفقهاء اختلفوا فيما بينهم هل تجوز له صلاة ركعتى تحية المسجد أولا يجوز له ذلك ؟

والجواب : عن ذلك أن السادة الفقهاء منهم من قال : بجواز ذلك شرعاً ، بل إنَّ الإنسان مأمور بذلك ، واستدلوا على ذلك بقوله ﷺ :

« إذا جاء أحدكم المسجد فليركع ركعتين » .

والبعض الآخر يقول بعدم جواز ذلك واستدل على ذلك بقوله ﷺ :

« إذا صعد الخطيب فوق المنبر فلا صلاة ولا كلام » .

هذا ما ورد عن السادة الفقهاء فى حكم من دخل المسجد والإمام يخطب فهل له أن يصلى تحية المسجد أو ليس له ذلك .

أما الوجه الآخر وهو الراجح والذى نختاره أن مَن دخل المسجد والإمام فوق المنبر له أن يصلى ركعتين خفيفتين ويتجوز فيهما .

فى إذا لحق المأموم الإمام بعد الصلوات

إذا لحق المأموم الإمام فى بعض الركعات اعتبر ما صلاه معه أول صلاته ثم أكمل الصلاة بعد سلام الإمام .

فإذا أدرك الركعة الأخيرة مع الإمام اعتبرها أولى ركعات صلاته ، فإذا سلم الإمام قام فصلى ركعة ثم جلس للتشهد الثانى ثم قام فأكمل الصلاة .

وإذا أدرك ركعتين مع الإمام قام بعد سلام الإمام وأكمل باقى الصلاة وبما أن القراءة فى الصلاة تكون فى الركعتين الأوليين بفاتحة وسورة وفى الركعة الثالثة وفى الركعة الرابعة بفاتحة فقط ، فإن المأموم إذا أدرك الركعة الأخيرة مع الإمام أتم صلاته على ما بينا وقرأ فى الركعة الثانية والثالثة من صلاته بفاتحة وسورة ، ثم قرأ الفاتحة فقط فى الركعة الرابعة وإذا أدرك ركعتين مع الإمام قام فأكمل الركعتين الأخريين أو الركعة الثالثة فى المغرب وقرأ بفاتحة وسورة .

وهذا هو ما يعنيه الفقهاء بقولهم : يبنى على الأعمال ويقضى الأقوال .

فى جواز تجمع أهل المذاهب المختلفة للصلاة فى مسجد واحد

صلاة الجماعة سنة مؤكدة وورد فى فضلها أحاديث كثيرة منها ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وسوقه خمسة وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه ما لم يحدث : اللهم صلى عليه اللهم ارحمه ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة » .

فاجتماع الناس فى مسجد واحد لصلاة الجماعة صحيح ومندوب إليه وكان أهل المدينة جميعاً يجتمعون لصلاة الجماعة خلف رسول الله ﷺ ولقد روى أبو داود بإسناد حسن عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بلد لا تقام فيهم الصلاة إلاّ قد استحوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

والمذاهب الأربعة مستمدة من القرآن والسنة كلها صحيحة ، فإذا اجتمع أهل المذاهب المختلفة فى مسجد واحد فمن السنة المؤكدة أن يؤدوا جميعاً صلاة الجماعة ولا يضر اختلاف المذاهب .

فى جواز مصافحة الناس بعد صلاة النافلة التى تسبق صلاة الجمعة

إن المساجد جعلت فى الإسلام لمجالس الذكر ومجالس العلم سواء أكانت تفسيراً للقرآن أم كانت غير ذلك من أنواع العلم وفروعه المختلفة ، والمساجد على كل حال إنما جعلت للعبادة بالمعنى الواسع العام الشامل – ومع ذلك فإنه لا تمنع فيها المصافحة أو الحديث فى غير إثم اللهم إلاّ فى حالة واحدة هى عندما يكون الخطيب على المنبر يوم الجمعة فى أثناء الخطبة ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك حتى لقد ورد عنه النهى عن قول المسلم لأخيه (أنصت) والمصافحة إذاً تجوز فى المسجد بعد صلاة النافلة التى تسبق صلاة الجمعة ومع ذلك فإن تأخيرها إلى ما بعد صلاة الجمعة أفضل .

فى الجمع بين صلاة الجمعة والظهر

يجوز الجمع بين صلاة الجمعة والظهر فى بلد تعددت فيه المساجد لغير حاجة وأقيمت الجمعة فيها كلها ، وذلك للاعتداد بجمعة من سبق غيره بالركعة الأولى من المصلين فى تلك المساجد ، قال بهذا الشافعية ، أما إن تعددت المساجد لحاجة فجمعة أهل كل مسجد صحيحة ولا يحتاجون إلى إعادة صلاة الظهر .

وذهب بعض الفقهاء إلى أن الجمعة لا تنعقد إلاّ بالمسجد العتيق الذى أنشئ قبل غيره ، وذهب آخرون إلى أن الجمعة فى كل المساجد صحيحة ولا يحتاج المصلون بعدها إلى إعادة صلاة الظهر غاية ما فى الأمر أنهم رجحوا الصلاة فى المسجد الذى بنى أولا . . قالوا إن الصلاة به تعدل الصلاة فى غيره بسبعين ضعفاً .

فى هل صلاة النافلة فى المسجد تتوقف على حضور الإمام

صلاة النافلة فى المسجد لا تتوقف على حضور إمام المسجد ما دام قد حان وقتها ، لأنها للوقت وليست للإمام ، كنافلة الصبح القبلية والظهر والعصر والعشاء والنوافل التى لا وقت لها ولا سبب تؤدى متى شاء من يُريد أداءها ما دام ذلك فى غير أوقات الكراهة المنصوص عليها فى كتب الفقه بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس وترتفع قدر رمح وعند الزوال قبل الظهر وبعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس .

ويجوز أداء نافلة الجمعة بعد صلاة الجمعة فى المسجد وفى غيره حسب ظروف المصلى .

فى السهو والتفكير فى العدو فى أثناء الصلاة فى الحرب

إن الشكوى من تشتت الذهن -- فى أثناء الصلاة بهذا الذى ذكره السائل أو بما يترتب عليه من سهو أو سرحان ذهن -- كثيرة متعددة ولا مفر من الالتجاء إلى الله فى هذه الحالة ، ولابد مع ذلك من المحاولات الصادقة للتخلص منها : وليس الأمر فى الحقيقة بالعسير عسراً شديداً ، فلو وطّن الإنسان العزم على أن يجمع شتات فكره ، وصدقت نيته فى ذلك فإنه سينتهى إلى ما يحب إن شاء الله .

ومن المعروف فى الجو الاسلامى أنه ليس للإنسان من صلاته إلاّ ما عقل ، وأن ثوابه إنما هو بمقدار انتباهه وتعقله للصلاة ، أو بمقدار إقامة الصلاة على حد التعبير القرآنى ، وإقامتها إنما تكون بأدائها على أتم ما تكون التأدية ، وأنه من المفيد أن يقرأ الإنسان عدة مرات سورة الناس قبل الدخول فى الصلاة وأن يقول :

رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ، فإذا ما تأمل الإنسان بذلك وتهيأ للصلاة أعانه الله ووفقه .

ومن المفيد فى ذلك أيضاً : أن يقوم بمران يومى على ذكر الله مع جمع شتات أفكاره لمدة خمس دقائق ، فإذا ما نجح فى ذلك فهو ناجح لا محالة بتوفيق الله ، فى تركيز ذهنه فى الصلاة . على أنه إذا وطّن نفسه على تدبر ما يقول وما يفعل منذ ابتداء الصلاة إلى انتهائها ، فإن ذلك يصرف ذهنه عن الدنيا إلى ما هو فيه وهو الصلاة .

فى انشغال الفكر فى الصلاة

إن انشغال الفكر فى الصلاة أمر يشبه أن يكون منتشراً بين كثير من المسلمين فى العصر الحاضر ، والشكوى من ذلك كثيرة متعددة ولا مفر من الالتجاء إلى الله فى صرف هذه الحالة ولابد مع ذلك من المحاولات الصادقة للتخلص منها ، وليس الأمر فى الحقيقة بالعسير عسراً شديداً .

فلو وطّن الإنسان على أن يجمع شتات فكره وصدقت نيته فى ذلك فإنه سينتهى إلى ما يحب إن شاء الله ، وإنه لمن المفيد فى ذلك أن يقرأ الإنسان عدة مرات سورة الناس قبل الدخول فى الصلاة ، وأن يقول : رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ، فإذا ما تأهل الإنسان بذلك وتهيأ للصلاة أعانه الله ووفقه ، ومن المفيد فى ذلك أيضاً أن يقوم بمران يومى على ذكر الله مع جمع شتات أفكاره لمدة خمس دقائق تزداد إلى عشرة تدريجيًّا ، فإذا ما نجح فى ذلك — وهو ناجح لا محالة إذا صدقت النية — فإنه سينجح بتوفيق الله إلى تركيز ذهنه فى الصلاة .

من سنن الهدى الصلاة فى المسجد

يقول صلوات الله عليه فيما رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه :

« إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » قال الله عز وجل (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) ويقول صلوات الله عليه فيما رواه مسلم : « مَنْ تطهر فى بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة » ومن أجل ذلك كان سلفنا الصالح : يؤمون المساجد فى غبطة وسرور ، وكانوا يحاولون ما استطاعوا المحافظة على صلاة الجماعة فى المسجد ، وذلك لما روى فى التهديد على تركها ، روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أثقل الصلاة على المنافقين : صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْواً ، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلا فيصلى بالناس ثم أنطلق ومعى رجال ومعهم حزم من الحطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار » .

أخذ من هذا الحديث وغيره بعض الأئمة وجوب الصلاة فى المسجد ، وقال بعضهم بفرضيتها ، وأكثر العلماء – كما يقول القاضى عياض ، ذهب إلى أنها سنة مؤكدة .

والصلاة المفروضة فى البيت إذن على هذا الرأى الأخير ، وهو رأى أكثر العلماء مجزئة وإن كان فيها مخالفة واضحة لسنة رسول الله ﷺ والأمر فيها هو ما قاله ابن مسعود رضى الله عنه معبراً عن الروح الإسلامية الصحيحة حيث قال : « من سره أن يلقى الله تعالى غداً مسلما فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم من الهدى وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف » وفى رواية قال : « إن رسول الله ﷺ علمنا سنن الهدى وإن من سنن الهدى الصلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه » .

فى آداب المسجد

للمسجد آداب تؤخذ من نص الآيات القرآنية المتعلقة بالمساجد ومن روحها يقول الله تعالى : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) والآية الكريمة تنهى فى صراحة عن أن تخطر فى أذهاننا أو يجرى على ألسنتنا ذكر أحد من الناس ، وتعلل ذلك بهذا التعليل المعبر الواضح الذى تذكره ابتداء وهو أن المساجد لله ، وإذا كانت له فلا ينبغى فى الذوق السليم أن نشرك معه فيها غيره . ويقول سبحانه : (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله) .

لقد أذن الله أن ترفع المساجد التى هى بيوت الله ليذكر فيها اسمه ، أما تسبيح الله فيها أى تنزيهه التنزيه المعتد به المثاب المتقبل من الله سبحانه وتعالى ، فهو الصادر من هؤلاء الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وليس المقصود التجارة والبيع فحسب وإنما المقصود كل شئون الدنيا ، والآية الأولى إذن إنما تنهى عن أن يذكر أحد إلا الله ، والثانية توجهنا إلى أن نشتغل فى المسجد بأمر من أمور الدنيا .

ومهما يكن من شىء فإن الإنسان بمجرد دخول المسجد ينبغى أن يصلى ركعتين تحية المسجد ، وينبغى أن يلتزم الأدب اللائق برب البيت ، لا يتخطى رقاب الناس ، ولا يرفع صوته فى صخب ، ولا يغتاب ولا يحدث أى شىء يصرف الناس عن سكونهم وخشوعهم وطمأنينتهم ، ومن أهم آداب المسجد النظافة وطيب الرائحة ، يقول الله تعالى : (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) . من كل ذلك نتبين آداب المسجد ونتبين أن الحديث فى المسجد عن أمور الدنيا إنما هو خلاف الأولى ، وهو عمل يتنزه عنه كل صاحب شعور دينى صحيح اللهم إلا إذا كان الحديث فى أمور الدنيا ضروريا لجماعة المسلمين نافعاً مفيداً فيتحدث بقدر الحاجة .

فى اتخاذ القبور مساجد

اختلف العلماء فى المراد بقوله ﷺ فى مرض موته « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » هل كانوا يسجدون إلى القبور ويعظمون القبور ، أوكانوا يبنون فوقها المساجد ويصلون فيها .

فإن كان المراد تعظيم القبور والسجود لها أو لأصحابها ، فلم يعهد ذلك فى بلاد الإسلام ولا يقول مسلم بذلك أو يرضى به . وعلى ذلك فالصلاة فى مسجد فيه قبر لاشىء فيها ، وإن كان المراد بناء المساجد على القبور أو اتخاذ القبور فى المساجد فالصلاة فى مسجد فيه قبر جرام . وقد نهى ﷺ عنها . .

عـلى أن الصلاة فى المقابر نفسها اختلف فيها العلماء : فقيل بحرمة الصلاة وقيل بكراهيتها ، وقيل بجوازها . وهذا فيما إذا لم تتحقق النجاسة من لحوم الموتى وصديدهم وما يخرج منهم وإلاَّ لم تصح الصلاة -- ومن المعلوم أن المسجد إن كان فيه قبر -- أو قبران أو ثلاثة -- محفوظ من النجاسة مراعى فيه تحقق الطهارة -- أى أن الخوف من الصلاة على النجاسة غير موجود فيه ، وتصح الصلاة فيه .

ولكن هذا لا يمنع من أن الصلاة فى غير هذا المسجد أولى من الصلاة فيه ما دام هناك غيره -- مالم يفصل القبر عن المسجد بحائط أوحاجز مثلا -- وإلا استوى هو وغيره من المساجد .

ومن الأمور المكروهة تخصيص مسجد ما بصلاة التراويح أو العيدين ونحوهما دون غيره ، إذ هو تخصيص بغير مخصص ، وقد يؤدى إلى الوقوع فى الابتداع المذموم ، فالمساجد كلها فى مرتبة واحدة عدا المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصى ، وتخصيص غيرهم من المساجد بصلاة خاصة أو عبادة معينة لا يجوز ، فالأولى الابتعاد عنه .

فى الصلاة من قعود للقادر على القيام

لا تصح الصلاة المفروضة من قعود للقادر على القيام ، ولم يكن الكسل فى يوم من الأيام ولا فى بيئة من البيئات عذراً مقبولاً ، ومن صلى الصلاة المفروضة قاعداً كسلا وهو قادر على القيام بها فإنها لا تصح ، وإن فى التأدب لله سبحانه وتعالى يوجب أن ينفض الإنسان عن نفسه الكسل ، وأن ينهض إلى الصلاة فى تفاؤل وفى غبطة متمثلا قول الرسول صلوات الله عليه لبلال رضى الله عنه « أرحنا بها يا بلال » أى أرحنا بالصلاة : أى أن الصلاة راحة وبقوله صلوات الله عليه : « جعلت قرة عينى فى الصلاة » أما إذا عجز حقيقة عن القيام فى الصلاة المفروضة فله أن يصليها من قعود أو حسب ما يستطيع دون أن ينقص من أجره شىء ، أما الصلاة التى يجوز للإنسان أن يصليها من قعود فإنها النافلة على وجه العموم ، ولكن ثواب القاعد فيها وهو قادر على القيام يكون نصف ثواب القائم .

فى من منع زوجته من الذهاب إلى المسجد

كانت زوجة سيدنا عمر رضى الله عنهما : تذهب إلى المسجد للصلاة وتقول ما معناه : « والله لا أمتنع من الصلاة فى المسجد إلاّ إذا منعنى عمر » .

فما كان سيدنا عمر رضى الله عنه يمنعها ، وذلك لأنه يعلم أن سنن الإسلام أن يصلى النساء فى المسجد محتشمات غير متبرجات ولا متعطرات .

وإذا كانت صلاة النساء فى المساجد وسماعهن الدروس فيها من الأمور الضرورية فى العصور الماضية فإنها فى هذا العصر أكثر ضرورة فلعل جو المسجد وما يستمعن فيه من عظات وآيات قرآنية وأحاديث نبوية يكون موجهاً لهن إلى الخير والإنابة .

ويقول أسلافنا رضى الله عنهم فى أمر خروج المرأة لطلب العلم فى غير المساجد : إن على الرجل أن يقوم بتعليم زوجته ، ومتى كان الرجل قائماً بتعليم ما يجب لزوجته امتنع عليها الخروج لسؤال العلماء ، وكذا إن ناب عنها فى السؤال وعرّفها الجواب . . فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال ، بل يجب عليها ذلك ويعصى الرجل بمنعها .

ومهما أهملت المرأة حكماً من الأحكام الواجبة ولم يعلمها الرجل إيّاه شاركها فى الإثم ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

(يأيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً) . .

فى رد المصلى للسلام

المصلى لا يجب عليه السلام ولو ردّ السلام بالكلام بطلت صلاته ، ويرى علماء الحنفية أن ردّ السلام فى الصلاة بالإشارة مكروه ، ويرى البعض أن الإشارة باليد أو بالرأس لرد السلام جائزة فى الصلاة بشرط أن تكون إشارة خفيفة .

فى صلاة الجمعة مع الراديو والتليفزيون

لا تجوز صلاة الجمعة مع الراديو أو التليفزيون أو غيرهما من الإذاعات المنقولة من المساجد ، وذلك لفقدان المعنى المطلوب من صلاة الجمعة فى المساجد ولوجود الفاصل المانع من صحة الاقتداء بين الإمام ومأموميه فى الجمعة أو فى غيرها .

فى ترك الصلاة وتأخيرها

يتبين الإنسان أهمية الصلاة فى الدين الإسلامى حينما يعلم أن الحرب نفسها فى وضع الإسلام لا تسقط الصلاة ، فقد نظم الإسلام صلاة معينة للحرب .

وعدم وجود الماء لا يسقط الصلاة فقد بين الله أن التيمم يغنى إذا لم يكن من ذلك مناص : والمرض ليس عذرًا لترك الصلاة اللهم إلا إذا استحال ذلك بأن فقد المريض عقله ، وفى هذه الحالة عليه القضاء .

من ذلك وغيره نرى الأهمية الكبرى للصلاة فى نظر الإسلام ، فليس بغريب أن تكون عماد الدين ، وأن من أقامها أى أداها على ما ينبغى أن تكون عليه فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين .

وأن محاولة جعل العمل عذراً فى تأخيرها إنما هى محاولة باطلة ، وذلك أن هذا الذى يعمل اثنتى عشرة ساعة ، يأكل ويشرب ويذهب لقضاء حاجته وقد يتكرر ذهابه لقضاء حاجته عدة مرات فى اليوم الواحد فلا يمنعه العمل من ذلك .

والوقت الذى تستغرقه الصلاة أقل من وقت الغداء أو العشاء ، وذلك أن الوضوء والصلاة يستغرقان أقل من عشر دقائق .

فعلى العمال أن يراعوا ما فرضه الله ، وألا يتمحلوا المعاذير ، لو عزم الواحد منهم على إرضاء الله لوفقه الله تعالى إلى مرضاته .

بمناسبة الحديث عن أهمية الصلاة ما الحكم فى من تركها :

إن من ترك الصلاة متعمداً أو مستهتراً أو غير مقرٍّ بها فقد كفر ، أما من تركها لأن الحياة قد جرفته بتيارها المادى فأصبح مستعبداً لها لا يفكر إلاّ فيها فإنه من كبار العصاة فى نظر الدين ، وهو كلما تهاوى وتكاسل عنها أظلم قلبه وازداد انغماساً فى غضب الله ، وعليه أن يبادر بالتوبة الخالصة النصوح ، ويرجع إلى الله بالطاعة ، فلعل الله يتفضل عليه بالمغفرة ويرحمه بحسن الخاتمة .

فى الصلاة على الميت

إن المسلم إذا مات فإنه يُغسَّل قبل دفنه ويُصلَّى عليه ، ولا يحتاج فى ذلك إلى شهادة شخص من الأشخاص بأنه كان يصلى ، ولا يحتاج ذلك إلى علم فلان أو فلان ، أو علم أهل القرية ،

أو علم الإمام ، إن ذلك كله لا يدخل فى الموضوع بمنع أو إباحة الغسل أو الصلاة ، فإن ذلك على المسلمين بالنسبة لمن مات مسلمًا ولو كان مسلماً عاصياً لا يؤدى الصلاة .

والأمر الوحيد الذى كان يؤخر الرسول ﷺ الصلاة على الميت من أجله (الدَّيْن) فإنه صلوات الله وسلامه عليه كان يسأل عن الميت قبل الصلاة عليه فيقول : أعليه دَيْنٌ ؟ :

فإن قالوا له نعم أخَّر الصلاة عليه إلى أن يسدد دينه ، أما إذا لم يكن عليه دَيْن فإن رسول الله ﷺ كان يصلى عليه دون أن يسأل عن أى شىء من سيرته ، فلا يجب عندما يموت إنسان – أن يسأل الإمام أو غيره عنه فى صلاته أو زكاته أو صومه فإن هذا ليس من السنة .

فى حضور النساء صلاة الجنازة

يجوز للنساء حضور صلاة الجنازة إذا خرجن متسترات غير متبرجات ولا متعطرات وأمنت الفتنة .

لما أخرجه الطبرانى بسند حسن : من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انتظر أم عبد الله حتى صلت على عتبة .

فإن كن مع الرجال صَلَّيْنَ مقتديات بإمام الرجال .

وإن كُنَّ منفردات قيل : يستحب أن يصلينْ منفردات وقيل يصلين جماعة وتؤمهن إحداهن .

والإسلام لا يفرق بين النساء والرجال إلاَّ فيما تقتضيه الفطرة ، وتطلبه الطبيعة لكل منهما كإسقاط الصلاة عن الحائض وعدم إلزام النساء بحضور صلاة الجمعة مثلا تاركاً لهن الاختيار فى الذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة أو فى المكث فى البيت وصلاة الظهر .

فى جواز النيابة فى الصلاة عن الميت إذا لم يكن يؤدى الصلاة

العبادات التى فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، بدنية محضة – كالصلاة والصوم ، ومالية محضة كالزكاة ، ومركبة منهما كالحج .

والقصد من العبادة البدنية التذلل والخضوع لله تعالى ، ولا تصح النيابة فيها ، لأن التذلل والخضوع إنما يحصل من الشخص المؤدِّى :

فمن مات ولم يكن يؤدى الصلاة لا يرفع عنه إثم ترك الصلاة ولا يخرج من عهدة المؤاخذة بأداء أحد أبنائه ، وهو مرتكب كبيرة وأمره مفوض إلى ربه .

فى حكم صلاة ركعتى السنة قبل صلاة الجمعة

عن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة ، وتطهر ما استطاع من طهر ثم ادهن أو مس من طيب ، ثم راح فلم يفرق بين اثنين فصلى ما كتب له ، ثم إذا خرج الإمام أنصت غفر له ، ما بينه وبين الجمعة الأخرى » وهذا الحديث يرسم صورة واضحة لما ينبغى على المؤمن من سلوك يوم الجمعة إنه بعد أن يخرج من بيته يدخل المسجد فيجلس فى المكان الذى يتيسر له ، ويصلى ما تيسر له من الركعات إلى أن يصعد الإمام المنبر ، فإذا خرج الإمام وصعد المنبر تأهب المصلون للاستماع له والأخذ عنه وكفوا عن الصلاة وعن الكلام .

وإذا دخل رجل والإمام على المنبر فهل يسن له الجلوس ، أويسن له صلاة ركعتين ؟

روى المالكية والحنفية أنه إذا جلس الإمام على المنبر فلا صلاة ولا كلام وعلى الداخل الجلوس ، أما عن صلاة السنة بعد الأذان الأول للجمعة وقبل الأذان الثانى الذى يتم بعد صعود الإمام على المنبر فقد اختلف فيه .

فالشافعية : يرون أن سنة النفل بعد الأذان الأول للجمعة ثابتة ومقررة لما رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنة عن عبد الله بن مغفل قال : قال رسول الله ﷺ : « بين كل أذانين صلاة لمن شاء » ولا فرق فى ذلك بين الجمعة وغيرها .

ويرى غيرهم من العلماء أن الجمعة ليست داخلة فى هذا المجال ، لأن الخطبة هى الفاصل بين الأذان والإقامة .

وكان الصحابة يدخلون المسجد مبكرين ، فإذا دخل أحدهم صلى ما تيسر له من الركعات ومما يستحق الإشارة أن الأذان الثانى فعله عثمان رضى الله عنه وفعله سنة لأنه من الخلفاء الراشدين الذين اعتبر الرسول ﷺ سنتهم جزءاً من سنته وأمر باتباعها ولم يختلف منهج الصحابة بعد هذا الأذان عن منهجهم قبله — إذا دخلوا المسجد صلوا تحية المسجد ثم لا يقومون بعد الأذان .

فى ما يجب على الإمام والخطيب

روى الإمام مسلم بسنده : عن عثمان بن أبى العاص قال : « آخر ما عهد إلىَّ رسول الله ﷺ : (إذا أممت قوماً فأخف بهم الصلاه) ويروى الإمام مسلم أيضاً بسنده عن أنس رضى الله عنه قال إن رسول الله ﷺ كان من أخف الناس صلاة فى تمام : عن أبى مسعود الأنصارى فيما

رواه مسلم قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا ، فما رأيت النبى ﷺ غضب فى موعظة قط أشد مما غضب يومئذ فقال : « أيها الناس فإن منكم منفرين ، فأيكم أم الناس فليوجز ، فإن من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة » .

وروى الإمام مسلم أيضًا عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « إذا أمّ أحدكم الناس فليخفف ، فإن منهم الصغير والكبير والضعيف والمريض ، فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء »

وقد بينت هذه الأحاديث الأمر بياناً كافياً ، فالإنسان إذا صلى وحده فليطل الصلاة كيفما أحب ، ليطلها فى وقوفها وقراءتها ، وفى ركوعها وفى سجودها مسبحاً الله فيهما وداعياً وقد قال ﷺ أقرب مايكون العبد لربه وهو ساجد ، وليطلها فى التشهد والدعاء بعد التشهيد ، أما إذا صلى بالناس فليخفف ولم يأمر الرسول ﷺ أمرالتخفيف هذا إلا بسبب الضعيف الذى لا يستطيع تحمل إطالة الصلاة ، والمريض الذى يتعذر عليه متابعة الإمام فى الإطالة والصغير الذى يمل الإطالة ، وذى الحاجة الذى يهمه قضاء حاجته ، ولكن الأمر بالتخفيف ليس معناه الإخلال بشىء من إقامة الصلاة ، كلا بل لابد من إقامتها ، وإنها للفتة موفقة من سيدنا أنس حين يصف رسول الله بتخفيف الصلاة يضيف قوله (فى تمام) وفى رواية أخرى :

يقول عن النبى ﷺ : «كان يوجز ويتم » فالصلاة خلف الإمام الذى يؤدى أركانها كلها كاملة صلاة صحيحة ولا شىء فيها ، وهى مقبولة إن شاء الله تعالى (فإنما بعثتم ميسرين لا معسرين) لقد عبر الرسول ﷺ عن إطالة الإمام للصلاة بقوله : « أيها الناس إن منكم منفرين فأيكم أم الناس فليوجز » .

وحسبنا فى ذلك أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أمر الإمام بالتخفيف والتجوز فى الصلاة شفقة على المأمومين ، فهو صلوات الله وسلامه عليه بالمؤمنين رءوف رحيم .

فى بعض أخطاء الإمام والمصلين

لقد أخطأ كل من الخطيب والإمام والمصلين الذين لم يستجيبوا لطلبه بجمع المسابح فى جيوبهم وأساءوا إلى جلال الموقف وهم فى صلاة جامعة فى بيت من بيوت الله(١٥٥) .

فأما الخطيب فقد كان عليه – وهو يخطب أن يقف موقف رسول الله ﷺ وأن يلتزم آداب الإسلام التى أدب القرآن الكريم بها من يتصدى للدعوة إلى الله ونشر دينه فقال تعالى لرسوله

---

(١٥٥) كانت هذه الفتوى نتيجة خلاف حدث فى مسجد من المساجد أدى إلى نزاع بين المصلين وإمامهم ترتب عليه فساد الجمعة فى نظر البعض ، فكانت فتوى الإمام عبد الحليم محمود رضى الله عنه النبراس المضىء لهذا الموضوع .

المصطفى ﷺ الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضــوا من حولك) ، وقال تعالى لرسوله ولمن يحمل من بعده عبء الدعوة إلى الإسلام : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن) .

وأما أولئك المانعون الذين لم يستجيبوا لنداء الخطيب فقد أساءوا إلى نفوسهم وإلى دينهم وإلى جماعة المسلمين ، فإن الذين يحضرون خطبة الجمعة ممنوعون من كل ما من شأنه أن يشغلهم عن الإنصات للخطبة أو يشغل الخطيب عن إلقاء خطبته وقد ورد « إذا خرج الإمام ، أى من حجرته متجهاً إلى المنبر فلا صلاة ولا كلام » كما ورد « إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب أنصت فقد لغوت ومن لغا فلا جمعة له » أما كون صلاة الجمعة فى هذه الحالة صحيحة فمن المقرر أن خطبة الجمعة شرط من شروط صحة صلاة الجمعة ، لأنها بديل عن ركعتين من صلاة الظهر .

وقد قرر الإمام أبو حنيفة أن ركن الخطبة هو مطلق الذكر الشامل للقليل والكثير ، فيكفى لتحقق الخطبة المفروضة عندهم تحميدة أو تسبيحة أو تهليلة ، وإن كان يكره تعمد الاقتصاد على ذلك لعدم تحقق سنن الخطبة وهى حمد الله والثناء عليه بما هو أهله ، والشهادتان والصلاة على النبى ﷺ والعظة بالزجر عن المعاصى والتخويف والتحذير مما يسبب مقت الله وعقابه ، والتذكر بما به النجاة فى الدنيا والآخرة ، وقراءة آية من القرآن الكريم ، وتكرار الخطبة واستكمال الخطبة الثانية على حمد الله والثناء عليه والصلاة على النبى ﷺ والدعاء للمؤمنين والمؤمنات والاستغفار لهم . . إلخ ، فإن كان القدر الذى افتتح به الخطيب خطبته قبل أن يحدث ما حدث مشتملا على مطلق ذكر الله تعالى – والمفهوم أنه كذلك فإن صلاة الجمعة صحيحة على رأى الحنفاء .

وأما الشافعية فقد اشترطوا لصحة خطبة الجمعة أن لا ينصرف عنها الخطيب بصارف فإذا انصرف عنها ولم يعدها قبل الصلاة فقد فسدت الخطبة وإذا فسدت الخطبة فقد فسدت الصلاة ، لأن صحة الخطبة شرط من شروط صحة صلاة الجمعة .

هذا – ومادامت صلاة جمعتكم هذه قد صحت على مذهب من المذاهب الإسلامية فقد انتهى الأمر ، غير أننا نهيب بالمسلمين سواء من يقصدون للإمامة أو من يحضرون الجماعة أن يتأسوا برسول الله ﷺ وصحابته وأن يتخلقوا بأخلاق القرآن الكريم ولا يثيروا بينهم الخلافات حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وليكن المسلمون صفًّا واحداً خلف أئمتهم وليستمعوا إلى قول الله تعالى : (ولا تنازعوا فتفشلوا ، وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) .

وليحسن الأئمة النصيحة أمراً بمعروف ونهياً عن منكر وليحسن المسلمون الاستماع إلى إرشاد

أئمتهم وحسن توجيهاتهم وليعملوا بها حتى يكونوا ممن قال الله تعالى فيهم (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب)

فى الطريقة المثلى فى خطبة الجمعة لمن لا يفهمون اللغة العربية

إن الطريقة المثلى فى خطبة الجمعة بالنسبة لمن لا يعرفون اللغة العربية إنما هى أن يحمد الله ويتشهد ويصلى على رسول الله ﷺ ، ويقرأ آية من القرآن وحديثاً من أحاديث رسول الله ﷺ باللغة العربية فيكون بذلك أدى أركان الخطبة .

وذلك كله لا يستغرق أكثر من ثلاث دقائق . وهو فضلا عن هذا أمر سهل ميسور لا يشق على الخطيب حفظه .

ثم بعد ذلك يخطب بلغة القوم الذين يصلى بهم الجمعة ويمكنه أن يستفيض فى الخطبة بلغة القوم كيف شاء .

وذلك أن الخطبة عظة وتذكير بالله وبالتقوى والإخلاص ، وبالآخرة والحساب ، وبالجنة ونعيمها والنار وعذابها ، فلابد أن تكون بلغة القوم وإلا فقدت الخطبة وظيفتها .

وإذا اتبع الخطيب ماذكرناه فإنه يكون قد خرج من كل خلاف لأنه ذكر أركان الخطبة باللغة العربية ثم وعظ القوم بلغة يفهمونها .

فى بناء المسجد وسط مقبرة

لا يصح بناء مسجد وسط مقبرة مسلمين إذا كان ذلك يستدعى هدم بعض المقابر وإزالتها ونبشها ، لأن حرمة موتى المسلمين وهم فى قبورهم كحرمتهم فى حال حياتهم ، وقبورهم التى حلوا بها صارت ملكاً دون غيرهم ، ولا يحل لأحد نبشها ، أو النزول بأحد قبورها إلا لضرورة ملحة كدفن بعض الأموات بقبر أسرته إن لم يتيسر دفنه بقبره منفرداً .

وقد ورد عن سيدى رسول الله ﷺ أنه قال : « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه ثم تخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر أو يتكئ عليه » أما إذا كان فى وسط المقبرة مكان خلاء لا قبور فيه وكان بناء المسجد فيه لا يستدعى هدم قبر أو إزالته فإن ذلك جائز ولا شىء فيه .

فى الصلاة فى مسجد فيه ضريح

أحب – إجابة على هذا السؤال – أن أنبه الناس فى قوة إلى مسجد رسول الله ﷺ . إنه مسجد مبارك ، الصلاة فيه بألف صلاة ويتوسطه ثلاثة أضرحة مباركة هى الضريح

الشريف صلوات الله وسلامه على صاحبه ، وضريح الصدّيق ، وضريح الفاروق رضوان الله عليهما .

ونحن فى هذا المسجد المبارك نصلى عن يمين الأضرحة ، وعن يسارها ومن أمامها ومن خلفها .

فالأضرحة الشريفة تكون تارة عن يميننا ، وتارة عن يسارنا ، وتارة خلفنا ، وتارة أمامنا ، والصلاة فى المسجد المبارك بألف صلاة .

ولا يتأتى بعد ذلك أن يثار سؤال عن الصلاة فى مسجد به ضريح ، إنها جائزة وليس معنى هذا أننا ندعو إلى إقامة الأضرحة فى المساجد ، كلا وإنما نقول : إنه لو فرض أن ذهب المسلم إلى مسجد به ضريح فلا يتحرج من الصلاة فيه ، فإنها مباحة لا حرمة فيها ولا كراهية ومسجد رسول الله ﷺ خير شاهد .

فى الصلاة خارج المسجد والإمام بداخله

لقد بنى الإسلام على اليسر ويقول رسول الله ﷺ : يسروا ولا تعسروا وصلاة الجماعة خارج المسجد والإمام داخله تجوز إذا كان المأموم عالماً بانتقالات الإمام فى الصلاة من ركن إلى ركن ومن وضع إلى آخر ، وذلك إما برؤيته أو بسماع صوته أو صوت مبلغ عنه ، وبشرط أن لا يكون المأموم أمام الإمام ، اللهم إلا إذا كانت هنا ضرورة اقتضت ذلك .

فى عجز الإمام عن القيام فى أثناء صلاته بالمأمومين

ذهب الشافعى رضى الله عنه إلى صحة إمامة الذى لا يقدر على الصلاة من قيام ، وذهب إلى أنه يجوز للقادر على القيام الصلاة وراء القاعد العاجز ، والقاعد وراء المضطجع وللقادر على الركوع والسجود وراء المومئ بهما .

ولا يجوز للقادر على شىء من ذلك موافقة ، العاجز فى ترك القيام أو القعود أو الركوع أو السجود ، قال الإمام النووى ، ولا خلاف فى شىء من هذا عندنا .

واستدل الشافعى رضى الله عنه على ذلك بأن النبى ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم « صلّى جالساً والناس خلفه قيام » .

وعلى ذلك تصح الصلاة من قيام خلف الإمام الذى يصلى من قعود لعجزه عن القيام ، وعلى

المأمومين أن يتابعوه من قيام ما داموا يستطيعون ذلك ، وتكون صلاة كل من الإمام والمأمومين صحيحة كاملة الأجر والثواب ، وليس لهم أن يجلسوا لأن الجلوس إنما رُخِّصَ للعاجز عن القيام فقط .

فى الصلاة خلف حليق اللحية

الصلاة خلف حليق اللحية صحيحة مع الكراهة ، لمخالفته أمر رسول الله ﷺ والثابت عنه طول حياته .

وما دام عليه هو والصحابة رضى الله عنهم وأمر أمراً مشدداً ومكررًا كثيراً وكثيراً الظاهر فيه الوجوب ، والواجب حرام تركه .

وهذا هو الذى قال به علماء الأمة وجمهور الأئمة قال ﷺ « قصوا الشارب واتركوا اللحى » (جزوا الشارب واعفوا اللحى) .

(احفوا الشارب واعفوا اللحى) إلى غير ذلك لدرجة أن كثيراً من الحفاظ والجهابذة ألف فى ذلك كتباً منها كتاب الدعامة فى أحكام اللحى والعمامة .

وعلى هذا فالصلاة خلفه صحيحة مع الكراهة . .

فى إمامة شارب الدخان

إن المطلوب فى الإمام الذى يصلى بالمسلمين أن يكون قدوة حسنة ، لأن الملاحظ فيه أنه إمام أى قدوة لغيره – وصلاته إماماً بالناس تدريب على الاقتداء به حتى فى سلوكه ، يتبعه الناس صغاراً وكباراً ، ويتسامع به أهل القرية والمدينة كمعلم للدين وكخليفة لرسول الله ﷺ ، يلقى الأضواء على المجتمع الذى يعيش فيه بل على الإمام أن يكون صورة واضحة سليمة للكتاب والسنة فى سلوكه قولا وعملا وحركة وسكوناً وذلك لا يتأتى إلاّ باتباع رسول الله ﷺ الذى هو الطريق الوحيد الموصل إلى الله تعالى ، قال تعالى (وإن تطيعوه تهتدوا) وقد صح أن الرسول الله ﷺ قال : « إذا حان وقت الصلاة . . فليؤذن أحدكم ويؤمّكم أفضلكم » .

نعم تجوز وتصح إمامة المفضول مع وجود الفاضل ، لكن ذلك غير المشروع وغير المطلوب وغير الثابت عن رسول الله ﷺ .

وعلى هذا فصلاة الإمام شارب (التنباك) تصح ، وليست بباطلة ، ولكن إذا وجد فى

لمصلين من لا يشربه وكان مستقيماً عنه وأعلم منه فهو أولى بالإمامة منه .

وذلك لمايراه الكثيرون من أن شرب (التنباك) إسراف وتبذير ، حتى ولو كان الشارب غنيًّا موسراً ، ولأن فقراء المسلمين أولى وأحق بهذا المال الذى يضيع فى شرب (التنباك) فضلا عن الضرر الصحى الذى تكلم عنه الأطباء ، والإمام قدوة حسنة حتى فى الاقتصاد والمعيشة والمحافظة على الصحة .

فى ثواب الذهاب إلى المساجد

إن كل خطوة إلى المسجد لها ثوابها .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« صلاة الرجل فى الجماعة تضعَّف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسًا وعشرين درجة ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى الصلاة لايخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خُطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مصلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولايزال فى صلاة ماانتظر الصلاة » .

وفى رواية « اللهم اغفر له ، اللهم تب عليه ، مالم يؤذ فيه ، مالم يحدث فيه » أخرجه البخارى ومسلم ، وأبوداود ، والترمذى ، وابن ماجه ، ومالك فى الموطأ ، ولفظه :

« من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج عامدا إلى الصلاة ، فإنه فى صلاة ماكان يعمِد إلى الصلاة ، وإنه يكتب له بإحدى خطوتيه حسنة ، ويُمحى عنه بالأخرى سيئة ، إن أعظمَكم أجرا أبعدكم دارًا ، قالوا : لِمَ ياأبا هريرة ؟ قال : من أجل كثرة الخُطا » والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة .

ولقد كان يحدث أحيانًا أن يحاول بعض الصحابة أن يقيم له مسكنًا بالقرب من المسجد ، ثم يعلم بثواب الذين يكثرون الخُطا إلى المسجد فيلتزم مكانه .

ومن ذلك ماروى عن ابن عباس رضى الله عنه من أن بعض الأنصار – وكانت منازلهم بعيدةً عن المسجد – أرادوا أن يتقربوا ، فنزلت (ونكتب ماقدموا وآثارهم) .

فى النهى عن دخول المساجد برائحة كريهة

لقد نهى رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد من أكل الكرات أو البصل أو الثوم وكانت رائحة لاتزال بفمه ، وذلك من أجل ألاّ يتأذى المصلون بالرائحة .

ومن آداب المساجد أن يتزين الإنسان لها لقوله تعالى (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) .

ومن آدابها أن يتعطر الإنسان إذا استطاع .

وإن مما تحدث به رسول الله ﷺ : أن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم من الخبائث .

وآداب المساجد على وجه العموم أن لايحدث فيها مايخل بجلالها وقدسيتها ، ولا يجوز كذلك أن يدخن الإنسان فيها (السجائر أو التنباك) أو ماشاكلها فإن رائحتها يتأذى منها كثير من الناس فضلا عن أن فعل ذلك لايناسب ماينبغى للمسجد من حرمة وإجلال والله سبحانه وتعالى يذكر فيقول :

(فى بيوت أذن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه ، يُسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله) .

فى بناء المساجد

إن المؤمن فَطِنٌ حكيم يضع الأمور فى نصابها ، ويكيف الظروف والمقتضيات تكييفًا يتفق والحاجة والضرورة ، فمثلا البقعة التى لا مساجد فيها ، ولا مآذن ينادى للصلاة من فوقها ومن أجل ذلك لاوعظ فيها ولاإرشاد ولاتعليم لأمور الدين يكون من أقرب المقربات إلى الله بناء مسجد بها .

والبقعة التى تكثر فيها المساجد ويكثر فيها الفقراء يكون مما يثاب عليه الإنسان ثوابًا جزيلا أن يتصدق بما يستطيع عليهم .

وإذا كانت قرية فى مكان بعيد عن المطابع والمكاتب ومن أجل ذلك تقل فيها المصاحف فإنه يكون من الخير أن يتصدق الإنسان بنسخ من القرآن الكريم .

من ذلك ترى أن الحالة الاجتماعية توجه عمل الخير .

على أن الثواب يتفاوت بتفاوت قدر الإخلاص وصفاء النية يقول الله تعالى : (ألا لله الدين الخالص) وكل عمل من أعمال الخير تشوبه أية شائبة من الرياء فإن ذلك يبطله ، وقد تحدث الله سبحانه عن هؤلاء الذين يتقبل أعمالهم قبولا حسنًا ، ويصفهم بأنهم الذين يعملون الخير ابتغاء وجه الله ، يقول تعالى : (ومالأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) ويقول سبحانه (وماتنفقون إلاّ ابتغاء وجه الله) . فعلى قدر الإخلاص وعلى قدر الحاجة ، وعلى قدر المتصدق به يكون الثواب .

فى نظافة المساجد

إن من شرط صحة الصلاة طهارة المكان ، فإذا كان المكان قد تنجس بروث الخيل والحمير فإنه لايكون مسجدًا ولاتصح فيه الصلاة .

والمسجد فى الإسلام مكان طاهر ، إنه طاهر من الناحية المادية ، وينبغى أن يكون طاهرًا من الناحية الروحية .

أما طهارته من الناحية المادية فذلك واجب وجوبًا حتميًّا من أجل صحة الصلاة ، والمسلمون فى جميع أوقاتهم يحافظون على هذه الطهارة ويشمئزون ممن يكون سببًا فى تلويث المسجد .

ولقد كان رسول الله ﷺ يحاول دائمًا أن تكون الرائحة فى المسجد عطرة جميلة ، وكان يحث بسلوكه على اتخاذ العطر عند الذهاب إلى المسجد ، لأنه هو كان يمس الطيب عند ذهابه إلى المسجد اتباعًا لقول الله تعالى : (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) ومن الزينة اللباس الحسن والرائحة الحسنة . ولقد حث الإسلام على الطهارة والنظافة ، وأوجب ذلك إيجابًا فى كثير من الحالات ، وطهارة الثوب والجسم والمكان من شروط الصلاة ، والوضوء وهو نظافة وطهارة من شروطها أيضًا ، والاغتسال من الجنابة واجب شرعًا وهو طهارة ونظافة .

ولقد وصل الأمر برسول الله ﷺ أن نصح من أكل الثوم والبصل أن لا يقرب المسجد ، لأن المصلين يتأذون برائحتها .

ولقد ذهب أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه يومًا مع صديق له لزيارة رجل قد شهر نفسه بالولاية ، وكان رجلا مقصوداً مشهورا بالزهد ، قال : فمضينا إليه فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأمونًا على مايدعيه ؟ والذى نريد أن ننتهى إليه هو أن المكان الذى فرش بروث الخيل والحمير لايسمى مسجدًا ولاتجوز الصلاة فيه ، وبيوت الله أطهر وأزكى وأجلّ من أن تفرش بمثل هذه القاذورات .

وطهارة المساجد لاتقتصر على الناحية المادية فحسب وإنما يجب أن تكون المساجد طاهرة من الناحية الروحية أيضًا فلا يدور بين المصلين حديث فى غيبة أو نميمة أو غير ذلك من آثام اللسان أو من آثام الجوارح .

إن المساجد لله ، وهى بيوت الله ، وماكان لله يجب أن يكون مقدسًا مادة وروحًا .

فى تعمير المساجد

المساجد ينبغى أن تكون خالصة لعبادة الله القائمة على أساس من توحيده وإخلاص العمل له ، فلا ينبغى أن تشغل بغير الذكر والعبادة وتدريس العلم ونحو ذلك : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا) ومعنى الآية الكريمة أن كل مكان يسجد فيه لله ينبغى أن يكون مكانًا لهذه العبادة ، وكل سجود ينبغى أن يكون قائمًا على أساس التوحيد ليكون سجودًا حقيقيًّا جائزًا للقبول عند الله .

وقد حدد الله للمساجد أهلها ، وبين ماينبغى أن تكون عليه صفاتهم ومظاهرهم فقال : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلاّ الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) . والمراد بعمارة المساجد كما يقول الألوسى : مايعم إصلاح بنائها وتنظيفها وتزيينها بالفرش التى لاتشغل قلب المصلى عن الحضور وتحقيق الراحة والاستغراق فى العبادة ، وتنويرها بالسرج وإدامة العبادة والذكر ، ودراسة العلوم الشرعية فيها ونحو ذلك . ، وصيانتها من حديث الدنيا والغناء .

فى إمامة الابن لوالده

الأحق بالإمامة هو الأعلم بأحكام الصلاة ، والأقرأ لكتاب الله ، فإذا كان الابن عالمًا وأبوه ليس بعالم فهو أحق بالإمامة من أبيه ، وذلك لأن الإمامة أمر يتصل بالدين ، والمقدم فيها هو الأعلم بالدين ، وليس على الأب من غضاضة أن يأتم بابنه روى مسلم والإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسُّنّة ، فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سنًّا) .

وروى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم وأحقهم بالإمامة أقرؤهم » .

فى حكم إمام المسجد الذى يتقاضى أجرًا عن عمله

إن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه حينما تولى الخلافة أصبح ذاهبًا إلى السوق ليتجر كعادته وليكسب عيشه بيده فمنعه أصحاب رسول الله ﷺ من الذهاب إلى السوق للتجارة ، وفرضوا له من بيت المال ما يكفيه ويكفى مَن يعول من أفراد أسرته مئونة العيش ، وعَمَلُ سيدنا أبى بكر رضى الله عنه فى الخلافة عمل دينى ، فإنه يصرّف أمر الدين وأمور الدنيا ، وهو فى تصريفه أمور الدين إمام المسلمين ، يصلى بهم ، ويخطب فيهم يوم الجمعة ، ويفتيهم فى أمور دينهم .

وهذا هو الأصل والأساس فى إباحة أخذ الإمام أجرًا عن وظيفته وذلك أنه متفرغ لها ، ويتأسى بسيدنا أبى بكر رضى الله عنه فى أخذ مافرضه له الصحابة رضوان الله عليهم ، ويجوز أن يتبرع إمام بالإمامة دون أن يأخذ على ذلك أجرًا ، وهذا ليس حجة على غيره .

والأفضل أنه إذاكان الإمام ميسورًا قد وسع الله عليه فى الرزق وبسط له فى النعمة أن لايأخذ أجرًا على إمامته .

أما إذاكان لامال له وكان محتاجًا إلى الأجر لعيشه وعيش أسرته التى يعولها فله أن يأخذ الأجر ولابأس بذلك .

فى سدل الإمام يديه

مادام الإمام يصلى الصلاة مستوفية لأركانها وشروطها فإن صلاته صحيحة والصلاة خلفه جائزة ولو سدل يديه ولم يقبضها ، لأن قبض اليدين ليس من أركان الصلاة ولامن شروطها ، بل هو مندوب فقط ، فمن فعله فحسن ، ومن تركه لااعتراض عليه .

كما أنه لايجوز للإمام أن ينتقد الذين يقبضون أيديهم فى الصلاة ، لأن هذا الفعل مندوب إليه ، وقدورد فيه الأحاديث عن الرسول ﷺ منها قوله ﷺ : « إنّا معشر الأنبياء أمرنا بتعجيل فطرنا وتأخير سحورنا ، ووضع أيماننا على شمائلنا فى الصلاة » .

وقال ابن عبد البر : إنه قول جمهور الصحابة والتابعين ، وذكره مالك فى الموطأ وقال : لم يزل مالك يقبض حتى لقى الله عز وجل .

فى صلاة الجمعة فى مسجد يعتقد المؤمن أن إمامه مشرك

قال الله سبحانه وتعالى (يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، إن الله عليم حكيم) .

وعلى هذا لايجوز للمسلم أن يصلى الجمعة معتقدًا أن إمامه مشرك ، لأن النية شرط فى الصلاة ، والله سبحانه وتعالى يقبل كل تائب إلاّ المشرك ، ويغفر كل الذنوب ماعدا الشِّرك حيث يقول فى سورة النساء .

(إن الله لايغفر أن يُشرَك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومَن يُشرِك بالله فقد افترى إثمًا عظيمًا) .

وعلى هذا الأساس لايجوز للمسلم أن يصلى الجمعة فى مسجد يعتقد أن إمامه مشرك .

فى إذا أمر إنسان بترك الصلاة

من المبادئ المقررة فى الدين الإسلامى ، أنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والصلاة من أهم أركان الإسلام ، ينفى سيدنا عمر الإسلام عمّن تركها فيقول رضوان الله عليه : « لاحظّ فى الإسلام لمن ترك الصلاة » ويقول الرسول صلوات الله عليه : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » .

فلا يجوز أبدًا أن يترك إنسان الصلاة من أجل مرضاة إنسان آخر أو بسبب تهديده له ، ولن يضيع الله إنسانًا أدى ما أوجبه الله عليه ، يقول الله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

بيد أن المؤمن كيّس فطن لبق يجب عليه أن يعمل بكل وسيلة ذكية للمحافظة على دينه كما يحتال فى ذكاء للمحافظة على دنياه :

فى تهديد الخادم والأجير إذا لم يتركا الصلاة

يقول الله تعالى : (ومامن دابة فى الأرض إلاّ على الله رزقها) ، ويقول سبحانه : (وفى السماء رزقكم وماتوعدون) ويقسم سبحانه على ذلك نظرًا لضعف الإنسان وقلقه فما يتعلق

بالرزق فيقول تعالى : (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ماأنكم تنطقون) .

هذا ومن المبادئ المقررة أنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، من كل ذلك نتبين الإجابة على هذا السؤال فيما يتعلق بالأجير ، وفيما يتعلق بوجوب أداء الصلاة برغم كل الظروف فى أول الوقت ، أو فى منتصفه أو قرب نهايته إذا لم يكن بدمن هذا ، ولتكن النتيجة بعد ذلك ماتكون ، ومن اتجه إلى الله فإن الله لايضيعه .

فى المكره على ترك الصلاة

يقول الله سبحانه وتعالى (وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين) ، ويقول صلوات الله عليه عندما ذكر الصلاة يومًا : « من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورًا ولابرهانًا ولانجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبىّ ابن خلف » .

ومما له مغزى عميق فى الدين الإسلامى أن الصلاة تقام حتى فى حالة الحرب ، وعندما يكون الجيشان وجهًا لوجه ، ومع كل ذلك فإن الإنسان إذا أكره على ترك الصلاة وهدد فى ذلك بالقتل ولم يجد مفرًا من تركها أو القتل فإن الله سبحانه وتعالى أرحم بعبده من أن يوجب عليه فعلها فى هذه الظروف وعليه أن يقضيها فور استطاعته وحسب استطاعته .

فى حكم المرور أمام المصلى فى أثناء الصلاة

روى الإمام البخارى رضى الله عنه عن أبى الجهم عبد الله بن الحارث رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لو يعلم المار بين يدى المصلى ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيرًا له من أن يمر بين يديه . قال الراوى لاأدرى قال أربعين يومًا أو شهرًا أو أربعين سنة .

والمرور بين يدى المصلى مكروه ، ومن أجل ذلك يستحب للمصلى أن يقف فى مكان لايكون طريقًا للمارة ، فإذا لم يكن ذلك فعليه أن يضع حدًا ليمر الناس من بعده أو يخط خطًا .

وعليه أن ينبه المار بالإشارة أو بالتسبيح أو برفع الصوت بالقراءة ، فإذاكان المصلى سيدة فإنها تصفق ولاترفع صوتها بالقراءة . وفى المرور أمام المصلى فى أثناء تسليمه فى ختام الصلاة خلاف الأولى – والأولى فى هذه الحالة انتظار التسليم ، وذلك لايعد أن يكون ثوانى محدودة .

فى إذا صلى المرء كما رأى الناس يصلون

إذا صلى المرء كما رأى الناس يصلون تصح صلاته وتسقط الفريضة ، إن كانت الصلاة فرضية أى اتفقت فيه نية الإمام مع نية المأموم أمّا إذا لم تتفق فليست مسقطة للفريضة وإنما له بها حسنات وعليه إعادة الصلاة .

. أما قول رسول الله ﷺ « صلوا كما رأيتمونى أصلى » فيريد الرسول به أن يبين موضع كيفية الصلاة لهم بأركانها ومستحباتها وسننها ، فقال لهم صلوا كما رأيتمونى أصلى ، وسبب ورود الحديث أنّ المقام مقام تعليم وتعريف وانتقال بهم من النظر إلى العمل ، لأجل أن تستقر الصورة فى أذهانهم ويسيرون عليها ويؤدونها .

فى من يقتضى عمله أن يكون مشغولا وقت صلاة الجمعة ويصليها ظهرًا .

الفرض يوم الجمعة هو صلاة الجمعة فى وقت الظهر على من استكمل شرائطها ، وهو أن يكون مقيمًا خاليًا من الأمراض وهو بالغ عاقل ، فمن استكمل هذه الشرائط وجب عليه صلاة الجمعة لايعفيه منها أى شغل ، ويجب على المسئولين عن العمل أن يهيئوا الفرصة لصلاة الجمعة ، لأنها ساعة كل أسبوع وتركها معصية . .

فى الأمور التى تمنع المصلى من ثواب صلاة الجمعة

الأمور التى تمنع المصلى من ثواب يوم الجمعة :

١ – تخطى الرقاب .

٢ – الاشتغال بذكر الدنيا .

٣ – الحديث وقت الخطبة بأى حديث كان سواء كان الحديث حديثًا دينيًّا أو حديثا دنيويًّا ، فقد ورد فى السنة « من تخطى رقاب المصلين يوم الجمعة يجر قصبة فى النار يوم القيامة » وورد فى السنة « أن من قال لصاحبه يوم الجمعة أنصت فقد لغا ، ومن لغا فلا جمعة له » وورد فى السنة « إذا قام الإمام فلا صلاة ولا كلام » .

فى أيهما أفضل : المصلى مع ارتكاب الكبائر أم غير المصلى مع عدم فعل الكبائر

لافضل فى هذا ولافى ذاك – كلاهما مقصر ومخالف للدين ، وإن كان بعضهم أخف من بعض ، فالذى يصلى ويرتكب بعض الكبائر كالزنى يدل بفعله هذا على نقص فى صلاته من ناحية الإخلاص والخشوع والاستغراق فيها ، لأن صلاته لولا هذا النقص الخطير فيها كفيلة بمنعه من ارتكاب أى كبيرة .

قال تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ، أى الصلاة الحقيقية الصادقة ، وعليه أن ينظر فى صلاته ويعلم أنه ليس له إلاّ ما عقل منها وأنها بدون هذا التعقل وهذا التأثير النافع فى كبح جماح النفس عن الشهوات صورة ظاهرة لا قيمة لها عند الله ، بل تصعد وعليها قترة وغبرة فتغلق دونها أبواب السماء ويضرب بها وجه صاحبها .

وأما الذين لايرتكبون الكبائر ولايصلون ، فقد هدموا بتركهم الصلاة ركنًا من أركان الدين لقوله ﷺ . (بنى الإسلام على خمس) وعد منها إقامة الصلاة .

وقد قاتل أبو بكر رضى الله عنه مَنْ ترك الزكاة قياسًا على قتال من ترك الصلاة ، فقد كان الصحابة مجمعين على قتال تارك الصلاة وقتله . وقال ﷺ : « من ترك الصلاة متعمدًا فقد كفر جهارًا ، وقال : « من ترك صلاة العصر حبط عمله) ، ويكفى فى إنذار تارك الصلاة وذمه قول الله تعالى : (فخلف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا . إلاّ مَنْ تاب) وبعد فكلا الفريقين كما قلنا عاص وبعيد عن الله ؛ الذين يصلون صلاتهم – صلاة لاروح فيها ولاأثر ، والذين يمتنعون عن الكبائر لايفعلون الصالحات ويخالفون أمر الله تعالى بترك الصلاة ، والمؤمن من تمسك بفعل الطاعة وترك المعصية .

فى إغلاق المساجد وتعطيلها

المساجد بيوت الله فى الأرض تقام فيها الصلوات ، وتؤدى فيها شعائر الدين ، ولايصح إغلاقها ولاتعطيل الشعائر فيها بأى عذر من الأعذار ، وإلاّ دخل مَنْ فعل ذلك تحت قوله تعالى : (ومن أظلم ممن منعَ مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها) ورحيل إمام المسجد عن القرية ليس عذرًا يجيز منع الصلاة فى المسجد أو إغلاقه بل يلزم فتحه للمسلمين يصلّون فيه ، وليست الصلاة

خاصة بالإمام الرسمى بل لكل مسلم يعلم أحكام الصلاة أن يؤم الناس فى الصلاة.
فليبادر أهل القرية بفتح المسجد وأداء العبادة فيه وعدم تعطيل شعائر الإسلام.

فى تسبب إنسان فى إفساد صلاة الجماعة

إذا تسبب إنسان فى إفساد صلاة آخر فإنه يحرم عليه ذلك ، إلاَّ إذا كان مضطرًا إلى هذا الفعل وليس له مخلص منه.

وإذا كانت الصلاة فى الطريق العام تقطع الطريق على السيارات أو تشغل المصلين بحركة المرور أو تفصل بين المصلين وبين الإمام — فإنها تكون مكروهة.

والسائل الذى قطع الصلاة على المصلين إذا كان يمكنه أن يتفادى ذلك دون قطع صلاتهم أو إفسادها فإنه يحرم عليه هذا الفعل.

إن الصلاة عبادة أوجبها الله سبحانه وتعالى : إنها ركن من أركان الإسلام ، وهى الركن الثانى ، وهى عماد الدين : من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، وهى من أول مايُحَاسب عليه العبد ، ومن أجل كل ذلك يجب أن يساعد المصلين ويعينهم كُلُّ مسلم على إتمام صلاتهم فى هدوء وفى سكون وطمأنينة ، فإذا قطع عليهم قاطع صلاتهم فإنه يكون آثمًا.

ولكن من جانب آخر على المصلين أن لا يصلُّوا فى مكان يمنع الناس من أداء مصالحهم إذا أمكنهم أن يصلُّوا فى مكان آخر.

فى من يصلى صلاة على فترات متقطعة

الصلاة ركن من أركان الإسلام لقوله عليه الصلاة والسلام : « بُنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلاَّ الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ».

وهى عماد الدين وركنه الركين ، وهى الفارقة بين المؤمن والكافر وهى فرض على المسلم منذ أن يصل إلى مرحلة البلوغ حتى وفاته ، يلزمه أن يؤديها ويحافظ عليها امتثالا لأمر الله : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين).

ومن قصر فى أدائها يعاقب على تركها ، وإذا أدى بعض الفرائض دون البعض سقط عنه الفرض الذى أداه وبقى الآخر فى ذمته لاتبرأ عنه إلاَّ بالأداء. وإن لم يستطع حصر مافاته من

الصلوات اجتهد وقضى على غالب ظنه ، وينوى عند القضاء آخر فرض عليه سواء كان ظهرًا أو عصرًا وهكذا ، وبعد الصلاة تكون الباقية آخر صلاة عليه .

ولسهولة الأداء يلزمه أن يصلى مع كل فرض من الصلوات الخمس فرضين أو أكثر قضاء حتى تبرأ ذمته والله الموفق والمعين . .

فى تهاون الحاج فى أداء الصلاة

الصلاة ركن من أركان الدين ، وهى عماده وعليها بناؤه ، قال تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا) .

وقال عليه السلام « الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين » وقال : « بين المرء وبين الكفر ترك الصلاة » .

فمن أهمل فى أداء الصلاة أو تكاسل أو تهاون فى أدائها صدق عليه قول الله تعالى : (فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون) وكان مستحقا لهذا الوعيد ، ولايشفع له حجه فى التهاون فى أداء الصلاة أو التكاسل عنها ، بل يزيد من مسئوليته ووجوب محافظته على أدائها فى أوقاتها ، لأن من حج فقد كمل دينه ، فيلزمه أن يحافظ على كماله ، ولايتهاون فى شىء من فرائضه وأركانه حتى يتقبل الله حجه ، لأن من علامات الحج المبرور أن يرجع أحسن حالا مما كان عليه ، ولأن الحاج بتهاونه فى أداء الصلاة يكون قدوة سيئة لمن يريدون الحج ، ويتسبب فى سب الناس لهم والتشنيع عليهم .

لذا يجب على الحاج أن يبتعد عن كل مايغضب الله ماستطاع إلى ذلك سبيلا .

فى موقف المسلم من تارك الصلاة

إن موقف المسلم من تارك الصلاة هو موقف الإنكار ، وذلك أن ترك الصلاة منكر يبغضه الله ورسوله .

وإنكار المنكر يكون تارة باليد ، وتارة باللسان ، وتارة بالقلب ، لأن رسول الله ﷺ يقول : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

وموقف المسلم إذن من تارك الصلاة – هو فى أقل الدرجات – إنكار بالقلب ، والإنكار

بالقلب اعتزال وتجنب ، فلا يجوز إذن شراء شيء منه طعامًا كان أو غير طعام ، وهذا هو مايترتب على الإنكار القلبي .

أما أن يرى المسلم تارك الصلاة فيصاحبه ويجالسه ويشترى منه ويفيده مكسبًا بالشراء فإن كل ذلك يخالف الوضع الإسلامى ويشبه عمل بنى إسرائيل . وإذن فالموقف السليم إسداء النصيحة ، فإن لم يستجب واستمر على ترك الصلاة فأضعف الإيمان مقاطعة كاملة .

فى الصلاة فى المساجد التى بناها المستشرقون بأموالهم

إن بناء المساجد أمر قد رسم الله سبحانه وتعالى شروطه من حيث الهدف الذى بُنى المسجد من أجله ، ومن حيث الباعث الذى جعل البانى يبنيه – بين الله ذلك بمناسبة مسجد الضرار الذى بناه أبو عامر بالمدينة منافسًا به مسجد رسول الله ﷺ – يقول سبحانه فى سورة التوبة : (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا . .) إلخ الآيات . .

فإذا كان المسجد الذى بناه المستشرق أُريد به التفرقة بين جماعة المسلمين أو أُرِيد به غرض سيىء أيما كان هذا الغرض فإنه يجب على المسلمين ألاّ يدخلوه ، وذلك توحيدًا لكلمتهم ، وتلافيًا للضرر الذى ينبئ عن الغرض السيئ الذى من أجله بنىَ المستشرق المسجد .

أما إذا لم يكن فى الأمر أى غرض سيئ ولم يحدث تفريق فى كلمة المسلمين ولاخوف فيما بينهم فإنه لابأس بالصلاة فى المسجد .

فى المسجد

إن الجلوس فى المسجد لسماع الخطبة عبادة ، فإذا طالت الخطبة فقد كثر الثواب ، والمؤمنون الأوفياء لعقد الإيمان قلوبهم معلقة بالمساجد فإذا أتيحت لهم الفرصة لإطالة الإقامة فإنهم يستبشرون بذلك ويعدونه من فضل الله ، أما هذا الذى يضيق بطول الخطبة فقد شغلته الدنيا وألهاه التكاثر ، فإذا ضاق بالخطبة خرج على الأوضاع الإسلامية وصلى الظهر منفردًا فهو آثم مذنب فإن الظهر لايغنى عن الجمعة فى مثل هذا الحال ، وبعض هؤلاء الذين يضيقون بطول الخطبة يقضون الساعات فى الملاهى والمقاهى ، أو فى الأحاديث التى ليست دائمًا بريئة ، ومع ذلك فإن السنة تقصير الخطبة وإطالة الصلاة ، وقد كانت خطبته صلوات الله عليه وسلامه من القصر والتركيز بحيث لاتستغرق أكثر من عشر دقائق فى أغلب الأحايين ، فعلى خطباء المساجد

مراعاة ذلك ، فإذا أطال أحدهم إلى حد يتجاوز الوضع السليم فإنه ينبه فى رفق حتى يعود إلى السنة الشريفة وهو على كل حال مأجور بقدر إخلاصه وصفاء نيته فيما يتعلق بإطالة الخطبة .

فى المرأة والمسجد

يقول صلوات الله عليه – فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده والإمام مسلم فى صحيحه : « لاتمنعوا إماء الله مساجد الله » ويقول الإمام النووى فى ذلك ، بشرط أن لاتكون متعطرة أو متزينة أو يخشى منها الفتنة ، وفيصل الأمر إذن فى هذا الموضوع أن ذهاب النساء إلى المساجد محتشمات لايمنع منه مانع ، بل هو فى هذا العصر مطلوب ، ينبغى أن نشجع عليه النساء ، لعل الله يهديهن بسماع كلمة موعظة أو بالتعرض لنفحات الله فى مساجده .

ولقد فتحت أبواب السينما والمسارح على مصاريعها أمام النساء ، فمن الحكمة والأمر كذلك أن نفتح أمامهن أبواب المساجد ، أما ماروته السيدة عائشة – رضى الله عنها – من أنه لو رأى رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ما أحدثته النساء فى زينتهن لمنعهن المساجد ، فإن مرادها أنه على النساء أن يذهبن إلى المساجد محتشمات ، وحاشاها – رضى الله عنها – أن تقصد منع شىء أباحه الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، فإذا ماكان الاحتشام ، وانتفت أسباب الفتنة ، فلا يأتى ذهاب النساء إلى المساجد إلاَّ بخير : بخير لهن وبخير للمجتمع ، بخير فى الدنيا وبخير فى الآخرة .

فى الميت الذى لم يُصَلَّ عليه

الصلاة على الميت يلزم أداؤها قبل الدفن ، فإذا دُفن الميت من غير أن يُصلى عليه أخرج من القبر – إن كان لم يُهل عليه التراب – يُصلى عليه ثم يُعاد دفنه ، وإن كان قد أهيل عليه التراب حرم نبش قبره وإخراجه منه ، ويصلى عليه وهو فى القبر ، وقد ورد أن النبى ﷺ صلى على شهداء أُحد بعد ثمانى سنين ، ومن السنن الجميلة مانفعله نحن الآن من الصلاة على الغائب ، والسؤال الذى معنا لايجوز فيه إخراج رفات الميت بحال من الأحوال بعد هذه المدة الطويلة ، لأن فيه انتهاكًا لحرمة الميت ، ونبشًا للقبر ، وهو حرام ، والإسلام يحترم الميت كما يحترم الحى .

ومما لاشك فيه أن فتح القبر بعد هذه المدة الطويلة وإخراج مابقى من الميت من عظام ورفات إنما هو إساءة لما تعارف عليه الناس من حرمة واجبة للميت ، ثم إن الصلاة تصل إلى الميت ، سواء كان قريبًا أم بعيدًا وسواء كان فى القبر أو خارجه . ومن أجل كل هذا يُحرّم فتح القبر وإخراج الميت منه .

فى الأمور التى تمنع الإنسان من ثواب صلاة الجمعة

روى الإمام البخارى بسنده عن سلمان الفارسى قال : قال رسول الله ﷺ « لايغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر مااستطاع من طهر ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلى ماكتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلاّ غفر له مابينه وبين الجمعة الأخرى » .

ومن هذا الحديث نلمح الأمور التى تمنع الإنسان من ثواب صلاة الجمعة وأول هذه الأمور التفريق بين اثنين أو تخطى الرقاب .

وفى حديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص « فمن تخطى أو لغا كانت له ظهرًا » وقد استثنى العلماء من تخطى الرقاب ، التخطى لسد فرجة فى صف تقدم وأن يقيم إنسان إنسانًا من مكانه ليجلس فيه ، فعن ابن عمر رضى الله عنه قال : « نهى النبى ﷺ أن يقيم الرجل أخاه من مقعد ويجلس فيه ، لأنه إن كان فعله هذا من جهة الكبر كان قبيحًا ، وإن كان من جهة الأثرة وحب الذات كان أقبح » .

أما ثانى هذه الأمور فهو عدم الإنصات حال خطبة الإمام ، أو التلاعب عن هذا الاستماع ؛ فقد روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غُفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام ، ومن مسّ الحصا فقد لغا » .

ومن الأمور التى تنقص من ثواب الجمعة ترك الغسل لها وعدم الاستعداد لها ، وقص الأظفار وتحسين الهيئة ، وتطييب الرائحة بالطيب ، والمبادرة بالخروج إليها قبل الخطبة بوقت كاف .

بقى أن نقول ماهو ثواب الجمعة ؟ إنّ مابينته الأحاديث الصحيحة : غفران الذنوب الصغائر وزيادة ذنوب ثلاثة أيام من الأيام التى بعدها ، فإن لم تكن صغائر زادت الحسنات وكثر الثواب .

فى ترك الزوجة للصلاة

أجمع العلماء على أن من أنكر فريضة الصلاة أو استخف بها كافر ، لإنكاره أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة وعليه يحمل قول الرسول ﷺ : « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » رواه مسلم وقوله : « إن العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » رواه أحمد

وغيره : وأما من تركها كسلا مع اعتقاد فرضيتها فإنه مسلم عاص ، ومصيره أن يعذب عذابًا أليمًا في جهنم .

يقول الله تعالى : (فخلفَ مِن بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يَلْقَوْنَ غيًّا) .

وعلى كل فتاركها عمدًا أو كسلا مفرط مستحق للعقاب والتأديب ، وقد قال تعالى : (وَأْمُرْ أهلك بالصلاة واصطبر عليها) .

والخطاب فيها شامل لكل مسلم رعاية للقرابة وسعيًا إلى تكميل الخير بعد تكميل النفس الأقرب فالأقرب . وكان ﷺ يوقظ أهله للصلاة ، وكان عمر يفعل ذلك ويتمثل بهذه الآية .

وبعد ؛ فإن كانت الزوجة جاحدة لفريضة الصلاة بعد إخبارها بأهميتها وبما يترتب عليها من الكفر فهى كافرة يفسخ نكاحها ولاتحل معاشرتها .

وإن كان تركها الصلاة لكسل ونحو ذلك فعلى الزوج دعوتها إلى الصلاة برفق ولين ومصابرة حتى تتعود عليها ، فإن أبت اشتد عليها بقدر الوسع ولايلزمه طلاقها ، وعلى الزوجة ومثيلاتها أن يعلمن أن المرأة مسئولة عن عملها وأن مسئولية الزوج عنها مسئولية فرعية . قال تعالى : (مَن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون) أى مَن يعمل صالحًا من ذكر أو أنثى فسيلقى جزاءه .

يقول سبحانه (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى) أى معيشة ضنكًا فى هذه الحياة أما فى يوم القيامة فإنه سبحانه يحشره متخبطًا ضالا كالأعمى الذى لايهتدى لطريقه.

فى دخول المسجد وقت الجمعة والإمام يخطب

إن الصلاة هى الركن الإسلامى الذى يلى مباشرة فى أركان الإسلام شهادة أن لاإلٰه إلاّ الله وأنّ محمدًا رسول الله ، ولقد حث عليها الإسلام ، وحبب فيها كثيرًا مع فرضيتها التى يصل إنكارها إلى الكفر ، وذلك لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتكفر الذنوب وتغفر الآثام وتنير القلب ، وهى بكل ذلك من أهم العوامل فى إصلاح المجتمع وتدعيم الأمن فيه .

فقد فرضها الإسلام فى أوقات معينة ، وسنها الرسول ﷺ فى مناسبات كثيرة جدًّا ، منها تحية المسجد ، روى البخارى ومسلم عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلى ركعتين » وهذا عام فى كل وقت يدخل فيه الإنسان

المسجد ماعدا الأوقات التى تكره فيها الصلاة .

أما فيما يتعلق بدخول المسجد يوم الجمعة والإمام يخطب فقد روى البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه قال : « دخل رجل يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب فقال له : أصليت ؟ قال : لا . قال فصل ركعتين وقال : إذا دخل أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما » أى يخففها – وروى البخارى ومسلم عن رسول الله ﷺ « إذا جاء أحدكم يوم الجمعة وقد خرج الإمام – أى خرج من غرفته واعتلى المنبر يخطب فليصل ركعتين » .

صلاة النفل التى تنوب عن خمسة فروض

هذه الصلاة صلاة مبتدعة ليس لها أصل من كتاب الله أوسنة رسوله ﷺ .

وأمر الصلاة مشهور وواضح ، وليس من المعقول أن تنوب صلاة نفل عن خمسة فروض أوعن فرض .

فالفرض معلق بذمة صاحبه وعليه قضاؤه ، وإن لم يقبل ذلك فى الدنيا حوسب عليه يوم القيامة .

ونحب أن ننبه إلى أن أى صلاة تخالف فى كيفيتها الصلاة المشروعة من قيام وركوع وسجود وألوان الذكر وصيغه ونحو ذلك – هى صلاة مبتدعة ، وتغيير فى الدين بما لم يتزل به شرع ، وخروج من حدود الاتباع ، وهى مبعدة عن الله تعالى فضلا عن كونها غير مُقَرِّبة إليه . وفيما ورد عن الرسول ﷺ من الصلوات الثابتة الواردة مايغنى ومايفيد . وقد أكمل الله لنا الدين وأتم الشريعة ، وحدد مايقربنا إليه وحذرنا مما سواه .

فى من لايصلى ولاينكر الصلاة

يقول الله تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا) وعن جابر رضى الله عنه فيما رواه الإمام مسلم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنّ بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .

وقد روى الترمذى فى حديث حسن صحيح عن النبى ﷺ قال : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » أى من تركها إنكارًا لها وجحودًا وتكذيبًا فقد كفر إن للصلاة فى الجو الإسلامى منزلة كبيرة فهى عماد الدين ، وهى ركن من أركانه باتفاق الأئمة ، وعلى تاركها أن

يسارع بالتوبة ، وأن يحافظ عليها ، ومادام لاينكر الصلاة باعتبارها ركنًا من أركان الدين ، ومادام يقرُّ بها – فإنه لايكون كافرًا وإنما يكون بتركها عاصيًا .

والعاصى يحاسبه الله على عصيانه ويكافئه خيرًا على مايأتيه من خير ، فالمسلم تحصى عليه حسناته وسيئاته وهو مجزى بالخير خيرًا ، وبالشر شرًّا ، وأن العاصى أو تارك الصلاة الذى يتصدق لوالديه تقبل صدقته ، ويثيبه الله سبحانه وتعالى خيرًا على ذلك ، وعسى الله سبحانه وتعالى أن يشرح صدره للصلاة بسبب مايعمله من خير وهو تصدقه لوالديه فيكون مصيره الصلاح والهداية .

فى مَن قالوا بإسقاط الأعمال – وفيها الصلاة – عنهم

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وبعد فقد قال جلّ ذكره .

(فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا) وإقامة الصلاة هى أداؤها على مايحب الله ورسوله ، ومعنى ذلك أن الإنسان يستغرق فى الصلاة منذ ابتدائها ، فلا يفكر فى شىء خارجها ، إن من يقيم الصلاة لايفكر فى أثنائها فى وظيفة ولامال ولاجاه ولامشاغل دنيوية أيًّا كانت ، وذلك لتكون الصلاة حقًّا صلة بين العبد وربه ، ولن تكون كذلك إلا حينما يكون الإنسان بحيث لاتلعب به – فى صلاته – دنيا ولايلعب به شيطان يصرفه عن صلاته ليفكر فى أمر آخر ، وحينما يؤكد الله سبحانه نَهْى الصلاة عن الفحشاء والمنكر فإنما يعبر الله سبحانه عن الصلاة المقامة .

أما كونها كتابًا موقوتًا فمعناه أنها فرض له وقت معين ، أى مؤقتَ بأوقات محددة لايجوز أن نتجاوزه دون أدائها ، وذلك يعنى أوقاتها الخمسة المحددة فى الشريعة الإسلامية ، وهذا التحديد بالوقت باق ببقاء الإنسان ، لايسقط فى أى سن ، ولايسقط مهما وصل الإنسان من الدرجات الروحية ، بل إن الدرجات الروحية تبعث الإنسان فى صورة أقوى على المحافظة على الصلاة ، ومن أجل ذلك فإن كل من يزعم أنه وصل إلى درجة تسقط فيها الصلاة عنه فإنه مفتر على الحق ، وخائن للأمانة الدينية .

وقديمًا قال رجال : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحرمات من باب البر والتقرب إلى الله عزوجل فقال الجنيد رضى الله عنه : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهى عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا : وبعد فيقول الله تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا) .

فى الرجل يصلى فى دكانه مع قرب المسجد منه

إن الرجل الذى يصلى فى دكانه مع قرب المسجد منه واعتذاره عن ذلك أنه يكون وحده فى الدكان ويصلى جالسًا لتعبه -- إن هذا الرجل صلاته صحيحة ، إلا أنه محروم من ثواب الجماعة ومع أن صلاته صحيحة فإننا نريد أن نضع تحت سمعه وبصره الحديث الصحيح التالى الذى رواه إماما السنة : البخارى ومسلم رضى الله عنهما : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل فى جماعة تضعف علىّ صلاته فى بيته . وفى سوقه (أى فى دكانه) خمسًا وعشرين ضعفًا » وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لايخرج إلا لصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحطت عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مصلاه ، مالم يحدث تقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولايزال فى صلاة ما انتظر الصلاة » .

فى تأخير الصلاة عن موعدها

من أدى فريضة الصلاة فى غير موعدها ولم يكن متعمدًا فى ذلك التأخير ، وكان تأخيرها نتيجة نسيان أو نوم فلا حرج عليه لقول النبى ﷺ : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

وإن كان تأخيرها : نتيجة اشتغال ببعض الأعمال فمؤخرها آثم وعليه أداؤها فورًا إذا تذكر حق الله عليه فى أدائها لقول النبى ﷺ : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » .

وعلى المسلم الذى يريد أن لايتعرض لغضب الله عز وجل ، ويريد الحظوة برضوان الله تبارك تعالى أن يبادر بالصلاة لأول وقتها وفى جماعتها الأولى متى تيسر له ذلك . وفى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفسى بيده قد هممت أن آمر بحطب فيحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها . ثم آمر رجلا فيؤم لها . ثم آمر رجلا فيؤم الناس ، ثم أخالف إلى رجال أحرق عليهم بيوتهم » .

لهذا نرى المبادأة بالصلاة فى وقتها ، كيلا يعرض للإنسان من شواغل الحياة ماقد يحول بينه وبينها ، بل ربما وافاه الأجل المحتوم قبل أدائها ، فيكون ملومًا بترك المبادرة إليها .

فى البصاق فى الصلاة

روى مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ رأى نخامة فى قبلة المسجد فحكها بحصاة ثم نهى أن يبزق الرجل عن يمينه أو أمامه .

وفى رواية أن رسول الله ﷺ رأى نخامة فى قبلة المسجد ، فأقبل على الناس فقال : « مابال أحدكم يقوم مستقبل ربه ، فيتنخع أمامه ، أيحب أحدكم أن يُستقبَل ، فيُتَنخَّع فى وجهه ؟ » .

قال العلماء : أما البصق فى المسجد فلا يجوز لقوله ﷺ : « البزاق فى المسجد خطيئة » .

والمتأمل فيما تقدم من الحديثين يجد أن الرسول ﷺ لم يمنع من البزاق فى الصلاة مطلقًا وإنما منع بعض مظاهرة فى الصلاة وأباح البعض الآخر ، فالبصاق فى الصلاة جائز ولاتبطل به الصلاة إذا كان عن غلبة وعدم اختيار ، أوكان عن اختيار ولم يقصد به صاحبه العبث ، والإنسان يمكنه – وهو فى الصلاة – أن يستخرج منديلا ويبصق فيه ، وذلك إذا لم يجد مناصًا من البصاق .

أما إذا كان يغلبه البصاق دائمًا وهو فى الصلاة فعليه أن يضع المنديل فى مكان قريب منه بحيث يتناوله فى سهولة وهو فى الصلاة .

فى الحكم فى إمام قرأ الفاتحة جهرًا حتى وصل إلى قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) فقال بصوت مرتفع « استعنا بالله »

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد ، فنفيد بأن هذا دعاء لايشبه كلام الناس ، فلا تبطل به الصلاة ، وحكم قراءته أنه إن كان عامدا عالمًا أن الذكر يقطع موالاة القراءة وجب عليه استئناف قراءة الفاتحة ، وإن كان ناسيًا أو جاهلا ، صحت قراءته ، ولايحسب عليه الاستئناف ، هذا بالنسبة للإمام ، وأما المأموم فصلاته صحيحة لعذره والله تعالى أعلم .

فى من فاتته صلاة فى عمره

حاول كثير من المنحرفين أن يدسوا على رسول الله ﷺ كثيرًا من الأحاديث ، ولقد جاهد علماؤنا رضى الله عنهم ، فى تخليص الأحاديث من هذا الباطل ، فوفقهم الله سبحانه فى ذلك إلى

مايرضى الله ورسوله ﷺ ، وليس فى الأحاديث الصحيحة حديث يقول :

إن من فاته صلاة فى عمره ولم يحصها ، فليقم فى آخر جمعة من رمضان ، ويصلى أربع ركعات بتشهد واحد ، بنية الكفارة ، كلا ، وإنما مَنْ فاتته صلاة فإنه يجب عليه أن يتجه إلى الله سبحانه ، فى إخلاص تائبًا توبة نصوحًا ، مستغفرًا فى خضوع وخشوع ، فإذا ماقام بالتوبة على الوجه الصحيح ، فإنه يبدأ بقضاء مافاته من صلاة ، على قدر استطاعته فإن لم يكن يعرف عددها أو أوقاتها فليفعل بحسب غالب ظنه ، ولن يكلف الله نفسا إلاّ وسعها » .

ومما يجب التنبيه عليه أن الإنسان إذا اخترع حديثًا حتى ولو أراد به العظة والاعتبار فإنه يتبوأ مقعده من النار ، يقول ﷺ : « من كذب على متعمدًا ، فليتبوأ مقعده من النار » ويشترك فى الإثم والمعصية مَنْ روّج لحديث مزيف ، فإنه ناشر للباطل ، ومروج للكذب على رسول الله ﷺ ، وإن من يأتى بهذه الصلوات التى ذكرت فى الحديث المزيف فإنه بذلك يشجع غيره على فعلها فيكون آثما بصلاته وعليه مثل إثم من اقتدى به ، والواجب إذن على المؤمن أن ينهى عن ذلك ، ويبين خطأه ويوضح الوضع الصحيح لقضاء الفوائت ، فإنه بذلك ينال ثوابًا ويُؤجَرُ على عمله ويكون فى زمرة هؤلاء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وهم الذين آمنوا بالله إيمانًا سليمًا ، قد صح عن رسول الله ، ﷺ : أنه قال : « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » وفى رواية أخرى بزيادة « لاكفارة لها إلاّ ذلك » وبهذا نعلم يقينًا أنه لاكفّارة للصلاة الفائتة إلاّ قضاؤها .

فى الذين يعملون يوم الجمعة ويقولون نحن نصليها ظهرًا والمدارس التى جدول حصصها يمنع من صلاة الجمعة

يقول الله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا إذا نُودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) .

وهذه الآية الكريمة تبين الوضع الإسلامى عند الأذان للجمعة ، والبيع مَثَلٌ من الأمثلة للأمور التى تشغل الإنسان عند الأذان للجمعة ، وليست المسألة خاصة بالبيع فحسب وإنما هى لكل مايشغل الإنسان ، والآية صريحة فى أمرها وفى إيجابها .

وصلاة الجمعة فى الوضع الصحيح لاتأخذ أكثر من نصف ساعة خطبة وصلاة ، فإذا ما انتهت عاد الإنسان إلى عمله ، وفى ذلك يقول الله تعالى : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى

الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون) .

ولقد كان بعض الناس ممن لم يتغلغل الإيمان فى أعماق قلوبهم يتركون جزءًا من صلاة الجمعة منصرفين إلى غيرها فأنبهم الله على ذلك قائلا : (وإذا رأوا تجارة أولهوًا انفضوا إليها وتركوك قائمًا ، قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) . وليس لصلاة الجمعة من بديل إذا كان فى الاستطاعة أداؤها .

أما المدارس التى تعمل يوم الجمعة ويمنع جدول حصصها من صلاة الجمعة فإننا نشكو إلى السيد وزير التربية والتعليم لمنع هذا المحرم فى دور التعليم ، لأن التربية الإسلامية فى المدارس أساس لمنع كثير من الفتن التى تحيط بشبابنا فى عالمنا المعاصر ، وماانحرف كثير من شبابنا إلاّ لعدم وجود التطبيق السليم للنواحى الإسلامية فى دور التعليم .

فى إقامة حفلات المسرح لأجل بناء المساجد

يقول الله تعالى : (لَمسجد أُسِّس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهِّرين) ويقول الله تعالى : (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) . إنه سبحانه يحب المتطهرين فى نياتهم ، ويحب المتطهرين فى أعمالهم ويحب المتطهرين فى أموالهم . . ومن أول شروط بناء المساجد أن يكون المال طاهرًا مبذولا من متطهر نية وعملا وأموالا : . ومامن شك فى أن بناء المساجد من أفضل القربات إلى الله وأن الإقامة بها من أفضل القربات إلى الله ، وأن الآية القرآنية الكريمة : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلاّ الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

تشمل البانين لها والمقيمين فيها ؛ بيد أن ذلك كله لابد أن يكون أساسه الحلال ، والله سبحانه وتعالى لايقبل إلاّ طيبًا ومن المعروف أن الحفلات التمثيلية مهما حاول القائمون بها من تطهيرها ، إنما هى حفلات لاتخلو من المجون والعبث ، أو من التبرج والسفور المستهتر ، ولايجوز والأمر كذلك أن يؤخذ من مالها لبناء المساجد ، أو أن تقام من أجل بناء المساجد .

وإذا كان هناك جهة تخلو من المساجد فهل الضرورة والحاجة إلى بناء المساجد تبيح مثل هذا التصرف ؟

إن أمر المساجد فى الإسلام هين سهل ، فقد جعلت الأرض كلها لرسول الله ﷺ ولأمته مسجدًا وطهورًا وحينما يدرك الإنسان وقت الصلاة يصلى فى أى مكان طاهر ومسجد الرسول ﷺ

كان فى غاية البساطة ، ويستطيع الكثيرون أن يبنوا مثله دون حاجة إلى أن يكون سبيل الطاعة – وهو بناء المساجد – المعصية وأقصد الحفلات التمثيلية وسيصبح قوم فى ثورة معارضة متحدثين عن طهر الفن وبراءته ولكن هؤلاء بالتأكيد لايصدقون أنفسهم ، ولايصدقهم الواقع ، ولايصدقهم الآخرون ، والنتيجة هى أن الله طيب لايقبل إلاّ طيبا .

ثبت الفتاوى

الجزء الأول

وسُئل رضى الله عنه فى العقيدة

صفحة

صفحة

وسُئل رضى الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم

صفحة

وسئل رضي الله عنه في تفسير القرآن الكريم

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

وسئل رضى الله عنه فى السُّنَّة النبوية الشريفة

صفحة

وسئل رضي الله عنه في الذكر والدعاء

صفحة

وسئل رضى الله عنه فى الفقه

صفحة

وسئل رضى الله عنه فى الغُسل

وسئل رضى الله عنه فى الوضوء

صفحة

وسئل رضى الله عنه فى الصلاة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

رقم الإيداع	١٩٨٨ / ٧٣٣٦
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-٥٦٠٨-٤

١ / ٨٨ / ١٦٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)